حضارة الفضائل (٢)

من عصر النبوة وحتى يومنا هذا

عثمان نوري طوباش



بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

إسطنبول: ١٤٤١/ ٢٠١٩
اسم الكتاب باللغة التركية: Faziletler Medeniyeti - 2
اسم الكتاب بالعربية: حضارة الفضائل -٢
الترجمة للعربية: أرسين إشجي أوغلو/ فاطمة أرسين إشجي أوغلو
مراجعةو تصحيح وتدقيق: أحمد حمدي، إياد عمار
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٩٠٦٨
طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم
Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

▸ Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

حضارة الفضائل ٢

من عصر النبوة وحتى يومنا هذا

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

أجمل الكلام كلام الله تعالى.

وخير الطرق طريق السنة.

وأوثق العرى التقوى.

وأحسن القصص قصص القرآن الكريم.

وأهدى الطرق طريق الأنبياء.

وخير العلم معرفة الله تعالى.

مالٌ قليل تفي شكرَه خيرٌ من مال كثير لا تستوفي حقه من الشكر.

وأقبح العذر ما كان لحظة الموت.

وأسوأ الندم ما كان يوم القيامة.

وأعظم الأخطاء الكذب.

وإنما الغنى غنى القلب.

وخير الإيمان ما وقر في الصدر.

ومال لا تؤدي حقه يسوّد وجهك يوم القيامة.

وأقبح الربح الربا.

وأشد العمى ما انحرف بك عن طريق الحق بعد أن دخلت فيه.

وأقبح العمى عمى القلب.

والإسراف شرٌّ كله إلّا أن أعظمه جرماً إسراف الإنسان في حق نفسه وغيره في المصادر البشرية.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله حمدًا كثيرًا أن أكرمنا بالانتساب إلى فخر الكائنات محمد ﷺ وجعلنا من أمته.

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء، المرسل رحمة للعالمين، من كان لنا الأسوة الحسنة حتى أقام بأخلاقه حضارة الفضائل التي لا تزال الأمة تنهل من معينها حتى تقوم الساعة.

وبعد فإن الحق تعالى - حين خلق الإنسان في أحسن تقويم وفضله على سائر المخلوقات - أراد منه أن يحافظ على أخلاقه وسلوكه وعباداته وفطرته على أحسن حال وأن يأخذ بأحسن ما أمره الله به، فالله يريد من الإنسان أن يرتقي بسلوكه حتى يكون أهلا للمكانه التي وضعه الله فيها، وأن يعيش حياته على أحسن حال كما خلقه الله ﷻ في أحسن تقويم، ليكون في الآخرة في أحسن مقام وأرفع منزلة.

ولذلك فالإنسان حين يمضي عمره كله حتى النفس الأخير في عالم الفضائل على أحسن تقويم يبرهن بذلك على إنسانيته، فمكانة الإنسان إنما تكون بقدر حفاظه على جوهر فطرته الإنسانية التي وضعها الله فيه، فإن لم يحافظ عليها خسر مكانته في الآخرة بين يدي الله تعالى.

فالياقوت والماس - على سبيل المثال - مع أنها أنواع من الحجارة إلا أننا نحتفظ بها في أكثر المواضع أهمية وأمنا، بينما غيرها من الحجارة العادية ترمى في زوايا الأزقة وتلقى على قوارع الطرقات.

وإذا كان من الحماقة والعبث أن نستخدم المجوهرات الثمينة – على اعتبارها نوعاً من الحجارة – حشوًا لملء حفر الطرقات، فكذلك من الحماقة أيضًا أن يهدر ابن آدم –الذي يعدُّ قرة عين المخلوقات – عمره في حياة غافلة بدل أن يحيا وفق الفضائل الإلهية التي علمه الله إياها، فالإنسان الذي يجهل مكانته وقيمته يفقد عزته وشرفه وكرامته لدى الحق تعالى، ويكون قد أجرم في حقّ نفسه بتضييع جوهرها وتشويه فطرتها.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه مشيرًا إلى ميل ابن آدم إلى الغفلة والانخداع في دنيا الامتحان:

«الارتقاء إلى الفضائل صعبٌ منجي، والانحطاط إلى الرذائل سهل مردي».

وفي هذا الصدد فإن ابن آدم في حاجةٍ دائمة للتربية المعنوية، والتربية لا تُكسِب الإنسان ما ليس في فطرته أصلًا، وإنما تكشف ما غرسه الله تعالى في النفس من ميول التقوى والفجور والخير والشر، فالفضيلة الأعظم هي محاولة كشف وإظهار وتعظيم الميول الإيجابية في الفطرة وإضعاف الميول السلبية.

وهكذا فقد منَّ الحق تعالى على عباده بالفضائل ـ حين جعله في«أحسن تقويم» ـ من خلال الكتب السماوية، للحيلولة دون وقوعهم في المصائد النفسية، وانجرافهم نحو حياة سفلية، ولتمكينهم من إظهار مزاياهم النابعة من فطرتهم، علاوة على إرساله الرسل نماذج حيّة لتربيتنا على تلك الفضائل.

لأنّ مجرد إقرار المبادئ الحسنة غير كافٍ لإظهار حُسْنٍ ما، فمهما بلغت المقاييس والأحكام والمبادئ من الكمال لا بدّ وأن تكونَ صالحة للتطبيق أيضًا، أي لابد أن يتم الانتقال بالإنسان من القول إلى الفعل ومن النظرية إلى التطبيق، وذلك من خلال الأمثلة والنماذج الحية المنبعثة من الحياة، وإلا فإن تلك القوانين الحسنة لا تتضح جيدًا في إدراك الإنسان وبالتالي لا تعدو كونها

نظريات فقط، لذلك كان ابن آدم في حاجة إلى الأسوة على الدوام، إذ يتعسر فهم الحقائق والمحاسن والفضائل دون أمثلة تتخلق بها وتتلبس فيها، فالأمثلة تجلي الخير والشر وتوضحهما أكثر فاكثر، وبالتالي فإن البشر بحاجة إلى شخصياتٍ مثاليّة وكاملة ونموذجية بمقدورها إيصال البشرية إلى السعادة الأبدية من خلال ممارستها الفضائل في حياتها وسلوكها قولًا وعملًا.

وهذه هي حكمة إرسال القرآن الكريم بواسطة الرسول ﷺ، فقدم الله ﷻ لنا في شخصية النبي عليه الصلاة والسلام المثالية قرآنًا حيًا يمكننا أن نعيش بأخلاقه ونطبق أحكامه، حتى لا نحسبها ضربًا من الخيال، عصيّةً على التطبيق خارجةً عن الوسع والطاقة، ولذلك قام أهل الكتب السماوية السابقة بعد وفاة أنبيائهم وغياب القدوة الصالحة بينهم بتحريف العديد من القواعد والفضائل والأوامر والنواهي، يسوقهم إلى ذلك دافع الهوى والمنفعة، متذرعين بأن هذه الأحكام إنما هي أحكام خيالية لا صلة لها بدنيا الواقع.

ولذلك كان لابد من كون المبادئ العظيمة والأوامر والنواهي أحكامًا يمكن تطبيقها من خلال أمثلة ونماذج واقعية، ولهذا فقد أُنزِل القرآن الكريم آخر الكتب السماوية على قلب النبي ﷺ، وأُكرِم بالفضائل الإلهية على أنها دستور حياة وفطرة فطره الله تعالى عليها، كي يصل كل الناس إلى نعمة التمكن من عيش جميع الفضائل باقتدائهم به، ويبلغوا الوصال الإلهي من خلال عيشهم بأحسن تقويم على نحو يتفق مع فطرتهم.

وفي هذا المعنى يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ:

﴿... فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]

---

١ البقرة: ٩٧.

أي إنّ القرآن انعكس بنزوله على قلب النبي ﷺ على كل أحواله، واصطبغت به أقواله وتصرفاته ومشاعره وكل حياته، وبهذا عرض لنا الحق تعالى الحقائق والفضائل الإلهية في شخصيته، وكانت حياته عليه الصلاة والسلام كأنها مفسر حيٌّ للقرآن الكريم.

فالمرء يتخذ مَن يحبه ويُعجَب به قدوةً له، ويتناسب مستوى الحبّ وفق تشبه المحبّ بالحبيب واقتدائه به، ومن ثم فإن المجتمعات إنما تترقى في مدارج الكمال بحسب القادة الذين اتخذتهم قدوة لها، وقد كان جيل الصحابة ـ المتأسين بالرسول ﷺ ـ قد قدّموا «عصر السعادة» هديةً للبشرية من خلال تمثلهم بالشخصية النبوية، فكانت أحوال الصحابة في حياتهم العملية والأسرية والتجارية وعلاقاتهم الإنسانية وخدماتهم الاجتماعية وفي الأخلاق الحسنة والعبادة منبثقة منه عليه الصلاة والسلام ومرآةً له، فبه تشجعوا يوم حنين، ومعه عاشوا حالة التوكل والرضا في أحد...إلخ .

ثم إنّ الأمر الذي نال به الصحابة شرف الصحبة ورفعهم إلى قمّة الأخلاق والفضيلة إنما هو إيمانهم بالنبي ﷺ واتّخاذهم إياه قدوة في المحبة.

تقول الآية الكريمة مخاطبة النبي ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٢]

فليس بعد هذا الوصف الذي وصف به الله تعالى نبيَّه ﷺ وصفٌ أحسن منه أو أرفع، فقد قدّم الحق تعالى في شخص النبي ﷺ المثالية قمة الأخلاق والفضائل العظيمة للإنسانية جمعاء مما يمكن أن يظهر في عالم البشر.

ولذا كان الجميع ـ سواء من صدَّق بالنبي أو لم يصدق ـ معجبين بشخصية النبي ﷺ وأخلاقه السامية، حتى إنه أقر بذلك كبار أذكياء العالم وعقلاء الدنيا

٢ القلم: ٤.

ابتداءً من أبي جهل أشرس المشركين وألدِّهم، حين وصف النبي ﷺ أنه: «ما كذب في حياته قط، وكنا نسميه الأمين»، وصولاً إلى الجاحدين في يومنا هذا.

وقد سجل التاريخ فضيلته ﷺ في الذروة من كل عصر، وإحداها حين قام العالم الأمريكي ميشيل هارت «Michael H. Hart» في عام ١٩٧٩ ببحث حول أكثر مائة شخصية كانت أشد تأثيراً في حياة البشرية عبر العصور، فسجل إمكانيات الناس العظماء ومجاهداتهم وفعالياتهم ونجاحاتهم في برنامج حاسوبي، وبعد دراسة استغرقت أشهراً أعطى الحاسوب ـ في ضوء المعلومات المعطاة ـ الاسم الأعظم في الدنيا، وكان هذا الاسم هو سيدنا محمد ﷺ.

وقد اختارت مجلة لي بوينت الفرنسية بعد انتهاء البحث سيدنا محمد ﷺ «رجل العام» لعام ١٩٧٩، وقد كتبت جرائد تاريخ ٢٩ كانون الأول ـ مبررة إدراجها الخبر على صفحاتها ـ ما يلي:

«مع أن محمداً بن عبد الله عاش ما بين ٥٧١ وبين ٦٣٢ للميلاد فإن تأثيره في الدنيا لا يزال يكبر ككرة الثلج، تكبر يوماً فيوماً لتغدو انهياراً ثلجياً، فلا يزال ملايين الناس يسيرون حتى يومنا هذا في الطريق الذي خطه لهم»[٣]

لأن باب الخلاص والطمأنينة والسعاة والرحمة الوحيد للإنسانية إنما يتحقق بالسير في الطريق التي خطها لهم.

فاتباع أثره وسيلة لنحيا عمرًا مليئًا بالفضائل.

والسير في طريقه يجعل منا قرآنًا يمشي على الأرض.

ولا ننس أن هذه الأمة المجيدة قد مُنحت على مدى التاريخ شرف رفع لواء اتباع النبي عليه الصلاة والسلام، إيمانا بالنبي عليه الصلاة والسلام ومحبة له، وهذه الحقيقة ثابتة بتسمية كل فرد من ملتنا «محمدي»، وما من شك في أنّ هذه

٣ مجلة الظفر، ٩٧، ٣ ـ ٨.

التسمية تجعل كل فرد في المجتمع يسعى ليكون مثالًا مصغرًا عن النبي ﷺ حسب استعداده وطاقته.

وعلى الرغم من حرصنا على صيانة ذلك الاسم الحسن في يومنا هذا، فإن علينا محاسبة أنفسنا – كأمة – فردًا فردًا على مقدار محافظتنا على هذا الإحساس والفكر.

فعلينا أن نحب النبي العظيم ﷺ أكثر من أنفسنا لنتمكن أكثر من نيل ذلك الشرف العظيم والعزة من جديد، كما علينا أن نزن ونقارن كل أحوالنا وجميع سلوكياتنا بأحواله وسلوكياته، ولذا يفترض بنا التعرف عليه جيدًا وخاصة بأفئدتنا لنعي ونعيش ونحس بكل كلماته وأفعاله وأحواله، وأن نجتهد لنحيا في طريقه المنير من خلال الإيمان به والتأثر بروحانيته.

إلا أنه ولتحقيق كل هذا يلزمنا ابتداء أن ندرك جيداً كيف نتبعه ونقتفي أثره، وانطلاقًا من هنا قمنا بإصدار الجزء الثالث «الخدمة» والجزء الرابع «المعاملات» لكتابنا المتواضع «**حضارة الفضائل**»، محاولةً منا للإفادة من قوانين الفضائل التي تكونت منها حياة النبي ﷺ، حيث قمنا باختيار نزر يسير من صور فضائله الشريفه وشمائله الطاهرة لنكوِّن منها صورة شاملة عن حياته ﷺ وفق تصورنا لها، إلا أنه من المؤكد أن صور الفضائل المدرجة في كتابنا ليست أكثر من قطرة في بحر فضائله وشمائله وأخلاقه الشريفة ﷺ، فكل ثناء أو مدح قدمته البشرية لا يبلغ أفق الفضائل التي تحلى بها ﷺ، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«إذا حدثتم عن ﷺ حديثًا فظنّوا به الذي أهيأه وأهداه وأتقاه»[٤]

وقد بذلنا كل ما في وسعنا ـ ضمن هذه الرؤية ـ لنعرف كيف أثّر النبي ﷺ في البشرية ونهض بها ووضع لها منهجا يأخذ بها – إن هي تمسكت به وسارت عليه – إلى جنة الدنيا قبل جنة الآخرة .

٤ أحمد، مسند، ١، ١٢٢.

وقمنا كذلك بنقل نماذج وصور مليئة بالعبر من حياة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الكرام –الذين نشؤوا في ظلال التربية النبوية–، ومن حياة أولياء الحق تعالى وأهل الفضل والشرف الذين ورثوا الأنبياء في أخلاقهم وأحوالهم.

وغايتنا أن نأخذ ـ ولو بنصيب ضئيل ـ من الأخلاق الرفيعة للنبي ﷺ وصحبه الكرام وأولياء الحق من بعدهم، ولنكون ـ قدر المستطاع ـ مثالاً حيًّا للقرآن الكريم، وأن نعيش حياة تليق بعباد الله تعالى وأتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، وجعل جلّ جهودنا في هذا المقصد، والتمكن بفضل هذا من نيل نصيب من سعادة اللقاء الأبدي.

ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر لكل إخواني الباحثين ـ على رأسهم الأستاذ مراد كايا ـ لتقديمهم يد العون في إخراج هذا الأثر، وأتضرع إلى الحق تعالى أن يتقبل أعمالهم صدقة جارية لهم.

تقبل الله منا جميعًا نوايانا الصالحة، وملأ صحائف أعمالنا بالتجليات الحسنة، وأفاض على قلوبنا بفيض وبركة روحانية رسول الله الذي كان قرآنًا حيًا بالوحي النازل عليه، كي نحصل نحن أمته على نصيب من الفضائل ذاتها.

اللهم أكرمنا بالتأسي بنبيك عليه الصلاة والسلام، والعيش بمحبته وأخلاقه وفضائله. آمين!..

عثمان نوري طوباش

نيسان ٢٠٠٧

أسكودار/ اسطنبول

القسم الأول

الخدمة



قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

«سيد القوم خادمهم»

(الديلمي، المسند، ٢، ٣٢٤)

«ماذا فعلت اليوم لوجه الله تعالى؟!»

الخدمة: هي الوظيفة التي كلف الله تعالى بها العبد مع الخلق في المجتمع، وتكتسب حياة المؤمن بركة وعمقًا معنويًا وعلوًّا بفضل خدمته للمخلوقات بأكملها، ومن ضحى ببدنه الزائل في سبيل الخدمة لوجه الله تعالى فكأنما أعتق روحه الخالدة إلى الأبد.

وما أحسن تعبير حضرة مولانا جلال الدين الرومي في هذا الشأن، حيث يقول:

«إنك ترى بعين القلب ـ التي تنالها بتعبدك وصِلتك بربك وخدمتك للخلق ـ ألوانًا غير الألوان المتنوعة التي تراها الآن، وتشاهد اللآلئ والدرر بدلًا عن الحجارة البسيطة، إنك تغدو بحرًا، وشمسًا تُرى في الآفاق وتسبح فيها».

لقد منَّ الحق تعالى علينا نحن عباده بما لايحصى من النعم، وأراد منا خدمة مخلوقاته بهذه النعم، إن مثل الإنسان –حين يعيش بأنانية لنفسه ولا يسارع إلى خدمة الخلق من حوله على الرغم من النعم والإمكانيات التي تفضل الله بها عليه، كمثل شجرة عقيمة؛ فمثل هذا الإنسان مثل شجرة الدلب – شجرة عظيمة معمّرة تعيش طويلًا–، لها منظر مهيب، إلا أنه لا ثمرة لها، أما شجرة الزيتون فإنها تثمر بعد سنة من غرسها، مع أنها لا تمتلك منظر شجرة الدلب.

والإنسان ـ على الرغم من أنه يتمتع بالغنى والصحة والعلم وغير ذلك من الإمكانيات المادية والمعنوية ـ يكون مجرمًا في حق نفسه إن هو عاش كشجرة

الدلب من غير إثمارٍ، فعلى الإنسان العاقل أن يعجل بتقديم ثمره كشجرة الزيتون تمامًا، أي أن يهتم بإفادة من حوله من خلال خدمتهم.

لقد جعل الحق تعالى في الخدمة سرًا عظيمًا، فخدمة الإنسان الذي خلقه الله كي يعبده هي عبادةٌ لله تعالى، ثم إن الله ﷻ يتكفل بالهموم الخاصة لمن خدم دينه وعمل على قضاء حوائج عباده، وأما من كان شغلهم الشاغل الاهتمام بمشاغلهم الخاصة فإنه يتركهم وهمومهم. ثم إن الخدمة هي البحث عن رضا الله ﷻ في صورة التوجه إلى المخلوقات بروح الإيثار والاهتمام، من خلال التخلص من لامبالاة النفس وأنانيتها، فتقديم الخدمات بصدق وإخلاص هو في الحقيقة انعكاس لامتثال العبد أمرَ الله تعالى.

وعلى كل مؤمن معرفة أهمية وظيفة الخدمة الحسنة للجماعة المنتسب إليها كي يفوز برضا الله تعالى، لأن من جعل الخدمة دستورًا لنفسه في الحياة سيرقى مكانة عالية لدى الحق تعالى أيًا كانت منزلته ضمن الجماعة التي يعيش فيها، حيث روي: «**سيد القوم خادمهم**» [٥]

أي هو سيد القوم من ناحية نيل الأجر والمكافأة.

وقد قال سيدنا النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه:

«**مرّ رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة**»[٦]

«**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له**»[٧]

---

٥ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت ١٩٨٦، ٢، ٣٢٤.

٦ مسلم، البر، ١٢٨/ ١٩١٤.

٧ البخاري، الأذان، ٣٢، المظالم، ٢٨؛ مسلم، البر، ١٢٧/ ١٩١٤، الإمارة، ١٦٤/ ١٩١٤.

وعلينا ألا ننسى أن رضا الله ﷻ قد يكون مخبوءاً في عمل صغير خالص عن الهوى، ولذلك علينا دائمًا التحري عن رضا الحق ﷻ بالمسارعة إلى كلٍ أنواع الخدمة المفيدة بغض النظر عن صغرها وكبرها. ثم إنَّ أكثرَ الأعمال التي تلاقي القبول لدى الحق تعالى خدمةُ الناس والسعي في حوائجهم بقصد رضا الله تعالى واستجابة لأمره بالتحلي بالأخلاق الحسنة، والتنزه في ذلك كله عن أي غرض أو منفعة شخصية يتطلع المرء لها، وقد قال النبي ﷺ:

«**خير الناس أنفعهم للناس**» [8]

ورُبَّ خدمة صغيرة ـ إذا وافقت رضا الله تعالى ـ تكون أفضل من كثير من عبادات التطوع، وفيما يلي مثال حيٌّ من عصر النبوة لهذه الحقيقة:

كان النبي ﷺ أثناء السفر قد نزل في مكان يرتاح فيه ويتقي شدة الحر، وكان بعض الصحابة صائمين، فغلبهم النوم من شدة التعب فلم يعملو شيئًا، وأما غير الصائمين فنصبوا خيامًا تظلهم وتقيهم الحر، وحملوا المياه للوضوء وسقاية البهائم، كما أنهم قاموا بخدمة الصائمين، فلما حضر وقت الإفطار قال ﷺ:

«**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**» [9]

لقد تزينت حياة النبي عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها بالخدمات المباركة، فقد نذر كل حياته لخدمة عليةٍ كهداية الناس وتزكيتهم، وكان إلى جانب هذا يقوم بسائر الخدمات الأخرى على أحسن وجهٍ.

فعلى سبيل المثال كان عليه الصلاة والسلام قد شارك صحابته في العمل ـ مع حرص الصحابة على أن يكفوه هذا العمل ـ أثناء تجديد بناء الكعبة، وعند إنشاء مسجدي قباء والمسجد النبوي، وفي تجهيز الخندق، حتى إنه في إحدى

---

٨ ابن حجر، المطالب العلية، ١، ٢٦٤.

٩ البخاري، الجهاد، ٧١/ ٢٨٩٠؛ مسلم، الصيام، ١٠٠ ـ ١٠١/ ١١١٩.

أسفاره كان عليه الصلاة والسلام قد أخذ على نفسه مهمة جمع الحطب، كما أنه لما زاره وفد النجاشي قام النبي ﷺ يخدمهم بنفسه، فقال له الصحابة: نكفيك ذاك يا رسول الله، قال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وكان ﷺ إذا قصده أحدٌ يزوره يخدمه ويكرمه فإن كان في بيته أعطاه بساطاً يجلس عليه، وإن كان خارجًا يعطيه بردته يجلس عليها.

إن روح التواضع والخدمة الرفيعة هذه لدى فخر الكائنات لَنموذج فريد لكل الأمة، فقد قضى حياته من أولها إلى آخرها بالخدمة للحق والإنسانية وجميع المخلوقات، وأما الجيل المبارك الذي أنشأه فقد نذروا حياتهم لله ورسوله، وغدت الخدمة في سبيل الله تعالى أمتع لحظات حياتهم.

وثمة –في يومنا هذا– حاجة مُلِّحة إلى روح الخدمة هذه، حيث وهت مشاعر الأخوة، وغابت الطمأنينة والسلام الاجتماعي، وكثرت العداوة والخصومة، ثم إن الحقّ تعالى يجزي من عمل خيرًا صغيرًا في وقتنا هذا بمكافآت عظيمة، يقول حضرة الإمام الرباني في هذا الشأن ما يلي:

«ما أسعد من نال نعمة اتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام والعمل بما أمر به، حيث إن أي عمل خير مهما كان بسيطًا يقوم به المسلم اليومَ عن يقين ورضا يتقبله الله على أنه عمل عظيم...» [١٠]

وبالتالي علينا تزيين أنفسنا وذرياتنا بعشق الخدمة لله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وبلوغ حال المؤمنين الذين يمثلون الفضيلة ويؤدون كل أنواع الخدمات بحب وشفقة.

إلا أنه ثمة شروط لكي تلقى الخدمات قبول الحق تعالى، حيث يلزم القيام بالخدمة بقلب مفعم بالإخلاص والرحمة والإيثار، قاصدًا فيها العبد وجه الله تعالى ليس غير.

---

١٠ المكتوبات، الإمام الرباني، المكتوب ٤٤.

وبالمقابل فإن التكاسل والبطء في الخدمة يقلل من قيمتها حتى لو كانت النية سليمة فيها، فللحصول على رضا الحق تعالى في خدمةٍ ما لا بد من معرفة أنها نعمة عظيمة، إلى جانب القيام بها بوجدٍ وصدق، وفيما يلي حادثة حصلت في عصر النبوة مليئة بالعبرة تصلح مثالًا في هذا المقام:

«روي عن رسول الله ﷺ أنه أمر أصحابه بالغزو، وأن رجلا تخلف وقال لأهله: أتخلف حتى أصلي مع رسول الله ﷺ الظهر، ثم أسلم عليه، وأودعه، فيدعو لي بدعوة تكون شافعة يوم القيامة، فلما صلى النبي ﷺ أقبل الرجل مسلما عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «**أتدري بكم سبقك أصحابك؟**» قال: نعم، سبقوني بغدوتهم، فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده:

«**لقد سبقوك بأبعد ما بين المشرقين، والمغربين في الفضيلة**»[11]

وفي رواية أخرى:

«**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم**»[12]

لقد تعرض هذا الصحابي إلى تحذير النبي عليه الصلاة والسلام، إذ إنه تأخر عن الخدمة بنية حسنة منه، فقد أحزن ذلك الصحابي قلبَ النبي عليه الصلاة والسلام في الوقت الذي أراد فيه إرضاءه عليه الصلاة والسلام بالبقاء قريبًا منه، ما يعني أنّ أهمّ شيء هو التمكن من الخدمة بمحبة في سبيل الله تعالى، فإنّ التخلف عن الخدمة من خلال التفرق عن الجماعة بسبب المتع والقناعات الشخصية تمهّد الطريق لخسائر معنوية كبيرة، مع أن الحق تعالى يطلب منّا الخدمة ضمن إطار الوحدة والتضامن، وقد قال في الآية الكريمة:

﴿**إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[13]

---

١١ أحمد، مسند، ٣، ٤٣٨/ ١٥٦٢٢.

١٢ الترمذي، السفر، ٥٢٧؛ أحمد، مسند، ١، ٢٥٦/ ١٩٦٦؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٣، ١٨٧.

١٣ الصف: ٤.

وقد قالوا قديمًا: لا تعب مع الحب، فالمحبة لها سحر عجيب في تحويل العناء والتعب إلى متعة وسعادة، حتى إن أكثر الخدمات مشقة لتؤدَّى بيُسْرٍ وطمأنينة إن صاحَبَتْها المحبةُ، ويعتبر المؤمن الرحيم والباذل القادر على أداء كل خدماته في سبيل الله تعالى بمحبة وشفقةٍ منبع سلام وسرور كبير، فهو في جهدٍ دؤوبٍ كي يكون عبداً محبوباً لله تعالى حين يترك رواءه في هذه الدنيا صدىً طيبًا بخدماته المخلصة التي يقوم بها في كل لحظاته.

ثم إن هذه القصة التصويرية التي كتبها محمد إقبال، بمثابة سراج يضيء طريق أهل الخدمات تجاه المشقات والصعوبات التي يواجهونها:

«كان ثمة غزالٌ يشكي همه لغزال آخر قائلًا: سأعيش بعد الآن بجوار الكعبة في الحرم الشريف، أنام وأصحو، وأرعى هناك، لأن الصيادين نصبوا الفخاخ في السهول، يتحرون آثارنا ليلًا ونهارًا، ولذا أريد أن أكون في مأمن من الصياد وجشعه، ولْيجد قلبي بعض السلام والهدوء!..

فرد عليه الغزال الثاني قائلًا: يا صديقي العاقل! إن كنت تريد العيش فعش في الخطر، واشحذ نفسك دائماً بحجر المشحذ، وعِش أحَدَّ مِن سيفٍ صقيل! حيث يمتحن الخطر طاقتك، فهو من يعرّفنا مدى قدرة الروح والبدن على خوض المخاطر».

وإنّ تبليغ الإسلام والدعوة إليه من أَوْلَى الأمور التي ينبغي على البشر القيام بها، وهي أجلُّ خدمة تُقدّم لهم، أي إن توصية الناس بالصلاح والحسنى والحقيقة والخير دعوة لهم إلى الحق والحقيقة من خلال منعهم من القبائح، لأنه لا بدَّ لتطبيق كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام في حياتنا من أن تتحوّل وظيفة تبليغ الحق وخدمة الخلق حباً في قلوبنا ومتعة لنفوسنا.

١ . الدعوة إلى الحق

إن الرحمة إحدى أهم الأوصاف الفارقة في شخصية المؤمن والتي تميّزه عن غيره، ويأتي تبليغ الإسلام والدعوة إلى الحق على رأس الخدمات العلية التي تعتبر مظهرًا للرحمة بالمخلوقات.

فأعظم خدمة تُقَدَّمُ الناس هي دعوتهم إلى الخير وتعليمهم ما يجهلونه من الحقائق، من خلال تصحيح أخطائهم وتوجيه عوالمهم القلبية إلى الحق تعالى عن طريق تقوية معنوياتهم، وهذه الخدمة التي تجمِّل دنيا الناس وآخرتهم تعد من أجلى مظاهر شكر العبد ربه على نعمة الإيمان، وهي عمل صالح مبارك يكسب به العبد رضا الحق تعالى، وهل بالإمكان تصور شيء أعظم من مدح الحق تعالى شخصًا ما حين يقول فيه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَال إِنَّنِي مِنَ الْمسْلِمِينَ﴾ [١٤]

يقول ربنا ﷻ – وهو يحضنا على أن نكون من عباده الصالحين ممن رضي عنهم وأكرمهم بالفلاح في الدنيا والآخرة – :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ [١٥]

وقد قال النبي ﷺ مبينًا أهمية خدمة الدعوة إلى الله ﷻ وتبليغ دينه:

«... **فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**» [١٦]

وقد كان أبو بكر ﵁ يُنفق جُلّ ثروته في سبيل تحرير العبيد ودعوتهم إلى الإسلام، حيث غدا إدخال السرور على قلب مؤمن واستنقاذه من عبودية البشر

---

١٤ فصلت: ٣٣.

١٥ آل عمران: ١٠٤.

١٦ البخاري، أصحاب النبي، ٩/ ٢٩٤٢.

ليكون عبدا لله تعالى مصدر سعادة بالغة لأبي بكر ﷺ، وقد قال له والده – الذي لم يسرّه إنفاق أبي بكر ماله على هذا النحو– :

«يابني، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذا فعلت أعتقت رجالًا جلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: «يا أبت، إني إنما أريد ما أريد لله ﷻ»،

وفي رواية أخرى: «فأنا أرجو بإعتاقهم ما عند الله من الأجر».

وقد نزلت الآيات التالية في الثناء على هذا وأمثاله من سخاء أبي بكر ﷺ وخدماته:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [١٧]» [١٨]

ويقول فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ:

«من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا!..» [١٩]

فكما أن جزاء وثواب تبليغ الحق والخير مضاعفًا فكذلك جزاء وعقوبة الدعوة إلى الشر والباطل مضاعفة، وهي أشبه بتحول كرة ثلجية إلى انهيار عظيم نتيجة تدحرجها.

ثم إن خدمة التبليغ هي في الوقت نفسه جهاد كبير، فقد قال الله ﷻ:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [٢٠]

أي جاهدهم بالقرآن والدعوة إلى الإسلام.

---

١٧ الليل: ٥ ـ ٧.

١٨ ابن هشام، سيرة النبي، بيروت ١٩٣٧، دار الفكر، ١، ٣٤١؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت ١٩٩٥، ١١١، ٢٧٩، (في تفسير الليل، ٥ ـ ٧)؛ السيوطي، لباب النقول، بيروت ٢٠٠٦، ص: ٢٧٥ ـ ٢٥٨.

١٩ مسلم، العلم، ١٦/ ٢٦٧٤؛ أبو داوود، السنة، ٦/ ٤٦٠٩.

٢٠ الفرقان: ٥٢.

ومجيء أمر «الجهاد الكبير» الذي في هذه الآية في فترة مكة – ولَمَّا يتهيأ المسلمون بعدُ لمواجهة المشركين، حيث لا وجود للقوة المادية آنذاك – يقدم لنا أحد أهمّ معاني الجهاد، ألا وهو تطبيق القرآن الكريم في الحياة وتبليغه للناس، إذ إنه لم يكن ثمة وسيلة في يدي المؤمنين حينها سوى كلام الله تعالى، حيث كانوا يتعلمونه ويبلغونه فحسب، ويحاولون إيصال دعوة الإسلام للهداية إلى الناس بتحمّلهم الكثير من العناء والمشقة.

وللوصول إلى النتيجة المرجوّة من خدمة التبليغ لا بد أولًا من التمتع بقلبٍ حساسٍ عميقِ العاطفة ومرهف الإحساس بالقرآن الكريم، إذ إنَّ أبلغ طريقةٍ لعرضِ الإسلام إنما تكون حين يقدم المرء محاسن الإسلام عبر حياته الشخصية ويكون قرآنًا حيًّا يمشي على الأرض.

وقد كان النبي ﷺ يستغل كل فرصة سانحة لتذكير أمته بوظيفة التبليغ والخدمة وحثهم عليها، يقول عليه الصلاة والسلام: «**بلغوا عني ولو آية...**»[21]

ويقول أيضاً:

«**نضَّر الله امرأً سَمِع مقالتي فوَعَاها وحَفِظها وبَلَّغها، فرُبَّ حامل فِقْه إلى مَن هو أفقه منه**»[22]

ومن العبرة بمكان هذا البيان النبوي، المنذر من أنّ دعوة الإنسان إلى الخير بإبعاده عن السّوء والشّرّ بمثابة حجر الْمِحَكّ فيما يتعلق بالإيمان بالحق:

«**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[23]

---

٢١ البخاري، الأنبياء، ٥٠/ ٣٤٦١.

٢٢ الترمذي، العلم، ٧/ ٢٦٥٨.

٢٣ مسلم، الإيمان، ٧٨/ ٤٩.

وقد ضرب لنا فخر الكائنات مثالًا واقعيًا في معرض حديثه عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال:

«**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا**»[٢٤]

ويخبرنا رسول الله ﷺ كيف بدأ الفساد يسري في بني إسرائيل:

«**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**»

ثم قال: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ إلى قوله {**فَاسِقُونَ**}[٢٥]، ثم قال:

«**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا**»[٢٦]

ويبيّن الإمام الغزالي أن مرافقة الكفرة والفسقة تنتج بدايةً تقاربًا عقليًا ونفسيًا ثم لا يلبث ذلك أن يتحول إلى المودة والتقارب القلبي، وهذا يعني انجراف الإنسان إلى الهلاك خطوة فخطوة.

إن إهمال وظيفة التبليغ يجعل المرء يعاني الكثير من الضيق والشدائد في الدنيا والآخرة، يقول أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الشأن:

---

٢٤ البخاري، الشهادة، ٣٠/ ٢٤٩٣؛ الترمذي، الفتن، ١٢.

٢٥ المائدة: ٨١.

٢٦ أبو داوود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٦؛ الترمذي، التفسير، ٥/ ٦.

«كنّا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه، فيقول: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني» [٢٧]

ومما لا بدّ منه لمن يريد القيام بخدمة التبليغ أن يكون مثالًا يحتذى به، من خلال حياته بالعلم والعمل الصالح والخلق الحسن، لأنّه لا يُتَصَوَّرُ خلو تبليغ الجاهل عن الأخطاء وبراءته منها سواء في الأسلوب أو المحتوى، وفي تلك الحالة فثمّة حاجة في هذا الطريق إلى «رأس المال العملي والقلبي» أولًا.

ومن ناحية أخرى ينبغي على كل مؤمن يتقدم لمهمة التبليغ إنضاج شخصيته هو أولًا، لأنّ أشد وسائل الإرشاد تأثيرًا في دعوة الناس إلى الحق والخير، هو صيرورة الحق والخير والفضيلة والصدق مثالًا حيًا ومشاهدًا، وفي هذا الصّدد فما من نبي إلا وقد اكتسب ثقة كبيرة ممن حوله من خلال إثباته للناس صدقه وأمانته بحياته الكريمة التي يعيشها أولًا، وبالتالي فإن من العناء والعبث والخطأ الفادح أن يدعو إلى الله من امتلأ قلبه بالأمراض المعنوية، فهذا كمن أراد إصلاح الحاجب فأعْوَرَ العين، حيث إنه يُلحق الضرر بالإسلام أثناء محاولته الدعوة إلى الخير، وينفرهم من الدين والإيمان.

وكما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«ظلّ المائل مائل»

فالمسطرة المائلة لا تعكس خطًّا مستقيمًا.

ويبين الحق جل جلاله أسلوب الدعوة إلى الإسلام مخاطبًا رسوله الكريم:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [٢٨]

---

٢٧ المنذري، الترغيب والترهيب، بيروت ١٤١٧، ٣، ١٦٤/ ٣٥٠٦؛ الرضواني، جمع الفوائد، ترجمة: نعيم أردوغان، إسطانبول، ٥، ٣٨٤.

٢٨ النحل: ١٢٥.

ويوضح سيدنا علي ﵁ قيمة الموعظة الحكيمة والحسنة على النحو التالي:

«حذروا الناس بكلمات حكيمة باعثة على التفكير حتى تجد القلوب الطمأنينة».

«أَحْيِ قلبك بالموعظة، ونوّره بالحكمة!».

ولا بدّ عند إرشاد الناس من استخدام أسلوبٍ حكيم يناسبهم ويقرب من أفهامهم، يقول حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

«ليبلغ علمك مهما بلغ فإن كلامك سيكون بقدر ما سيفهمه مخاطبوك».

كما أن على المؤمن أيضًا أن يتمتع بلسانٍ لينٍ يوجه «المؤاخذة لنفسه والمسامحة لغيره» كأسلوب في تبليغ الناس وإرشادهم.

وأما الأمر المهم الآخر – والذي ينبغي مراعاته في خدمة التبليغ – فهو أن يستشعر المبلّغ نفسه مسؤولًا عن المجتمع وأفراده، فيكون شفيقًا بهم ورفيقًا، فهم العباد الذين شرفهم الله وكرمهم حين خلقهم في أحسن تقويم.

ولنطالع الآن بعض صور الفضائل التي لا تحصى والتي سجلها التاريخ حول موضوعنا هذا:

صور الفضائل

يتحدث سيدنا علي ﵁ عن مدى دقة النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الدعوة إلى الحق وجهوده في سبيلها، فيقول: دعاني رسول الله ﷺ فقال:

«يا علي، إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعًا وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره...

يا علي! فاصنع لنا صاعًا من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عسًا من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أُمرت به».

فصنع علي ﵁ ما أمره به رسول الله ﷺ، وهم يومئذ أربعون رجلًا يزيدون رجلًا أوينقصونه، وقد قال علي ﵁: وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل

مثلما قدمت لجميعهم، فلما رأى أبو لهب أن الطعام الذي لا يكاد يكفي واحدًا منهم قد أشبعهم جميعًا، قال: سحركم صاحبكم سحرًا عظيمًا!، ولم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام بالكلام قائلًا: ما رأينا كالسحر اليوم!.

أحزنت كلمات أبي لهب النبي عليه الصلاة والسلام وثقلت عليه فلم ينبس ببنت شفة في المجلس، وبعد مدة تفرق القوم.[٢٩]

لكن النبي عليه الصلاة والسلام تجاهل الصعوبات التي اعترضته في هذا السبيل وأتمّ مهمته بصبر، فجمع أقرباءه مجددًا في اليوم التالي وواجهته المصاعب ذاتها إلا أنه على الرغم من ذلك كله دعا للإسلام.[٣٠]

ونفهم من سلوك نبينا عليه الصلاة والسلام أنّ المبلغ ينبغي أن يتسلح بالصبر والكرم، إذ إن الإنسان عبد الإحسان.

❁

صعد فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف:

«**يا صباحاه**»، ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل، فأسرع الناس إليه، فلما اجتمعوا قال:

«**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟**».

---

٢٩ انظر: أحمد بن حنبل، المسند، إسطنبول ١٩٩٢، ١، ١٥٩؛ الطبري، جامع البيان، ١٩، ٤٠٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢، ٢، ٦٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٩٣، ٣، ٨٨ ـ ٨٩.

٣٠ أحمد، مسند، ١، ١٥٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت دار صادر، ١، ١٨٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت ١٩٨٨، ٨، ٣٠٢.

فقال القرشيون: نعم، ماجربنا عليك كذبًا قط، ما جربنا عليك إلا صدقًا!.[٣١]

فأعلمهم النبي عليه الصلاة والسلام بما يلي من الحقيقة بعد أن حصل على هذا التصديق، حيث قال:

«يا معشر قريش، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العَدُوّ فانطلق يَرْبَأ أهله»

ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، وقال:

«يا معشر قريش! والذي نفسي بيده لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبُنَّ بما تعملون، ألاوإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا»[٣٢]

ولايذكر عنهم أي ردة فعل سوى أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُه وَمَا كَسَب. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَب. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحطَب. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[٣٣] [٣٤]

---

٣١ يقوم رسول الله ﷺ هنا أولاً بتثبيت الشخصية من أجل التبليغ، لأن الناس يعجبون بالشخصية في بادئ الأمر ومن ثمَّ يطيعون، وعلى الدعاة في يومنا هذا تثبيت شخصيتهم ابتداءً والتزامهم بالصدق والأمانة وإثبات صدقهم من قبل المجتمع، ويبين حبيب النجار الوارد ذكره في سورة يس الميزات الأساسية التي ينبغي للصالحين القائمين بالتبليغ التمتع بها بقوله يا قومي: ﴿**اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون**﴾، (يس: ٢١). وفي الوقت نفسه فلا بد في التبليغ من قصد رضا الله تعالى لا غير، وأنه على المبلغين ابتداءً الالتزام بالاستقامة.

٣٢ انظر: البخاري، التفسير، ٢٦؛ مسلم، الإيمان، ٣٤٨ـ٣٥٥، أحمد، ١، ٢٨١ـ٣٠٧؛ ابن سعد، ١، ٧٤، ٢٠٠؛ البلاذوري، أنساب الأشراف، مصر ١٩٥٩، ١، ١١٩؛ سميرة الزايد، الجامع في السيرة النبوية، المطبعة العلمية، ١، ٣٥٧ـ٣٥٩.

٣٣ المسد: ١ ـ ٥.

٣٤ البخاري، التفسير، ٢٦/ ٢، ٣٤/ ٢، ١١١/ ١ ـ ٢؛ مسلم، الإيمان، ٣٥٥/٢٠٨.

لقد بلغ النبي ﷺ الإسلام طوال حياته، يدفعه إلى ذلك حرصه على هداية البشرية جمعاء، وكان ذلك نابعًا مما يحمله فؤاده من الشفقة والرحمة بالخلق جميعًا، حيث جعله شعوره بوجوب الوفاء بهذه الأمانة الإلهية المودعة لديه يبلغ قمة التضحية في سبيل الدعوة، فكان رفضه قاطعًا لكل العروض الدنيوية المقدمة إليه والهادفة إلى الحيلولة دون تحقيق مهمته، وما أروع دلالة هذه الحادثة الواقعة في أول فترات التبليغ على المعنى الذي ذكرناه آنفًا:

عندما أرسل زعماء قريش إلى النبي عليه الصلاة والسلام عمَّه أبا طالب ليثنيه عن دعوته، فردَّ عليه الصلاة والسلام على عمه بمقولته الرائعة هذه:

«**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته.**»، ثم دمعت عيناه وبكى. [٣٥]

❀

كان الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام يطرق الأبواب كلها لنشر الإسلام وتقديم أعظم خدمة للبشرية، لا يعرف الكلل ولا الملل، ويبين الحقائق الإلهية مرارًا وتكرارًا، حتى إنه أوضح الحقائق نفسَها مرات عديدة على مسامع أشدّ وألدّ المعارضين له، وينقل لنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ما يصلح مثالًا لهذا حين قال:

«إني كنت أمشي مع أبي جهل في أحد أسوقة مكة، فلقينا رسولُ الله ﷺ، فقال: هيا أبا الحكم !أما آن لك أن تجيب داعي الله ورسوله؟ هلم إلى دعوة الله!، فقال أبوجهل: يا محمد! أَمُنْتَهٍ أنت عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغتَ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليَّ، فقال: والله إني لأعلم أنما يقول حق ولكن يمنعني شيء...»[٣٦]

---

٣٥ ابن هشام، ٣، ٩٦ ـ ٩٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٢، ٦٤.

٣٦ ابن كثير، البداية، ٣، ١١٣.

وقد بين فيما بعد أن الدافع في رفض أبي جهل الإسلامَ إنما كان الغيرة والتنافس بين القبائل لكسب الشرف والفضل في العرب.

ومرَّ النبي عليه الصلاة والسلام يومًا على أبي جهل وأصحابه، فقالوا له: «يا محمد! إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به».

وهكذا فقد ردّوا الحقيقة التي قبلوها في مكنونهم وضميرهم لأنهم كانوا عبيد نفوسهم وأسرى أهوائهم، وقد قدم الحق تعالى بإنزاله هذه الآية الكريمة للعيان حالهم تلك التي يرثى لها كي تكون عبرة وعظة:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [37]. [38]

❀

وما أجمله من مثال يبين العديد من الخصال الحسنة التي يتمتع بها النبي عليه الصلاة والسلام في شأن الدعوة إلى الحق:

«حيث روي أن قريشًا جاءت إلى الحصين، وكانت تعظمه، فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم؛ فجاؤوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي، فأتى حصين بن عبيد النبي، فقال عليه الصلاة والسلام: أوسعوا للشيخ!، وقد كان عند النبي ﷺ عمران بن الحصين في جماعة من أصحابه كثيرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك جفنة وخبزًا، فقال عليه الصلاة والسلام: ياحصين، كم تعبد من إله؟، قال: سبعًا في الأرض وواحدًا في السماء، قال عليه الصلاة والسلام: فإذا أصابك الضرُّ من

---

٣٧ الأنعام: ٣٣.

٣٨ الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال البسيوني زغلول، بيروت ١٩٩٠، ص: ٢١٩؛ الترمذي، التفسير، ٦/ ٣٠٦٤.

تدعو؟، قال: الذي في السماء، قال عليه الصلاة والسلام: فإذا هلك المال من تدعو؟، قال: الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه!، أرضيته في الشكر أو تخاف أن يغلب عليك؟ قال: لا واحدة من هاتين، قال: وعلم أني لم أكلم مثله، قال: يا حصين أسلم تسلم، قال حصين: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: قل: اللهم، إني أستهديك لأرشد أمري وزدني علمًا ينفعني، فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبيُّ بكى، وقال: بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يتلفت ناحيته، فلمَّا أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقّة. فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: قوموا فشيعوه إلى منزله، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ والله الحصين، وتفرقوا عنه» [٣٩]

وهكذا كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد دعا الحصين ﵁ إلى الإسلام بحكمة وموعظة حسنة وخلق كامل، وأما الحصين الذي ذاب أمام هذا الأسلوب المذهل لم يفارق المجلس إلا مكرمًا بنعمة الإسلام.

❀

روي أنَّ أمنا عائشة ﵂ قالت للنبي عليه الصلاة والسلام:

هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال:

«لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت

---

٣٩ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت ١٣٢٨، دار إحياء التراث العربي، ١، ٣٣٧، الترمذي، الدعوات، ٦٩/ ٣٤٨٣.

فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا»**[40]

لقد عانى فخر العوالم عليه الصلاة والسلام كل هذا الإيذاء في سبيل دعوة الناس إلى السلامة والسعادة الأبدية، وأظهر حرصًا بكل ما في وسعه لهداية الناس، إذ قابل الأذى والجفاء الموجّه لشخصه عليه الصلاة والسلام بحال من الصبر العظيم والتوكل والرضا.

❀

لما قدم أبو الحيسر –أنس بن رافع– مكةَ ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم:

«**هل لكم في خير مما جئتم له؟**»

قالوا: وما ذاك؟ قال:

«**أنا رسول الله إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئًا، وأنزل علي الكتاب**»

ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا: ياقوم هذا والله خير مماجئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك فأخبر من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى،

---

٤٠ البخاري، بدء الخلق، ٧/ ٣٢٣١؛ مسلم، الجهاد، ١١١/ ١٧٩٥.

ويكبره، ويحمده، ويسبحه، حتى مات، وكانوا لايشكّون أن قد مات مسلمًا، فقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.[41]

❁

فيلزم تعميم خدمة التبليغ على كل الناس بغض النظر عن كنههم، فإن رسول الله ﷺ لم يغلق باب الدعوة والتبليغ في وجه أحد حتى عدو الإسلام اللدود هبار بن الأسود الذي كان سببًا في وقوع السيدة زينب بنت النبي من على ظهر الدابة ومن ثمَّ وفاتها، وعكرمة بن أبي جهل الذي لاقى منه المسلمون كلَّ ألوان العداوة والإيذاء حتى فتح مكة، ووحشي قاتل سيدنا حمزة رضي الله عنه بل وحتى هند بنت عتبة التي مزقت جسد عمه ومضغت كبده.

❁

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال:

«**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»،

قال: فقلت: أذلك لأن لك الأجر مرتين؟، قال: «**أجل**»، ثم قال:

«**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض، فما سواه إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**»[42]

وهكذا كان النبي ﷺ على الرغم من مرضه الشديد يستمر في تعليم صحابته الحقائق الأبدية وتنشئتهم في ظل التربية النبوية، وهذا الوضع يبين شفافيته في مهمة التبليغ وسعة رأفته ورحمته بأمته عليه الصلاة والسلام.

❁

---

٤١ انظر: الحاكم، المستدرك، بيروت ١٩٩٠، ٣، ١٩٩؛ أحمد، مسند، ٥، ٤٢٧.

٤٢ البخاري، المرضى، ٣، ١٣، ١٦، مسلم، البر، ٤٥/ ٢٥٧١.

إن تبليغ دين الله تعالى وتعليمه لَمُهِمَّة مقدسة يحق أن يطلق عليها اسم مهنة النبيين، وقد تحمل الأنبياء عليهم السلام وهم أصفياءُ الله تعالى في سبيل هذا كلَّ أنواع الشدائد والصعاب، وأحد هؤلاء الأنبياء عليهم السلام سيدنا نوح عليه السلام والذي دعا الناس إلى الحق بصبر في ٩٥٠ عامًا من عمره.

يروى أن عجوزًا قال لابنه وهو يشير إلى سيدنا نوح عليه السلام: انظر يا بني إلى هذا الشيخ، إيّاك أن يغرّك، فقال الابن لأبيه: يا أبت أعطني العصا التي تتوكأ عليها، فمشى الابن إلى سيدنا نوح عليه السلام، فضربه عدّة ضربات أدماه فيها، ولكن سيدنا نوح عليه السلام لم ييأس، وظلّ يدعو قومه ويقول:

«يا رب، إن يكن لك في عبادك حاجة فاهدهم، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين».

❀

ويصف لنا القرآن الكريم دعوة سيدنا شعيب عليه السلام لقومه على النحو التالي:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٤٣]

ومقولة شعيب عليه السلام في هذه الآية **﴿...وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ...﴾** تعني إنما آمركم بما أقوم أنا به، وإن كنت قد منعتكم من أمور فإني أول التاركين لها.

إن التمتع بهذه الحساسية في التبليغ خصلة هامة يثني عليها الحق تعالى، ومن أشد المحظور وأقبح المذموم أن يغفل المرء عن إصلاح نفسه ويشتغل بإصلاح غيره.

---

٤٣ هود: ٨٨.

تقول الآيات الكريمة مخاطبة علماء أهل الكتاب:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٤٤]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِم تقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٤٥]

❁

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام قد بعث حاطب بن أبي بلتعة رسولًا إلى المقوقس حاكم الاسكندرية، فأعطاه المقوقس جاريتان، مارية القبطية وأختها سيرين مع الهدايا التي أرسلها معه، فعرض حاطب بن أبي بلتعة على مارية الإسلام، ورغبها فيه في الطريق فأسلمت، وأسلمت أختها. [٤٦]

أي إن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لم ينتظر وصولهم إلى المدينة كي يقابلوا الحقيقة، وإنما أدى ما عليه من خدمة التبليغ في أقرب فرصة سانحة.

❁

كان الصحابة رضوان الله عليهم يجاهدون ليجعلوا عواطفهم وتصرفاتهم موافقة لرضا الله تعالى، ولذا أنفقوا بسخاءٍ كل إمكانياتهم وطاقاتهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فأمتع لحظات الحياة وأكثرها قيمة لهم هي تلك التي بلغوا فيها للبشرية رسالة التوحيد، وقد كان الصحابي المحكوم بالموت يشكر جلاده الذي أبقى له دقائق أخيرة يحقق فيها ما يرغب به مستفيدًا من الفرصة السانحة له، ويقول:

«إني ممتن لك لتفضلك عليَّ بهذه الدقائق الثلاث! حيث إني سأبلغك فيها حقيقة التوحيد فعسى ولعل تكون وسيلة لهدايتك».

❁

---

٤٤ البقرة: ٤٤.

٤٥ الصف: ٢ ـ ٣.

٤٦ ابن سعد، ٨، ٢١٢.

كان السلطان محمد فاتح خان قد خرج في سفر إلى إمبراطورية طرابزون الرومانية، مارًا بأراض جبلية تحيط بها الغابات كي يدخل المدينة من الخلف، وفي بعض الأحيان ً كان المسؤولون عن الدفاع يسيرون في المقدمة لتمهيد الطريق، فزلت قدم حصان السلطان فاتح ونزفت يد السلطان حين حاول أن يتمسك بصخرة في الطريق، فقالت السيدة سارة والدة أوزون حسن وقد كانت برفقة السلطان معتقدة أنها الفرصة المناسبة لما ستقوله:

«بني! إنك سلطان ابن سلطان، وأنت خان عظيم! هل يستحق الحصول على قلعة صغيرة كطرابزون تحملك كل هذه المتاعب؟

لأن أُوزون حسن كان قد ارتبط بامبراطورية طرابزون الرومانية بصلة القرابة، ولذا أرسل في هذا الفتح والدته مع السلطان كي تكلمه في التخلي عن سفره، فانتصب الفاتح على الرغم من جراحه، وقال:

«يا أمي! ألا تعلمين أن ما نمسكه بأيدينا إنما هو سيف هذا الدين، ولا تظني أن كل هذه المشاق التي قاسيناها إنما هي في سبيل قطعة من الأرض جافّة بل لتعلمي أن جميع خدماتنا هي في سبيل خدمة دينه تعالى، وإيصال الناس إلى الهداية، وحتى لا تسودَّ وجوهنا حين نمثل بين يدي الله تعالى، وهل يليق تلقيبنا بالفاتحين إن نحن حبذنا راحة البدن بعدم تحملنا بعض العناء؟ وأنّى لنا المثول لدى الحضرة الإلهية إن لم نوصل الإسلام إلى أهل الكفر، ونحول دون عتوهم ونكبح لجام طغيانهم؟»[٤٧]

❀

ويجب إلى جانب تعليم الناس الإسلام الانشغال من ناحية أخرى بقضاء حوائجهم، وبالأخص حديثي العهد بالهداية، حيث يمكن أن تواجههم بعض الصعوبات في بادئ الأمر، وهذه الأيام هي التي يكونون فيها أكثر حاجة إلى

---

٤٧ انظر: قينالي زادة علي أفندي، أخلاق الدولة والعائلة «Devlet ve Aile Ahlakı»، إعداد. أحمد قاهرامان، ١٩١ ـ ١٩٢، مصطفى نوري باشا، نتائج الوقوعات، أنقرة ١٩٨٧، ١ ـ ٢، ٤٥.

الدعم المادي والمعنوي، وقد قدم أجدادنا حاملي راية الإسلام لعصورٍ مديدة هذه الشفافية على أتم وأحسن وجهٍ.

لقد كان يتم إعطاء المهتدين - أي المسلمين المتشرفين حديثًا بالإسلام - ٥٠ آكجة «ليرة عثمانية»، بعد الفراغ من اجتماع الديوان أيام الجمعة في الدولة العثمانية، وكما هو عليه الحال الآن فقد كان على الذي يبدل دينه التخلي عن كل أقربائه وجماعته بل وكل شيء، ولذا فقد كان يتم تأمين المسكن والعمل لمن بلغت الهداية وهي أرملة أو للطاعنين في السنّ من الذين لا أحد لهم.[٤٨]

❀

وباختصار علينا نحن المؤمنين أن نستمر في خدمة الخلق بدعوتهم إلى الحق وتبليغهم دين الله تعالى في كل فرصة سانحة وباعتدالٍ من غير تراجع وتخلٍّ واستسلام لليأس والرخاوة، والاتكال على الله تعالى في هداية خلقه.

لأن الحق تعالى جعل المسلمين مسؤولين عمن حولهم بقدر ما هم مسؤولون عن أنفسهم وعوائلهم، وكلفهم بمهمة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وقد وُعِدَ مَن أدّى هذه الوظيفة على أحسن وجه بأنه سيحصل على السعادة الأبدية هو ومن في عهدته، وعلى العكس من هذا فقد حذر ونبه من وقوع من أهمل خدمة التبليغ في ضرر عظيم وخطر كبير.

أ . القدوة الحسنة

لا بدّ - عند تبليغ الإسلام والدعوة إلى الحق تعالى - للتأثير في نفوس الناس وهدايتهم إلى الحق من تقديم شخصية نموذجية تكون مثالا يُحتذى، إذ إن الأفكار النظرية والتي ليس لها نصيب من التطبيق على أرض الواقع يتعذر خروجها من الفكر إلى الفعل، وتبقى هذه الأفكار حبيسة بين أسطر الكتب.

---

٤٨ إيلبر أورطايلي، كشف العثمانية من جديد «Osmanlıyı Yeniden Keşfetmek»، إسطنبول ٢٠٠٦، ص ١٣٩.

وحينئذ فإن أعظم خدمة يقدمها المسلم للدعوة الإسلامية إنما تكون بتطبيق الإسلام على أتم وجه في حياته، لأنه من المتعذر –حين يخالف قولُك فعلَك – أن تُقنع الناس أو تؤثر فيهم.

لقد أمر الله تعالى بأن لا يتناقض كلام المرء وجوهره، وأن لا تخالف أقوالُه أفعالَه حيث يقول ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُون. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٤٩]

ويبين النبي عليه الصلاة والسلام العاقبة الوخيمة التي تنتظر من يعيش بمثل هذا التضاد حيث يقول في الحديث الشريف:

«يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [٥٠]

إن هذا المصير الرهيب ينتظر أولئك الغافلين الذين ينسون أنفسهم في حين أنهم يوصون الآخرين بالخير، وفي هذا عبرة كبيرة لنا جميعًا، حيث إنه علينا أولًا تزيين حياتنا بالمحاسن التي تعلمناها وبلغناها للغير، فالأشخاص المخلصون الذين يعيشون على هذا النحو يغدون من العباد الصادقين والأولياء المخلصين، إذ يذكِّرون كلَّ من نظر إليهم بالله تعالى، وقد سأل الصحابة الكرام النبي ﷺ: من أولياء الله؟ فقال:

«الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى» [٥١]

---

٤٩ الصف، ٢ ـ ٣.

٥٠ البخاري، بدء الخلق، ١٠/ ٣٢٦٧.

٥١ الهيثمي، ١٠، ٧٨؛ ابن ماجة، الزهد، ٤.

وقد وقعت لنا ذات يوم حادثة تفيد في بيان هذا الحديث الشريف:

كنا في طريق العودة من بورصة إلى اسطنبول مع حضرة المرحوم سامي أفندي والمرحوم والدي موسى أفندي الذي كان برفقته، وعند بلوغنا منطقة يالوفا توقفنا كالبقية في طابور السيارات المنتظرة للصعود في العبارة، وكان هناك موظف مسؤول عن تنظيم وقوف السيارات كيلا تتسبب بالفوضى، فلما كان يرينا المكان الذي سنقف فيه لفت نظره سامي أفندي وموسى أفندي الجالسان في الأريكة الخلفية، فتوقف لموظف للحظة مندهشًا -وهو الذي يلتقي في اليوم الواحد بمئات الوجوه-، ثم اقترب وأمعن النظر داخل السيارة من النافذة، وتنفس الصعداء ثم قال:

«الله الله! يا لها من دنيا عجيبة! ثمة وجوه كوجوه الملائكة وأخرى كالنمرود ..؟».

وباختصار فإنَّ المسلم إذا كان قدوة حسنة في حاله ومقاله كان من أشد الألسنة تأثيرًا في خدمة التبليغ والدعوة، و«لسان الحال» هذا مع أنه خال عن الكلام والمقال إلا أنه فصيح وبليغ إلى أقصى الحدود، حيث يبلغ أفهام كل من يراه، وليس ثمة أمة عاجزة عن فهم هذا اللسان، أو إنسان يتعذر الوصول إليه من خلال التفاهم معه عبر هذا اللسان، فلسان الحال لا لحن له ولا خطأ، وإنما هو لسان طبيعي وموجز نقيّ وجليّ.

صور الفضيلة

عاش النبي عليه الصلاة والسلام حياة استثنائية منذ تشريفه الدنيا بولادته، وقبل أن يبدأ بتبليغ رسالته كان مثالًا يحتذى في حياته الكريمة وأخلاقه العلية.

لما أودعت مهمة الرسالة له عليه الصلاة والسلام ووقع في حالة من القلق والاضطراب الناجم عن عظم المسؤولية قامت أمنا خديجة رضي الله عنها زوج النبي عليه الصلاة والسلام بالتخفيف عنه وتسليته بكلماتها الحانية الصادقة:

«أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» [٥٢]

ما من شك في أن هذه العبارات إنما تعرض جزءًا يسيرًا من محاسن النبي ﷺ التي لا تحصى، والتي فتحت القلوب والأفئدة.

ولما وصلت رسالة النبي ﷺ إلى ملك عُمان الجلندي أراد أولًا معرفة شيء عن حياة فخر الكائنات ﷺ، وبعد أن بلغته أخلاقه عليه الصلاة والسلام الرفيعة وفضائله الجمة أسلم، وقد قال:

«لقد دلّني على هذا النبيّ الأميّ، إنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شرّ إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبيّ» [٥٣]

وفي الحقيقة فإن رسول الله ﷺ كان إذا أمر بشيءٍ بدأ بنفسه، ومن ثَمَّ يحذوا المؤمنون حذوه فيطبقون فعله بشوق العبادة، وقد كان هذا أعظم أساليب التعليم والتلقين للنبي ﷺ، وفي الوقت نفسه فإن هذه الكيفية من أكبر الحجج الدالة على أن ما جاء به من الدين حقّ، لأنه ما أمر بشيء إلا كان أول القائمين به، وما نهى عن شيء إلا اجتنبه قبل غيره، وإن قدم نصيحة فهو أول من يستفيد منها، أو حذر الناس وخوفهم من عذاب الله فهو أخوفهم من الله تعالى، وإن دعا الناس إلى الرجاء والأمل بالله تعالى كان قائد الذين يأملون.

❀

يقول مالك بن الحويرث رضي الله عنه:

قدِمنا على النبي ﷺ، نريد تعلم الإسلام، ونحن شَبَبَةٌ فلبثنا عنده نحوا من عشرين ليلة، وكان النبي ﷺ رحيماً فقال:

---

٥٢ البخاري، بدء الوحي، ١/ ٤٩٥٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢/ ١٦٠.

٥٣ ابن حجر، الإصابة، ١، ٢٦٢.

«لو رجعتم إلى بلادكم، فعلمتموهم مروهم، فليصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، وإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم» [٥٤]

وكما اتضح فقد صار النبي ﷺ أولًا نموذجًا عمليًا لصحابته، وعلّمهم كيف يعيشون لدينهم، ولذلك أمرهم بالرجوع إلى أقوامهم ليكونوا قدوة لهم في أقالهم وأفعالهم.

❀

يوصي رسول الله ﷺ بأداء الصّلاة في أول وقتها، ويحذّر أصحابه من التأخير حيث إنه لا يحبذه، فيقول:

«الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والوقت الآخر عفو الله» [٥٥]

كان رسول الله ﷺ وهو يوصي أمته بمثل هذه الوصية يراعي هذه الفضيلة بدقةٍ أكثر من الجميع، حيث إنه كان يؤدّي صلواته كلها في أول أوقاتها طوال حياته، فيصلي حيث أدركته الصلاة. [٥٦]

والحادثة التالية خير شاهد على ذلك:

عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال:

«أن رسول الله ﷺ انتهى إلى مضيق هو وأصحابه، وهو على راحلته، والسماء من فوقهم، والبلة من أسفل منهم، فحضرت الصلاة، فأمر المؤذن، فأذن وأقام، ثم تقدم رسول الله ﷺ على راحلته، فصلى بهم يومئ إيماء، يجعل السجود أخفض من الركوع، أو يجعل سجوده أخفض من ركوعه» [٥٧]

---

٥٤ البخاري، الأذان، ١٨/ ٦٨٥.

٥٥ الترمذي، الصلاة، ١٣/ ١٧٢.

٥٦ انظر: البخاري، الصلاة، ٤٨.

٥٧ أحمد، مسند، ٤، ١٧٣ ـ ١٧٤/ ١٧٥٧٣.

وتقول أمّنا السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما صلى رسول الله ﷺ صلاة لوقتها الآخر مرتين حتى قبضه الله»[٥٨]

أي إنه اضطر مرة لتأخير صلاته لعذر، وفيما عدا ذلك فقد كان يصلي الصلاة في وقتها.

❁

وفي الحديث الآتي مثال على اجتناب سيدنا النبي ﷺ ما أمر بتركه من المحرمات، حيث كان رسول الله ﷺ أثناء تبليغه صحابته امتناع استخدام الرجال الذهب وحرمتها عليهم، قد أراهم الخاتم الذي في إصبعه فنزعه قائلًا:

«**إني كنت ألبس هذا الخاتم، وأجعل فصه من داخل**» فرمى به ثم قال: «**والله لا ألبسه أبدا**» فنبذ الناس خواتيمهم.[٥٩]

لقد حظر الإسلام استخدام الخاتم المصنوع من الذهب وأمثاله على الرجال، إذ إنه تعالى أراد أن يحيا الرجال بوقار وهيبة، وأن تحافظ النساء على كرامتهن، وكما هو الحال عليه في هذا المثال فقد تفضل ربنا تعالى على عباده بالنبي عليه الصلاة والسلام ليكون القدوة التي يبلغنا الله من خلالها كل أحكامه الإلهية، وبالتالي فإن أحسن طرق دعوة الناس إلى دين الله تعالى وإلى كل خير هي أن نكون قدوة للمدعويين، فنقدم تلك المحاسن في شخصنا أولًا كما كان دأب النبي عليه الصلاة والسلام.

❁

من المعروف أن لا أحد من الناس يخلو عن نموذج أعلى وقدوة يأتسي بها سواء كانت خيرة أو شريرة، ولذا فعلى من يُتَّخذ قدوة بين الناس أن يتعامل مع ذلك - وخاصة في الأمور الدينية - بحساسية ودقة، لأن أصغر خطأ يمكن

---

٥٨ الترمذي، الصلاة، ١٣/ ١٧٤؛ أحمد، مسند، ٥، ٩٢.

٥٩ البخاري، الأيمان، ٦/ ٦٦٥١.

أن يصدر عنه قد يودي بقسم كبير من المجتمع، ويؤدي إلى انحراف الكثير عن الطريق السويّ.

مرّ الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله بصبي يمشي في الطين، فحينما رأى الإمامُ الطفلَ يلعب بالطين قال له:

«يا غلام! إياك والسقوط في الطين»

فقال الغلام الصغير للإمام الكبير:

«إياك أنت من السقوط، لأن سقوط العالِم سقوط العالَم!...»

فما كان من أبي حنيفة إلا أن اهتزت نفسه لهذه المقولة، فكان بعد ذلك لا يُصدر فتوى إلابعد دراستها شهراً كاملاً مع تلامذته، وأوصى تلامذته بقوله:

«إن توجه لكم دليل فقولوا به، فكان كل يأخذ برواية عنه ويرجحها...»[٦٠]

❀

وكان يعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ممن يقتدى بهم في تاريخنا الإسلامي، ونعرض فيما يلي أمثلة لبعض من أحواله:

«قصد الخليفةَ عمرَ بن عبد العزيز ﵁ أحدُ وزرائه ليلًا وهو جالس في بيته، فقال عمر: ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟، فأجاب الوزير: إنما أتيت لمراجعة أمر هامّ، فقال عمر بن عبد العزيز: لكن ليس عندي مصباح آخر لنراجع في ضوئه المسألة، فإني آخذ من بيت المال من الزيت بقدر ما يكفي مصباحاً واحداً، وأستخدمه مع عائلتي، فقال الوزير: هلا أخذنا ما تستحقه في الغد من الزيت من بيت المال!، فوافقه الخليفة وكتب سنداً وأرسل الوزير إلى أمين المؤن، وبعد أن قرأ الأمين السند قال: إنما هذا السند لحصة الغد من الزيت، وهو غير كاف، إذ على الخليفة كتابة سند آخر مقتضاه أنه سيعيش حتى الغد، ومن ثمّ تأتيني به.

٦٠ انظر: ابن عابدين، الحاشية، دمشق ٢٠٠٠، ١، ٢١٧ ـ ٢١٩.

فقام الوزير وقد ضاقت به الحيل أمام هذا الطلب، وأحضر زيتًا من بيته فأتى به الخليفة، وبعدما كلّم الوزيرُ الخليفة في المسألة التي قصده بها وحسمها، قال للخليفة: مولاي! يبدو أن ما تأخذونه من بيت المال لا يكفيكم، فلولا أمرتم بأكثر منه كي تجمعوا بعضه للحاجة فإذا ما فارقتم الحياة كان عونًا لأولادكم وأحفادكم يقضي حوائجهم، فردّ عمر بن عبد العزيز على هذا العرض بهذا الجواب العظيم، حيث قال: إنما وَلَدُ عمر أحد رجلين: إماصالح فسيغنيه الله، فإن وصيتي فيهم:

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ الله الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [٦١]

وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [٦٢]. [٦٣]

❀

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة تغيرت معاملته حتى مع أولاده، وقد تمزق ثوب عبد الملك ولد عمر بن عبد العزيز أثناء مبايعة الناس إياه بالخلافة، فقال عمر لابنه:

«اذهب وأصلحه، فقد لا تجد ثوبًا غيره بعد الآن، فتحتاج إليه!».

ثم إنه ﷺ كان يمر على بناته كل ليلة، فعاد يومًا إلى داره بعد صلاة العِشاء، ولمح بناته الصغار، فسلّم عليهن كعادته وبدلاً من أن يُسار عن نحوه بالتحيه كعادتهن. رُحْنّ يُغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب. فسأل: ما شأنهن؟

فأُجيب: بأنه لم يكن لديهن ما يتعشَّيْن به سوى عدس وبصل.. فكرهن أن يَشمّ من أفواههن ريح البصل. فتحاشَيْنَه لهذا . فبكى أمير المؤمنين. وقال يخاطبهن:

---

٦١ الأعراف: ١٩٦.

٦٢ النساء: ٥.

٦٣ أبو العلا ماردين، Huzur Dersleri دروس السلام والطمـنينة، إسطنبول ١٩٦٦، ٢ ـ ٣، ٧٦٩ ـ ٧٧٠.

«يا بناتي .. ما ينفعكن أن تعَشَّين الألوان والأطايب، ثم يُذهب بأبيكن إلى النار ..؟!».

❁

ومن العبرة بمكان هذا المثال التالي الذي يوضح أهمية تقديم الشخصية المثالية في كل شأن:

كان الوليد صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فوليَ سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضًا عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون، فيقول الرجل للرجل: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟. وهم بمثل هذا يشجعون بعضهم البعض ويحثّونهم على فعل الخير. [٦٤]

❁

كان عبد الله بن المبارك قد خرج في سفر، مع رجل سيّء الخُلق، فكان يتحمّله ويُداريه، فلمّا فارَقَه بكى عليه، فقيل له في ذلك، وسُئل لماذا تبكي هكذا؟، فأجاب ابن المبارك وهو يتنفس الصعداء: فارَقْتُه وخُلقُه معه لم يُفارِقْه، ألنقص فيَّ لم أُفِدْه، فلو أنه لم يستقم لاعوجاجٍ مني، فواأسفاه على حالي غدًا، ثم استمر في البكاء ونحيبه يعلو.

❁

وباختصارٍ فإن الناس ميّالون للتعلم عن طريق المشاهدة أكثر، فإن هم رأوا مثالًا حسنًا سرعان ما يقلدونه، وبالتالي فإن من الأهمية بمكان أن نكون قدوة من خلال عيشنا شخصيًا تلك المحاسن عند تبليغ الإسلام والأخلاق الحسنة

---

٦٤ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٣٩، ٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ أحمد جودت باشا، قصص أنبياء وتاريخ خلفاء، اسطنبول ـ ١٩٧٦، ١/ ٧١٧.

وتعليمها، أي إن العمل بالحقائق التي نعرفها والقدرة على أن نكون قدوة حسنة، أشد تأثيرًا من الكلمات المجردة، ولذا فإن أهل الحال هم الموفَّقون في الدعوة إلى الحق والخير.

إن قدرة المرء على أن يكون مثالاً يحتذى –وهو يبلغ الإسلام– يخلِّص المرء من مسؤوليته أما الله تعالى، لأن الإنسان إذا أمر الناس بما لا يفعل يعرض نفسه للعتاب الإلهي.

ولا بد من التيقظ لأمر مهم، ألا وهو أن الحق تعالى قد يُخضِع المرء إلى اختبار الإخلاص والوفاء في شأن الحقائق التي قالها وكتبها، فالأشخاص الذين لا يعملون بموجب ما يعرفونه في عرضة دائمة للخسارة أمام هذا الامتحان.

ب . حسن القول وأدب الخطاب

يحض الحق تعالى عباده على حسن القول، وذلك بأن يكون المسلم في قوله صادقًا ونزيهًا وواضحًا وبليغًا ومؤثرًا ولينًا، يشدّ القلوب ويأسر الأفئدة، يقول الله تعالى:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [٦٥]

فليس ثمة شيء يؤثر في القلب مثل لين الكلام، والمثل القائل: «لين القول يخرج الثعبان من جحره» يقدم لنا الأمر على نحو واضح وجليٍّ، ثم إن الأنشطة القائمة على تبليغ حقائق الإسلام هي من أهم الميادين التي تُلزِم المرء أن يتحلى بلسان لين لطيف.

وقد بينت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في كثير من المواضع وجوب كون التبليغ بلسان سهل وقول حكيم من غير إساءة للمخاطب، وقد أمر الحق

٦٥ الإسراء: ٥٣.

تعالى موسى وهارون عليهما السلام – لما أرسلهما إلى شخص ضال مضل، ورأس من رؤوس الكفر والطغيان – بالرفق واللين، فقال:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٦٦]

فإذا أمر الله نبيه موسى باللين والرفق وهو يخاطب فرعون، فكيف علينا إذن أن نخاطب سائر الناس ممن لا يبلغون مبلغ فرعون في انحرافهم وتوليهم.

ثم إن التوفيق الحاصل في مهمة التبليغ الخاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ما هي إلا ثمرة وبركة حلمه الرفيع وسماحته العظيمة، يبين الحق تعالى فضل وكمال سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن وهو يخاطبه، فيقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [٦٧]

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٦٨]

يقول ذو النون:

«من علامة الإيمان إرشاد الناس بلسان لين وثغر بسَّام، ومقابلة جهلهم بالحلم وحسن القول».

إن الإخلاص من الأساسيات التي تأتي في المقدمة إلى جانب حسن الأسلوب ولطافته، لأنه وكما ورد في المثل المشهور:

«الكلمة إن خرجت من القلب تصل القلب، وإن خرجت من اللسان فلا تتجاوز الأذن».

---

٦٦ طه: ٤٤.

٦٧ آل عمران: ١٥٩.

٦٨ التوبة: ١٢٨.

وقد قال حضرة مولانا في هذا الشأن أيضًا:

«من لا يوافق قلبه كلامه فلا لسان له، ولو كان له مائة لسان».

إن الكلمة الحسنة اللطيفة، النابعة من قلب مخلص، علامة على نضج قائلها ورفعة خلقه، وحال النضج هذه تستلزم صبر صاحبها على القساوة والأذى والجفاء الذي يلاقيه، ومع صعوبة التمتع بلسان حلو وأسلوب لطيف إلا أنه طريق ممتلئ فيضًا وبركةً.

صور الفضائل

كان رسول الله ﷺ رحيمًا، ودودًا، لطيفًا، ليِّنًا، حساسًا، فعلى الرغم من مناداة أحدهم إياه باسمه قائلًا له:

«يا محمد، يا محمد»، قابله النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**ما حاجتك؟**»، أي إنه لم يخرج يومًا عن إطار اللباقة على الرغم من فظاظة مخاطبه.[٦٩]

❁

تخبرنا السيدة عائشة ﵂ عن لطافة النبي ﷺ، فتقول:

«ما كان أحد أحسن خُلقا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته، إلا قال: لبيك، ولذلك أنزل الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٧٠]».[٧١]

❁

جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد، فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه.[٧٢]

---

٦٩ انظر: مسلم، النذور، ٨؛ أبو داوود، الأيمان، ٢١؛ الترمذي، الزهد، ٥٠.

٧٠ القلم: ٤.

٧١ الواحدي، أسباب النزول ت زغلول، سورة القلم، ص: ٤٦٣.

٧٢ البخاري، الوضوء، ٥٨، الأدب، ٨٠.

ثم بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أهمية المسجد وآدابه لذاك الرجل على نحو لطيف.

❁

يوضح سعد الدليل ﷺ أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبوبكر، وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة، وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة، فقال له سعد: هذا الغائر من ركوبة، وبه لصان من أسلم، يقال لهما المهانان، فإن شئت أخذنا عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «**خذ بنا عليهما**»، قال سعد: فخرجنا حتى أشرفنا، إذا أحدهما يقول لصاحبه: هذا اليماني، فدعاهما رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام، فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما، فقالا: نحن المهانان، فقال: «**بل أنتما المكرمان**»، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة... [٧٣]

❁

عن ابن عمر ﷺ أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال: فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص قال: فلما برزنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ فقلنا: ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد. قال: فدخلنا فقلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا. قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرارون فأقبل إلينا فقال: «**لا. بل أنتم العكارون**». قال: فدنونا فقبلنا يده، فقال: «**إنا فئة المسلمين**». [٧٤]

يا لها من أخلاق جميلة... وما أروع تلك القدرة على أن يكون المرء طبيب قلوب ماهر من خلال الصفح عن أخطاء الناس والتقرب إليهم بأساليب لطيفة ولسان حسن... ويجب ألا ننسى أمرًا مهمًا، ألا وهو احتياج الجميع إلى الاهتمام

---

٧٣ أحمد، مسند، جـ ٤، ٧٤/ ١٦٦٩١.

٧٤ أبو داوود، الجهاد، ٩٦/ ٢٦٤٧؛ الترمذي، الجهاد، ٣٦/ ١٧١٦.

وحسن التواصل، فالعلاقة الجميلة حين يظهرها المرء للناس تقلل عداوة العدو وتزيد من محبة وقرب الأصحاب والأقرباء.

❁

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بدأ دعوة الناس إلى الهداية بأبيه آزر، حيث قال له بأسلوب لين:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [٧٥]

إلا أن آزر رد عليه غاضبًا:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [٧٦]

إلا أن إبراهيم عليه السلام أجاب آزر بكلمات أطيب وأسلوب ألطف، حيث قال:

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٧٧]

يا لعظمة هذه الأخلاق التي تحمل صاحبها على أن يقابل إساءة مخاطبه وسخريته وتهديده بالحلم واللطف وحسن القول!.

❁

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه قد اهتدى إلى الإسلام صغيرًا، إلا أنه على الرغم من تعذيب أهله الشديد له وحرمانه من الميراث لم يرتد عن دينه، لأنه حتى لو

---

٧٥ مريم: ٤٢–٤٥.

٧٦ مريم: ٤٦.

٧٧ مريم: ٤٧.

كان في ظاهره معدمًا وغريبًا لكنه كان يحمل في أعماقه قلبًا مفعمًا بعشق ووجد الإيمان المتأصل، وقد كان نموذجًا فريدًا في تبليغ الإسلام.

وقد ظهر الإسلام في المدينة المنورة وعلى صوتُه بذهاب مصعب ﷺ إليها، حيث ازداد الداخلون فيه وكثر أهله، لأن هذا الصحابي الشاب المكلف بمهمة التبليغ من قبل النبي عليه الصلاة والسلام بذل جهداً لا يوصف في سبيل تبيين دين الله تعالى وإيصال الناس إلى الهداية، وكان أسعد بن زرارة ﷺ -الذي نال نصيبه من الهداية ببركة جهود مصعب ﷺ فكان من الأوائل السعداء- يستضيف معلم الإسلام الأول في بيته، ويعينه في أعمال التبليغ كلها.

ذهب أسعد بن زرارة يومًا ومعه مصعب بن عمير إلى بستان من بساتين بني عبد الأشهل - أحد بطون الأوس- فجلسا فيه، واجتمع حولهما عدد من الذين أسلموا، فرآهما سعد بن معاذ وأُسيد بن الحضير -وهما يومئذ سيدا بني عبد الأشهل، ومن سادة الأوس أيضًا- فقال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمتَ لكفيتُك ذلك، فهو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهم، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشمتًا، فقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففت عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتتطهر، وتطهر

ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، فقام واغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين..ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، فقام سعد مغضبًا مبادرًا، إلا أنه أسلم هو أيضًا في النهاية باستسلامه للحقائق الإلهية التي أوضحها له مصعب رضي الله عنه، ثم أقبل عائدًا إلى مجلس قومه، فلما وقف عليهم قال: يابني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.[٧٨]

هذه هي بركة الدعوة إلى الإسلام بأسلوب لطيف وقول لين، فتكتب المئات من الصدقات الجارية... إذ إن الله تعالى صاحب الإحسان والكرم الواسع يَعِدُ من كان وسيلة لهداية من دخل الإسلام بضعفين من الثواب.

❁

كان الحجاج الثقفي الظالم المشهور في التاريخ، رجلًا عالمـًا على الرغم من ظلمه وجبروته، وذات يوم أغلظ له خطيب الجمعة في القول عملًا بالحديث القائل:

«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر»[٧٩]

وأما الحجاج فقد استمع بسكون إلى الخطبة، وبعد الصلاة دعا الخطيب إليه، وسأله: «ما قلت في خطبتك!؟»، فلم يتردد الخطيب معتقدًا بأنه سيضرب عنقه، وأعاد ما ذكره في خطبته على مسامع الحجاج بأسلوبٍ أشد وأغلظ، فقال الحجاج:

---

٧٨ ابن هشام، ٢، ٤٣ ـ ٤٦؛ ابن سعد، ٣، ٦٠٤ ـ ٦٠٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، القاهرة، ١٩٧٠، ١، ١١٢ ـ ١١٣.

٧٩ أبو داوود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٤٤.

«عجبًا لك، أولست تقرأ القرآن أبدًا؟ ألم يأمر الحق تعالى موسى عليه السلام -وهو أفضل منك- لما أرسله إلى فرعون -وهو أسوأ مني- أن يتلطف به ويقول له قولًا لينًا؟».

فلم يجد الخطيب عندئذ ما يقوله، وأدرك الخطأ في أسلوبه وقدم اعتذاره.

❀

وباختصار فإن اللّين، إحدى أوصاف المؤمنين التي لا يسع الداعية التخلي عنها، وأهم دستور في الدعوة إلى الحق وخدمة الخلق، فقد قال رسول الله ﷺ:

«**يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»[80]

يقول حضرة مولانا في هذا الشأن:

«وافهم قولَ الله لموسى عليه السلام: ﴿**وَقُلْ لَه قَوْلاً لَيِّناً**﴾! لأنك إن صببت الماء البارد على الزيت المغلي، فإنك تفسد القدر والموقد...».

لا بد من النظر إلى كل شخص على أنه زيت مغلي، فلكل امرئ عزة نفس، وما من أحد يستحسن قسوة الكلام وفظاظة الخلق، بينما يكون الكلام الطيب والتواضع للمخاطب أفضل طرق الوصول إلى القلوب.

ج. إظهار محاسن الإسلام

المؤمن الكامل يكون رفيقًا بالمخلوقات، مبتسمًا تجاهها، يحب المخلوق لأجل الخالق، وينظر إلى الإنسان والحيوان والجماد على أنه صنع إلهي، فيتعامل معه -من خلال إدراك حقيقة الإسلام- بمحاسن الأخلاق وآداب الإسلام، وبهذه الطريقة يسير المجتمع بكل أفراده إلى السلام.

---

٨٠ مسلم، البر، ٧٧/ ٢٥٩٣.

إن الإسلام دين إلهي يدعو الناس إلى السلام والسعادة على الدوام، وكلما تمكن المسلمون من تمثل الإسلام وإدراك مقاصده كانوا أصدق في تقديم محاسنه إلى الناس، وعندها لن يكون ثمّة امرئ منصف يرده أو يعارضه، وسيدرك كل صاحب عقل السعادة الأبدية التي وعد بها الإسلام، وسيسعى إلى الدخول تحت مظلته المشتملة على كل الفضائل والمحاسن.

وإن كثيرا ممن تخطفتهم ظلمات الباطل وغرقوا في غياهب الضياع والقلق إنما وصلوا إلى السعادة من خلال التجائهم إلى حمى الإسلام وساحات رحمته وفضله، وثمة الكثير من الذين يجهلون الإسلام ولا يعرفونه بحقٍّ يبقون في حيرة عندما يشاهدون وجهه الحقيقي في حياة أوليائه الذين تمثلوا شفقة الإسلام ورحمته فأنقذوا العديد ممن أظلمت قلوبهم وتحجرت وأرشدوهم إلى طريق الهداية والسعادة.

وأفضل طريق لإظهار محاسن الإسلام وفضائله تعلمه كما ينبغي وتطبيقه على ضوء سنة رسول الله ﷺ السَّنية، فيجب إظهار محاسن الإسلام في أحوالنا وأقوالنا، وعلى جوارحنا وألسنتنا.

صور الفضائل

قال السائب بن أبي السائب: أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ «**أنا أعلمكم**» يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي: كنت شريكي فنعم الشريك، كنت لا تداري، ولا تماري.[٨١]

فهذه النزاهة التي عرف بها سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام واللطف والبشاشة والمسامحة كانت دعوة بليغة للناس لاعتناق الإسلام.

❁

٨١ أبو داوود، الأدب، ١٧/ ٤٨٣٦، ابن ماجة، التجارة، ٦٣.

أصاب زيد بن حارثة سباء في الجاهلية وهو بن ثمان سنين، وسيق إلى سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما أبصر رسول الله عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة غلاماً ذا ذؤابة قد أوقفه قومه بالبطحاء، قال: أما إنه لو كان لي لأعتقته، فقالت السيدة خديجة ﵂: «**فهو لك، فأعتقَه**»[82]

حزن والد زيد على خطفه أشد الحزن، وخرج يبحث عنه، فأخبره الحجاج أنه في مكة، فروي أن أباه وعمه جاءا النبي قبل أن يتبناه، وطلبوا منه أن يرده لهم، فقالوا: جئناك في ولدنا، فامنن علينا وأحسن في فدائه، فترك النبي لزيد حرية الاختيار، فقال لهما: ادعوا زيدًا وخيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء، ففرح حارثة، وقال للنبي ﷺ: لقد أنصفتنا وزدتنا وأحسنت إلينا، فلما جاء زيد سأله النبي: «**أتعرف هؤلاء؟**» قال زيد: نعم، هذا أبي وهذا عمي، فقال الرسول لزيد: «**فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك فاخترني أو اخترهما**»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني مكان الأب والعم، فدهش أبوه وعمه وقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟! فقال زيد: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى الرسول ﷺ ذلك فرح فرحًا شديدًا ودمعت عيناه، وأخذ زيدًا، وخرج إلى حِجْر الكعبة ـ حيث قريش مجتمعة ـ ونادى: «**يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه**»[83]، ولما رأى أبوه وعمه ذلك طابت نفساهما.[84]

٨٢ ابن هشام، سيرة، ١، ٢٦٦، ابن سعد، الطبقات، ٣، ٤٠.

٨٣ بعد هذا اليوم نودي زيد زيد بن محمد واستمر هذا الحال إلى أن جاءت الآيات التي تنسخ التبني من سورة الأحزاب الآية ٥ والآية ٤٠.

٨٤ ابن هشام، سيرة، ١، ٢٦٧؛ ابن سعد، الطبقات، ٣، ٤٢.

لقد كانت معاملة النبي عليه الصلاة والسلام ومعاشرته للناس من الحسن والفضل بحيث لم يكن يرغب أحدهم في الافتراق عنه، فقد فُتن الجميع بطباعه اللطيفة والتي هي بمثابة منبع رأفة ورحمة، وبوجهه المتبسم على الدوام كروض زهر، وباختصار لأخلاقه الحميدة.

❀

كان رسول الله ﷺ قد ترك الغنائم التي أخذت في حنين لفترة، ثم قسمها، ولم يدرك الصحابة الحكمة من تأخير القسمة إلا في اليوم العاشر لمجيئه إلى الجعرانة، حيث جاء وفد من قبيلة هوازن المهزومة إلى رسول الله ﷺ وأعلموه بإسلامهم، وبهذا طلبوا فداء أسراهم ورد أموالهم، فقام رجل من بني سعد وقال:

«يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر، أو النعمان ابن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين، فامنُن علينا منَّ الله عليك». فقال لهم رسول الله ﷺ:

«معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت»،

وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، ، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

«أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم.[٨٥]

---

٨٥ انظر: البخاري، المغازي، ٥٤/ ٣١٣١، ابن هشام، سيرة، ٤، ١٣٤ ـ ١٣٥.

وبهذا رُدّت يومها ستة آلاف من أسرى الحرب إلى قبيلة هوازن دون أي فداء أو عِوَض، لم يشهد التاريخ صورة عظيمة كهذه، ولكن تلك اللحظة قد كانت تشهد على أنه خُلِّيَ سبيل ستة آلاف أسير من دون أي مقابل دنيوي في دقيقة واحدة، بفضل ما زرعه رسول الله ﷺ من الأخلاق الإسلامية والفضائل في أمته.

وأمام صورة الفضيلة الفريدة هذه اعتنقت كل قبيلة هوازن الإسلام، حتى إن سيد القبيلة مالك بن عوف والذي كان في الطائف تعجب لـمَّا علم الخبر، وانضم إلى قافلة الإسلام باستجابته لأول دعوة من النبي عليه الصلاة والسلام، فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام مائة من الإبل وجعله سيد قومه أيضاً.[٨٦]

❀

كان عدي بن حاتم الطائي شريفًا من شرفاء العرب وخطيبًا مفوهًا من خطبائهم، وصاحب فضل ونسب فيهم، فلما أرسل رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه في السنة التاسعة من الهجرة ليحطم صنم قبيلة طي، لاذ عدي بالفرار ولحق بالشام، لكن أخته سفانة سيقت إلى المدينة ضمن الأسرى.

فلما علم بها رسول الله ﷺ أنها بين الأسرى أعتقها وأطلق سراحها إكراما لأبيها حاتم الذي كان يحب مكارم الأخلاق، ولما قدم ركب من أهلها أرادت الخروج معهم فأذن لها النبي عليه الصلاة والسلام وكساها من أحسن ما عنده من الثياب، وجعل لها ما تركبه، وأعطاها نفقة تكفيها مؤنة السفر وزيادة، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه:

قلت لها «لسفانة» وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن نلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكًا فلن نذل في عز اليمن، وأنت أنت. قال: قلت: والله إن هذا الرأي. قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده

٨٦ ابن هشام، سيرة، ٤، ١٣٧ ـ ١٣٨.

وعنده امرأة وصبيان فعرفت أنه ليس بمُلك كسرى ولا قيصر، فسلمت عليه، فقال: مَن الرجل؟! قلتُ: عدي بن حاتم، فرحب به النبي ﷺ وقربه وأخذه إلى بيته، فلقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، قال عدي: قلت في نفسي: والله ما هذا بمَلِك، قال: ثم مضى حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقدمها إليَّ، فقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس، فقال: بل أنت فاجلس عليها، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض، قلت في نفسي: ماهذا بأمر ملك! فدخل الإسلامُ في قلبي، وأحببت رسول الله ﷺ حبًا لم أحبه شيئًا قط. فقال النبي ﷺ: يا عدي، أسلم تسلم، قلت: إن لي دينًا، قال: أنا أعلم بدينك منك، قلت: مايجعلك أعلم بديني مني؟ قال: ألست ركوسيًا؟[87] قلت: بلى، قال: أنا أعلم بدينك منك، ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى، قال: ألست تأخذ المرباع ـ أي ربع الغنيمة ـ قلت: بلى، قال: فإن ذلك لا يحل لك، قلت: أجل، قال: فكان ذلك أذهب بعض ما في نفسي، قال: إنه يمنعك من أن تسلم خصاصة فقر من ترى حولنا، وإنك ترى الناس علينا إلبًا واحدًا، أو قال يدًا واحدة، قلت: نعم، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار ـ الدعار هو الخبث الشديد ـ طيء الذين قد سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز!؟ قال: كسرى بن هرمز!، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، فأسلمتُ فرأيت وجه رسول الله ﷺ استبشر، ثمَّ أمرني فنزلت على رجل من الأنصار ، قال : فجعلت آتيه طرفي النهار، ولا دخل علي قضاء فرض، إلا وأنا إليه مشتاق.

---

٨٧ الركوسية تعتبر ديناً متشكلاً من النصرانية والصابئة، أي بينهما.

وقال عدي بن حاتم بعد مضي سنوات على هذه الحادثة:

«مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن، وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه».[٨٨]

وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ـ حيث تحقق ما أخبر عنه ثالثاً لما حان وقته ـ، فقد بعث عمر بن عبد العزيز عامله بأموال الزكاة لتوزيعها على المستحقين في جهات من إفريقية، ولكنه عاد بها ثانية، لأنه لم يجد من يأخذها، فاشترى بها أرقاء وأعتقهم.[٨٩]

❁

يحدثنا حضرة مولانا بأسلوبه القصصي المميز عن كيفية إيمان من غابت إنسانيته وضميره وضَمُرَت عواطفه وأحاسيسه وهو الإنسان الخشن القاسي، بأحوال رسول الله ﷺ الرفيعة واللبقة وأسلوبه في الهداية في عصر النبوة، فيقول:

«قدم نفر من المشركين على النبي ﷺ في مسجده مساءً ضيوفًا عليه، وقالوا:

«يا أيها الإنسان العظيم الذي استضاف كل من في هذا العالم معنىً، أتيناك قاصدين ضيافتك،لا طعام لدينا ولا شراب، فسفرنا بعيد، ونحن هنا غرباء، فأرنا كرمك وإحسانك، وأدخل السرور إلينا نحن الغرباء، وانثر أنوار الفرح في قلوبنا».

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«يا أصحابي! اقتسموا هؤلاء واستضيفوهم، واصطحبوهم إلى بيوتكم، وأكرموهم، لأنكم تشاركوني في الأخلاق والمكارم ذاتها، وتحرصون على التحلي بالخصال التي أتمتع بها».

---

٨٨ انظر: البخاري، المناقب، ٢٥؛ أحمد، ٤، ٢٥٧، ٣٧٧ـ ٣٧٩؛ ابن هشام، ٤، ٢٤٦ ـ ٢٤٩؛ ابن كثير، البداية، ٥، ٦٢؛ ابن عبد البر، الإستيعاب، القاهرة، ٣، ١٠٥٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤، ٩.

٨٩ سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، بيروت ١٩٨٠، ص: ٤٣٤.

فأخذ كل واحد من صحابته بيد جليسه وذهب به، وكان ثمة رجل عظيمٌ جسيمٌ ليس بينهم أحد مثله، فلم يجرؤ أحد من الصحابة على اصطحاب هذا الرجل الذي كان أشبه بالفيل إلى بيت، فبقي في المسجد وحده كبقايا شربات في الوعاء، فذهب سيدنا المصطفى ﷺ بذلك الرجل العظيم الذي لم يرغب به أحد إلى بيته، وكان للنبي عليه الصلاة والسلام سبعاً من العنز تدرّ الحليب، فأتى ذلك الرجل الجسيم الذي كان أشبه بمجاعةٍ على كل ما في المائدة من خبز وطعام وعلى حليب العنزات السبع تلك، فاغتاظ أهل البيت من هذا الرجل النهم، لأنه جعل طعام كل أهل البيت في معدته.

نفخ ذلك الرجل النهم بطنه كطبلٍ، إذ تناول طعام عشرة أشخاص وحده، ولما حان وقت النوم دخل إحدى الغرف، فقامت الجارية وقد اغتاظت من هذا الرجل بإقفال الباب، وأوصدته بسلسلة الحديد التي عليه.

أراد الرجل الخروج ليلاً لحاجته، وأوجعه بطنه حتى الصباح، فوثب من الفراش وأسرع نحو الباب ولما أراد فتحه أدرك أنه مقفلٌ، حاول ذلك النهم فتح الباب بشتى الحيل إلا أن الباب لم يُفتَح، فضاق الرجل ذرعًا وضاقت عليه الغرفة، فاحتار، وما له من حَلٍّ ولا راحة... وبدأ يتلوى في محاولة منه للنوم عسى يعثر على مخرجٍ لهذا الأمر وينسى محنته تلك، فنام ورأى فيما يراه النائم أنه في موضع خراب متهدم، قد قضى حاجته فيه، ولما استيقظ ورأى أنه قد لوث المكان الموجود فيه، بات كالمجنون من شدة حيائه.

فقال لنفسه: «لو أن هذه الليلة تنقضي ويفتح أحدهم الباب فأفر هاربًا». ومكث ينتظر، وما هذا الانتظار إلا كي يفرَّ هاربًا بأسرع من انطلاقة السهم من القوس مجرد أن يُفتَح الباب حتى لا يُرى بهذا المظهر السيء.

وفي صباح اليوم الثاني جاء النبي ﷺ ففتح الباب، وفتح الطريق للذي تاه عن طريقه، إلا أن النبي ﷺ كان قد أخفى نفسه وراء الباب كيلا يراه فيقع في الخجل.

فلاذ الضيف بالفرار... وتبسم النبي عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمة للعالمين وقال:

«ائتوني بإناء الماء، أغسله كله».

فوثب الجميع من مكانهم خجلين وهو يقولون:

«فداك يا رسول الله، دع عنك ذلك، نحن ننظف القذارة، إنما هذا عمل يدوي لا قلبي، ونحن نعيش لخدمتك فإن قمت أنت بالخدمة فماذا نفعل نحن؟»

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«إني أعلم مدى محبتكم لي، ولكن في تنظيفي لهذا حكمة».

فلما سمع أهل البيت ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، مكثوا ينتظرون ظهور الحكمة العميقة المخفية في هذا الأمر.

كان لذلك الرجل المشرك صنم صغير وتميمة، يضعها في رقبته ولما أضاعها لم يثبت له قرار وقال لنفسه:

«يبدو أني أوقعت إلهي في الغرفة دون أن أعرف».

كان خجلًا من فعلته تلك إلا أن تعلقه بصنمه الذي كان معلقًا في رقبته غيب حياءه، فعاد مسرعًا من أجله، ورأى صنمه في غرفة المصطفى عليه الصلاة والسلام لكنه رأى أيضًا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان قد نظف الفراش الذي لوّثه هو.

فحطّم صنمه في قلبه وأزال حبه من فؤاده، وبات واعيًا، وقد وقع في أسْرٍ رفيع، ومزق ياقته، وغدا يضرب وجهه ورأسه بيديه والباب والحائط برأسه... وهو يقول:

«يا أيها الإنسان العظيم، يا عالي الشرف، يا عظيم الشأن! إني خجل من الغفلة في مقابل كرمك».

وكان يكلم الأرض بفؤاد منكوب:

«أيتها الأرض المليئة بالحكم! إنك تمتثلين لأمر الله تعالى وتنصاعين له، ولا تنفكّين تدورين بحبّه في حين أنني أطغى وتغلبني نفسي على الرغم من أنني شخص عاجز يتنعم بالنّعم التي عليك، أنتِ مهانة أمام الله تعالى وذليلة تذكرينه وأنت ترتجفين، وأما أنا فأعصي أوامره، عار عليَّ!..»

تستقبلين السماء بوجهك على الدوام، وتتوسلين إلى النبي ﷺ:

«يا قبلة الكون، لا وجه لي أنظر به إليك!».

ولما زادت حالة الأسْرِ هذه والارتعاش والانفعال، ضم سيدنا المصطفى ﷺ ذاك الذي يتخبط جاهدًا في محاولة منه الهروب من الكفر إلى قصر الروح، وأوصله إلى السلام، وأحيا قلبه المحطّم، وتلى على مسامعه كلمات رقيقة وعميقة وممتلئة أسرارًا، وبهذا أضحى الغافل المغلوب بصنمه فجأة أمام هذا القلب الحساس صديقًا قريبًا من هذه الأخلاق العلية التي كان بعيدًا عنها، وبات حائرًا من لطائف سلطان المعنى ومِن طبيعة صاحب التواضع الواسع...

«يا من شهدت بوحدانية الله، علمني كلمة التوحيد... كي أنضم إلى قافلة السعادة بالتصديق بوحدانية الله تعالى ونبوتك، فقد مللت من هذا الكائن الفظّ، والضمير النّهم، والبدن الأشبه بفيلٍ، ولِأَصل إلى صحراء الإيمان اللامتناهية».

علم النبي ﷺ ذاك الرجل الإيمان، فحلّت نطقه كلمة التوحيد المباركة أي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» العُقَد المفتولة، وقال المصطفى ﷺ:

«كن اليوم ضيفًا على بيتنا وقلوبنا أيضًا».

فقال الرجل الذي بات مسلمًا:

«والله أينما حللت وذهبت، فإني ضيفك إلى الأبد، كنت ميتًا فأحييتني، فأنا عبدك المعتَق، وخادمٌ في عتبتك، وما الدنيا والآخرة إلا ضيوف شفاعتك».

أصبح البدوي ضيف رسول الله ﷺ تلك الليلة، وما شرب من اللبن المحلوب من شاةٍ واحدة إلا القليل، ثم قام عن المائدة شاكرًا.

ومع أن النبي ﷺ أصرّ عليه بقوله: «اشرب اللبن وكل الطعام». فإن حديث العهد بالإيمان ذاك قال:

«والله إني لشبع، ولست بقائلٍ هذا عن حياءٍ يمنعني أو مديح أثني به على نفسي. لقد أكْفَت لقمةٌ ملآى بفيضكَ عن مئات اللقم. وقد شبعت أكثر من شبعي النّهم أمس...».

والحاصل أضحت هذه المعدة العظيمة لما تحرّر من ذل الكفر والطمع تشبع بمؤنة النمل، وهكذا بقيت...[90]

إن هذا الأعرابي المشرك والفظّ السَّمِجُ ذاب لما رأى في رسول الله عليه الصلاة والسلام وجه الإسلام الحسن وصفحه وسماحته وشفقته ولطفه وأنسه، وانقلب مسلمًا لطيفًا رفيقًا وصاحب فراسة.

❀

وفي الأزمات المعنوية يتعيّن علينا أن نقدم وجه الإسلام السمح ومحاسنه العظيمة للناس البسطاء عوضًا عن تركهم على أحوالهم، فإن مثل هؤلاء في حاجةٍ ماسة إلى هذا النوع من العون المعنوي كي يعيشوا حياة إسلامية شعارها الحق والخير.

يحدثنا يزيد بن الأصمّ فيقول:

«أن رجلاً كان ذا بأسٍ وكان يوفد على عمر لبأسه وكان من أهل الشام، وأنّ عمر فقَدَه، فسأل عنه فقيلٍ له: تتابع في هذا الشراب، فدعا كاتبه فقال: اكتب، مِن عمر بن الخطاب إلى فلان، سلامٌ عليك! فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلا هو إليه المصير».

---

٩٠ وللاطلاع على الروايات المشابهة انظر: الطبراني، المجمع الكبير، تح. حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢، ٢٧٤/ ٢١٥٢.

ثم دعا وأمّن من عنده، ودعوا له أن يقبل على الله بقلبه وأن يتوب عليه، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأ ويقول: غافر الذنب قد وعدني الله أن يغفر لي، وقابل التوب شديد العقاب.[٩١] قد حذّرني الله عقابه، ذي الطّول، والطول الخير الكثير، لا إله إلا هو إليه المصير، فلم يزل يردّدها على نفسه ثم بكى ثم نزع، فأحسن النّزع، فلما بلغ عمرَ أمرُه، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زلّ، فسدِّدوه ووفّقوه وادعوا الله أن يتوب عليه»[٩٢]

❀

كما يحكي لنا حضرة مولانا حادثةً حسنةً تظهر الوجه الحسن للإسلام وهي:

«لقي أحد المؤمنين –في زمن أبي يزيد البسطامي– عابدا من عباد النار، فقال له: ألا تسلم فتفلح، وتنال شرفا ًوسمواً؟ فأجابه عابد النار قائلا: يا من يريدني بلوغ الفلاح! إني لئن كنت عاجزًا عن إشهار إيماني لما ختمه الله على لساني، إلا أني في السرّ أؤمن بإيمان البسطامي، إذ أرى فيه حُسنًا وصدقًا لا مثيل له، وإني معجبٌ بالسمو الذي في إيمانه، فهو مختلف عن الكل، لطيف، لبق، مشرق، رفيع المقام جدًا، إنه الإنسان النموذجي.

فإنْ كان الإيمان الذي تدعونني إليه إيمانكم فلست لها... فما بيّ من ميلٍ ولا رغبة في إيمانكم، فلئن وُجدت في المرء مئات الدوافع للإيمان فلإن ما يراه فيكم من الشدة والغلظة يُضعف ميله إلى الإيمان، إذ إنه يرى فيكم اسم الإسلام لا رسمه وشكله لا حقيقته، فرؤية الإسلام في حالكم كرؤية الصحراء القاحلة على أنها أراضٍ خصبة تنبت الزهر والثمر...

وكأني أرى كل الجاذبية والوضاءة في إيمان أبي يزيدٍ، فلو قطرت من إيمانه مثقال ذرة على أصغر ما في الكون لحوّلته عالمـًا كبيرًا.

---

٩١ هذا الجملة مأخوذة من سورة المؤمنون الآية الثالثة.

٩٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت ١٩٨٨، ٤، ٧٦.

وأما إيمانكم فبما أنه لم يتجاوز القشر فقد وقع في أسر الرياء، عقيدةٌ آنِيّة زائلة، ومَثَلُ إيمانكم كمثل مؤذنٍ قبيح الصوت عديم الروح، يُنَفِّرُ في حين كان عليه أن يُحَبِّبَ، أي إن إيمانكم لو دخل حديقة الورود لكان شوكًا لها يقتلها.

إلا أن شمس إيمان أبي يزيد البسطامي، لو طلعت من سماء فيض روحه المباركة وأشرقت في هذا العالم، لغدت هذه الدنيا الفانية زمرّدًا حتى قعرها، ولأَضحت جنةً، ولتحوّلت عوالمُ أفئدة المؤمنين منبع فيض، ومن أجل هذا أيقظ إيمانُ أبي يزيد وصدقُه في فؤادي وروحي محبةً وشوقًا للإيمان لا توصف...».

❀

ويُروى أنَّ الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رحمه الله، كان له عند أحد المجوس مالٌ فذهب إلى داره ليطالبه به، فلما وصل إلى باب داره وقع على نعله نجاسة، فنفض نعله، فارتفعت النجاسة ووقعت على حائط دار المجوسي، فتحير أبو حنيفة وقال:

«إن تركتها كان ذلك سبباً لقبح جدار هذا المجوسي، وإنْ حككتها تساقط التراب من الجدار»

فطرق الباب، فخرجت جارية، فقال لها: قولي لمولاك إن أبا حنيفة بالباب، فخرج إليه المجوسي، وظنّ أنه يطالبه بالمال فأخذ يعتذر لأبي حنيفة،.فقال أبو حنيفة: ها هنا ما هو أولى، وذكر له قصة الجدار، وكيف السبيل إلى تطهيره، فقال المجوسي: إذن والله فأنا أبدأ بتطهير نفسي، فأسلم المجوسي في الحال.

وهكذا فقد أسلم المجوسي لما احترز سيدنا أبو حنيفة عن ظلم المجوسي في أمرٍ غاية في البساطة، وترك ما لَهُ من مالٍ لدى المجوسي، لذا يتعين التفكير فيما عند الله تعالى من العزة والجزاء لمؤمنٍ يحترس بعناية من الظلم والإجحاف. [٩٣]

٩٣ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»، بيروت ١٩٩٠، ١، ١٩٢.

كان لأبي حنيفة جارٌ سكّير عوّاد، إذا جنّ الليل أقبل على لعبه ولهوه، وكان كثير الصياح، وينادي وهو سكران: أضاعوني وأي فتى أضاعوا!!، فأخذه الحرس من داره وهو سكران وحبسوه، فافتقده أبو حنيفة، وافتقد صوته، فقال: ما فعل جارنا؟ لقد فقدنا صوته، فقيل: أخذه الحرس البارحة وحبسوه، فقال: قوموا بنا نسعى في خلاصه، فأتى السجنَ، وقال: جئت لمحبوس من جيراني، أخذه الحرس البارحة، وأسألكم أن تطلقوه، وتهبوا لي جرمه، فقالوا: قد فعلنا، فلما علم الشاب بالأمر، أسرع من فوره إلى الإمام وانهمرت من عينيه دموع الندامة، وأخبره بتوبته عن الشراب، ووعده بأنه سيكون جارًا جديرًا بأبي حنيفة وتلميذًا بين يديه، فنظر الإمام إلى الشاب في أسى وقال له: أتُرانا يا فتى أضعناك؟ فقال: بل حفظت ورعيت فجزاك الله خيراً عن حرمة الجوار.

❁

حُكي عن إبراهيم بن الأدهم، أنه مرّ بسكران، مطروح على قارعة الطريق، وقد تقيأ، وامتلأ فمه قيئا وزبدًا، وكان ينادي: الله، الله، فقال إبراهيم في نفسه: لا يليق باسم الله أن ينادي به لسان ملوث، وكان إبراهيم شيخاً جليلاً عظيماً، فجاء بنفسه وغسل فم السكران، فلما أفاق السكران أُخبر بما فعله معه إبراهيم ابن الأدهم، فخجل الرجل السكران من الله تعالى، وتاب، وحسنت توبته، فرأى إبراهيم في المنام كأن قائلاً يقول له، يا إبراهيم طهَّرت فمه من أجلنا، فطهرنا قلبه من أجلك...

❁

رأى معروف الكرخي بعضاً من الشبان يخرجون إلى القتال ينصرون بعض الظلمة، فدعا لهم: اللهم احفظهم! فقيل له: تدعو لهؤلاء!!، فقال: ويحك، إن حفظهم رجعوا ولم يذهبوا...

وكان معروف الكرخي قاعدًا يومًا على دجلة ببغداد، فمرّ به صبيانٌ في زورق يضربون بالملاهي، ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى

على هذا الماء! فادع الله عليهم، فرفع يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي، كما فرّحتهم في الدنيا أسألك أن تفرّحهم في الآخرة!! فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم!! فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا.

فتناهت كلمات معروف إلى أسماع هؤلاء الفتية فتأملوها مدةً، وأحسّوا بندامة كبيرة، وانتبهوا فأراقو الشراب ودموعهم تنهمر، وكسروا آلاتهم وتابوا، وطلبوا السعادة والفلاح في الدارين.

❀

هذا ويعتبر العصر العثماني بكل فئاته بدءًا من السلاطين وحتى عامة الرعية زمنًا لا مثيل له في فهم الإسلام وإظهار محاسنه، وما بلغنا من أمثلة يؤكد ذلك، فبعدما فتح السلطان العظيم محمد الفاتح اسطانبول «القسطنطينية»، دخل العلماء والعارفون والسادة «الباشوات» المدينة في موكب عظيم من أدرنة كابي، فألقى السلطان بتعليماته الأخيرة على الجند وهو على فرسه الأبيض، وقال: «أيها الفاتحون! الحمد والثناء للحق تعالى أن جعلكم فاتحي اسطانبول، لا تلمِسُنَّ مَن طلب الأمان ولم يقاتل، ولا تُلحقوا أدنى ضررٍ بالنساء والأطفال والعجائز والمرضى! وإنما خذوا من الغنائم التي لكم فحسب...

وتعد أحكامه هذه والتي أصدرها قبل وثيقة حقوق الإنسان بكثير، من أسمى وثائق تاريخنا القومي، وأما بطريرك اسطانبول المتعجب من سلوك الفاتح العادل فقد انكب على قدميه وعيناه مغرورقتان بالدموع، فقال له الفاتح وهو يرفعه: يحرم في ديننا الانحناء أمام الناس في هيئة السجود لله تعالى، قوموا! فإني رادٌّ لكم ولجميع النصارى كل حقوقكم وحرياتكم، فلا تخشوا بعد اليوم من غضبي وسخطي على حياتكم وحريتكم!..وستحفظ كافة الامتيازات التي اكتسبها البطريرك على مدى التاريخ باعتباره القائم على فرقة النصارى الأرثذوكس...

أعلن الفاتح عقب فتح اسطانبول عفوًا شاملًا، فخلّى سبيل المحكومين، وكان من بينهم قسّان عالمان فيلسوفان، فسأل الفاتح عن سبب سجنهما، فأجابا: كنّا من نخبة قساوسة بيزنطة، حذرْنا الملك بسبب ظلمه وأذيته، وما يقوم به من الخزي والفسوق، وأخبرناه بأن عاقبة أمره وخيمة ونهايته وشيكة، وأن الدولة منهارة لا محالة، فغضب وألقى بنا في السجن.

شدّت هذه العبارات انتباه الفاتح، فسأل القسّين عن رأيهما في الدولة العثمانية، فأخبرا بأنهما سيصرّحان بعد مدة من التحقق والتدقيق.

فكانا يدخلان ومعهما الأمر من السلطان أينما أرادا ومتى شاءا، فقصدا باكرًا دكانًا يشتريان منه خبزًا، فقال لهما صاحب الدكان: لقد استفتحت أنا فخذا من جاري الذي لم يستفتح.

حتى جالوا كل الأماكن المزدحمة والمهجورة، وتحدثوا وتسامروا مع الجميع فلم يروا في أحوال الرعية إلا الخير والسمو الأخلاقي.

وأثناء دخولهم في أحد الأسواق إذا بالأذان يرتفع صوته، ويذهب أصحاب الدكاكين إلى المسجد دون إقفال الأبواب، لا يحسد أحد أحدًا، ولا يغار أحدٌ من أحدٍ، وكأن الكل في ضمان وأمان الكل، يؤدّون صلاتهم في خشوعٍ وكأنها الأخيرة.

لا يأكل أحد حق الآخر، ولا يكسر بعضُهم قلب بعض، فلا يرغب أحدُهم بالمثول بين يدي المولى يوم القيامة وفي ذمته حق لعبد، بل جُلّ ما يفكر به كلهم دونما استثناءٍ إنما هو رضا الله تعالى، حيث يفكرون ويتكلمون ويعملون لرضا الله تعالى، كما أنهم يدعون للسلطان بالبركة في عمره والظفر لجيشه، فكان المجتمع مليئًا بأناسٍ مرهفي الإحساس، مؤدبين، رقيقي القلب، ذوي أفئدة صادقة.

ذَهَل القسّان لما رأياه، وعلى الرغم من تجوّلهما في العديد من المدن فإنهما لم يريا في المحاكم دعوى توجب جزاء عظيمًا، حيث كانت السرقة والجناية

وانتهاك الأعراض والاحتيال شبه معدومة، وإنما شدت انتباهَهم محاكمةٌ جعلتهم في دهشة.

قصد القاضيَ مدعٍ ومدعَىً عليه، فعرض المدعي مسألته كما يلي:

سيدي أنا اشتريت من أخي هذا أرضه، وعندما كنت أحرثها صادفت جرة ملآى بالذهب، فأخذتها وقصدت أخي هذا الذي اشتريت الأرض منه، وقلت له: خذ هذه فهي لك، ولكنه رفض قائلًا: لقد بعتك هذه الأرض بسطحها وجوفها!.. فلا يحلّ لي ذاك الذهب بعد، ولو أنه علم بوجود الذهب تحت التراب قبل البيع لما باعها.

فأذن القاضي للآخر بالكلام فقال:

«وقع الأمر كما أخبر به أخي، إلا أنني لما بعته إياها كنت على علم بدخول ما تحتها وما فوقها في البيع، فكما أنه لا حق لي فيما فوقها من المحصول فكذا فيما في جوفها».

كانت هذه الحادثة التي حضرها وشاهدها القسّان بعجب أمرٌ طبيعي بالنسبة للقاضي.

لم يجد القاضي صعوبةً في إيجاد حلٍّ لهذه القضية، فلما علم بوجود ابنٍ صالح لأحدهما وابنة صالحة للآخر، توسّط بينهما وعَقَد نكاح الولدين برضا الطرفين، وحَكَم بصرْف تلك الجرّة الممتلئة بالذهب في نفقات العرس وتجهيزاته.

وهكذا كان يتمّ تقديم خلق الإسلام وعدالته في واقع مشاهد ملموس.

وبعدما رأى القسّان كل هذا، أرسلا ابنتيهما إلى مدرسة وقد حلَّ الظلام، فقالت البنتان للشبان الذين فتحوا الباب: «حلّ الظلام، وأضعنا طريقنا، فهل تستضيفوننا الليلة عندكم، فلا حيلة لدينا!»، ففكّر الشبان مليًا، وأخيرًا قرروا التخلي عن غرفهم للبنتين، وأسدلوا ستارًا بين الطرفين، وجلسوا أمام جمر الموقد حتى أصبحوا، وفي الصباح أرسلوا البنتين.

فسأل القسّان وقد ساورهم الفضول البنتين كيف قضتا الليلة، فبينت البنتان ماحدث على النحو التالي:

تخلّوا عن أماكنهم لنا، وانسحبوا إلى زاوية الغرفة، يتناولون بأيديهم جمرات الموقد المتواجدة أمامهم ويتركونها قائلين لأنفسهم والحيرة تلفهم: «اللهم ربنا نجنا من عذاب جهنم!» ولم يلتفتوا إلينا أبدًا.

لم يستطع القسان منع نفسيهما من رؤية أحياء النصارى أيضًا، فخرجا نحو منطقة «فَنَرْ» يتجولان، يستطلعان، حتى النصارى قد تغيروا عما كانوا عليه فيما قبل الفتح، حيث قلّت نسبة الشر في الشوارع، فلم يكن أحد يجرؤ على إيقاع الظلم بالغير، بل كلٌّ على رأس عمله يؤديه في سلامٍ، وما عاد أحد يصادف من يشرب الخمر ثم يصيح في الشوارع كما في السابق، حتى إنه تم توزيع بيوت على الأسر المسيحية الفقيرة.

وبعد هذا البحث والتجوّل الطويل طلب القسّان الإذن بالمثول في حضرة الفاتح، وقالا بعد أن عرضا ما رأيا واحدًا تلو الآخر:

«إن ظلت هذه الملة وهذه الدولة على ما هي عليه الآن فإنها مستمرة حتى يوم القيامة، وما مِن شكٍّ في أنّ دينًا يربي النفوس على هذه الأخلاق دينٌ حقٌّ دونما ريب..». وبعدها أتيا بكلمة الشهادة وأسلما.

❁

وباختصارٍ فإن إظهار وجه الإسلام الحسن يُعد من أقوى الأساليب تأثيرًا في الدعوة إلى الله تعالى، وهي أصلٌ مباركٌ وخدمةٌ عليةٌ سارَ في دربها الأنبياء والأولياء والأصفياء على مدى التاريخ، ثمّ إنّ هذا هو ما سيخلّص الإنسان، وإلا فإنّ مَن لا يقوم بما يحدّث به ولا يتمثل ما تعلّمه فما من فائدةٍ مرجوةٍ مما يفعله لا لغيره ولا لنفسه حتى، لأن الله تعالى لا يقبل القولَ المجرّد عن العمل ولا يرضى عملًا خالطه الرياء.

قال سعدي الشيرازي:

«اقرأ ما شاء لك أن تقرأ، فإن لم تتصّرف بما تمليه عليك معرفتك، فإنك جاهلٌ».

يبدأ المؤمن بإظهار الوجه الحسن للإسلام عندما يرتفع إلى مرتبة الإخلاص والإحسان من خلال تنقيته أعماله من كل العلل القلبية.

أكرمنا يا ربي جميعا بهذه الحال الحسنة، ومنّ علينا بهذه الفضيلة...آمين!

د ـ انتشار الفساد وهلاك المجتمع العاقبة الأليمة لترك الإرشاد

الحياة في هذه الدنيا ـ التي خُلقت دارًا للامتحان ـ مليئة بنعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، إلا أن الاعتراض على أوامره ونواهيه جحود رهيب بالنعمة، ووقوع في ظلمات الجهل، وحمق وخيمُ العاقبة، ومَن ضل بجحود كهذا يكون قد ردّ حقيقة الإيمان ونظام الأخلاق الإلهي.

صفحات التاريخ المليئة بالعِبر تحدثنا أن الجحود والفساد والظلم كانت أكبر أسباب هلاك الأمم، وكانت سكرات الموت للشعوب الظالمة والجاحدة من تجليات الانتقام الإلهي المدهش.

تجليات الغضب الإلهي -والتي منها الطوفانات، الأعاصير، الزلازل، القحط، احتلال الأعداء، والأمراض المعدية- هي في الوقت نفسه إنذار أو وعيد من الله ﷻ للناس.

هذه الحوادث التي تبدو كأنها كوارث طبيعية، لا تحدث بشكل عشوائي، وإنما لها حِكَم وأسباب كثيرة، وعندما ننظر بعين العبودية إلى هذه الحوادث الأليمة نعرف أنها في الحقيقة ليست إلا نتيجة ذنوب ومعاصي بعض الناس من تلك الأمة، أو إنذار إلهي لبعض الأشخاص منهم.

وقد بيّن القرآن الكريم أنه حتى الورقة التي تسقط من الشجر إنما تسقط بقضاء وقدر إلهي، وإلا لَظهرت في الكائنات فوضى طبيعية، وهناك آلاف الأسرار المعنوية مخفية خلف جميع تلك الحوادث الطبيعية، هذه الأسرار واضحة وضوح الشمس للأنبياء والأولياء.

كما أن القرآن الكريم عندما ذكر هلاك الأمم السابقة توقف عند أسباب هلاكها إنذرًا للأمم التي تأتي بعدها، وأهم هذه الأسباب الذنوب والمعاصي، مثل نكران نعم الله تعالى، البطر تجاه النعم الكثيرة بدل الشكر، الظلم، التمادي في الجور، الفساد، الابتعاد عن طريق الهدى، اللامبالاة بالإنذار والإرشاد الموجه إليهم وتركها وراء ظهورهم، فإن لم يُعف عن ذنوبهم حُرموا من دخول الجنة.

أما إعاقة هذه الذنوب التي تجر الإنسانية إلى الهلاك فلا تكون إلا بقيام المؤمنين ذوي الفراسة بتعميم الإسلام في كل صفحات حياتهم وأن يكونوا مثالًا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، ولا يكمل التبليغ والإرشاد الذي أُمر به المسلمون إلا بهذا المنهج.

تقول الآية الكريمة:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله﴾ [٩٤]

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر...» [٩٥]

---

٩٤ آل عمران: ١١٠.

٩٥ الترمذي، الفتن، ٧٠/ ٢٢٥٧.

فعلى المؤمنين أن يكونوا دائمًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، فقد بشر النبي عليه الصلاة والسلام أولئك الذين جُعلوا مفاتيح للخير ومغاليق للشر بقوله:

«... **فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه...**»[96]

وعندما ينسى المسلمون مسؤولية الدين بابتعادهم عن حياتهم الإسلامية لأسباب مختلفة مثل الجهل والإهمال والسعي وراء مصالحهم، يظهر الفساد في المجتمع، وهذا الفساد والانحطاط ينتشر مع الزمن، ويضم إليه الناس الذين يحاولون الحياة في بيئة طيبة، ففي البداية يضعف الشخص الذي لا يستطيع تجنب هذا، ثم بعد ذلك يعم بحيث لا يمكن منعه، ويضر جميع الناس من فاسق وصالح، أما عاقبته المؤلمة فهي انجرار الناس مع الزمن نحو هلاك جماعي، فقد ذكرت الأية الكريمة:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[97]

هناك معاصٍ أضرارها شاملة، فالفوضى والفساد الذي ستسببه تلك المعاصي، والبلاءً والبأساء الذي ستأتي به، لن تنحصر في الظالمين ومقترفي تلك المعصية فحسب، بل تصيب إضافة إلى الظالمين؛ أولئك المعصومين الذين لم يقترفوا ولا علاقة لهم بذلك الذنب، وإضافة إلى العاصين ستلقى تلك المصيبة البرآء ظاهرًا أيضًا.

لهذا السبب يجب على المسلمين أن يؤدوا واجباتهم ومهامهم على أفضل وجه، وألا ينسوا الموت والحساب.

لكن مع الأسف أصبح كثير من الناس يتجاهلون أوامر الله ﷻ بتأويلات مختلفة لتناسب مصالحهم الشخصية، ويقعون في الغفلة حينما يجدون القليل

---

٩٦ ابن ماجه، المقدمة، ١٩/ ٢٣٧.

٩٧ الأنفال: ٢٥.

مما يفعلونه من الأوامر الإلهية كثيرًا بالمقارنة مع ما يؤديه العامة من الناس، كما يقترفون المنهيات ويبيحونها ويشرِّعونها حسب متطلبات البيئة بحجة عموم البلوى والاضطرار، مع أنه ليس لأحد التساهل في هذه الموضوعات، فواضع القوانين هو المولى جل وعلا، وكما وضع قواعد الدين فهو من سيحاسب الناس في النهاية أيضًا.

ينبغي أن تكون شخصية المسلم شخصية مؤمنة كاملة، وذلك حين ينعكس الإسلام على كل صفحة من صفحات حياته، ثم يقوم بتبليغ وإشاد من حوله بسلوكه وشخصيته الإسلامية تلك، ويربي أولاده التربية الدينية التي أمر الله تعالى بها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنه إذا أُهملت هذه المهمة فمسؤوليته صعبة جدًا، أما إظهار التعب والتراخي في هذه الخدمة فسيؤدي إلى عقاب عام وشامل، وقد قال النبي ﷺ في حديث يتحدث عن بني إسرائيل عندما بدأ الفساد ينتشر بينهم:

«إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل فيهم يرى أخاه يقع على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض»[٩٨]

و يقول في حديث آخر:

«إذا أنزل الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»[٩٩]

وأما الذين لا يستطيعون منع الفتن رغم مجاهدتهم الذنوب والمعاصي حتى آخر نَفَس، فأولئك معذورون عند الله تعالى، لكن هؤلاء وإن كسبوا أجرًا يوم القيامة إلا أنهم بقربهم من الظلمين والغافلين قد تصيبهم في الحياة الدنيا

٩٨ الترمذي، تفسير، ٥/ ٣٠٤٨؛ ابن ماجة، الفتن، ٢٠؛ أبي داود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٦.

٩٩ البخاري، الفتن، ٢٠/ ٧١٠٨؛ مسلم الجنة، ٨٤/ ٢٨٧٩.

المصائب والضراء، وهذا الضيق الذي يعيشونه سيزيد عذاب الظالمين الذين سببوا لهم هذا الضرر.

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، أنها قالت:

استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه يقول:

«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»

وعقد سفيان تسعين أو مائة قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:

«نعم، إذا كثر الخبث»[١٠٠]

هذا يعني أن الصالحين أيضاً إذا غضوا الطرف عن الطالحين ولم ينذروهم فقد استحقوا الجزاء آنذاك، ويشير النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة بقوله:

«إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه»[١٠١]

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[١٠٢]

وكم شهد تاريخ البشرية من صور البلاء الذي أنزله الله على الضالين عن طريق الهدى والرشاد، فقوم نوح وعاد وثمود المتكبرون، وفرعون الذي كذب رسل الله وادعى الربوبية، ثم كان آخر مشهد له في حياته غرقه في أعماق البحر الأحمر؛ ونمرود الذي غلبته ذبابة؛ وقوم لوط الذين انحطوا إلى درك لا تنحط له الحيوانات، وكثير من الناس والظالمين الذين تجردوا من الحياء والأخلاق والأدب، فكانت عاقبتهم الهلاك الأليم بسبب المعاصي والكبائر التي اقترفوها.

---

١٠٠ البخاري، الفتن، ٤/ ٧٠٥٩؛ مسلم، الفتن، ١/ ٢٨٨٠.

١٠١ ابن ماجه، الفتن، ٢٠/ ٤٠٠٥.

١٠٢ الترمذي، الفتن، ٩/ ٢١٦٩.

يقول المولى جل وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٠٣]

فكانت المصائب التي أتتهم نتيجة ذنوبهم، فخسروا دنياهم وآخرتهم بسبب معاصيهم وأخطائهم. يقول الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [١٠٤]

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [١٠٥]

ما أرحم الله بعباده! وما تحذيراته الكثيرة ببعض العقوبات الدنيوية لإنذار عباده الذين شرِدوا في معاصيهم، إلا دليل عظيم على رحمته.

كما أن الإنذار في الدنيا صغير جداً بالنسبة لعذاب الأخرة، لهذا السبب يبتلي الله تعالى عباده ببعض المصائب، ويمهلهم ويعطيهم الفرص لترك المعاصي والرجوع إلى طريق الحق، وقد بيّن أنهم إذا تنبّهوا لهذه الإنذارات وعادوا إلى طريق الحق يعفُو الله تعالى عمّا مضى من ذنوبهم، ويبدّل سيئاتهم حسنات، فرحمته تعالى ومغفرته وسعت كل شيء.

إلا أن من غرق في الأهواء النفسية الخادعة، ولم يُلقِ بالاً للإنذارات الإلهية، وضيّع بإصرار جميع فرص إصلاح النفس بالتوبة، فسوف تكون عاقبته وخيمة.

---

١٠٣ التوبة: ٧٠.

١٠٤ الروم: ٤١.

١٠٥ الشورى: ٣٠.

وتتحدّث الأية الكريمة عن هذا فتقول:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٦]

ليس ثمة سعادة أبدية مثل التمسك بدين الإسلام، فعلى المسلمين أن يحثُّوا بعضهم على تمثُّل دينهم كما ينبغي، وأن يكونوا مثل اليدين تغسل كلٌّ منهما الأخرى، ولا يتوانوا في تطبيق أوامر الله ﷻ أبدًا، فإنَّ تجاهل أوامر الله ﷻ، وتجاوز حدوده، يفسد نظام العالم، ويضيِّع العدل والإنصاف والرحمة والمحبة والأمن والأمان في النفس والمال؛ وينشر الظلم والجوع والسرقة والجرائم، وتنعدم الأخلاق والأدب، ويصبح الناس كأنما يعيشون في غابة يخاف كلٌّ من الآخر.

وقد أخبر النبي ﷺ في بعض أحاديثه أنه سيأتي ذلك الزمان بقوله:

«يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينُه إلا من فرَّ به من شاهق إلى شاهق، أو من حجر إلى حجر؛ كالثعلب بأشباله»

قالوا: متى يكون ذلك؟ قال:

«في آخر الزمان؛ إذا لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله» [١٠٧]

وفي حديث آخر:

«كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم؟».

قالوا: يا رسول الله، إن هذا لكائن؟ قال:

«نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟».

قالوا: يا رسول الله، إن هذا لكائن؟ قال:

«نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟» [١٠٨]

---

١٠٦ هود: ١٠٢.

١٠٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/ ٢٨٠.

١٠٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/ ٢٨١/ ١٢٢١٠.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**يأتي على الناس زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء،** قيل: مم ذاك؟ قال: **مما يرى من المنكر لا يستطيع يغيره**»[١٠٩]

هل نشعر أن جميع ما أخبرتْ عنه هذه الأحاديث الشريفة قد صار واقعًا في يومنا هذا؟ إذن علينا أن نتوجه إلى هذه الإنذارات الإلهية بجدية أكثر، وإلا لن يبقى لدينا أيُّ عذر نقدمه في حضرته جل وعلا، فالله تعالى وكذا النبي ﷺ قد بيّنوا لنا كل شيء بوضوح دون شوائب، تذكر لنا هذه الأية الكريمة هذا الأمر بقوله:

﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[١١٠]

نسأل المولى جل وعلا أن يوفقنا لنحيا كما يحب ويرضى، وأن نعتبر بالقرآن الكريم والسنة المطهرة! وأن يكرمنا بفهم الإسلام كما ينبغي أولًا، ثم تبليغه للناس بالحكمة والموعظة الحسنة! حتى لا نترك الفرصة لانتشار اللاأخلاقية والفساد والفجور، وأن يحفظنا تعالى من الوقوع في هاوية الضلال!...

آمين... يا رب العالمين!...

٢ ـ خدمات القرآن والعلم

إن العمل على خدمة القرآن والعلم من أهم الخدمات التي يمكن أن تُقدَّم للإنسانية، فكما أن الأغذية المادية ضرورية لاستمرار حياة جسم الإنسان في هذه الدنيا، فكذلك الأغذية الروحية والمعنوية أيضًا مهمة وضرورية لتأمين السعادة الأبدية، فإذا كان أجر من أحيا نفسًا كأنه أحيا الناس جميعًا، فكم سيكون عِظَم أجر وثواب المولى جل وعلا لمن يحيي الأرواح وينقذ النفوس.

---

١٠٩ علي المتقي، كنز العمال، ٣/ ٦٨٦/ ٨٤٦٣.

١١٠ الزمر: ٢٧.

فالغاية من خلق الإنسان ليست بقاءه في الدنيا إلى الأبد، بل تجهيزه للحياة الآخرة بتزكية نفسه وتطهير قلبه، فحتى تغذية جسمه المادي مرادٌ لتحقيق التكامل الروحي في استمرار حياته، يعني لتجهيزه للسعادة الأبدية.

فلله تعالى أسماء كثيرة تبيّن سَعة علمه ودقته وعمقه، وعلى الإنسان أن يعمل جاهدًا ليأخذ نصيبًا من علمه جل وعلا، لأن العلم أكبر خزينة وأهم قوة، وكما قال الشيخ سعدي:

«من زاد علمًا زاد قوة».

ففائدة العلم لا تنحصر بصاحبه فحسب بل تشمل كل من حوله حتى من الحيوانات والجمادات، وأهم وسيلة للتمييز بين الحق والباطل هو العلم، والانشغال بالعلم النافع هو أجل عبادة وأفضل طريق لكسب رضا الله ﷻ.

والإسلام ردّ جمع أنواع الجهل واستنكرها، لأن في كل شكل من أشكال الجهل نصيب من الكفر والمعصية.

يقول سيدنا عثمان رضي الله عنه:

«إن الجهل لَمرْكب، من ركبه ذل، ومن صاحَبه في السفر ضل الطريق».

ولا ننسى أن جميع العلوم هي عبارة عن ذلك النظام الفريد الذي وضعه المولى جل وعلا وسننه التي أقام عليها الكون كله، إذن حتى يصبح الإنسان صاحب علم لا بد عليه من الانتقال إلى الحكمة وأسرار الحياة والعمل وفقًا لهذه القواعد، وحتى لايبقى مكتفيًا بها بل التمكّن من الوصول إلى منبع تلك الحكمة والأسرار.

يقول مولانا جلال الدين الرومي عن حاله عندما كان في شاطئ العلم:

«كنت نيئًا»، وعندما أصبحت مدركًا للحكمة والأسرار: «نضجت»، وعندما وصلت إلى مرتبة معرفة الله بتقليب صفحات كتاب الكائنات: «احترقت».

إذن أنفع علم لبني آدم هو معرفة تلك الحقائق الإلهية التي أدرجها الله تعالى في القرآن الكريم أصلية وصافية دون أية شائبة، كل هذا يوصل إلى معرفة الله وهو المطلوب من العلم.

وقد شجعنا الله تعالى في القرآن الكريم لتحصيل هذا العلم بقوله:

﴿...وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١١]

﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١٢]

﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [١١٣]

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [١١٤]

عن قيس بن كثير، قال:

قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على

---

١١١ طه: ١١٤.

١١٢ المجادلة: ١١.

١١٣ فاطر: ٢٨.

١١٤ العنكبوت: ٤٣.

سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[١١٥]

ويبيّن سيد الكائنات في حديث آخر فضل العلم فيقول:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فَسُلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[١١٦]

والعلم كذلك فرع من فروع الجهاد، لأن غاية الجهاد هي تبليغ الإسلام للناس، وليس سفك الدماء، أما الحروب التي تُشن لاحتلال الأراضي فما هي إلا ظُلْم وظُلُمات للإنسانية، فالعلم هو أشرف طريق للجهاد في الإسلام، فقد ذكر الحديث الشريف:

«من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة»[١١٧]

«من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة»[١١٨]

وأهم ما ينبغى الانتباه إليه في أنشطة القرآن والعلم إنما هو الصدق والإخلاص، أما خدمات العلم والقرآن التي تُقام دون أن يُعمَل بها ويُبتَغى بها رضا الله تعالى، فلا تُحقِّق أي فائدة للإنسان، وكذا قال رسول الله ﷺ:

«من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ﷻ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[١١٩]

١١٥ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٢؛ أبو داود، العلم، ١/ ٣٦٤١.

١١٦ البخاري، العلم، ١٥، الزكاة، ٥ ؛ مسلم، المسافرين، ٢٦٨/ ٨١٦ .

١١٧ الترمذي، العلم، ٢/ ٢٦٤٦.

١١٨ الدارمي، المقدمة، ٣٢/ ٣٦٦.

١١٩ أبو داوود، العلم، ١٢/ ٣٦٦٤.

والمقصود بالعلم هو العلم النافع، وليس الانشغال بالمعلومات التي لا تحمل أي فائدة، فلا بد للعلم أن يُرشد الإنسان إلى طاعة الله والعمل الصالح، ويكون وسيلة لخدمة الناس، يقول المولى ﷻ في وصف أهل العلم الحقيقين بقوله:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٢٠]

فالعلماء الذين مدحهم الله تعالى هنا هم:

- القانت لله الذي يمضي ليله ساجداً مخلصاً لله تعالى.
- من كانت الآخرة همه، فيخشى غضب الله وعذابه يوم القيامة.
- من يرجو رحمة ربه الأبدية، ويعمل جاهدًا لأجله.

وللتّمكّن من الوصول إلى ما ذكرته الآية الكريمة لا بد من العمل ولزوم الدعاء دائمًا، فالأرواح الكبيرة إنما تحيا بالدعاء.

ففائدة العلم للإنسان تكون بحسب عمله به، فالعلوم التي لم تنتقل إلى الحياة مصيرها أن تبقى بين سطور الكتاب أو أن تُمحا من الأذهان وتُنسى.

قال يزيد بن سلمة: يا رسول الله، إني قد سمعت منك حديثا كثيرا أخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعا قال:

«**اتق الله فيما تعلم**»[١٢١]

❀

فمنبع جميع العلوم وخزائنها إنما هو في كتابنا المقدّس القرآن الكريم، لهذا فإن أجلّ علم هو تعلُّم القرآن والاشتغال بتعليماته، يقول النبي ﷺ:

---

١٢٠ الزمر: ٩.

١٢١ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٣.

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[١٢٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[١٢٣]

يقول الحسن البصري:

«أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان» [١٢٤]

فخدمة القرآن الكريم ـ الذي أنزل على القلب النبي الزكي، وفسّره بسلوكه حتى كان قرآنًا يمشي على الأرض ـ من أهم مظاهر التخلُّق بالأخلاق النبوية. فقد قال النبي ﷺ:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١٢٥]

وكان النبي ﷺ مثلًا أعلى للعمل بالقرآن، لهذا كان تعليم القرآن الكريم من أولى المهام التي يجب على المؤمن أن يبدأ بها، وبمعنى آخر خدمة القرآن والعمل به شرط من شروط الإيمان.

ولكن لا بد للعاملين في خدمة العلم والقرآن أن تمتلئ قلوبهم أولاً بحب الله تعالى، حتى ينعكس هذا الحال من القلوب المنوَّرة إلى من تخاطبها، ليسري الشعور والتفكر في أعماق الطلاب والجماعات.

---

١٢٢ الجن: ١.

١٢٣ الترمذي، فضائل القرآن، ١٤/ ٢٩٠٦؛ الدرامي، فضائل القرآن، ١ .

١٢٤ البيهقي، شعب الإيمان، بيروت ١٩٩٠، ٢، ٤٥٠.

١٢٥ البخاري، فضائل القرآن، ٢١/ ٥٠٢٧.

وعندما سُئِلَ النبي عليه الصلاة والسلام أي الناس أحسن صوتا للقرآن، وأحسن قراءة؟ قال: «**من إذا سمعته يقرأ، أريت أنه يخشى الله**»[١٢٦]

أما إن لم تنتقل القراءة أو العلم من اللسان إلى القلب، فلن يصل إلى آفاق التفكر بالقرآن الكريم.

صور الفضائل

عن أنس بن مالك ﵁ قال:

«أقبل أبو طلحة يوما فإذا النبي ﷺ قائم يقرئ أصحاب الصفة على بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من الجوع»[١٢٧]

ها هو رسول الله ﷺ كان شغله الشاغل تعلُّم القرآن وتعليمه، وفهمه وتفهيمه، وكان أكثر ما يطلبونه قراءة القرآن والاستماع إليه. يقول المولى جل وعلا:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١٢٨]

بدأت الآية الكريمة بالخطاب العام بقوله: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾**، ثم بعد ذلك خصص بذكر قراءة القرآن، وذكر الضمير العائد للشأن قبل القرآن الكريم يدل على أن أهم وأكبر عمل يقوم به النبي ﷺ هو قراءة القرآن الكريم،[١٢٩] كما نجد أن خدمة القرآن الكريم شأن عظيم وراق إلى هذا الحد.

❁

١٢٦ الدرامي، فضائل القرآن، ٣٤/ ٣٥٣٢.

١٢٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، بيروت ١٩٦٧، ١، ٣٤٢.

١٢٨ يونس، ٦١.

١٢٩ الزمخشري، الكشاف، تح. محمد مرسي عامر، القاهرة، ١٩٨٨، ٣، ١٧؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، بيروت، بدون تاريخ، دار إحياء التراث العربي، ٤، ١٥٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٣٩/ ٢٣٤.

خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين، إحداهما يقرءون القرآن، ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي ﷺ:

«**كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما**» فجلس معهم. [١٣٠]

قراءة القرآن الكريم من الفضائل الكريمة، لكن من شُغل بالعلم فهو يشتغل بعلوم القرآن والحديث، والمهم في كليهما فهم حِكم القرآن الكريم، والعمل بموجبه.

❁

وكم من العبر والمعاني يتضمنها هذا الحديث الذي يتحدث عن فضائل مجالس القرآن الكريم:

عن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال:

«**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»[١٣١]

❁

وإليكم هذه الرواية المهمة التي تبين أهمية العمل بالعلم في مجال خدمة العلم والقرآن الكريم: عن أبي عبدالرحمن السلمي قال:

---

١٣٠ ابن ماجه، المقدمة، ١٧/ ٢٢٩.

١٣١ البخاري، العلم، ٨/ ٦٦.

«كان رجل من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يعلمنا القرآن، وكان يقول: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نجاوزها إلى غيرها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها»[١٣٢]

❁

وفي حديث أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، وقال: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**العلم بالله**»، ثم أتاه فسأله، فقال مثل ذلك، فقال: يا رسول الله، إنما أسألك عن العمل؟ فقال:

«**إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره،... وإن الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره**»[١٣٣]

فالمقصودُ من خدمة العلم والقرآن وسائر الأعمال الصالحة معرفةُ الله تعالى والتشوق للوصال الإلهي.

❁

وقد حث رسول الله ﷺ على خدمة القرآن والعلم والاشتغال بهما، واحترم أهل القرآن، حتى إنه كان يقدمهم دائمًا. ففي غزوة تبوك حمل عُمارة بن حزم أولًا راية بني النجار، فأخذها النبي ﷺ منه فدفعها لزيد بن ثابت، فقال عُمارة: يا رسول الله! بلغكَ عنّي شيءٌ؟ فقال له الرسول:

«**لا، ولكن القرآن مقدَّم، وزيد أكثر منك أخذًا للقرآن**».

وفي قبيلتي الأوس والخزرج أيضًا أمر أن يحمل الراية أكثرهم حفظًا للقرآن، وعلى هذا حمل أبو عوف رايةَ بني عوف، وحمل رايةَ بني سلمة معاذٌ رضي الله عنه.[١٣٤]

❁

---

١٣٢ أحمد، مسند، ٧/ ٤١٠؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٦٥.

١٣٣ المناوي، فيض القدير، بيروت ١٩٩٤، ٤، ٦٨٨.

١٣٤ الواقدي، المغازي، بيروت ١٩٨٩، ٣، ١٠٠٣.

عن عثمان قال:

بعث النبي عليه الصلاة والسلام وفدا إلى اليمن، فأمر عليهم أميرا منهم وهو أصغرهم، فمكث أياما لم يسر، فلقي النبي ﷺ رجلا منهم، فقال:

«**يا فلان، مالك؟ أما انطلقت؟**».

قال: يا رسول الله، أميرنا يشتكي رجله. فأتاه النبي عليه الصلاة والسلام ونفث عليه «بسم الله، وبالله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما فيها» سبع مرات، فبرأ الرجل، فقال له شيخ: يا رسول الله، أتؤمره علينا وهو أصغرنا؟ فذكر النبي عليه الصلاة والسلام قراءته القرآن، فقال الشيخ: يا رسول الله، لولا أني أخاف أن أتوسد فلا أقوم به لتعلمته. فقال رسول الله ﷺ:

«**تعلمه، فإنما مثل القرآن كجراب ملأته مسكا ثم ربطت على فيه فإن فتحت فاح عليه ريح المسك، وإن تركته كان مسكا موضوعا، كذلك مثل القرآن إذا قرأته أوكان في صدرك**».[١٣٥]

❁

عن هشام بن عامر، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ يوم أحد، فقلنا: يا رسول الله، الحفر علينا لكل إنسان شديد؟ فقال رسول الله ﷺ:

«**احفروا وأعمقوا وأحسنوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في قبر واحد**»،

قالوا: فمن نقدم يا رسول الله؟ قال:

«**قدموا أكثرهم قرآنا**»، قال: فكان أبي ثالث ثلاثة في قبر واحد.[١٣٦]

❁

---

١٣٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/ ١٦١.

١٣٦ النسائي، الجنائز، ٨٦/ ٨٧، ٩٠، ٩١/ ٢٠١٠.

عن أنس بن مالك ﵁، قال:

كان أخوان على عهد النبي ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال:

«**لعلك ترزق به**» [١٣٧]

❁

وقد قدم لنا المولى جلّ وعلا مثلًا يحتذى به في تشوق سيدنا موسى ؈ لطلب العلم، والمشقة التي تحملها في هذا الطريق، فقال سبحانه:

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [١٣٨]

كما أن سيدنا موسى ؈ عندما لقي سيدنا الخضر ؈، قام مقام الطالب وقال له: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ...**﴾ [الكهف: ٦٠] وبعد أن ألقى ؈ طلب منه الإذن ليتبعه، فلما سمح له بمرافقته قال له: ﴿**عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٠] ويقصد بالرشد هنا العلم والحكمة، فسيدنا موسى لم يتقدم إلى الخطر ممتَحِنا له، ولم يتكبر عليه، بل طلب أن يكتسب بعض العلوم منه، ويستزيد من علمه، فالله تعالى ذكر النبي موسى ؈، وذكر رحلته ومشقته حتى يجد عالمـًا يتعلم منه مواضيع ثلاثة، متحملًا الجوع والعطش. [١٣٩]

❁

يُروى أن إلياس ؈ عندما رأى ملك الموت ارتعش، فسأله عزرائيل ؈ عن سبب ذلك قائلًا: يا نبي الله! أتخشى الموت؟ أجابه إلياس ؈: «لا! ليس لأني أخشى الموت، إنما لأنني سأغادر الحياة الدنيا». ثم قال: «كنت في الحياة

---

١٣٧ الترمذي، الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٥.

١٣٨ الكهف: ٦٠.

١٣٩ ابن القيم، مفتاح دار السعادة، الرياض، بدون تاريخ، ١، ٥٥_٥٦.

الدنيا أعبد الله تعالى، آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأقضي وقتي في العبادة والأعمال الصالحة، فكان حالي هذا مبعث سروري، ويملأ يومي بالسعادة والطمأنينة، إنما أحزن لأنني لن أجد هذه اللذة بعد موتي، وسأبقى رهين القبر حتى يوم القيامة». بتصرف.

إذن لا بد أن نقضي وقتنا بالعبادة، ونعمل جاهدين في خدمة القرآن والعلم، ونكثر من الأعمال الصالحة.

❁

وعن كليب بن شهاب قال:

«سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ضجة في المسجد فكان الناس يقرؤون القرآن ويقرؤونه، فقال: طوبى لهؤلاء، هؤلاء كانوا أحب الناس إلى رسول الله ﷺ». [140]

❁

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

«إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا، ثم يتلو ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى**﴾ [البقرة: ١٥٩] إلى قوله ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٠] إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم النبي عليه الصلاة والسلام بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون» [141]

و في هذه الأوضاع نجد أبا هريرة رضي الله عنه بين الصحابة من الأوائل الذين نالوا شرف نقل أقوال وأفعال وتصرفات النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأجيال التالية، فروى ما يقارب ٥٣٧٤ حديثًا مما سمعه ورآه من النبي عليه الصلاة والسلام ومن

---

١٤٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/ ١٦٢.

١٤١ البخاري، العلم، ٤٢/ ١١٨.

الصحابة الكرام، وهكذا أصبح أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف. وروى عن هذا الصحابي أكثر من ٨٠٠ صحابي و تابعي.

❀

وكان الصحابة الكرام يعملون بالقرآن الكريم بتعظيم كبير، فعن عبد الله بن مسعود أنه كان يُقرئ الرجل الآية ثم يقول:

«لهي خير مما طلعت عليه الشمس أو مما على الأرض من شيء حتى يقول: ذلك في القرآن كله»[١٤٢]

وقال أيضًا:

«عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق»[١٤٣]

❀

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

«والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه»[١٤٤]

عندما يُذكر العلم أول ما يخطر في البال علوم القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهذه الرواية تظهر مدى سعة الصحابة الكرام رضي الله عنهم في العلم، وكم من الشوق

١٤٢ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/ ١٦٦/ ١١٦٧٨.

١٤٣ الدارمي، المقدمة، ١٩/ ١٤٥.

١٤٤ البخاري، فضائل القرآن، ٨/ ٥٠٠٢.

والتعطش الذي يحملونه في لتعلم ما جهلوه، وفعلًا قدموا كثيرًا من التضحيات في خدمة العلم و القرآن.

ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر، إلى عبد الله بن أنيس، في حديث واحد.[١٤٥]

يقول أبو العالية وهو أحد التابعين:

«كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فلا نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم»[١٤٦]

وقال سعيد بن المسيب:

«إن كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد» [١٤٧]

وهكذا نرى أن الصحابة الكرام، والتابعين، والعلماء تحملوا كثيرًا من المشاق كالجوع والتعب في سبيل نقل العلوم والسنة بأوثق الأسانيد، والله تعالى رفعهم لأعلى مقام، فهم يُذكرون بدعاء الخير إلى يوم القيامة، ونال الأثر الذي قدموه مكانة أهم المصادر التي يُعتَد عليها بعد القرآن الكريم.

❁

عن يوسف بن عبد الله بن سلام، قال:

صحبت أبا الدرداء أتعلم منه، فلما حضره الموت قال: آذن الناس بموتي، فآذنت الناس بموته، فجئت وقد ملئ الدار وما سواه، قال: فقلت: قد آذنت الناس بموتك، وقد ملئ الدار، وما سواه قال: أخرجوني فأخرجناه قال: أجلسوني قال: فأجلسناه، قال: يا أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

١٤٥ البخاري، العلم، ١٩.

١٤٦ خطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية. ص ٤٠٣.

١٤٧ ابن كثير، البداية، ٩/ ١٠٦.

«من توضأ، فأسبغ الوضوء، ثم صلى ركعتين يتمهما، أعطاه الله ما سأل معجلا، أو مؤخرا»

قال أبو الدرداء: يا أيها الناس إياكم، والالتفات فإنه لا صلاة لملتفت فإن غلبتم في التطوع، فلا تغلبن في الفريضة.[١٤٨]

هذا الصحابي الجليل كان مشغولاً بنشر العلم الذي تلقاه عن النبي عليه الصلاة والسلام، وحتى عندما شعر بقرب وفاته أراد أن يُذكّر الناس بحديثٍ مهم سمعه من رسول الله ﷺ عن الصلاة، وهو في هذا كان يتبع رسول الله ﷺ الذي كانت آخر وصاياه عن الصلاة حين قال:

«الصلاة الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[١٤٩]

وهكذا نجد في تذكيره هذا مدى دقة ما كان يفكر به أبو الدرداء رضي الله عنه قبل وفاته.

قال عبد الله بن فروخ الفارس:

«سقطت آجُرَّة من أعلى دار أبي حنيفة وأنا عنده على رأسي فأُدميَ! فقال: اختر الأرش ـ أي الدية ـ أم ثلاث مئة حديث؟ قلت: الحديث، فحدثني»[١٥٠]

❀

عن ابن سيرين قال:

«دخلت المسجد، فإذا سمير بن عبد الرحمن يقص، وحميد بن عبد الرحمن يذكر العلم في ناحية المسجد، فميلت إلى أيهما أجلس، فنعست فأتاني آت، فقال: إلى أيهما تجلس، إن شئت أريتك مكان جبرائيل من حميد بن عبد الرحمن»[١٥١]

١٤٨ أحمد، مسند، ٦، ٤٤٢-٤٤٣/ ٢٧٤٩٧.

١٤٩ أبو داود، العلم، ١٢٣-١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجة، وصايا، ١.

١٥٠ عبد الفتاح أبوغدة، صفحات من صبر العلماء.، بيروت، ٢٠٠٣ ، ص٥٢-٥٣.

١٥١ الدارمي، المقدمة، ٣٢/ ٣٥٣.

فضّل ابن سيرين مجلس جبرائيل بعظيم لطفه تعالى وأصبح عالمـًا يُذكر اسمه إلى يوم القيامة.

❀

يقول يعقوب بن سفيان:

«كنت في رحلتي في طلب الحديث، فدخلت إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخًا، احتجت إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقلَّت نفقتي، وبعدت عن بلدي، فكنت أدمن الكتابة ليلًا، وأقرأ عليه نهارًا، فلما كان ذات ليلة، كنت جالسًا أنسخ، وقد تصرم الليل، فنزل الماء في عيني، فلم أبصر السراج ولا البيت، فبكيت على انقطاعي، وعلى ما يفوتني من العلم، فاشتد بكائي حتى اتكأت على جنبي، فنمت، فرأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم، فناداني: يا يعقوب بن سفيان! لِم بكيت؟ فقلت: يا رسول الله! ذهب بصري، فتحسرت على ما فاتني من كتب سنتك، وعلى الانقطاع عن بلدي، فقال: ادنُ مني، فدنوت منه، فأَمَرّ يده على عيني، كأنه يقرأ عليهما، قال: ثم استيقظت فأبصرت، وأخذت نسخي وقعدت في السراج أكتب»[١٥٢]

❀

الأمير سليمان بن يلدرم بايزيد خان عاقبه الأستاذ مرة لإهماله ما يتوجب عليه من الدروس، فغضب الأمير لهذا وذهب مباشرة إلى القصر، وشكى الأستاذَ لوالده، فلقي يلدرم خان الأستاذ وسأله عن سبب عقابه للأمير سليمان، فأجاب الأستاذ بكل هدوء ووقار بهذا الجواب الذي خلده التاريخ:

أيها السلطان! سيطلب الأمير ولاية هذه الدولة في الغد القريب، وسيُؤتمن على الأمة، وبقاؤه جاهلا يضر شعبه، نعم هو الأمير الآن، لكنه لم يصبح من أرباب العلم والحال بعد، لهذا فأنا مضطر لتربيته وتنشئته كما يجب...

١٥٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب، بيروت ١٩٩١، ٦/ ٢٤٣-٢٤٤.

فخفض يلدرم بايزيد عينيه احترامًا وقال:

أنت على حق يا أستاذنا! وإذا اضُطر الأمر يمكنكم معاقبتي أنا أيضًا! وطالما كان الأساتذة بيننا من أمثالكم فسنحكم العالم...

حضر الأستاذ ـ الذي فهم المعنى الخفي في كلام السلطان ـ في اليوم التالي للدرس، ولم يلتفت للسلطان يلدرم خان الذي سأله عن سبب عقابه لابنه، وهكذا فهم شهزاده خطأه بعد أن رأى بنفسه عظم مكانة أستاذه وخاصة أمام والده، ومنذ ذلك اليوم صار طالبًا مجتهدًا في طلب العلم وتحصيله.

❀

كان السلطان محمد الفاتح يراجع ميزانية الدولة مع وزرائه، وكان المبلغ الذي خصصه السلطان للمدارس كبيرًا، وعندما علم وزير المالية بهذا المبلغ لاذ بالصمت مندهشًا. فقال الفاتح – وقد شعر بحال الوزير بفراسته وبصيرته– :

أيها الوزير! لماذا ما تحدثتم في موضوع الميزانية؟ وأنتم أحق بالحديث لأنكم وزير المالية.

قال الوزير دون أن يظهر حاله:

لِنستفيد أيها السلطان...

قال الفاتح:

أيها الوزير! لعلك رأيتَ المبلغ الذي خصصتُه للمدارس كثيرًا، وأراد بذلك أن يكاشف الوزير بما في نفسه ليبين له حجته.

فاضطر الوزير أن يوضح سبب سكوته قائلًا:

نعم أيها السلطان! بينما للدولة آلاف المسؤوليات، فقد خصصتم على واحدة منها فقط ـ وهي تحصيل العلم ـ مبلغًا أكثر مما يجب.

وعلى هذا ردّ السلطان الذي أراد توضيح الموضوع بفراسته، وقال بكل هدوء بأسلوب مقنع:

أيها الوزير! كل عمل له سفير، وخاصة مهنة العلم فسفراؤه كثيرون، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«...**العلماء ورثة الأنبياء**...»[١٥٣]

وليس من السهل الوصول إلى مقام وكيل النبي عليه الصلاة والسلام، فمن هذه الجهة سفراء العلم أكثر بالنسبة للمِهن الأخرى.

أما المِهن الأخرى، فكقماش ملون لا يضره ولا يغير لونه ما يصيبه من الماء العكر، أما مهنة العلم فكقماش أبيض لو حطّت ذبابة عليه لغيرته.

وهنا سأل السلطان وزيره قائلًا:

أيها الوزير! كم شخصًا ينشأ من بين مئة طالب قدمنا لهم هذه الإمكانية؟ هل ينشأ منهم أربعة أو خمسة أشخاص؟

أجاب الوزير:

نعم أيها السلطان! ينشأ طبعًا، لكن كم يخرج من هذا!؟؟.

تبسم السلطان، وقال:

هل تعلم أن من يُنشِئ كل هؤلاء الأهالي ويُنيرهم إنما هم هؤلاء الأربعة أو الخمسة الأشخاص.

طأطأ الوزير رأسه واعترف بالحقيقة وقال:

أجل أيها السلطان! هذا صحيح... فمُلئ قلب السلطان بالسرور لأنه حل هذا الموضوع بسهولة بفضل فراسته وبصيرته، وقال:

أيها الوزير! ما دام ينشأ في مدارسنا أربعة أو خمسة أشخاص من بين مئة طالب ليرشدوا أهلنا، فلا بد أن نقبل الآخرين كسفراء ونقوم برعايتهم.

❁

١٥٣ أبو داوود، العلم، ١/ ٣٦٤١.

ويروى أنه تعرض السلطان سليم خان وجيشه لمطر غزير قرب مدينة أضنة، وغطَّى الطينُ المكان، وفي هذه الأثناء كان السلطان سليم خان يمشي جنبًا إلى جنب مع عالم عصره كمال باشا زاده يتحدثان، وفجأة ارتعش حصان كمال باشا زاده ووصل الطين الذي تناثر من قفز الحصان على رداء السلطان سليم، فاستاء كمال باشا زاده كثيرًا، وتغيّر لونه، فالتفت السلطان إليه وقال مبتسمًا: الطين المتناثر من أقدام حصان العلماء شرف وبركة لنا، وإذا مِتُّ غطوا قبري بهذا الرداء الملوث بالطين.

هذا الاحترام والإجلال لأرباب العلم كان القوة الأكبر والدعم الذي أمّن تكامل العلم وشيوعه في الدولة العثمانية.

❀

والحاصل؛ ينبغي على المسلمين إعطاء أهمية لخدمة القرآن الكريم والعلم، وتحمُّل المشقات في سبيل تحصيلهما وتعليمهما لكل الفئات العمرية، فسعادة الدنيا والآخرة متعلقة به.

فالمشاركة في خدمة العلم والقرآن وسيلة لنيل البشرى التي بشر بها النبي ﷺ:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١٥٤]

وخدمة العلم والقرآن الكريم تعز الإنسان في الدنيا والآخرة، وتجعله يفوز بلقاء الله تعالى بعد التقرب إليه، فعلى كل مؤمن يبتغي رضا الله تعالى بكونه عبدًا صالحًا الإسراع إلى خدمة العلم ومساندة أهل العلم ما استطاع.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة»[١٥٥]

---

١٥٤ مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١.

١٥٥ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٦.

٣ ـ الخدمات الاجتماعية

أراد الله تعالى أن يعيش البشر في جماعة، واقتضت حكمته أن جعلهم يحتاجون بعضهم بعضًا، وأمرهم أن يُصلُّوا صلواتهم جماعة، ويعطي غنيهم الزكاة لفقيرهم، ويحجوا إن استطاعوا ويتعرفوا على العالم الإسلامي، كل هذا ليتعاون الناس في عبادة الله تعالى، ويشجعوا بعضهم، لهذا السبب أكرم الله تعالى من يقوم بهذه الخدمات الاجتماعية بأجر عظيم.

قال رسول الله ﷺ:

«من أصبح منكم اليوم صائما؟»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن تبع منكم اليوم جنازة؟»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن أطعم منكم اليوم مسكينا»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن عاد منكم اليوم مريضا»

قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ:

«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[١٥٦]

يبين النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الأسئلة أن على المؤمن أن لا يكون أنانيًا ويكتفي بالأعمال الفردية، بل أن يكون كريمًا ذا قلب واسع.

ويخبرنا النبي ﷺ عن فضل وقيمة هذه الخدمات في حديث قدسي فيوضح لنا أن الخدمات الاجتماعية تقرّب العبد من الله تعالى:

---

١٥٦ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢/ ١٠٢٨.

«إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك، فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[١٥٧]

لهذا لا بد أن نشعر نحن المؤمنين بالمسؤولية عمن حولنا، ولا نهمل هذه العبادات الاجتماعية أبدًا.

فجميع العبادات الاجتماعية كنصيحة الناس بالخير، ونهيهم عن الشر، وعدم أذاهم، وتحمل ما يصيبنا من الأذى منهم، والتعايش معهم، ولقاؤهم في صلوات الجماعة، ومشاركتهم بحضور مجالس الخير والعلم والذكر، وزيارة مرضاهم، ومواساة مصابهم، واتباع جنائزهم، ومساعدة المحتاجين منهم، وإرشاد الجاهلين منهم، كل هذا من سنن النبي ﷺ، وبهذا يكون الإنسان قد قضى عمره بخدمة عباد الله تعالى.

لقد تحمل النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا من الأذى، فأوذي كثيرًا، وتحمل الضراء كثيرًا، لكنه لم يتوانَ ولم يفكر أن يسترخي أبدًا، حتى عندما أكرمه الله تعالى هو والمسلمين بالقوة والنصر فقد ضاعفوا من جهودهم وأعمالهم.

كان العباس ؓ الذي لم يرتح فؤاده لحالة ابن أخيه المبارك قد أراد أن يسْلَم فخر الكائنات من أذى الناس فيجلس في عرش عالٍ، إلا أن النبي المرسل رحمة للعالمين ﷺ، ففي الرواية أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله لو اتخذت عرشا فإن الناس قد آخوك قال:

١٥٧ مسلم، البر، ٤٣/ ٢٥٦٩.

«والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوني ردائي ويصيبني غبارهم حتى يكون الله يريحني منهم!»

قال العباس: فعرفنا أن بقاء رسول الله فينا قليل.[158]

ونبه المؤمنين بقوله:

«المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[159]

إن تبسم المسلم في وجه أخيه المسلم، وإلقاءه السلام عليه، وإزالة الأذى من طريقه، وتقديم العون لمن أثقله حمله، وتعليمه الجاهل، وإنفاقه على عائلته بكسبه الحلال، وتقديمه التعازي لمكسوري الجناح في المآتم، وإنفاقه، ومشيه إلى المساجد، وأمثال هذا من أبواب الخير، كل هذا يعد عبادة وخدمة اجتماعية ذات قيمة. لقد يسّر الحق تعالى لعباده سبل الخير فضلًا منه ومنًّا، ووعدهم بالمقابل مكافآت عظيمة، ولذا فلا يشبع المؤمنون الذين كمل إيمانهم من أي خير حتى يدخلوا الجنة.

ومن أحد أهم الخدمات الاجتماعية مساعدة الراغبين في الزواج ممن عجز عنه لعدم توافر مستلزماته، فمن سنحت له الفرصة للقيام بهذه الصدقة الجارية فاز فوزًا عظيمًا من خلال اتباعه أمر الحق تعالى.

وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِهِ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[160]

---

١٥٨ ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٩٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢١.

١٥٩ الترمذي، القيامة، ٥٥، ٢٥٠٧.

١٦٠ النور: ٣٢.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الصدد:

«**من أفضل الشفاعة أن يشفع بين الاثنين في النكاح**» [١٦١]

ويقول ابن العربي في فضل الحث على النكاح ومساعدة المتزوجين:

«أفضل الصدقة الجارية أن تكون وسيلة في التزويج، فكل خير تفعله ذرية المتزوجين يعود بالأجر على من كان سببًا في زواجهما».

وبالطبع لا بد من القيام بهذا في ابتغاء رضا الله تعالى أي خالصاً لوجهه كما هي الحال في كل الخدمات، ويبشر النبي ﷺ من بلغوا هذا المقام بقوله:

«**من أعطى لله تعالى، ومنع لله تعالى، وأحب لله تعالى، وأبغض لله تعالى، وأنكح لله تعالى فقد استكمل إيمانه**»[١٦٢]

إذن فمن أوفى الخدمات الاجتماعية بإخلاص، نال أجرًا عظيمًا.

ويعتبر كون الإنسان اجتماعيًا ضروري في التصوف، وبالأخص في النقشبندية، حيث إن الصحبة التي تعد أسلوبًا اجتماعيًا تُعتبر أساسًا، وعلاوة على هذا فقد كانت حالة مواصلة الحضور بين الناس والخلوة مع الله تعالى قلبًا، أفضل من الخلوة معه وحيدًا في مكان بعيد عنهم، ولهذا جعلوا المحافظة على شعور مراقبة الحق حتى مع الخلق، من أهم الأسس، وبمعنىً آخر ابتغاء العيش ضمن قانون «اليد في العمل والفؤاد مع الحبيب».

كان أجدادنا مدركين بحق لأهمية الخدمات الاجتماعية، ولذا فقد كانت همتهم وحرصهم الذي أظهروه في إقامة آثارٍ تعود بالفائدة على الخلق، أعظم من التي أبدوها في تلبية احتياجاتهم الشخصية، حتى إن أعداء الإسلام اللدودين اعترفوا بهذا وأذعنوا له.

---

١٦١ ابن ماجه، النكاح، ٤٩/ ١٩٧٥.

١٦٢ أحمد، مسند، ٣، ٤٣٨/ ١٥٦١٧.

علماً بأن البابا البروتستانتي المتشدد «Salomon Schweigger»،عندما أتى بلادنا في أواخر القرن السادس عشر، فإنه لم يتمكن من إخفاء حيرته لما رأى المسلمين أجمعهم بدءًا بسلطانهم وانتهاءًا بالرعية يشيدون المساجد والآثار العامة ويزينوها بأحسن ما يكون في حين أن بيوتهم في غاية التواضع. وذلك حسبما سجله في مذكرات سياحته، «سياحت نامه»[١٦٣]

إن أول ثمرة الإيمان الكامل إظهار الشفقة والرحمة بمخلوقات الله تعالى، والخدمة من أحسن صور الرحمة والشفقة، ولذا فإن الخدمات الاجتماعية مبنية على أساس الرحمة لمخلوقات الله تعالى، فتعتبر جميع الخدمات الاجتماعية المقدمة للناس بناء على هذه الأسس، عبادة للحق تعالى بمعناها العام.

أ ـ الشفقة على خلق الله

لقد أكثر لله تعالى في كتابه الكريم من ذكر صفاته الدالة على عطفه ورحمته بقوله: ﴿**أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[١٦٤]، وأخبر أن رحمته أحاطت بكل شيء، وهذه الرحمة المحاطة بالمخلوقات إنما هي في الحقيقة من تجليات رحمته الأبدية، يقول رسول الله ﷺ:

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[١٦٥]

وشاء ربنا ﷻ ذو الرحمة الواسعة أن يحمل خلقُه أحاسيس العطف والرحمة بعضُهم لبعض، ولهذا نرى أنّ من أهم صفات النبي عليه الصلاة والسلام رحمته الفائقة، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، إضافة إلى ذلك وصف الله ﷻ نبيّه

١٦٣ إيلبر أورطايلي، كشف العثمانية من جديد، إسطنبول ٢٠٠٦، ص ٥٧، ٨٨.

١٦٤ الأعراف: ١٥١.

١٦٥ البخاري ، الأدب ١٩/ ٦٠٠٠؛ مسلم، التوبة، ١٧.

الكريم بصفاته الرؤوف والرحيم[١٦٦]، مع أنه لم يُذكَر أنه وصف أحدًا من أنبيائه السابقين بهاتين الصفتين معًا.[١٦٧]

والنظر لكل مخلوق بشفقة ورحمة وعطف إنما هو دليل على علو الإيمان، فالمؤمن الكامل هو إنسان منير مثل ضوء القمر في ظلمة الدجى، مرهف الإحساس، رحيم، عطوف وكريم، أما القلوب الخاوية عن الرحمة فهي قلوب ميتة. قال النبي ﷺ:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله»[١٦٨]

وعن النبي ﷺ قال :

«من لا يَرحم لا يُرحم»[١٦٩]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول:

«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[١٧٠]

وقد بيّن النبي ﷺ في حديثه الشريف أهمية النظر للمخلوقات بالرحمة بقوله:

«...والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا»

قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال:

«إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة»[١٧١]

---

١٦٦ انظر: التوبة: ١٢٨.

١٦٧ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت ١٩٨٥، ٧، ١٩٢.

١٦٨ الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٤.

١٦٩ البخاري الأدب، ١٨؛ مسلم، فضائل، ٦٥/ ٢٣١٨.

١٧٠ الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٣؛ أبو داود، الأدب، ٥٨/ ٤٩٤٢.

١٧١ الحاكم، المستدك، بيروت ١٩٩٠، ٤/ ١٨٥/ ٧٣١٠.

ومن أهم الخصائص التي تحيي المؤمن في روضة الإيمان، وتُخلّص النفوس من الكبر والبخل، وتغوص بها في أعماق الإيمان إنما هي الرحمة، وثمارها الكثيرة من الكرم، والتواضع، والخدمة، والعفو، والتنزه عن الحسد، وما أجمل ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام:

«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[١٧٢]

والرحمة هي السعادة النفسية والبشرى بالجنة في الحياة الدنيا، أما في الأخرة فرأسمال السعادة الأبدية، فقد جاء أحدُهم إلى معاذ بن جبل، وقال: أوصني، فقال معاذ بن جبل: ارحم أضمن لك الجنة.

صور الفضائل

عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نقبل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[١٧٣]

❁

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال:

أرسلت ابنة النبي عليه الصلاة والسلام إليه إن ابنا لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول:

«إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»

١٧٢ البخاري، الأدب، ٢٧/ ٦٠١١؛ مسلم، البر، ٦٦/ ٢٥٨٦

١٧٣ مسلم، الفضائل، ٦٤/ ٢٣١٧.

فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع – قال: حسبته أنه قال كأنها شن – ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال:

«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١٧٤]

❁

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن أبا أسيد جاء إلى النبي ﷺ بسبي من البحرين، فنظر النبي ﷺ إلى امرأة منهن تبكي قال: «**ما شأنك؟**» قالت: باع ابني قال رسول الله ﷺ لأبي أسيد: «**أبعت ابنها؟**» قال: نعم قال: «**فيمن؟**» قال: في بني عبس، فقال النبي ﷺ: «**اركب أنت بنفسك فأت به**»[١٧٥]

❁

وعن عمر رضي الله عنه، أنه قالَ: قدم على النبي ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي، تبتغي، إذا وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ:

«أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»

قلنا: لا، والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ:

«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[١٧٦]

❁

فالمسلمون يعاملون عباد الله معاملة عطف ورحمة حتى ولو كانوا أعداءهم. فقد روي أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال: كنت في الأسرى يوم بدر،

---

١٧٤ البخاري، الجنائز، ٣٣/ ١٢٨٤؛ مسلم، الجنائز، ١١.

١٧٥ عبد الرزاق، المصنف، ٨، ٣٠٧/ ١٥٣١٧؛ علي المتقي، كنز العمال، ٤/ ١٧٦.

١٧٦ مسلم، التوبة، ٢٢/ ٢٧٥٤.

فقال النبي ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرا**». وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البر لوصية النبي ﷺ»[١٧٧]

❀

عن أبي واقد الليثي، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يجبون أسنمة الإبل، ويقطعون أليات الغنم، فقال:

«**ما قُطع من البهيمة وهي حية، فهو ميتة**» [١٧٨]

فالنبي ﷺ لم يُبعَث رحمة للإنسانية فحسب بل أرسله الله رحمة للعالمين جميعًا، حتى الحيوانات نالها من رحمته نصيب.

❀

وقد مرّ النبي ﷺ برجل، وهو يجر شاة بأذنها، فقال:

«**دع أذنها، وخذ بسالفتها**»[١٧٩]

كما أمر رسول الله ﷺ بحد الشفار، وأن توارى عن البهائم، وقال:

«**إذا ذبح أحدكم، فليجهز**»[١٨٠]

❀

وبينما كان رسول الله ﷺ في الطريق إذ رأى ناسًا قد ركبوا بهائمهم وهي واقفة، فقال:

«**اركبوا هذه الدواب سالمة، وايتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**»[١٨١]

---

١٧٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦/ ٨٦/ ١٠٠٠٧؛ ابن هشام، ٢، ٢٨٨.

١٧٨ الترمذي، الصيد، ١٢/ ١٥٥٥.

١٧٩ ابن ماجه، الذبائح، ٣/ ٣١٧١.

١٨٠ ابن ماجه، الذبائح، ٣/ ٣١٧٢.

١٨١ مسند، أحمد، ٣/ ٤٣٩.

وهذا مثال كاف يظهر حفاظ الإسلام على حقوق الحيوانات، وأن الإسلام دين حق وعدل ورحمة في عصرٍ تجاوزت وحشية الناس وحشيةَ الذئاب.

ثم إن الله تعالى ـ وإن أكرمنا نحن المؤمنين عقلًا متفكرًا وقلبًا ذاكرًا ـ إلا أن نظرتنا للحيوانات ينبغي أن تكون مختلفة، فهي أيضا تذكر الله تعالى أكثر من الناس الغافلين الذين يركبونها، فكل المخلوقات تذكر الله تعالى حسب إدراكها، إلا أننا لا نفهم ذكرها لأن إدراكنا محدود، كما ذكرت الآية الكريمة ذلك:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [١٨٢]

❁

سئل يوسف عليه السلام في زمن القحط: لماذا تبقى جائعًا مع أنك أمير الخزائن؟ قال: أخشى إن شبعت أن أنسى الجياع ولا أشعر بحالهم.[١٨٣]

❁

وتروي أُمِّ قَيْسٍ فتقول:

تُوفي ابني فجزعت عليه، فقلت للذي يغسله: لا تغسل ابني بالماء البارد فتقتله، فانطلق عكاشة بن محصن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها، فتبسم، ثم قال: «**ما قالت طال عمرها** »، فلا نعلم امرأة عَمِرت ما عَمِرت.[١٨٤]

خُلق الإنسان كريمًا، وهذا يعني يجب تكريم الميت كما يُكرّم الحي، لذلك نُهي عن غسل الميت بماء بارد أو حار، أو أن يُساء إليه.

---

١٨٢ الإسراء: ٤٤.

١٨٣ البورصوي، روح البيان، اسطنبول ١٩٦٩، ٤، / ٢٨٤.

١٨٤ النسائي، الجنائز، ٢٩/ ١٨٩٣.

وهناك عبرة أخرى يمكن أن نستخرجها من هذا الحديث، وهي أن الشفقة تزيد من العمر.

❁

في يوم من الأيام خرج عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى واحد من بساتين النخيل التي يملكها، وكان عبد الله يملك الكثير منها ويُعرف عنه الجود والكرم، وكان في البستان غلام يعمل أجيرًا، وقد لاحظ عبد الله حسن رعاية الغلام للبستان مما ظهر من نضارة زروعه ووفرة ثماره، فلما حلت الظهيرة أعد القائم على النخيل طعام الغداء لعبد الله بن جعفر، ثم استأذنه أن يذهب إلى الغلام فيقدم له حصته من الطعام، فراح الأخير وقدم للأجير ثلاثة أرغفة كاملة.

أخذها الغلام شاكرًا وقام فغسل يدي واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم سمى باسم الله وتناول واحدة من الأرغفة بيده اليمنى وهَمّ أن يقضمه لكن في هذة اللحظة، اقترب كلب منه وراح ينبح بصوت خفيف، فنظر إليه الغلام برأفة وقدم إليه الرغيف الذي كان بين يديه، وراح يتأمل لهفة الكلب على التهام الرغيف، حتى انتهى من تمامها، عندها قدم له الغلام الرغيف الثاني فالتهمه الكلب وقدم له الثالث والأخير دون أن تفتر ابتسامته للحظة، فما تهاون الكلب في تناول الرغيف بل التهمه كسابقيه وانصرف يهز ذيله سعيدًا.

«بينما كانت عين عبد الله بن جعفر تراقب ما يدور أيضًا، فتعجب عبد الله من تصرف الغلام وذهب إليه؛ وسأله: أيها الفتى هلا أخبرتني كم قوتك كل يوم؟ قال الغلام: ثلاثة أرغفة ليس غير، فاحتار عبد الله من تصرف الغلام، وقال: إذن لماذا أعطيتها كلها للكلب؟ ولماذا كنت تتأمله مبتسمًا وهو يلتهم الطعام؟ قال الغلام: الحقيقة ياسيدي إن أرضنا هذه ليس فيها كلاب وأظن أن هذا الكلب قد جاء من مسافة بعيدة، وهو لا بد جائع، فكرهت أن يعود بجوعه، قال عبد الله: ربما كان

يكفيه رغيف من الثلاثة، قال الغلام: عندما أعطيته الرغيف الأول حمدت الله أنني إنسان أستطيع أن أُخبر عن حاجتي بقوة اللسان، وانتظرت أن ينتهي لأقدم له الرغيف الثاني، فحمدت الله أنني لست غريبًا لا يضمن حسن رفادة أصحاب الأرض لي، ورغبت أن أرحم جوع الكلب وغربته وقلة حيلته.

قال عبد الله :وبماذا تتقوت أنت اليوم؟ قال الغلام: لن أتناول أيَّ طعام في يومي هذا، تمتم عبد الله في نفسه: والله إن هذا الغلام أسخى مَن رأيت، وبعدها وهب عبد الله بن جعفر البستان للغلام؛ جزاء إحسانه إلى مخلوق ضعيف من مخلوقات الله»[١٨٥]

❀

ووفق ما يروى أن أحد تلامذة الجنيد البغدادي وجد على حالة مخزية، فترك التلميذ المكان من خجله ولم يعد إلى المجلس بعدها، وبمرور فترة من الزمن غدا فؤاد التلميذ خربًا، وبينما هو في السوق والجنيد مع تلامذته يسيرون إذ وقعت عينه على الإمام الجنيد، فابتعد مسرعًا من حيائه، فالتفت الإمام لمن حوله وقد انتبه له فقال لهم:

«اذهبوا أنتم، وأما أنا فقد هرب طائر من عشي.»، ثم لحق بتلميذه، الذي ما إن لاحظ تعقب شيخه حتى أسرع بالخطا، إلى أن وصل زقاقًا مغلقًا، ومن اضطرابه الناجم عن خجله ارتطم رأسه بالحائط وتلون وجهه برؤيته لشيخه فأحنى رأسه، فقال الإمام الجنيد له: يا ولدي! إلى أين تذهب وممن تهرب! وإنما يساند الشيخ تلامذته ويهتم بهم في مثل أيامه العصيبة هذه.» ثم ضمه إلى صدره برأفة وأخذه إلى مجلسه، فانكب التلميذ على قدمي شيخه وندم على المعاصي التي ارتكبها ومن ثمّ تاب...

١٨٥ الغزالي، كيمياء السعادة، ترجمة أحمد فاروق، اسطنبول ١٩٧٧، ص٤٦٧.

وكذلك يوصينا الإسلام بأن نكون دواء معنويًا لجروح المذنب بدلًا من إبعاده عن المجتمع، لأن أكثر الناس حاجة للرحمة هم أولئك المذنبون الذين وقعوا في مستنقع الذنوب، ودمّروا حياتهم المعنوية.

ومن أمثلة هذا من التاريخ القريب:

كان أحد تلامذة المرحوم سامي أفندي رمضان أوغلو يعاني من حالة نفسية سيئة بسبب أزمة مرت به، وجاء إلى بيته سكرانًا، فقال من فتح الباب غاضبًا: ما هذه الحالة التي أنت عليها! هل تعلم على باب مَن تقف؟ فأجاب الرجل المتعب والمنهار مظهرًا عجزه: وهل مِن بابٍ آخر يغمرني برحمته!..

وعندما سمع سامي أفندي ما يجري على بابه، قام فورًا إلى الباب ليُدخل تلميذه المجروح، ويحيي قلبه المنهار بالشفقة والعطف والرحمة، فيتخلص هذا الشخص الذي اهتدى بالأسلوب الحساس هذا من حالته السيئة تلك، ويُكتب مع الزمن في زُمرة الصالحين.

❁

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت:

«رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلها، أنا أكفيكها مئونتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مئونتها»[١٨٦]

فهذه الرحمة والشفقة التي كانت عند زيد حفظته من الكفر والشرك، وكانت سببًا لانتقاله إلى الحياة الآخرة بالدين الحنيف، فقد قال النبي ﷺ:

«**يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى** عليه السلام»[١٨٧]

---

١٨٦ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٤/ ٣٨٢٨.

١٨٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٤١٦.

ويذكر مولانا في كتابه المسمى «المجالس السبعة»:

استأجر جزّارٌ ـ يبيع اللحمَ بالدين ـ شابًا لتسجيل الديون، وكتب: أُعطيَ فلان هذا المقدار، وفلان هذا المقدار من اللحم.

وفي يوم جاء طائر والتقط قطعة من اللحم، ومباشرة قال الجزّار: اكتب قبل أن ننسى: الطائر مئة غرام من اللحم.

وبعد أيام جاء الطائر نفسه كالعادة، إلا أن الجزّار كان قد نصب له فخّاً فأمسك به، وفورًا قطع الجزّار رأس الطير وعلّقه عاليًا ليكون عِبرة لغيره، فقال الكاتب للجزّار: كنت قد كتبت حساب الطائر لك، والآن كم قرشًا أكتب حساب الطائر عليك؟ فصاح الجزّار وقال: حساب اللحم سهل، لكن إذا سُئلتُ عن حساب الرأس ماذا أفعل؟ وبدأ بالبكاء.

❀

وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني اُتُّهِم موظف مرموق بأنه قال وهو يمرّ من أمام القصر: آه أيها السلطان مراد!... هل كان لهذا أن يحدث لو كنت بيننا؟!.. و أُصدر حكم نُفي ذلك الموظف إلى فيزان، ولكن الصدر الأعظم سعيد باشا اعترض على هذا قائلًا: يا سيدي! ما هذا الحال، أنا لا أفهم؟! لقد عفوتم عن هذا الموظف قبل ستة أشهر على ارتكاب السرقة والرشوة، مع أن الجرم ثبت عليه، أما الآن فأنتم تنفونه استنادًا على وشاية أتتكم؟! فأجاب عبدُ الحميد خان الثاني الصدرَ الأعظم بهذا الجواب: لا أيها الوزير! لا أنفيه بسبب هذه الوشاية! فذنبه الأصلي هو ما ذكرتَ من السرقة والرشوة، أما هذه الوشاية فأنا من وشيت به، كما أنني لو أعطيته هذا الجزاء قبل ستة أشهر دون سابق إنذار، لَكنت قد عاقبت معه أولاده وأقرباءه، وهم سيخجلون أمام أصحابهم وأصدقائهم، أما الآن فبصفته شخص عارض سلطتي فسيعتبرونه بطلًا... لهذا السبب أحببت أن يظهر الأمر هكذا!...

وما أعظم الرحمة والشفقة عندما يهتم الإنسان بعزّة وشرف عائلةٍ راضيًا مقابل ذلك الإساءة لسمعته.

❀

يُروى أن رجلًا عديم الرحمة قد ذبح عجل بقرة أمام عينيها، فشلت يداه، وفي يوم سقط صغير طير أمامه، فجاءت الأم لكنها مع كثرة محاولاتها لم تستطع إعادة الصغير إلى عشه، فأخذ هذا الرجلُ الصغيرَ بشفقة ووضعه في عشه، وبرحمة الله تعالى عادت الحركة إلى يديه وعادتا كما كانتا من قبل.

❀

وكذلك نرى مشاعر العطف والرحمة تفيض من جنودنا المؤمنين الذين حاربوا في جناق قلعة، فلم تشمل إخوانهم في الدين فحسب، بل وحتى جنود العدو أيضًا.

وفي عام ١٩٣٠ جاء الجنرال جرو الفرنسي لحضور افتتاح الضريح الخاص بهم، وطلب زيارة قبور شهداء الجيش التركي قائلًا لمن حوله وأكثرهم فرنسيون: سادتي! الجنود المسلمون الأتراك، جند نادر، وأريد أن أنقل لكم هذه الذكرى التي ما زالت حاضرة في ذهني:

في صباح أحد الأيام ومع ظهور أول خيوط الفجر، كنا قد بدأنا معركة الحِراب مع الأتراك، وكانوا محاربين ماهرين جدًا، ويصعب التغلب عليهم، وبعد هذه المعركة التي استمرت حتى وقت متأخر من الليل، اتفقنا على أن نجمع جرحانا، وعندما بدأ كلا الطرفين بجمع جرحاه، خرجتُ إلى ساحة الحرب، وكان ذلك المنظر الذي شاهدته لوحةً لا يمكن أن ترسم ولا حتى بريشة أمهر الرسامين، فتركت كل شيء وبدأتُ أشاهد بتعجب ودهشة كبيرتين:

جنديٌّ تركي يضع على جرحه حفنة تراب أخذها من الأرض، بينما يمزق قميصه ليضمد جرح الجريح الذي حمله بين ذراعيه.

أيها السادة! هل تعرفون مَن هذا الجريح الذي حمله ذلك الجندي الأصيل والبطل، المضحي الذي وضع التراب على جرحه، بينما ضمد الجريح بقطعة من قميصه؟!..

وهنا بدأ الجنرال بالبكاء، وعندما أخذ المنديل ليمسح دموعه تنهّد بعمق وقال بصوت مختنق:

أيها السادة! ذلك الجريح الذي كان في حضن الجندي التركي، جندي فرنسي، نعم جندي فرنسي!.. ثم جلس على الأرض وأغلق وجه بيديه وبكى، بكى، بكى...

لقد كان عمَل هذا الجندي الرائع كافياً لإظهار الآفاق التي تصل إليها نفس المؤمن، من العطف على خلق لله تعالى جميعًا، والتخلّق بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام الذي أرسل رحمة للعالمين...

❁

كما نرى أفق العطف والتضحية العظيم الذي كان يتحلى به أجدادنا ظاهرًا وباطنًا، وليس أدل على ذلك من قول الغربي «Carneilk Le Bruyn» برويون:

«حُسن معاملة الأتراك ليس منحصرًا في الناس فقط بل تشمل الطيور أيضًا، فبعضهم يذهبون إلى الأسواق باستمرار ويشترون الطيور التي تُباع في الأقفاص، ثم يطلقونها، وسبب فعلهم هذا هو اعتقادهم أن هذه الطيور ستأتي إلى الله تعالى يوم القيامة وتشهد بحُسن معاملة الناس».

❁

أما الفرنسي بونوال «Conte de Bonneval» الذي قضى مدةً في البلاد العثمانية فقد ذكر رؤيته لنماذج الفضائل التي لم يستوعبها عقله قائلًا:

«في الدولة العثمانية نجد أتراكًا يدفعون أموالًا للعمال ليسقوا الأشجار العقيمة يوميًا كي لا تجف من الحر».

هذه الصورة التي تُدهِش مَن لا يعرف سعة الصدر التي يُكسبها الإسلام للإنسان، هي وضع طبيعي جدًا للمؤمنين الذين يعتقدون أن جميع المخلوقات أمانة الله تعالى في الأرض، وأنها تستحق الشفقة والحب والحنان.

❀

يقول الرحالة دولوير «Du loir» في مذكرات رحلاته التي نشرت في باريس:

«وألخص رؤيتي الأخيرة عن العادات والأعراف التركية بمايلي:

الخير والحسنات عندهم لا تنحصر بالناس فقط بل يشمل الحيوانات أيضًا.

فهناك مَضَافَات تسمى بالعمارات في جميع أنحاء الدولة العثمانية، ووفقًا للشروط التي وضعها الواهب لهذه المضافات، يتم مساعدات جميع الفقراء والمحتاجين من أي ديانة كانوا، ويمكن لجميع المسافرين أن يقيموا في المضَافات مدة ثلاثة أيام، ويُكرَمون مدة بقائهم بطبق من الأرز.

وعلاوة على المضافات تجد على طرقات المدن أبنية عمومية تسمى نُزُل «كروان سراي»، وأبوابها مفتوحة لجميع الناس.

وبعض الأتراك يضعون على طول الطرقات سبيل ماء لسقاية العطشى أثناء السفر، وبعضهم وضع السبيل في المدينة ليروي العطشى المارين بين الأحياء، وهنا أيضاً رجال موظفون جوَّالون مثل الموظفين الرسميين عندنا، ومهمتهم تقديم الماء لمن أراد.

أما الأغنياء فيذهبون إلى السجن، ويدفعون عن المسجونين بسبب الدَّين ديونهم ليخرجونهم، كما يبحثون عن الفقراء الذين يستعفون عن السؤال، فيعرفونهم ويساعدونهم خفية وبحساسية عجيبة».

❀

ومن أعظم مظاهر شفقة وعطف الله تعالى على مخلوقاته؛ الأوقاف والجمعيات الخيرية، الأوقاف في تاريخ الإسلام هي أماكن عبادة الله تعالى

بخدمة عباده، حيث تتحوّل مشاعر الشفقة والحنان التي يريد الله ﷻ أن يراها في خلقه إلى مؤسسات خالدة.

فإذا ذكرنا بعضًا من الأوقاف التي أقيمت في العهد العثماني يكفي لبيان أهمية هذا الموضوع أن نذكر بعض الأمثلة فمن الصعب أن نحدد عدد الأوقاف التي أُقيمت في الزمن العثماني، إلا أنه أقيم منها ما يقارب ٢٦,٣٠٠، وهذا العدد كاف لإظهار مدى سعة الشفقة التي تمتع بها أجدادنا.[١٨٨]

ومن الأمثلة التي يمكن أن تُظهر ذلك هي تأسيس وقف من قِبل سوكوللو محمد باشا الذي كان صَدرًا أعظم في الزمن الذي وصلت فيه الدولة العثمانية ذروتها، هذا الباشا رغم أنه من أصل صِربي إلا أنه كان مؤمنًا مخلصًا ورجل دولة ناجحًا، هذا الرجل العظيم كان قد أنشأ كثيرًا من المساجد والمدارس، وسبل الماء، وخلّدها على صورة وقف.[١٨٩]

❀

وهذه السطور التي أخذت من وقفية نقيب الأشراف[١٩٠] أسعد أفندي، تعبِّر إلى حدٍ بعيد العمق المعنوي للمؤمن:

---

١٨٨ كان الشخص الذي يؤسس وقفًا في الدولة العثمانية، يسجل وثيقة وقفه في مكاتب الدفتر خانه في اسطانبول، وذلك بعد تسجيله وثيقة وقفه الموفى شروطه لدى القاضي، وإن هذه الوثائق المسجلة في السجلات موجودة الآن في أرشيف المديرية العامة للأوقاف في أنقرة. وثمة ست وعشرون ألف وثلاثمائة وثيقة وقف في هذا الأرشيف، وقد يمكن الاطلاع على عدد الأوقاف المؤسسة في الفترة العثمانية ومعرفتها تقريبًا، عقب الفحص التام لجميع السجلات الشرعية ودفاتر التحرير العائدة لمحاكم الولايات المختلفة. (انظر: Prof Dr Ziya Kazıcı İslami ve Sosyal Açıdan Vakıflar İstanbul ١٩٨٥ ص ٤٣ ٤٤).

١٨٩ يوجد في اسطانبول مسجدان كبيران علاوة على خيراته وحسناته في روم إلي، وأحد هذين المسجدين المسجد المتواجد في آذاب كابي والذي فيه سبيل لا مثيل لها. وأما الآخر فهو «الشهيد محمد باشا» ومدرسته، ويقع في رأس الزقاق الكائن في الطريق الموصلة من سلطان أحمد إلى كوم كابي.

١٩٠ المسؤول أو الموظف المعين بالانتخاب من قبل آل بيت النبي ﷺ ليهتم بأمورهم.

فلِتَصل الحاجات من الحطب والفحم والحاجات الأخرى للبعيدين عن الأعيان، والذين يعيشون في الخرابات، العجائز والفقراء أو الذين لا يستطيعون العمل لأسباب صحية! وكذا تجهير البنات المسكينات اللواتي في سن الزواج!..

❀

ومما يشد الانتباه أن ما يقارب ١٤٠٠ من الأوقاف التي أُسست في العهد العثماني أُسست من قِبل النساء.

منهن السيدة نور بانو والدة السلطان، فقد أنشأت آثارًا كثيرة في اسطنبول الآسيوية وقارة بلاد الروم، فمسجد عتيق والدة في منطقة طوب باش في أُسكودار، بعمارتها، ومدارسها، ودار الشفقة وحمامَيها تعد من أروع الآثار.

هؤلاء السيدات اللواتي أخذن مكانًا في قمة الدولة، أنفقن ثرواتهن دون تفرقة بين الناس وكن بذلك مثالًا للرحمة والتواضع دون استسلام لبهاء الدنيا وشهواتها.

❀

ومن هؤلاء السيدات السيدة ماهبيكر كوسم والدة السلطان، وهي من وضعت أسس المسجد الجديد، وكذا أقامت مسجد جينيلي في أوسكودار وكذا مكتبته، وسبيل الماء، ودار الحديث والحمامَين، وكذا بادرت في إنشاء مسجد «كافاغ أناضولو»، ومن الأمكان المشهورة الوقف الذي أقامته للبنات اليتيمات والفقيرات لتزويجهن، وهناك الكثير من الأعمال الخيرية التي أقامتها.

ومما يلفت النظر، أنه وحتى سلطان كوسم التي عُرفت بجلال طبيعتها بين السلطانات الأمهات كانت شخصية في قمة الرحمة والشفقة للضعفاء والمحتاجين، وعملت على تأسيس الأوقاف.

❀

أما المسجد الجديد الذي بدأت بتأسيسه كوسم سلطان، ولم يكف عمرُها للوفاء بإتمام بنائه، كان إتمام بناء المسجد وبدء العبادة فيه من نصيب خديجة تورخان سلطان، وكانت قد بنت إلى جانب هذا أعمالًا خيريةً من المكتبات والمدارس والعمارات والـمَضَافات وسبل الماء، ومما يشد الانتباه في وقفية المسجد الجديد، المصابيح، وبعض سبل الماء التي يسيل منها العسل في رمضان ويكرم منها المصلون الخارجون من المسجد، وجودة العسل أيضًا تُسجل في الوقفية، وكان أفضل عسل في ذلك الوقت، وهو العسل الذي تغيّر اسمه في يومنا إلى بازار الذي يُؤتى به من أثينا عن طريق ريزا، فمهما كان العسل غاليًا فلا بد أن يُستخدم هذا النوع من العسل ولا يُستَخدم غيره وهذا شرط الوقفية، وهذا مثال نموذجي يُظهر درجة الحساسية والخاصية في هذه الوقفية.

لقد صرفت السيدات السلطانات واردًا ضخمًا لضمان استمرارية هذه الوقفية، ووظفت ١١٦ موظفًا لإدارة هذه الوقفية.

❀

أما برتيونيال والدة سلطان فهي من أسست مسجد والدة في أكسراي ومسجد يا ودود، كما أضافت مكتبة، وسبيل ماء، ومدرسة إلى وقفها.

مهرماه سلطان بنت السلطان سليمان القانوني كانت متواضعة وكريمة رغم أنها من أسست مسجد صلاح الدين في كل من أديرنا كابي وأوسكودار، وأسست كذلك كثيرًا من الآثار الوقفية، وهذه المثالُ يوضح هذا بشكل جميل:

مياه مكة وعرفات أخرجت من قِبل زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، من العين النابعة بين عرفات والطائف والمشهورة باسم عين زبيدة، ولتستطيع السيدة زبيدة إيصال الماء إلى عرفات اشترت جميع بساتين التمر الموجودة في وادي حنين لتستخدمها في هذا القصد، وقد ثبت أنها صرفت في عمل الخير هذا ١,٧٠٠,٠٠٠ مثقالًا من الذهب.[١٩١]

---

١٩١ مصطفى ل. بيلكه، موسوعة الديانة الإسلامية «DİA»، عين زبيدة ، اسطنبول ١٩٩١، ٤، ٢٧٩.

إلا أنه في زمن القانوني قيل أن هذه الطرق قد خربت مع الزمن، وسبل الماء لم تعد كافية، وعندما علمت مهرماه سلطان بهذا، ذهبت إلى أبيها وطلبت منه أن يُصلح رئيس المهندسين المعمار سِنان طريق الماء القديم، وطلبت منه أن يبقى هذا العمل سرًّا، ويُعمل بجد في هذه الخدمة، وقد صرفت كل زينتها ومجوهراتها في تحقيق هذا الهدف، وقد ثبت أنها قد دفعت ٥٠,٠٠٠ ذهبًا، وبعد أن وضع المعمار سِنان أسس مسجد السليمانية اختفى مدة، دون أن يعرف أحد سبب هذا، وقيل أنه يرتاح إلى أن تتثبّت أسس مسجد السليمانية، لكن السبب كان إصلاح قنوات ماء نبع عين زبيدة، حيث طلبت مهمرماه سلطان أن تكون خدمتها وعملها سرًّا.

❀

ومن أشهر الأمهات السلطانات في أعمال الخير بزمي عالم والدة السلطان، فقد تركت كثيرًا من الأعمال الخيرية التي خدمت لعصور طويلة وأصبحت من أصول التاريخ، ومن أكبر المساجد التي أسستها مسجد والدة قرب قصر دولما باهجة، جسر غلطة أيضًا من أعمالها الوقفية.

والوقف الذي أنشأته بزمي عالم والدة سلطان في الشام مهم جدًا، أما شرط الوقف فكان:

- توصيل ماء الشام الحلو إلى الحجاج.

- يُضمّن خدام البيوت إذا كسروا أو عطلوا أي شيء حتى لا تُجرح شخصيتهم ومكانتهم.

ومن أكبر أعمال الخير التي قدمتها بزمي عالم والدة سلطان التي امتدت لأماكن بعيدة هي مشفى غرباء المسلمين الذي صرفت عليه جُلّ ثروتها، هذا الأثر الكبير بدأ بالخدمة مع مسجدها ومائها في عام ١٨٤٣، وكان بابَ شفاءٍ لجميع فقراء المسلمين منذ ذلك الوقت.

لقد أعطت أمهات السلطانات أهمية كبيرة لأعمال الخير والمساعدات وخاصة في تأمين الماء، فكما أمّنت الماء لمكة وعرفات، جهزت إسطنبول بالمياه وسبل الماء، ولهذا كانت قد أسست سدودًا وقنوات ماء أوصلت مياهًا وفيرةً لاسطنبول تغطي كل حاجتها للماء.

فالله سبحانه وتعالى بيّن أنه خلق كل شيء من ماء، وبنى الحياة على الماء، لهذا نجد أن من أهم مظاهر الشفقة على المخلوقات هي خدمات تأمين الماء، وهذه الخدمة حسب وضع الشخص، حتى إنه يدخل فيه تقديم كأس ماء لأي إنسان.

ومن المشهورين في الخدمات الوقفية في الزمن القريب السلطان عبد الحميد خان الثاني الذي أخذ مكانة في السياسة والتقوى، فالماء الذي أوصله إلى اسطنبول عير قنوات المياه المسماة مياه حميدية قسمها إلى أربعين سبيل ماء، وتركها تنبع بشكل مستمر، ومع أن كثيرًا منها اندثرت بسبب الحفريات والإنشاءات إلا أن أطلالها مازالت قائمة حتى الآن.

❀

وحاصل الكلام، إذا أردنا أن نكون مؤمنين حقًا فلا بد من تقوية الخصائل الكريمة من الحب والشفقة والرحمة، وأن نتقبّلها كعبادة ونظهرها بخدمة المخلوقات، أما الخدمات التي تُقدم دون رغبة ودون الاتصاف بصفات الحب والعطف والحنان، فلا يمكن أن تثمر ثمارًا يانعة، فرأسمال الخدمات الاجتماعية هي هذه الصفات الراقية.

فلنرحم من في الأرض، ليرحمنا من في السماء، ولنرحم خلق الله ليرحمنا الله، فما أحوجنا لرحمته وشفقته!...

ب ـ الإنفاق

من أهم الخصاص التي تؤمن تكامل شخصية المسلم واستمرار الخدمات الاجتماعية، إنفاق المال والروح في سبيل كسب رضا الله ﷻ.

فالغاية الأولى للدين بعد توحيد الله تعالى، تربيةُ إنسان كامل في أخلاقه ومعاملته وخدمته للخلق، ثم إقامة جماعة مطمئنة على هذه الصورة، وفي تحقيق هذه الغاية نجد أهمية الزكاة والإنفاق اللذين يعتبران من مظاهر الشفقة والحنان النابع من الإيمان.

فالإنفاق الذي ذُكر في القرآن الكريم ما يزيد عن ٢٠٠ مرة، وهو نذر المال والنفس لله تعالى، يعني صرف النعم التي أنعم الله بها علينا في سبيله، وعلى هذا فالمسلم إنسان نذر ماله ونفسه له تعالى بكل رضا واستسلام.

ومن أسماء الله الحسنى اسم الوهّاب، يعني يَهَب كل شيء، متى شاء، ولِمَن شاء، من دون منع ولاتقتير ولا انقطاع، لهذا السبب فطر الله جميع المخلوقات على الإعطاء والإنفاق والإكرام.

فالنحلة مثلًا تنتج العسل أكثر مما تحتاجه بأضعاف مضاعفة، وتُغلّفه بكل دقة وانتظام، تأكل جزءًا بسيطًا منه، وتكرِم الناس بأكثره.

وأشجار الفاكهة تعطي ثمارًا كثيرة لدوام نسلها، فمن آلاف الثمار التي تنتجها تكون بذرة واحدة لاستمرار نسلها، أما الباقي من الثمار فتُمنح للناس والمخلوقات ليستفيدوا منها.

والحيوانات التي تُذبح ليؤكل لحمها، تُربى ليستمر نسلها وبعد أن تعيش مدة تفتدي بنفسها لتقدم للناس لحمها.

والتراب رغم أنه يُداس تحت الأقدام يأخذ الزوائد المتبقية من الأحياء وينظفه، ويستمر بالإكرام بالنباتات المختلفة التي ينميها.

كل هذه الأمثلة في الحقيقة تبيّن أنه يجب على الإنسان أن يكون مضحيًا، يصرف ماله أو قسماً مما كسبه من عمله على نفسه ثم ينفق أكثر ماله في سبيل الله، يعني أن الله تعالى يُري الإنسان آلاف الأمثلة من الطبيعة، ليكون الإنسان عبدًا مضحيًا وكريمًا منفقًا.

فربنا ـ رب العالمين وخالق الكون والمعبود الواحد المنزّه عن كل نقص ـ أكّد أهمية الإنفاق مبينًا أن الصدقات التي يدفعها الإنسان تصِلُ إليه تعالى، كما وصف تصدُّق الناس وقيامهم بأعمال الخير عن رضا وسماحة نفس بالقرض الحسن، إضافة إلى ذلك وعد بوفاء هذا القرض بأضعاف مضاعفة.

تقول الآية الكريمة:

﴿...وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٩٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن العبد إذا تصدق من طيب، تقبلها الله منه، وأخذها بيمينه، ورباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة، فتربو في يد الله – أو قال: في كف الله – حتى تكون مثل الجبل، فتصدقوا» [١٩٣]

يقول الله تعالى موضحًا لنا أننا إذا أردنا أن نكون من عباده المقربين فلا بد أن ننفق مما نحب:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [١٩٤]

---

١٩٢ المزمل: ٢٠.

١٩٣ أحمد، مسند، ١٣، ٧٣/ ٧٦٣٤.

١٩٤ آل عمران: ٩٢.

فكلمة البر في الآية الكريمة تعني ذروة العمل الصالح، وفُسّرت بمعنى الرحمة، والرضا، وجنة الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى في آية كريمة أخرى معنى البر بقوله:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمتَّقُونَ﴾[195]

نجد هذه الآية الكريمة التي تحدثت عن الإخلاص والتقوى قد توسعت في ذكر الإنفاق بشكل ملفت للانتباه.

يقول في الحديث الشريف:

«**قَالَ الله ﷻ: أَنفق أُنفق عليك...**»[196]

وأعظم إنفاق هو الإنفاق الذي يُقوم به الإنسان عندما يكون أشد ضعفًا وحاجة، فالله تعالى ذكر أن عباده المنفقين في المرحلة التي كانت احتياجات الناس في ذروتها ووَصَفَهم بالـمُنفِقِين قبل الفتح، تقول الآية الكريمة:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ ميرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[197]

---

١٩٥ البقرة: ١٧٧.

١٩٦ البخاري، التفسير، ١١/ ٢.

١٩٧ الحديد: ١٠.

وقال رسول الله ﷺ في صدد فضائل الإنفاق:

«ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا»[١٩٨]

«يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»[١٩٩]

«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل»[٢٠٠]

الأعمال الصالحة مثل الصدقة والخدمة، وإن كانت فيما يبدو من الظاهر أنها تفيد الغير كثيرًا، فإنها في الحقيقة تنفع الإنسان نفسه أكثر من نفعه لغيره، فالإنفاق يزكي النفس ويعلِّمها فعل الخير وتقديم البر ويظهر الألفة بين الخلق، وبهذا الشكل يصير البر مركوزًا في نفس الإنسان وروحه، فالآية الكريمة تبين أن الإنفاق يُطّهر الأموال، ويزكّي النفس، وينقّي القلب.

ومن جهة أخرى فأصغر حسنة أو عملِ خيرٍ يقوم به الإنسان عُدّة سيحتاج إليها أشد الحاجة يوم القيامة، إذن على الإنسان لِيقي نفسه مستقبلاً من الندم أن يغتنم فرصته اليوم، ويجتهد في اتخاذ التدابير الوقائية.

فقد قال الحكماء:

«إذا مات الرجل أُصيب بمصيبتين لم ير مثلهما:

أما الأولى: تُؤخذ جميع أمواله من يديه،

والثانية: تَلقِّيه حساب جميع أمواله مع أنها أُخذت من يديه».

---

١٩٨ البخاري، الزكاة، ٢٧/ ١٤٤٢؛ مسلم، الزكاة، ٥٧/ ١٠١٠.

١٩٩ مسلم، الزكاة، ٩٧/ ١٠٣٦؛ الترمذي، الزهد، ٣٢.

٢٠٠ البخاري، الزكاة، ٨/ ١٤١٠، التوحيد، ٢٣/ ٧٤٣٠؛ مسلم، الزكاة، ٦٣،٦٤.

وكم من الصعب أن يُحاسب الإنسان على مال لم ينفعه، يقول رسول الله ﷺ عن الناس المتلبسين بهذه الحال:

«الويل كل الويل لمن ترك عياله بخيرٍ وقَدِمَ على ربه بِشَرٍّ»[٢٠١]

يعني من ترك ثروة كبيرة لورثته، لكنه لم يكسب المال من طريق الحلال، فيلقى الله تعالى مذنبًا لأنه لم يفعل خيرًا بأمواله، واستخدم أولاده أيضًا أمواله في أعمال الشر.

أما المال النافع فهو الذي قُدِّمَ إلى الآخرة بالإنفاق والخدمات الخيرية، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«... ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالا؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن ألم أرسل إليك رسولا؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»[٢٠٢]

وكما يُفهم من الحديث الشريف أن الصدقة والإنفاق يبدأ بإنفاق الفائض من الموجود، أما الذين لا يملكون شيئًا فشِقُّ تمرة أو كلمة طيبة صدقة تضمن رضا المولى جل وعلا، فهذه الصدقات ستكون درعًا يوم القيامة من نار جهنم وفقًا لنسبة الإخلاص والصدق، فالشفقة والرحمة والكرم والإنفاق الناتج عن كليهما والتي أراد النبي ﷺ أن تكون في أصل المؤمنين، هذه الصفات تجعل كل مؤمن غنيًّا، لأنه وكما ذكر في أحاديثه الشريفة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكبير، والتوحيد، وعون المظلوم، وعزاء المصابين، ومساعدة المحتاجين، وإماطة الأذى عن الطريق، وعيادة المريض وحتى التبسم، كل هذا يعتبر صدقة يجزى المسلم عليها.

---

٢٠١ السيوطي، الجامع الصغير، ٩٦٩٣.

٢٠٢ البخاري، الزكاة، ٩/ ١٤١٣؛ مسلم، الزكاة، ٦٧، ٩٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«سبق درهم مائة ألف درهم»

قالوا: وكيف؟ قال:

«كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها»[٢٠٣]

هذا الحديث يدل على أنَّ المهم في الصدقة ليس مقدار المال الـمُتَصَدّق به، بل مستوى التضحية لدى المنفِق.

وهذا يعني أن الغنى الحقيقي ليس بكثرة الأموال، بل بغنى القلوب والشعور بالشبع، والمؤمنون الحقيقيون أغنياء بقلوبهم، وهم ينفقون حسب إمكاناتهم، فالإنفاق مظهر متكامل لحس المسؤولية والتضحية التي كُلِّف بها كل مؤمن.

وهناك بعض الآداب التي يجب الانتباه إليها أثناء الإنفاق وهي:

١. لا بد من الإخلاص، والابتعاد عن الرياء والغايات الدنيوية.[٢٠٤]

٢. الإنفاق سرًا بحيث لا تعلم اليد اليسرى بما أنفقت اليد اليمنى، فالمـُنفِقون بهذا الشكل يُغفر لهم، ويُظلُّهم اللهُ تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.[٢٠٥]

٣. في حال المن والجرح تنعدم فائدة الصدقات، فقد نهى الله عن هذا في أماكن عِدة.

٤. أن لا ينفق على غيره بشيء لا يقبله لنفسه.[٢٠٦]

٥. أن يُشعِر المنفِقُ الـمُنْفَقَ عليه بالشكر والثناء، لأنه خفف عنه من مسؤوليته وساعده في كسب الأجر والثواب.

---

٢٠٣ النسائي، الزكاة، ٤٩/ ٢٥٢٧.

٢٠٤ انظر: البقرة، ٢٦٤.

٢٠٥ انظر: البقرة، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧١.

٢٠٦ انظر: البقرة، ٢٦٧.

صور الفضائل

جاء في الحديث أنه بعد فتح مكة أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة، والناس من حوله يتطلعون شوقًا لنيل شرف حيازة هذا المفتاح، وخدمة الكعبة والاعتناء بها، ثم جلس النبي ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة**»؟، فدُعي له، فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**»، وقال رسول الله ﷺ لعلي: «**إنما أعطيكم ما تُرزؤون لا ما تَرزؤون**»[207]

فالنبي عليه الصلاة والسلام بدل أن يعطي أقرباءه مَهمَّات تؤَمِّن لهم المنافع الدنيوية، أعطاهم وظائف تعتمد على الإنفاق لخدمة عباد الله ﷻ، فهذه الخدمات وهذا الإنفاق اللذان يعتبران مشقة في الحياة الدنيا، هما في الحقيقة رأسمال سعادة الحياة الأبدية.

❀

فعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت:

دخل علي رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ساهم الوجه. قالت: فحسبت أن ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك ساهم الوجه؟ قال:

«**من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس، أمسينا وهي في خصم الفراش**»[208]

هذه الحادثة مثال جليٌّ على أن رسول الله ﷺ -كما وصفه القرآن الكريم - رؤوف رحيم، بلغ ذروة الشفقة والرحمة.

❀

---

٢٠٧ ابن هشام، سيرة، ٤، ٣٢؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٣٧؛ الواقدي، المعاظي، ٢، ٨٣٨.

٢٠٨ أحمد، مسند، ٦، ٢٩٣/ ٢٦٥١٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٢٣٨.

قالت عائشة رضي الله عنها:

«قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة، ما فعلت الذهب**» ، فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة، أو الثمانية، أو تسعة، فجعل يقلبها بيده، ويقول: «**ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه، وهذه عنده أنفقيها**». فوزعتها على خمس من بيوت فقراء الأنصار، فقال: الآن استرحت، فأخذه نوم خفيف»[٢٠٩]

إنه سيد الكرماء عليه أفضل الصلاة والتسليم لم يترك الإنفاق حتى وهو في فراش الموت.

❁

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها امرأة غنية، وكانت من أغنياء مكة المكرمة، وقد نذرت نفسها ومالها وكل ما تملكه للنبي ﷺ، وفي بداية الإسلام كانت أم المؤمنين هي التي دعمت دين الله بأكبر قوة مادية ومعنوية، لهذا لم ينسها النبي ﷺ وفاء لها، وكان يذكرها بالخير دائمًا.

❁

كان أبو بكر رضي الله عنه تاجرًا غنيًّا بلغ ماله في بداية الدعوة الاسلامية أربعين ألف درهم، أنفقها كلها في سبيل الله تعالى لنشر الدعوة، حيث اشترى كثيرًا من الأرقاء والعبيد المسلمين ودفع عليهم أموالًا هائلة وأعتقهم لوجه الله تعالى، وبقي له خمسة آلاف درهم فأخذها معه أثناء الهجرة.[٢١٠]

❁

وفي غزوة تبوك عندما فتح النبي ﷺ باب الجهاد بالمال لتجهيز جيش العسرة، ومع أن المدينة كانت في قحط آنذاك، إلا أن الصحابة كانوا يتسابقون في

---

٢٠٩ انظر: أحمد، مسند، ٦، ١٠٤/ ٢٤٢٢٢؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٢٣٧–٢٣٨ .

٢١٠ انظر: ابن هشام، سيرة، ١، ٣١٤؛ الطبري، ٣٠، ٢٧٩.

الإنفاق والتضحية، بإيمان قوي، مُدبِرين عن منافع الدنيا الفانية، حتى إن أبا بكر أتى بكل ما بقي من ماله.

وعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بك**» قال: فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله.[٢١١]

وعن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال:

«أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: **ما أبقيت لأهلك؟** قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: **يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟** قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا»[٢١٢]

❀

عن عبد الرحمن بن خباب ﵁، قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علي مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علي ثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول:

«**ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه**»[٢١٣]

ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار.[٢١٤]

---

٢١١ ابن ماجه، المقدمة ١١/ ٩٤.

٢١٢ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧٥.

٢١٣ الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠٠.

٢١٤ الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠١.

هذه الروايات علاوة على أنها تُبين كرم عثمان ﷺ فإنها تُظهر أيضًا عظمة الإنفاق في سبيل الله وأنه يُكرم صاحبه بالقَبول والغفران.

❁

لمّا حضّ رسول الله ﷺ على الزكاة قال علبة بن زيد الحارثي:

اللهم أنه ليس عندي شيء أتصدق به إلا أعواد عليها شجب من ماء ووسادة حشوها ليف، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من الناس. فأصبح رسول الله ﷺ فأمر مناديا فنادى: «**أين المتصدق بعرضه البارحة؟**». فصمت. ثم أعاد ذلك مرتين أو ثلاثة. ثم قام علبة، فقال رسول الله ﷺ حين نظر إليه:

«**ألا إن الله ﷻ قد قبل صدقتك يا أبا محمد**»[٢١٥]

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ، قال:

«كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة، انطلق أحدنا إلى السوق، فيحامل، فيصيب المد وإن لبعضهم اليوم لمائة ألف»[٢١٦]

❁

وعن أبي السليل، قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع، فقال: حدثني أبي، أو عمي، أنه رأى النبي ﷺ بالبقيع وهو يقول:

«**من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة**» ، قال: فحللت من عمامتي لوثا أو لوثين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك بني آدم، فعقدت علي عمامتي، فجاء رجل ولم أر بالبقيع رجلا أشد سوادا أصغر منه، ولا أدم بعين بناقة لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها، فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «**نعم**» ، قال: دونك هذه الناقة، قال: فلمزه رجل، فقال: هذا يتصدق بهذه، فوالله لهي خير منه،

---

٢١٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٣، ١١٤/ ٤٦٣٥؛ ابن كثير، سيرة، ٤/ ٩.

٢١٦ البخاري، الزكاة، ١٠/ ١٤١٦.

قال: فسمعها النبي ﷺ فقال: «**كذبت بل هو خير منك، ومنها**» ثلاث مرار، ثم قال: «**ويل لأصحاب المئين من الإبل**» ثلاثا، قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «**إلا من قال بالمال هكذا وهكذا**»، وجمع بين كفيه عن يمينه، وعن شماله، ثم قال:

«**قد أفلح المزهد المجهد، ثلاثا، المزهد في العيش، المجهد في العبادة**»[٢١٧]

ثم إن عبد الرحمن بن عوف جاء فقال: ما لي إلا ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**»[٢١٨]

وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما، وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده.

ثم قام أبو عقيل أخو بني أنيف الإراشي، وقال: بِتّ أجر الجرير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به، وجئت بالآخر أتقرب به إلى النبي ﷺ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: أنثره في الصدقة، قال: فسخر القوم، وقالوا: لقد كان الله غنيًّا عن صدقة هذا المسكين، فقال النبي ﷺ:

«**بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت**».

فأنزل الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢١٩، ٢٢٠]

---

٢١٧ أحمد، مسند، جـ٣٣، ٤٧٠/ ٢٠٣٦٠؛ الهيثمي، مجمع الزوائد،٣، ١٢١/ ٤٦٧٠.

٢١٨ ابن حجر، فتح الباري، جـ٨، ٣٣٢.

٢١٩ التوبة: ٧٩.

٢٢٠ انظر: البخاري، الزكاة ،١٠؛ مسلم، الزكاة ،٧٢؛ ابن كثير، تفسير، ٤، ١٢٧.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

«أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يوما من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائلٌ في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء، وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئًا، وعليّ كان راكعًا، فأومى بخنصره اليمنى وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي ﷺ، وبهذا الحديث نزل قوله:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [٢٢١] » [٢٢٢]

❀

وعن ابن عمر رضي الله عنهما:

أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: «**إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها**» قال: فتصدق بها عمر، أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في الفقراء، وفي القربى وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير متمول.[٢٢٣]

❀

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول:

«كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من

---

٢٢١ المائدة: ٥٥.

٢٢٢ انظر: الرازي، تفسير، ٧، ٢٣؛ الطبري، تفسير، ٦، ١٨٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧، ١٧ / ١٠٩٧٨.

٢٢٣ البخاري، الشروط، ١٩ / ٢٧٣٧، الوصايا، ٢٨، الأيمان ٣٣؛ مسلم، الوصية، ١٥.

ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [224] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ:

«**بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» [225]

❁

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

« لما نزلت: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [226]، فقال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: «**نعم يا أبا الدحداح**». قال: أرنا يدك قال: فناوله يده قال: قد أقرضت ربي حائطي - وحائطه فيه ستمائة نخلة - فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح قالت: لبيك قال: اخرجي فقد أقرضته ربي. [227] فقال رسول الله ﷺ:

«**كم من عذق رداح لأبي الدحداح**» [228]

❁

---

٢٢٤ آل عمران: ٩٢.

٢٢٥ البخاري، الزكاة، ٤٤/ ١٤٦١، الوصايا، ١٠، ١٧، ٢٦؛ مسلم، الزكاة، ٤٢، ٤٣.

٢٢٦ البقرة: ٢٤٥.

٢٢٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ما جاء في أبو الدحداح، رقم: ١٥٧٩٢.

٢٢٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ما جاء في أبي الدحداح، رقم:١٥٧٩١؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٢٤/ ٢١٩٤.

عن عبيد الله بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قال:

«وقف سائل على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقال للحسن أو الحسين: اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهات منها درهما، فذهب ثم رجع فقال: قالت إنما تركت ستة دراهم للدقيق، فقال علي: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده قل لها ابعثي بالستة دراهم فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل قال: فما حل حبوته حتى مر به رجل معه جمل يبيعه، فقال عليٌّ: بكم الجمل قال بمائة وأربعين درهما، فقال علي اعقله على أنا نؤخرك بثمنه شيئا فعقله الرجل ومضى، ثم أقبل رجل فقال: لمن هذا البعير؟ فقال علي: لي فقال: أتبيعه؟ قال: نعم، قال: بكم؟ قال بمائتي درهم، قال: قد ابتعته، قال: فأخذ البعير وأعطاه المائتين فأعطى الرجل الذي أراد أن يؤخره مائة وأربعين درهما وجاء بستين درهما إلى فاطمة فقالت: ماهذا؟ قال: هذا ما وعدنا الله عز وجل على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾[229]».[230]

❀

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«**بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان – للاسم الذي سمع في السحابة – فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال:**

---

٢٢٩ الأنعام: ١٦٠.

٢٣٠ علي المتقي، كنز العمال، ٦/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣/ ١٦٩٧٦.

أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثه »[231]

❁

ويروى أن محمد سَوقة وكان من أولياء الله تعالى طلب منه ابن أخ له شيئًا مرة، فبكى محمد، فقال له ابن أخيه: يا عماه! لو كنت أعلم أنك ستبكي لَما طلبت منك، فأجاب محمد: إنما بكيت لأنني لم أعطك قبل أن تطلب مني.

فالمولى ﷻ يريد منا أن نتعرف على الفقراء بفِرَاستنا،[232] وأصل الفراسة مساعدة المحتاجين دون أن نضطرهم للطلب.

❁

ويروى أنه جرت حادثة بين الشيخ الشبلي مع أحد الفقهاء، ودار بينهما هذا الكلام:

سأل أحد الفقهاء الشيخ الشبلي عن مقدار المال الذي ينبغي أن ينفقه، وغايته في ذلك امتحان الشيخ، فأجاب الشيخ الشلبي رحمه الله: كيف تريد جواب هذا السؤال؟ وفقاً لمذهب الفقهاء؟ أم حسب أصول الزهاد؟، فقال الفقيه: لِيَكن وفقًا لكليهما، فأجاب الشلبي:حسب مذهب الفقهاء، فإذا كان لديك مئتا درهم، يجب أن تنفق واحد من أربعين يعني خمس دراهم بعد أن يحول عليها الحول، أما بالنسبة للزهاد فأن تنفق من مئتي درهم، مئتي درهم في الحال، وتُزيل عنك الهم ثم تشكره.

فقال الفقيه: لقد تعلّمنا هذا المذهب يعني إنفاق واحد من أربعين من علمائنا، فرد عليه الشلبي: ونحن تعلّمنا أصول الزهد من سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

❁

---

٢٣١ مسلم، الزهد، ٤٥/ ٢٩٨٤؛ أحمد، مسند، ٢، ٢٩٦

٢٣٢ انظر: البقرة: ٢٧٣.

قال رسول الله ﷺ:

«... **يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة...**» [٢٣٣]

وأخذًا بالحديث كان والدنا موسى أفندي يعطي الصدقة حتى للمتسولين الذين اتخذوا السؤال مهنة؛ ويقول:

«لا بد من إعطاء القليل حتى لا نعتاد على المنع».

❀

والحاصل؛ أن الإنفاق تجلي كثير من أسمائه تعالى الإلهية، لهذا نجد محبي الإنفاق، قد قطعوا مسافات طويلة في التّخلّق بالأخلاق الإلهية.

ولذلك يطلب منا المولى جل وعلا أن نكون من أهل الإنفاق، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«**قال الله ﷻ: أَنفق أُنفق عليك، وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**» [٢٣٤]

ومن عظيم لطفه تعالى أنه سهّل طرق الإنفاق لجميع عباده، فالنبي عليه أفضل الصلاة والتسليم قال:

«**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**» [٢٣٥]

---

٢٣٣ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢.

٢٣٤ البخاري، التفسير ، ١١/ ٤٦٨٤، التوحيد، ٢٢.

٢٣٥ الترمذي، البر، ٣٦/ ١٩٥٦.

يعني أن المؤمن سواء كان غنيًا أو فقيرًا، لا بد أنه سيجد ما ينفقه إذا أراد ذلك بإخلاص، فيمكنه الإنفاق وسع طاقته سواء كان بماله، أو روحه، أو وقته، أو قوَّته، أو علمه، أو مهارته، أو فنّه، أو لسانه، أو قلبه، وحتى يمكنه أن يتصدق بدعائه الخالص لمن لا يجد ما ينفقه عليه.

ولتحقيق التكافل الاجتماعي الذي نريده لابد أن نجِدّ في جميع أعمال الخير والإنفاق التي تزيد من التشوُّق الإيماني للمؤمن ومن السكينة، والوحدة، والتعاون، وغيرها من أعمال الخير.

ولا ننسى، أن كل إنفاق صادق يُقدَّم لكسب رضا الله ﷻ، يكون بمثابة العُدّة للآخرة، ورأسمال السعادة الأبدية.

ج ـ الجهاد في سبيل الله

الجهاد في الإسلام: هو السعي في سبيل الله، فالجهاد هو كل فعلٍ يجمع معان كثيرةً يحافظ بها على بقاء الإسلام قويًا عزيزًا، وبالتالي لا يجبُ قصر هذا الباب على الجهاد بالسلاح ضد الأعداء فحسب، فالجهاد بالمال والنفس المذكور في الآيات الكريمة والآحاديث الشريفة ليس المقصود منه الجهاد بالسلاح، والسلاح هو الوسيلة الأخيرة لإزالة الظلم وإظهار الحق.

فهدف الجهاد هو الفتح، وأما جوهر الفتح فهو فتح القلوب، وهناك طرقٌ كثيرة من أجل تحقيق هذا الفتح، ولكن يجب أن يكون التبليغ اللفظي والكتابي في المقام الأول.

وأكثر آيات الجهاد نزلت في مكة، ولم تكن للمسلمين آنذاك قوة عسكرية كبيرة يحاربون بها، فكانوا يجاهدون بإظهار شخصية المؤمن، بنشر الحق العدال مقابل ظلم وإرهاب الجهلة في عصر الجاهلية، فقد سمى القرآن الكريم حالتهم هذه بالجهاد الأكبر، قال الله تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [٢٣٦]

فالجهاد ـ بالمعنى الشامل ـ له وظيفةٌ مهمة بالنسبة للمسلمين، ولنزيد الصورة وضوحًا وجلاء نقول: إن الله تعالى بيَّن في بعض أوامره نصاب التكاليف ومقاديرها، فمثلًا بيَّن نصاب الزكاة وبيَّن مقدارها، وكذلك الأمر في الصلاة والصوم وما شابهها من العبادات، فالمسلم يصل إلى الطمأنينة بأداء هذه العبادات بالمقدار الذي أمر الله به دون إفراط ولا تفريط، ولكن لم يُبين نصاب الجهاد ومقداره، ولذلك يجب على المؤمن صرف ما أمكنه مما يملكه في سبيل الله، ومهما صرف الإنسان من الجُهد لا يظننّ أنه قد وفّى حق الله تعالى، فلا بد من العمل وصرف الجهد بأقصى حد ممكن.

والجهاد من بين أسس الإسلام التي أهملت كثيًرا في يومنا هذا، مع أنه يشكل المرتبة الثانية في الفرائض، ولكن الغالبية العظمى من الناس عندما يصرفون جهدًا صغيرًا لأجل الدين والدفاع عنه، يظنون أنهم قد أدوا ما حُملوا من المسؤولية، ومباشرةً ينجَرُّون إلى الرخاوة وتسلية أنفسهم، فأكثر الناس يغفلون عن قضاء هذا الدَّين الذي لم يُحدِّد الحق له مقدارًا.

فيجب على المؤمن الحقيقي مع تقديره لجهود أولئك الناس الذين كانوا سببًا لوصول نعمة الإسلام إليه أن يقوم بالأعمال ويجاهد بكل ما أوتي من قوة من أجل توصيل نعمة الإسلام إلى الأجيال القادمة، لأن الجهاد الأكبر في يومنا هذا أن يشعر بالمسؤولية تجاه مجتمعه، وأن يلتزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي أن يشرح الإسلام بأسلوبٍ جميلٍ لمن حوله وخاصة بتطبيقه عمليًا في سلوكه وحياته. فالعمل على الجهاد في سبيل الله تعالى، وظيفة مهمة وطريق السعادة لكل مؤمن، والله تعالى يذكر في كتابه الكريم عظيم الأجر الذي يكسبه الإنسان في الجهاد في سبيله قائلاً:

---

٢٣٦ الفرقان: ٥٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٣٧]

كما ذكر أن الذين يتضامنون ويتعاونون بصدق وإخلاص ينالون حبه تعالى بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [٢٣٨]

وبشرهم الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢٣٩]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢٤٠]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال:

«**فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله**» [٢٤١]

ومدح النبي ﷺ المؤمنين العاملين وبيَّن أنهم يمثلونه عليه الصلاة والسلام.

وما أجمل ما أفاد به مولانا بوجوب العمل من أجل الله تعالى في كل الأعمال بقوله:

«مَن جدَّ في البحث عما يريده سيجده حتمًا، يا مَن سلَكت طريق الله تمسك بما تطلبه! لأن الطلب أفضلُ دليلٍ، حتى لو كنت عاجزًا أو أعرجًا أو غفوت فلا

---

٢٣٧ الصف: ١٠- ١١.

٢٣٨ الصف: ٤.

٢٣٩ العنكبوت: ٦٩.

٢٤٠ البقرة: ٢١٨.

٢٤١ أحمد، مسند، ٣، ٨٢/ ١١٢٥٨.

تبتعد عن طريقه، سِر نحوَه وكن معه!..وسِر نحو الله واسعَ إليه دون توقف، وحاول أن تتمتع بنفحات الحق تعالى في جميع الأحوال، تارة بالكلام، وتارة أخرى بالصمت، وتارة بالأعمال!...».

كما عبّر مولانا جلال الدين الرومي عن أهمية السير في طريق المولى جل وعلا قائلًا:

«إن كنت نعسانًا فنم في طريق الله، لا تته عن الطريق! فربما يمر مسافر متّزن فيوقظك من نومك، وينقذك من غفلتك وينتشلك من أوهامك».

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال:

دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال:

«لا أجده» قال: **«هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟»**

قال: ومن يستطيع ذلك؟

قال أبو هريرة ﷺ: إن فرس المجاهد ليستن في طوله، فيكتب له حسنات. [٢٤٢]

والجهاد في سبيل الله تعالى إنما يكون وفقًا لإمكانيات الشخص واستعداداته، فليس كل شخص مسؤول عن شيء واحد.

فبعضهم يجاهد بماله، وبعضهم بروحه، وبعضهم بعلمه، والآخر بكلامه، أما بعضهم فبجسده، فيعملون ما بجهدهم لكسب رضا الله تعالى، والمؤمن بنيّته يمكنه أن يجعل أي عمل يقوم به في سبيل الله تعالى، فإذا عاش الإنسان حياة خالصة فكل عمل يقوم به؛ أكله، وشربه، وعمله، وحتى نومه يُعتَبر في سبيل الله ﷻ، وكذا عمله لكسب الرزق الحلال، واجتهاده لتربية أولاده تربية إسلامية، وأكله وشربه ونومه ليتمكن من أداء العبادات على أكمل وجه، كل

---

٢٤٢ البخاري، الجهاد، ١/ ٢٧٨٥، مسلم، الإمارة، ١١٠؛ الترمذي، فضائل الجهاد، ١.

هذا يُعد عبادة يتقرب بها لله تعالى، إضافة إلى ذلك عمله لمصلحة دين الله تعالى حسب طاقته، أو دعمه للعاملين في سبيل الله تعالى.

صور الفضائل

كان النبي ﷺ يسعى لكل ما يُرضي الله تعالى، ومع أنه كان قائد الدولة إلا أنه ساهم مع أصحابه في بناء المسجد النبوي، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول، وهو ينقل اللبن:

«**هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبر ربنا وأطهر**»، ويقول: «**اللهم إن الأجر أجر الآخره، فارحم الأنصار، والمهاجره**»[٢٤٣]

أفاد النبي ﷺ في هذا الحديث على أن حَمل الأثقال والمجاهدة في سبيل الله ليس عملًا دنيويًا، فهو أفضل وأربح عند الله من الأثقال المحمّلة بالتمر والزبيب القادمة من خيبر بقصد التجارة.

وكذلك أثناء بناء المسجد -مسجد قباء-، كان عليه الصلاة والسلام يأخذُ الحجرَ والصخرةَ حتى يَصْهَرَهُ الحجرُ، فيأتي الرجل من أصحابه ويقول: بأبي وأمي يا رسول الله، أعطني أكفك، فيقول: «**لا خذ** [حجرا] **مثله**»، حتى أسسه. [٢٤٤]

معنى ذلك أن كل إنسانٍ بحاجة إلى فضل الله تعالى وثوابه، ويجب عليه أن يسعى لينال رضا الله تعالى، ولذلك عليه أن يجاهد في سبيل الله بما يتناسب مع إمكانياته، والله تعالى سيحاسب المؤمن لإهماله ما وجب عليه مع عدم محاسبته ما لا يقدر عليه.

❀

٢٤٣ البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥.

٢٤٤ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٤، ١١/ ٥٨٩٨.

عن أم سلمة ﵂، قالت:

لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فمسح ظهره وقال: «**ابن سمية، للناس أجر ولك أجران...**»[٢٤٥]

❁

وعن ابن أبي أوفى قال: لما توفيت امرأته جعل يقول:

«احملوها وارغبوا في حملها؛ فإنها كانت تحمل ومواليها بالليل حجارة المسجد الذي أسس على التقوى، وكنا نحمل بالنهار حجرين حجرين» [٢٤٦]

❁

لما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه يقصدون بدرًا، كانت الإبل قليلة، فيتناوب ثلاثة على الإبل الواحدة، وكان الرسول ﷺ يمشي على رجليه، ويتناوب الركوب مع أبي لبابة، وعلي بن أبي طالب ﵁ على جمل واحد، كل منهم يركبه فترة من الزمن، فقالا له: نحن نمشي عنك، فقال ﷺ في تواضع عظيم:

«**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[٢٤٧]

هكذا كان عزم النبي ﷺ الفائق الذي تمسك به لنيل الثواب... وعلى المؤمن ألا يكتفي في عمل الخير وكسب الثواب أبدًا بالقليل منه، وإنما يخطو خُطًى ينال بها الثواب حتى آخر نفَس في حياته، فالحديث الشريف يذكر ذلك بقوله:

«**لروحة في سبيل الله، أو غدوة، خير من الدنيا وما فيها...**»[٢٤٨]

❁

---

٢٤٥ أحمد، مسند، ٣، ٩١؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٥٦.

٢٤٦ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ١٠/ ١٩٥٦.

٢٤٧ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٢١؛ أحمد؛ مسند ، ١؛ ٤٢٢.

٢٤٨ البخاري، الجهاد، ٦/ ٢٧٩٦.

وكم من العِبر التي تحملها هذه الأمثلة التي تُظهر جِدّ الصحابة الشباب واجتهادهم لكسب رضا الله ﷻ:

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يتفقد جيشه قبل الخروج إلى بدر، وكان يردُّ من كان دون خمس عشرة سنة من الصحابة، وعن عامر بن سعد عن أبيه قال :رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ للخروج إلى بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ فقال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة، قال: فعُرِضَ على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: «ارجع»، فبكى عمير، فأجازه رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال سعد: فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة.[٢٤٩]

❀

وَفي غزوة أُحد مضى رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى أتى الشيخين فعسكر به. وعُرض عليه غلمان، فكان يأخذ بعضهم ويَردُّ الأخر وكان ممن ردَّهم: سمرة بن جندب، ورافع بن خديج. قال رافع بن خديج، فقال ظهير بن رافع: يا رسول الله إنه رام!. وجعلت أتطاول وعلي خفان لي، فأجازني رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيبه مري بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: يا أبة، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني، وأنا أصرع رافع بن خديج. فقال مري بن سنان الحارثي: يا رسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه. فقال رسول الله ﷺ: «**تصارعا**»!. فصرع سمرة رافعا فأجازه. [٢٥٠]

❀

٢٤٩ الواقدي، مغازي، ١، ٢؛ ابن سعد، الطبقات، ٣، ١٤٩-١٥٠.

٢٥٠ الواقدي، مغازي، ١، ٢١٦؛ الطبري، تاريخ، القاهرة ١٩٩٠، ٢، ٥٠٥-٥٠٦.

وأعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير اللواء فقُتل مصعب، فأخذه مَلَك في صورة مصعب، فجعل رسول الله ﷺ يقول له في آخر النهار: «تقدم يا مصعب»، فالتفت إليه الملك، فقال: «لست بمصعب» فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أُيِّد به. [٢٥١] ثم وجده النبي ﷺ، لكنهم لم يجدوا يا يكفنونه به.

وأخيراً وجد كفن إلا أنه قصير، فإذا غطوا بها رأسَه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه، فأمرهم النبي ﷺ أن يغطوا رأسه وأن يجعلوا على رجليه من الإذخر.[٢٥٢]

❁

في غزوة بدر أرسل المشركون عمير بن وهب وأبا أسامة الجشمي ـ وكان فارسا ـ فأطاف بالنبي ﷺ وأصحابه، ثم رجع إليهم فقالوا له: ما رأيت؟ قال:

«والله، ما رأيت جلدا، ولا عددا، ولا حلقة، ولا كراعا. ولكني والله رأيت قوما لا يريدون أن يئوبوا إلى أهليهم، قوما مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم...»[٢٥٣]

❁

عن أنس رضي الله عنه قال:

أن رَسُول الله ﷺ قال عندما اقترب المشركون في غزوة بدر: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**»، قال: – يقول عمير بن الحمام الأنصاري: – يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل

---

٢٥١ ابن سعد، الطبقات، ٣/ ١٢١–١٢٢.

٢٥٢ البخاري، الجنائز، ٢٧.

٢٥٣ الواقدي، مغازي، ١، ٦٢.

يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل.[٢٥٤]

❁

وفي حديث أنه كان رجل من الطفاوة طريقه علينا، فأتى على الحي، فحدثهم، قال: قدمت المدينة في عير لنا، فبعنا بياعتنا، ثم قلت: لأنطلقن إلى هذا الرجل فلآتين من بعدي بخبره، قال: فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو يريني بيتا، قال:

«**إن امرأة كانت فيه فخرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزا لها، وصيصيتها كانت تنسج بها**» ، قال: «**ففقدت عنزا من غنمها، وصيصيتها، فقالت: يا رب إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزا من غنمي، وصيصيتي، وإني أنشدك عنزي، وصيصيتي**»

قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها لربها تبارك وتعالى، قال رسول الله ﷺ:

«**فأصبحت عنزها ومثلها، وصيصيتها ومثلها، وهاتيك فأتها فاسألها إن شئت**»

قال: قلت: بل أصدقك .[٢٥٥]

❁

وكان عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاريّ السّلميّ، ممن استشهد يوم أحد، ذكر ابن كثير في قصّة حضوره هذه المعركة، عن ابن الكلبيّ أنّه قال: كان عمرو بن الجموح آخر الأنصار إسلامًا، ولـمّا ندب رسول الله ﷺ النّاس إلى بدر، أراد الخروج معهم، فمنعه بنوه بأمر رسول الله ﷺ، لشدّة عرجه، فلما كان يوم أحد قال لبنيه: منعتموني الخروج إلى بدر، فلا تمنعوني الخروج إلى أُحُدْ، فقالوا: إن الله عذرك، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ بَنِيّ يريدون أنْ

٢٥٤ مسلم، الإمارة، ١٤٥/ ١٩١٠؛ أحمد؛ مسند ، ٣؛ ١٣٧/ ١٢٣٩٨.

٢٥٥ أحمد، مسند، ٥ ، ٦٧/ ٢٠٦٦٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥، ٢٧٧/ ٩٤٢٨.

يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة، فقال له رسول الله ﷺ: «أمّا أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك، وقال لبنيه: لا عليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشّهادة»، فأخذ سلاحه وولىَّ، وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائبًا، فلمّا قُتِلَ جاءت زوجته، هند بن عمرو وعمّة جابر بن عبد الله، فحملته وحملت أخاها عبد الله بن عمرو بن حرام، فدفنا في قبر واحد، فقال رسول الله ﷺ:

«**والذي نفسي بيده لقد رأيته يطأ بعرجته في الجنة**»[٢٥٦]

❁

وفي حديث آخر أنه أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل أو أسلم؟ قال: «**أسلم، ثم قاتل**»، فأسلم، ثم قاتل، فقتل، فقال النبي ﷺ:

«**عمل قليلا وأجر كثيرا**»[٢٥٧]

ولما كان بين الجرحى سئُل عن سبب مجيئه فأجاب: رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله وأسلمت، ثم أخذت سيفي فغدوت مع النبي ﷺ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ قط؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ فيقول: أصيرم بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش.[٢٥٨]

❁

عن جابر رضي الله عنه، قال:

لما حضر أحد دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك، غير نفس رسول

٢٥٦ الواقدي، مغازي، ١، ٢٦٤–٢٦٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤، ٢٠٨.

٢٥٧ البخاري، الجهاد، ١٣/ ٢٨٠٨؛ مسلم، الامارة، ١٤٤/ ١٩٠٠.

٢٥٨ ابن هشام، سيرة، ٣/ ٣٩–٤٠؛ الواقدي، مغازي، ١، ٢٦٢.

الله ﷻ، فإن علي دينا فاقض، واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا، فكان أول قتيل ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه.[٢٥٩]

❀

يقول جابر بن عبد الله: لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، لقيني رسول الله ﷺ فقال: «**يا جابر ما لي أراك منكسرا**»، قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيالا ودينا، قال: «**أفلا أبشرك، بما لقي الله به أباك؟**» ، قال: بلى: يا رسول الله، قال:

«**ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحا، فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك، قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانية، فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٢٦٠] »[٢٦١]

❀

وعن عائشة ﵂ قالت:

خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائي ـ يعني حس الأرض ـ قالت: فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه.

---

٢٥٩ البخاري، الجنائز، ٧٨/ ١٣٥١.

٢٦٠ آل عمران: ١٦٩–١٧٠.

٢٦١ الترمذي، تفسير، ٣/ ٣٠١٠؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٣/ ١٩٠.

قالت: فجلست إلى الأرض، فمرَّ سعدٌ وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فقالت له أمه: الحقْ ابني، فقد والله تأخرت، قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أنَّ درع سعد كانت أسبغ «أكمل وأطول» مما هي قالت: وخفت عليه، وكان ما تخوفته عائشة ﵂، فرمي سعد بن معاذ بسهم قطع منه الأكحل «عرق في الذراع»، فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة، فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه، فمات منه شهيدًا.[٢٦٢]

وفي رواية أخرى:

أن سعد بن معاذ عندما ثَقُل عليه جرحه دعا قائلًا: اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع، فإنه لم يكن في الناس قوم أحب إليَّ أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه من قريش! وإني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، وإن كان بقي بيننا وبينهم فأبقني أقاتلهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فافجر هذا الكَلْمَ، واجعل موتي فيه، فقد أقررت عيني من بني قريظة لعداوتهم لك ولنبيك ولأوليائك، ففجره الله وإنه لراقد بين ظهري الليل وما يدرى به.[٢٦٣]

فلما رأى سعد جزاء بني قريظة، فتح عليه جرحه، وبعد مدة نال ذاك الصحابي عاشق النبي رحمة الرحمان بتسليمه روحه شهيدًا.

❀

٢٦٢ انظر: الترمذي، السير، ٢٩/ ١٥٨٢؛ أحمد، مسند، ٦، ١٤١؛ ابن هشام، سيرة، ٣/ ٢٤٤؛ الواقدي، المغازي، ٢، ٥٢٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٢٣.

٢٦٣ الواقدي، المغازي، ٢، ٥٢٥.

كان الصحابة الكرام في شوق عظيم لنيل شرف الالتحاق والانضمام إلى قافلة الشهادة في سبيل الله مع النبي ﷺ أثناء الاستعداد لغزوة تبوك، إلا أن سبعة من الصحابة لم يجدوا ما يحملهم، حيث كان يتناوب كل اثنان من الجنود وحتى ثلاثة على إبل واحدة، إلا أن هؤلاء المتشوقين للغزو وصحبة النبي ﷺ، كانوا من العوز بحيث عجزوا عن العثور حتى على ما يحملهم ولو بالتناوب، فعرضوا حالهم على النبي عليه الصلاة والسلام، وبناء عليه أنزلت هذه الآية الكريمة في إعفاء ذوي الحاجة من الغزو:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [٢٦٤]

وقد قام سيدنا العباس وسيدنا عثمان رضي الله عنهما بقضاء حاجة هؤلاء السبعة الذين ذرفوا الدمع من أجل الغزو مع الرسول الأكرم، وساهموا في اشتراكهم في الغزوة، ووجد النبي ﷺ للبقية ما يحملهم عليه.[٢٦٥]

هؤلاء هم الصحابة الذين مُلئوا بحب الله تعالى، فرغم أنهم أعفوا من المشاركة في القتال، إلا أن تحمسهم وتشوقهم منعهم من الابتعاد عن النبي ﷺ، فكافأهم الله عز وجل وأكرمهم بصحبته عليه السلام.

❀

وفي غزوة تبوك تأخر أبو ذر رضي الله عنه في الركب بسبب ضعف جمله، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه، فجعله على ظهره ومشى حتى لحق بالركب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَثُ وحده».

---

٢٦٤ التوبة: ٩٢.

٢٦٥ انظر: البخاري، المغازي، ٧٨.

وقد تحقق إخبار النبي عليه الصلاة والسلام الإعجازي في وقته، فعاش أبو ذر ﵁ وحيدًا وتوفي وحيدًا.[٢٦٦]

❁

إن التخلف عن بذل الجهد المفروض علينا في سبيل الله تعالى قد يكون سببًا في الهلاك، وهكذا فقد تخلف أبو خيثمة عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حتى إذا سار رسول الله ﷺ، رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما، قد رشت كلٌّ واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيأت له طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، ثم قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر ـ يعني بالضح: الشمس ـ وأبو خيثمة في ظل وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، ما هذا بالنَّصَف! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ فأدركه حين نزل تبوك، فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: «**أولى لك أبا خيثمة!**» ثم أخبره الخبر، فقال له: «**خيرًا!**» ودعا له.[٢٦٧]

❁

جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب ﵁، فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر فيقول: ههنا يا سهيل! ههنا يا حارث! فينحيهما عنهم، فجعل الأنصار يأتون عمر فينحيهما عنهم، كذلك حتى صارا في آخر الناس، فلما خرجا من عند عمر قال الحارث ابن هشام لسهيل بن عمرو: ألم تر ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أيها الرجل! لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دُعِيَ القوم فأسرعوا ودُعينا فأبطأنا، فلما قام من عند

---

٢٦٦ الواقدي، المغازي، ٣، ١٠٠٠.

٢٦٧ ابن هشام، سيرة، ٤/ ١٧٤؛ الواقدي، المغازي، ٣، ٩٩٨.

عمر أتياه فقالا له: يا أمير المؤمنين! قد رأينا ما فعلتَ اليوم، وعلمنا أنَّا أُتينا من أنفسنا، فهل شيء نستدرك به؟ قال لهما: لا أعلمه إلا هذا الوجه، وأشار لهما إلى ثغر الروم، فخرجا إلى الشام فماتا بها.[٢٦٨]

❀

عن أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه، قال: سمعت أبي، وهو بحضرة العدو، يقول: قال رسول الله ﷺ:

«**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»،

فقام رجل رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى، آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل.[٢٦٩]

❀

وكان أبو أيوب الأنصاري ﷺ في جيشٍ متوجهٍ لفتح القسطنطينية فمرض أبو أيوب، فدخل عليه يزيدٌ يعوده فقال: «ما حاجتك؟»، قال:

«حاجتي إذا أنا مِتُّ فاركب، ثم سغ في أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإذا لم تجد مساغًا فادفني ثم ارجع».[٢٧٠]

وكما نعلم فإنَّ أبا أيوب الأنصاري عاش حياته مجاهدًا في سبيل الله تعالى، واستمر في خدمته بمقامه وقبره الذي يتخذه الجنود نبراسًا هاديًا لهم ولكل الأجيال القادمة.

❀

٢٦٨ علي المتقي، كنز العمال، ١٤، ٦٧/ ٣٧٩٥٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٣١٨/ ٥٢٢٧.

٢٦٩ مسلم، الإمارة، ١٤٦/ ١٩٠٢؛ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢٣/ ١٦٥٩.

٢٧٠ انظر: أحمد، مسند، ٥، ٤١٩، ٤١٦؛ الحاكم، المستدرك، ٣،٥١٨/ ٥٩٣٠.

كسبت الإمارة العثمانية مقام الدولة الحقيقية في زمن أورخان غازي، وكان مثل أبيه عثمان غازي قد تبنَّى فكرة غزو الكفار علاوة على الاستقرار في آسيا الوسطى، وعلى هذا وضع هدفًا نصب عينيه بداية من اسطنبول إلى الأبعد فالأبعد، لذلك وضع لنفسه لقب «مرزاب الآفاق» يعني ملك الآفاق، وكانت طوال حياته لا يمكث في مكان أكثر من شهر، بل كان يخرج للجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، ومع هذا كان يرجح فتح العقول بقوله: «المروءة أفضل من الحرب».

أما أوزدمير أوغلو عثمان باشا؛ فجاهد في سبيل الله تعالى، ونجح نجاحًا عظيمًا، وجعله مراد خان الثالث صدرًا أعظم مكافأة له على خدماته التي وُفّق بها، وبعد أن قام أوزدمير عثمان باشا بهذه المهمة أربعة أشهر، صار قائدًا أعلى مرة أخرى بعد شغب العامّة، وفي هذه الأثناء وصل خبر القضاء على تمرّد العامّة، فعُيّن قائدًا أعلى على الشرق.

كان أجدادنا يبحثون عن رضا الله ﷻ أكثر من بحثهم عن المقام والسيادة، فأزدمير أوغلو رغم أنه كان صدرًا أعظم فضّل العودة إلى الجبهة بطلبه هو، ونال رتبة الشهادة ولقي ربه بجهاده في سبيل الله.

❁

لقد كان العساكر الانكشاريون ـ وهم الذين طالما قاتلوا الأعداء في ساحات الحرب في شبابهم ـ بعد أن ابيضّت لِحاهم، ولم يعودوا قادرين على رفع السيوف، يحملون قِرَبَ الماء على ظهورهم، وفي أيديهم وعاء للشرب، ويتجوّلون بين الأحياء، ويعملون على نيل الثواب بتوزيع الماء تأسيًا بسيدنا الحسين رضي الله عنه الذي استُشهد في كربلاء متلهّفًا لرشفة ماء، ويكرمون الماء قائلين إلى روح الحسنَين يعني الحسن والحسين.

❁

الضابط مظفّر الذي كان طالبًا في الجامعة، انضم إلى الجيش متطوعًا بناء على الحاجة لإنهاء حرب جناكّ قلعه، وبعد تدريب استمر ثلاثة أشهر نُقل إلى جناكّ قلعه، إلا أن الحرب كانت قد انتهت، وكانً قسم كبير من الفرق العسكرية سيُنقل إلى الجبهة الشرقية، وللقيام بهذا لابد من إصلاح الأدوات التي تعطلت في الحرب من إطارات المراكب وغيرها، فوُظّف الضابط الاسطنبولي بهذه المهمة.

ذهب الضابط مظفر إلى اسطنبول مباشرة، ووجد المستلزمات التي يحتاجها عند تاجر يهودي، وذهب إلى قائم مقام أركان الحربية، إلا أن القائم مقام بيّن أنه لن يستطيع دفع المبلغ المطلوب، وأن الوضع المادي السيء يمنعهم من شراء معطف وحذاء عسكري للجنود.

كان الضابط في حيرة لما يمكنه أن يفعل بعد أن خرج من عند قائم مقام حزينًا، وكيف يمكنه العودة إلى معسكره فارغ اليدين؟ وأخيرًا اتخذ قرارًا بعد أن فكر في الوضع السيء في الجبهة، فذهب إلى التاجر اليهودي، وطلب منه أن يجهز طلبه، وأنه سيأتي لأخذها بعد صلاة الفجر وسيدفع نقودها وقتها، وعمل تلك الليلة إلى الصباح وجهّز مئة ليرة ورقية، وكانت تشبه الأصلية بحيث لا يعرف الفرق في النظرة الأولى...

وكانت تكتب عليها هذه العبارة فئة مئة ليرة عثمانية؛ سيبدّل بالذهب في دار السعادة، إلا أن الضابط مظفر كتب على النقود التي جهزها: «سيبدّل بالذهب في جاناك قلعه».

وفي الصباح الباكر أخذ البضاعة من التاجر اليهودي، ودفع النقود، وركب السفينة متجهًا إلى جناكّ قلعه، بعد ثلاثة أيام عندما ذهب التاجر اليهودي إلى المصرف العثماني لصرف النقود، ظهر تزوير النقود، أما الذهب المقصود منه فهو الدم الذي سال في جناكّ قلعه وهو أهم من الذهب بكثير، ولسبب غامض سكت

اليهودي على هذا الوضع ولم يتصرف بأي تصرف غير لائق، إلا أن الخبر انتشر في كل اسطنبول ووصل إلى الأمير عبد الحميد أفندي، اهتم الأمير بالموضوع مباشرة، أخذ النقود المزوّرة من اليهودي وأعطاه ما يساويها ذهبًا وأهدى النقود للمتحف الأمني في محفظة أنيقة.

والحاصل؛ فإنه اتّباعًا لقوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾، [٢٧١] لا بد أن نقضي حياتنا بالجِد والعمل في سبيل الله تعالى وحتى آخر نفَس، لأن هذه الدنيا دار العمل، والأخرة دار كسب نتيجة هذا العمل، فكلما ملأنا صحيفة أعمالنا في الدنيا بالخيرات والحسنات زادت سعادتنا في الحياة الأبدية.

ومع هذا ينبغي أن لا نأمن أبدًا الثواب الذي نظن أننا كسبناه بأعمال الخير، فرحمة الله تعالى ومغفرته تفوق الأعمال التي جمعها عباده، وهذا متعلق بقدر تعلقنا به ﷻ في القلب دائمًا والإخلاص لله تعالى.

د ـ التضحية في سبيل الله ﷻ

التضحية من أبرز علامات المحبة، ويقاس عظم المحبة بمدى ما يبذله المحب من تضحية في سبيل المحبوب، فالمحب يفتدي بيُسْرٍ في سبيل محبوبه كل ما يملك من خلال تحمّله كل الصعاب التي تعترضه في هذا الطريق، ولذا يجب على المؤمنين الذين يُكنّون المحبة لله ولدينه أن ينفقوا في سبيل الله ـ علاوة على المفروض عليهم ـ وأن يتحمّلوا المشاقَّ والمصاعب في هذه السبيل، ومعلومٌ أن أفضل الأمكنة التي تُصرف فيها النعم التي أكرم الله بها، هي أيضًا سبيل الله تعالى.

يقول حضرة مولانا:

«المال والبدن بفنيان ويذوبان كالثلج، ولكنهما إن صُرفا في سبيل الله، فإن الله يشتريهما، حيث جاء في القرآن:

---

٢٧١ الحجر: ٩٩.

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [٢٧٢]

وما يشتريه الحق تعالى ينجو من الذوبان والزوال ويحصل على شرفٍ وقيمةٍ عظيمة.

والله تعالى ينتظر من عباده ـ وخاصة وقت الشدة ـ التضحية، هذه التضحية التي اعتبرها في البيان القرآني، «القرض الحسن» أي دينٌ حسنٌ يدفع في سبيل الله، ووعد أن يعوّضها لهم أضعافًا مضاعفة.

فالتضحية شعار المؤمنين الكاملين، وكذلك جوهر الإنسانية المميز الذي يُقرِّب العبد من ربه، وحتى ننال رضا الله أُمرنا في القرآن أن نضحي بصدقٍ وإخلاصٍ.

المؤمن المضحّي يجمع في نفسه كل الصفات الحميدة.

المؤمن المضحّي هو الجواد، الرحيم، المتواضع، الخدوم، وطبيب الأرواح الذي يلقّح الأرواح بلقاح الحياة الأبدية.

المؤمن المضحي من أهل الإيثار، وهو الذي يَقْدِر على تفضيل أخيه المؤمن على نفسه ـ مع حاجته ـ ويستطيع أن يدفع ما في يده من المستطاع لهم.

كذلك المؤمن المضحّي هو الأمل والنبراس الإيماني الذي يفي بكل الخدمات في سبيل الله بمحبة وشفقة، وهو الذي يحتل مكانه في الصف الأول في سعيٍ حثيث لمنح السلام للنفوس، وطلبٍ دائمٍ لرضا الله تعالى من خلال كلامه وتصرفاته وأخلاقه المثالية، يقف بجانب المهمومين والمغتمّين، قريبٌ من البؤساء واليائسين.

ثم إن الصحابة الكرام -بشيوخهم وشبابهم المعتبرين جيلًا مثاليًّا يحتذى به- وضعوا محبة الله ورسوله في قلوبهم وقدّموا نماذج عظيمة للتضحية في هذا السبيل.

وما قدّمه شباب الصحابة من تنافس فيما بينهم لينالوا شرف تبليغ كتب سيدنا رسول الله ﷺ، آخذين بعين الاعتبار تحمّل وتقديم كل التضحيات في سبيل تحقيق

---

٢٧٢ التوبة: ١١١.

أمنية واحدة لرسول الله ﷺ، وتسابقهم بأرواحهم وأبدانهم في خدمته، ودون أن يقدّموا في ذلك أي معذرة، وقطْعهم الجبال الشاهقة والقفار المجهولة، وتسلّلهم من بين الجلّادين في الأماكن التي ذهبوا إليها حتى وقفوا أمام الملوك، ليقرؤوا كتب رسول الله ﷺ بجرأةٍ إيمانية كبيرة، كل ذلك ما هو إلا مظهرٌ بارز للمحبة العميقة التي يكنّونها لله ورسوله، والاستعداد الفريد للتضحية في سبيل رضاهما.

وما أحسن ما يقوله حضرة مولانا في ديوانه الكبير:

«ما قيمة الذهب، وما الروح وما الماس والمرجان إن لم تُصرف في معشوقٍ، أو يُفتدى بها جميل؟!».

يعني أن روح الإنسان وماله يكتسب قيمةً عظيمةً إن أنفق في سبيل الله، وبيع لله تعالى مقابل الجنة، وإلا ذهب هدرًا دون قيمة أو اعتبار.

صور الفضائل

لقد ردّ فخر الكائنات سيدنا رسول الله ﷺ في بداية دعوته ـ وبلا ترددٍ ـ كل الوعود التي عُرضت عليه، من مال، ومكانة، وكل ما تشتهيه النفس، واستمر ـ مع كل المشقات ـ في تبليغ دين الله تعالى للناس. فترك بيته[٢٧٣] وماله وكل ما يملك، وخرج من بلده التي وُلد ونشأ فيها وهاجر في سبيل الله تعالى، وعند فراقه وقف على مكان يسمّى حزورة، نظر بحزنٍ إلى مكة، وقال ﷺ:

«والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»[٢٧٤]

٢٧٣ بعد الهجرة غصب المشركون وباعوا دارين لرسول الله ﷺ بقيتا له من أمه وزوجه. وعندما فتح رسول الله ﷺ مكة سكن في خيمة، ولما سئل: يا رسول الله ألا تأوي إلى دارك؟ قال: «وهل ترك عقيل بن أبو طالب لنا داراً أو مأوى؟». ومع كونه قائدًا منتصرًا لم يرض أن يعيد مرة أخرى داره المغصوبة. انظر: الواقدي، ٢، ٨٢٩؛ ابن سعد، ٢، ١٣٦؛ الأزرقي، أخبار مكة، مكة ١٩٦٥، ٢، ١٦١؛ البلازوري، ١، ٣٥٦؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، مصر ١٩٦٦، ص ١٧١.

٢٧٤ الترمذي، المناقب، ٦٨/ ٣٩٢٥؛ أحمد، مسند، ٤، ٣٠٥.

ومع كل صعوبة الإمكانات المادية ـ حيث كان يعيش في حجرته الصغيرة المتواضعة التي كان يضطر أن يخفض رأسه للولوج فيها ـ بقي يبلغ دين الله تعالى في المدينة، ولم يرجع إلى مكة المكرمة بعد فتحها، تلك البلدة المقدسة التي هي أحبّ بلاد الله إلى الله ورسوله، وذلك وفاءً للأنصار الذين آووه وأيدوه.

ويكفي برهانًا على البذل والتضحية التي كان يقدمها لنشر دين الله تعالى غزواته الثلاث عشرة، وسراياه الإحدى والعشرون التي خاضها في سنواته العشر من حياته المدنية.

❀

وإن التضحية بالنفس والمال شرطان مهمان لدخول الجنة، وتشير هذه الرواية إلى ذلك بكل وضوح:

يروي بشر بن الخصاصية رضي الله عنه:

«قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، قال: فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله.

فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان، فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر، فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي، وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غنيمة وعشر ذود، هن رسل أهلي وحمولتهم. قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «**فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذا؟**» قال: قلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. قال: فبايعته عليهن كلهن» [٢٧٥]

❀

٢٧٥ أحمد، مسند، ٥، ٢٢٤/ ٢١٩٥٢.

ومن إحدى الشخصيات البارزة في التضحية سيدنا إبراهيم عليه السلام، ذاك الذي وقف كلَّ ماله على خير المؤمنين، واستطاع أن يقدم ـ دون أن تطرف عينه ـ روحه للنار، وابنه للذبح فداءً لأمر الله تعالى، ولأجل ذلك مُدِح من الحق تعالى بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [٢٧٦] أي التزم بكل عهوده.

❀

في السنوات الأولى للإسلام حار مشركو مكة فيما يفعلون؟ الظلم الذي فرضوه على المسلمين والتعذيب والضغط والاضطهاد كان يزداد يومًا بعد يوم، حتى حوّلوا الحياة في مكة إلى حالة لا تطاق، وبناءً عليه ـ وكغيره من المسلمين ـ استأذن سيدنا أبو بكر رسول الله ﷺ بالهجرة، وخرج موليًا وجهه شطر الحبشة، وبعد مسيرة يوم أو يومين لقيه ابن الدّغنة سيد قبيلة القارة فقال: يا أبا بكر، إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، فوالله إنك زينة قومك وقبيلتك، تُكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتُعين على نوائب الحق، فارجعْ وأنا لك جار، فرجع سيدنا أبو بكر مع ابن الدّغنة إلى مكة، وعند دخولهما مكة أعلن ابنُ الدغنة لقريش حمايته لأبي بكر، وفي مقابل ذلك شرطت قريش على ابن الدغنة بعض الشروط:

وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، وليصلِّ وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنّا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فقال ابن الدغنّة ذلك لأبي بكر، وقَبل أبو بكر وأخذ يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم اتخذ له مصلىً بفناء داره، فلما كان يصلي فيه ويقرأ القرآن ـ وكان أبو بكر رجلًا رقيق القلب بكّاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ـ، فأخذت نساء المشركين وأبناؤهم يطوفون حول بيته، يعجبون لقراءته ويستمعون له بشوقٍ وشغف، فأفزع ذلك مشركي قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقالوا له: إما أن تمنع أبا بكر من فعله أو يردّ إليك ذمتك، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: يا

---

٢٧٦ النجم: ٣٧.

أبا بكر: إما أن تجلس في بيتك وتخفض صوتك وإما أن تردّ إلي ذمتي، فتوكل أبو بكر الصديق ﷺ على الله وأجابه بجواب يملؤه التسليم لله تعالى: أردُّ لك جوارك وأرضى جوار الله. [٢٧٧]

فأولئك النفر من الصحب الكرام وضعوا نصب أعينهم تحمّل كل شيء من أجل استمرار دعوتهم في سبيل الله، فهاجروا تاركين أوطانهم وأموالهم وأهليهم وأصحابهم، مستقبلين ـ وقد استعانوا بالله تعالى ـ كل أنواع المصائب بتحمل وتضحية عظيمة.

❀

وإن تقديم التضحية ـ وفي أشدّ أوقات الحاجة إليها مهم جدًا، لذا نجد سيدنا فخر الكائنات قد أبدى وفاء كبيرًا للصحابة الذين آمنوا في أولى أيام الدعوة الإسلامية، وتكلفوا العديد من التضحيات، وهاجروا في سبيل دين الله، ورفع ﷺ دائمًا من شأنهم... وفيما يلي رواية تفيض بالعبر:

يروي أسامة بن زيد ﷺ، فيقول:

كنت جالسا إذ جاء علي والعباس يستأذنان، فقالا: يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله علي والعباس يستأذنان، فقال: «**أتدري، ما جاء بهما**»؟ قلت: لا، فقال النبي ﷺ: «**لكني أدري، فأذن لهما**»، فدخلا، فقالا: يا رسول الله جئناك نسألك أي أهلك أحب إليك؟ قال: «**فاطمة بنت محمد**»، فقالا: ما جئناك نسألك عن أهلك. قال: «**أحب أهلي إلي من قد أنعم الله عليه وأنعمت عليه أسامة بن زيد**». قالا: ثم من؟ قال: «**ثم علي بن أبي طالب**». قال العباس: يا رسول الله جعلت عمك آخرهم؟ قال: «**لأن عليّاً قد سبقك بالهجرة**». [٢٧٨]

❀

٢٧٧ البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥؛ ابن هشام، سيرة، ١، ٣٩٥-٣٩٦.

٢٧٨ الترمذي، المناقب، ٤٠/ ٣٨١٩.

ولما خرج صهيب الرومي ﷺ من مكة مهاجرًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تبعه نفر من قريش، حتى يقبضوا عليه ويعيدوه إلى مكة، ولما علم صهيب بمتابعتهم له نزل من ناقته، وانتثل كنانته، ولما اقتربوا منه قال لهم: قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلًا بسهم، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهمٍ في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه ثمّ شأنكم بعد ذلك، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلّوا سبيلي، فقالوا: نعم، فتعاهدوا على ذلك، [٢٧٩] فدلّهم، وبعد ذلك توجّه صهيب نحو المدينة، وكانت الآيات تنزل من الله تعالى على رسوله الكريم:

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [٢٨٠]

فمن يضحّي في سبيل الله بكل منافعه الشخصية فإن الله يجزيه برحمته الواسعة.

فلما رآه النبي ﷺ قال: «**يا أبا يحيى، ربح البيع**»، فقال صهيب ﷺ: والله يا رسول الله ما سبقني في الطريق إليك أحدٌ، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام. [٢٨١]

❁

يروي معاذ بن عمرو ﷺ قصته يوم بدر فيقول:

«لما ضربتُ أبا جهل بالسيف ضربةً قطعت بها رجله ضربني ابنه عِكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلّقَت بجلْدة من جَنْبي، وأجهضني القتالُ عنه، فلقد قاتلت عامّة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطّيت بها عليها حتى طرحتها» [٢٨٢]

---

٢٧٩ ابن الجوزي، زاد المسير، بيروت ١٩٨٧، ١، ٢٢٣؛ ابن كثير، التفسير، ١، ٢٦٠–٢٦١.

٢٨٠ البقرة: ٢٠٧.

٢٨١ الحاكم، المستدرك، ٣، ٤٥٠–٤٥٢/ ٥٧٠٦.

٢٨٢ ابن هشام: ٢/ ٢٧٥–٢٧٦.

وما هذه القصة إلا واحدة من المُثُل العليا للتضحية، أن يتخلى الصحابي عن يده المجروحة التي تُعيقه عن الجهاد ويفتديها مستمرًا بإيمان فيَّاض في جهاده.

❀

ومصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان من أهل الغنى والشرف، لا يلبس غيرُه ما يلبسه مصعب من جميل الثياب، ولا يتطيّب بأغلى العطور وأنفسها سواه، غدا بجماله أنشودة كل لسان، حتى أمسى تلاحقه جواري مكة، ولكن مصعبًا ضحّى بكل ذلك، وافتدى نفسه في سبيل الله تعالى.

يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقول:

«إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو اليوم فيه، ثم قال رسول الله ﷺ:

«كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة»؟

قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ:

«لأنتم اليوم خير منكم يومئذ»[٢٨٣]

❀

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم، أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أتي بطعام وكان صائما، فقال:

«قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه، بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه – وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني – ثم

٢٨٣ الترمذي، القيامة، ٣٥/ ٢٤٧٦.

بسط لنا من الدنيا ما بسط – أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا – وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام »[٢٨٤] أي وما أخشى إلا أن يكون الله تعالى يُنقص من أجورنا في الآخرة ويمنحنا إياها في الدنيا.

❀

عبد الله بن سهل وأخوه رافع كانا ممن شهدَا أُحدًا مع فخر الكائنات ﷺ، فرجعا إلى المدينة جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج إلى حمراء الأسد في طلب العدو، قال عبد الله بن سهل:

«أتَفوتنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ!، ووالله ما لنا من دابة نركبها، وما منّا إلا جريحٌ ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا، فكان إذا غلب حملته عقبةً ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون»[٢٨٥]

وهناك العديد من الصحابة، أمثال هؤلاء المضحّين العِظام، الذين بشّرهم الحق تعالى بتوجهه الإلهي بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢٨٦]

❀

وَعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال:

«خرجنا مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا»

---

٢٨٤ البخاري: الجنائز، ٢٧ / ١٢٧٥/ ٤٠٤٥.

٢٨٥ ابن هشام، سيرة، ٣، ٥٣.

٢٨٦ آل عمران: ١٧٢.

يقول أبو بردة راوي الحديث:

«حدث أبو موسى بهذا ثم كره ذاك، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه» [287]

نعم هذه هي الحالة الروحية للصحابة الكرام، مُضَحٍّ وفي الوقت نفسه متواضع، وصاحب إخلاص وتقوى...

❁

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

كنا مع النبي ﷺ في مسير، قال: فنفدت أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال حتى ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة»[288]

فالصحابة الكرام الذين قدّموا التضحيات العِظام لم يكونوا في ذلك الوقت في بحبوحةٍ وسعةٍ، بل على العكس تمامًا، كانوا لا يجدون حتى التمر ليأكلوه، فيمصُّون نواة التمر عساها أن تطفئ لظى جوعهم، ومع حالهم هذه كانوا يقدمون تضحياتهم.

❁

---

٢٨٧ البخاري: المغازي، ٣١/ ٤١٢٨.

٢٨٨ مسلم، الإيمان، ٤٤/ ٢٧.

كان أبو أحمد بن جحش صهرًا لأبي سفيان، ولما هاجر بنو جحش برجالها ونسائها إلى المدينة وتركوا دورهم وبيوتهم في مكة عَدَا عليها أبو سفيان ـ رغم قرابته لهم ـ وباع دار صهره من عمرو بن علقمة بأربع مائة دينار، فلما بلغ أبا أحمد ما صنعه أبو سفيان هجاه بأبياتٍ من الشعر.[٢٨٩]

وكان هذا الرجل آخر من بقي ممن هاجر، وكان قد كفّ بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ـ بنت أبي سفيان ـ وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غيره، فهاجر متكتّمًا من قريش حتى قدم المدينة المنورة على رسول الله ﷺ.[٢٩٠]

ولما فتحت مكة المكرمة، وبدأ رسول الله ﷺ في خطبة الفتح، قام أبو أحمد بن جحش على باب المسجد على جملٍ له يصيح: أُنشد بالله يا عبد مناف حلفي، أنشد بالله يا عبد مناف ردّوا إليّ داري، فدعا رسول الله عثمان فسارّ بأُذُنه بشيءٍ، فذهب عثمان إلى أبي أحمد فسارّ بأذنه بشيءٍ، فنزل أبو أحمد من بعيره وجلس مع القوم، فما سُمع أبو أحمد يذكر داره بعد ذلك حتى لقي الله تعالى.[٢٩١]

وفي اليوم ذاته كان أبو أحمد يقول شعرًا، والنبي ﷺ متكئ على يده:

حبّذا مكة من وادي بها أمشي بلا هادي

بها يكثر عوادي بها تركز أوتادي.[٢٩٢]

فقيل لأبي أحمد بعد ذلك: ما قال لك رسول الله؟ قال: قال لي:

«إن صبرت كان خيرا لك، وكانت لك بها دار في الجنة»

قال: قلت: أنا أصبر فتركها أبو أحمد.[٢٩٣]

---

٢٨٩ ابن هشام، سيرة، ٢، ٧٩؛ الأزرقي، أخبار مكة، ٢، ٢٤٤– ٢٤٥.

٢٩٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ٦٣.

٢٩١ الواقدي، مغازي، ٢، ٨٤٠؛ ابن سعد، الطبقات، ٤، ١٠٢.

٢٩٢ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ٦٤.

٢٩٣ الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٢٤٥.

وكذلك قال أهل بيت أبي أحمد له: قال رسول الله ﷺ:

«**إنَ لَك بها داراً خيراً منها في الجنة**»[294]

وهكذا كان شعار المسلمين: التضحية لآخر رمقٍ من نفسه، والتضحية بماله ونفسه وداره، بل بكل إمكاناته.

❀

لم يستشهد في غزوة تبوك إلا صحابي واحد وهو عبد الله المزَني، وهو الذي كان قد تشرّف بالإسلام داخل قبيلته المشركة، فقد مات أبوه ولم يورثه شيئًا، فأخذه عمّه الغني وكفله، وكان يعطيه حتى أيسَرَ، فلما قدم رسولُ الله ﷺ إلى المدينة جعلت نفس عبد الله المزني تتوق إلى الإسلام، ولا يقدر عليه خوفًا من عمه المشرك، ولما انصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة قال عبد الله لعمه: يا عم، قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمدًا، فلتأذن لي في الإسلام، فقال عمه: والله لئن اتبعت محمدًا لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتُكه إلا نزعته منك حتى ثوبك.

فقال عبد الله المزني رضي الله عنه ـ ضاربًا مثلًا رائعا للتضحية ـ :

«أنا والله متبع محمّداً، وتارك عبادة الحجر والوثن، وهذا ما بيدى فخذه».

فأخذ عمُّه كل ما أعطاه حتى إزاره، فأتى عبدُ الله رضي الله عنه أمه بلا إزارٍ، فقطعت له بجادًا لها باثنتين، فاتّزر بواحدةٍ وارتدى بالأخرى. فقد كان رضي الله عنه مصرًّا على موقفه، يريد الوصول إلى المدينة في أسرع ما يمكن ليلقى رسول الله ﷺ، غير مكترثٍ بكل العقبات التي تعترض طريقه، فلم ينتظر طويلًا، وخلّص نفسه من قومه الذين ضايقوه، وبدأ بالمسير من ليلته.

وبعد مسيرٍ طويل وشاقٍّ أقبل إلى المدينة في حالةٍ يرثى لها، قد تقرّحت أطرافه وأنهكه الجوع والعطش، وكان في قمة السعادة، ولكنه ولبرهة تذكّر أنه

٢٩٤ الواقدي، مغازي، ٢، ١٠٤١؛ ابن سعد، الطبقات، ٤، ١٠٢.

لن يقدر على لقاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الثياب الرثّة، ورغم ذلك غاب الصحابي الشاب عن نفسه لشدة سعادته بوصوله إلى الفخر الأبدي للعالمين وألقى بنفسه في المسجد النبوي.

واضطجع فيه حتى السحر، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح وتفقّد الناس وكاد أن ينصرف إلى حجرته فرأى عبد الله، نظر إليه نبي الرحمة وملجأ اليتامى والمساكين والمظلومين، وآوى ذلك الصحابي بشفقة ومحبة، وضمّه إلى صدره، ولما علم أن اسمه عبد العزّى قال:

«أنت عبدالله ذو البجادين، انزل مني قريبا، فالزم بابي»

فلزم عبد الله رضي الله عنه أهل الصّفة، وأخذ يتعلّم القرآن الكريم، وبعد مدةٍ قرأ العديد من سور القرآن وحفظها. وكان رسول الله ﷺ يقول فيه مادحًا:

«خرج مهاجرًا إلى الله وإلى رسوله،فإنه أحد الأواهين»،

يعني من يُلِحُّ في دعائه لله تعالى ومن الْتهب واكتوى بمحبة الله تعالى، وذاك أنه عندما كان يقرأ القرآن الكريم يذكر الله كثيرًا، ويدعوه بصوتٍ عذبٍ وترنّم جميل.

هذا الصحابي الذي عَشِق النبي ﷺ، عندما تجّهزوا للخروج إلى تبوك قال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة، فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم إنى أُحَرِم دمه على الكفار»،

فقال: يا رسول الله ليس أردت هذا، قال النبي ﷺ:

«إنك إذا خرجت غازيا فى سبيل الله فأخذتك الحُمّى فقتلتك فأنت شهيد، ووقصتك دابتك فأنت شهيد، لا تُبال بِأيّة كان»،

وكان الإعجاز في استشهاده بالحالة التي أخبر بها النبي ﷺ، أخذته الحمّى ورحل إلى رحمة الله تعالى.

وفي ليلةٍ كان الجيش يتجهّز للعودة خرج ثلاثة رجال يحملون جنازةً تحت ضوء شعلة، هؤلاء الثلاثة هم سيدنا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والجنازة المحمولة هي جنازة عبد الله ذي البجادين رضي الله عنه.

يروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا المنظر الذي راقبه بغبطةٍ، فيقول:

في ليلةٍ مظلمةٍ لاح لي نورٌ يتحرك على أطراف خيام المجاهدين المنصوبة، فتبعته، وإذ برسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما يحملون جنازة عبد الله ذي البجادين رضي الله عنه، فنزلوا في مكان وحفروا قبرًا، ونزل النبي ﷺ في القبر، وأبو بكر وعمر يُدلْيانه، ورسول الله ﷺ يقول: «**أدنيا مني أخاكما**»، فأخذه حتى أسنده في لِحده، ثم خرج رسول الله ﷺ، واستقبل القبلة رافعًا يديه يقول:

«اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارضَ عنه»

فقال ابن مسعود رضي الله عنه ـ وقد امتلئ عليّ قلبي وأنا أغبط عبد الله ذي البجادين ـ : لوددت أني مكانه، يا ليتني كنت الذي نال حُسن توجه النبي ﷺ.[٢٩٥]

إذًا: هذه هي عاقبة التضحية الرائعة المبذولة في سبيل الله تعالى، تقابلها اللّفتة النبوية والمحبة والوفاء.

فممّا لا ريب فيه أن كل مؤمن يتأمّل بغبطةٍ محبةَ النبي ﷺ وتعامله مع ذي البجادين، وسبيل استحقاق هذه اللفتة الكريمة يمرّ من خلال بذل بعض التضحية مع صدقٍ وإخلاصٍ في سبيل الله، ووحدها التضحيات في سبيل الله تعالى ترفع بالإنسان لينال مثل هذا الشرف الرفيع.

❀

وما أروع ما قاله سيدنا علي رضي الله عنه وهو يصف النبي ﷺ وأصحابه وتضحياتهم التي لن نصل حتى إلى أمثالها، فقال بكلامٍ وجيز:

---

٢٩٥ انظر: ابن هشام، سيرة، ٤، ١٨٣؛ الواقدي، مغازي، ٣، ١٠١٣-١٠١٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٢٢٧.

«إنه ليس بمؤمن من لم يحب الأنصار ويعرف لهم حقوقهم هم والله ربوا الإسلام كما يربى الفلو في فنائهم بأسيافهم وطول ألسنتهم وسخاء أنفسهم لقد كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم فيدعو القبائل ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة حتى إن القبائل منهم من قال: ما آن لك أن تيأس منا؟ من طول ما يعرض نفسه عليهم حتى أراد الله ﷻ ما أراد بهذا الحي من الأنصار فعرض عليهم الإسلام فاستجابوا وأسرعوا وآووا ونصروا وواسوا فجزاهم الله خيرا قدمنا عليهم فنزلنا معهم في منازلهم ولقد تشاحوا فينا حتى أن كانوا ليقترعون علينا ثم كنا في أموالهم أحق بها منهم طيبة بذلك أنفسهم ثم بذلوا مهج أنفسهم دون نبيهم عليه الصلاة والسلام وعليهم أجمعين»[٢٩٦]

❀

وإنّ من أهم أنواع التضحيات في سبيل الله تنازل المرء ـ إذا اقتضى الأمر ـ عن مقامه ومكانته، حفاظًا على سلامة المؤمنين، فسيدنا الحسن رضي الله عنه ـ سبط النبي ﷺ ـ تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وما ذلك إلا ليحفظ الأمّة من التفرّق والتمزّق، وبذلك استطاع أن يقضي على التجاذب السياسي بين المسلمين، ويمنع تقاتلهم ويحقنَ دماءهم.

❀

وثمة مثلٌ حسنٌ آخر في هذا الموضوع، فبعد وفاة عثمان غازي قام الأمير علاء الدين ـ الذي كان مدعومًا من قِبل وجهاء ومقدّمي الإمارة، وكان هو الأحق بالعرش حسب التسلسل الوراثي ـ بتقديم أخيه الأمير أورهان على نفسه في تسلّم عرش الإمارة، وعبّر عن ذلك قائلًا:

٢٩٦ أبو نعيم، دلائل النبوة، ص ١٠٥/ ٢٢٤؛ القندهلوي، ترجمة، حياة الصحابة، نشر، آقجا، ١، ٧٦–٧٧.

«أخي: أدعية الأجداد وهمتهم معك، لقد سلّمك جدّنا قيادة الجيش وهو في الحياة، فلك الحق أيضًا في تسلم عرش الإمارة»

فكان الأمير علاء الدين ـ الذي أبدى هذا الإيثار والتضحية العظيمة ـ عونًا كبيرًا لأخيه وحاميًا لوزارته.[٢٩٧]

❀

ومن أروع أمثلة التضحية التي صارت أنشودةً على لسان الدهر، تلك التي أظهرها عساكر السلطان محمد الفاتح الذين دخلوا في مجاهدة شديدة لينالوا شرف بشارة الحديث:

«**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**» [٢٩٨]

فكانوا يتسلّقون أسوار القسطنطينية غير مبالِين بنار الروم والزيت المغلي المسكوب عليهم، وهم في وجْدٍ إيمانيٍّ فياض، قائلين: «اليوم حان ميعاد الشهادة»، وكأنهم يستقبلون الموت بفرحٍ وابتسامة.

❀

وثمة حادثة وقعت أثناء إنشاء «جامع بيازيد» تصلح مثلًا رائعًا للتضحية:

كان يعيّن الناظر القروش المدفوعة أجرةً ليوميات الصنّاع والعاملين في عمارة المسجد الشريف، وكانت هذه القروش تُجمَع في أكوابٍ وتترك في زاوية معينة، وكل عاملٍ يأخذ نصيبه المحدّد له من هذه الأكواب، إلا أنه في كل يوم يبقى، مقدار يوميةٍ واحدة من القروش لا صاحب لها، وبناءً عليه أخذوا بالبحث عن هذا الذي لا يأخذ نصيبه، وفي النهاية تبيّن لهم أن عاملًا فقيرًا جدًا هو الذي يقوم بهذا العمل، وأنه كان يعمد إلى طريقة يتنصل بها من

---

٢٩٧ ضياء نور آقسون، تاريخ العثمانيون، اسطنبول ١٩٩٤، ١، ٣٦ .

٢٩٨ أحمد، مسند، ٤، ٣٣٥/ ١٨٩٥٧؛ الحاكم، المستدرك، ٥، ٤٦٨ / ٨٣٠٠.

نصيبه عندما يحلّ المساء. ولما سُئل عن السبب في ذلك؟ قال العامل الفقير وهو خجِلٌ من اكتشاف سره:

«أنا رجلٌ لا مالَ لي ولا ملك، وكان يؤلمني دائمًا أني لا أقدر على التصدّق بالمال في هذه الدنيا الفانية، فقلت في نفسي، لعلي إن عملت بلا أجرٍ في عمارة هذا الجامع، أكون قد فعلت خيرًا يدخل البهجة على نفسي...»

فقالوا لهذا الفقير غنيّ النفس:

«يا سيد: هذه من خيرات السلطان، لذا ستأخذ أجر عملك، أنت اعمل معنا ببدنك وخذ حقك، ثم تصدق بذلك كيفما تشاء...».

❀

ولما تغلب السلطان سليم خان على المماليك في الريدانية مرة أخرى في ٢٢/ كانون الثاني/ ١٥١٧، وضم بذلك مصر بشكل نهائيّ إلى حدود الدولة العثمانية، فقد أظهر السلطان الكبير تواضعه بحمله شخصيًا جنازة السلطان المملوكي على كتفه.

ولم تكن الحرب قد انتهت بدخول مصر، فقد أبدى عساكر المماليك مقاومةً شرسة تبعث الدهشة، من خلال محاربتهم حرب الشوارع ضد العثمانيين، وقد اختار فدائيو المماليك السلطان سليم هدفًا لهم، معتقدين أنهم إن قتلوا السلطان كسبوا المعركة، وكان الباشا سنان قد اطّلع على الأمر، فأخبر السلطان بذلك، ولبس ثوب السلطان محوّلًا أنظار فدائييّ المماليك إليه فتبعوه، فجاءهم السلطان سليم من الخلف، وإلى أن استطاع تشتيت الفدائيين كان الباشا سنان قد استشهد.

وحزن السلطان كثيرًا لـمّا دخل مصر، وكان يقول: «فتحنا مصر... ولكنا فقدنا الباشا سنان»، وكأنه بكلامه هذا يرى أن فَقْدَ عَلَمٍ مجاهد يوازي فتح مصر العظيمة.

وبعد النصر كان القائد العاقل القوي يقول: «الذي تتمناه نفسي أن أخرج من شمال أفريقيا إلى الأندلس، ومن ثم أعود إلى اسطنبول مرة أخرى من فوق بلاد البلقان»، ومن خلال أمنيته التي تنبع على لسانه بيّن لنا بُعْد الأفق الذي يجب أن يكون عند المؤمن الحقيقي، ولكن الشروط لم تساعده لتحقيق ذلك. وكان هذا السلطان الشجاع يقول:

«الشجاعة توصل المرء للنصر... وانعدام القرار للهلاك... والخوف يوصله للموت...».

أمضى السلطان سليم خان أغلبَ سنوات سلطنته غازيًا يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يفكّر أبدًا في الجلوس في قصره للراحة.

فمهما عظُمت غبطتنا فهو قليلٌ أمام افتداء الباشا سنان بمهجته هذا السلطان صاحب كل هذه الخدمات.

❀

عندما أراد السلطان سليمان القانوني في سفره الأخير الخروج إلى «زكدوار» جاءه الصدر الأعظم سقلّلو، وقال له:

«مولاي السلطان، لقد منحت الأمة ما لا يُعد من الانتصارات، تعبتم..! لقد أوقفتم عمركم على خدمة العالم الإسلامي، ولن تستطيعوا في هذه السنّ أن تتحمّلوا مشقة هذا السفر، لهذا أرجو أن تبقوا أنتم في اسطنبول تديرون الأمور، وأنا والوزراء والباشوات نشارك في السفر، فلا تقلقوا...»

فقال القانوني الحاكم الكبير لسقللو:

«اسمع جيدًا يا سقللو، وانْقُل وصيتي هذه للذين يأتون من بعدي، على السلطان أن يخرج دائمًا مع جنوده في الحرب، فعندما يرى الجندي سلطانه إلى جانبه تزداد جرأته، وعندما يرى العدو أن السلطان مشاركٌ في الحرب يرى أن الجيش الذي أمامه لا يُقهر، فتنهار قوته المعنوية وتنكسر جرأته... فالسبب الحقيقي للنصر في الحرب هو «القوة المعنوية».

ونحن منذ صغرنا وحتى يومنا هذا لنا تجارب عديدة في إدارة الدولة، وفي الحرب قد يحتاج الأمر للاستعانة بهذه التجارب في أسرع وقتٍ، لأن اللحظات والدقائق في كثيرٍ من الأحيان تحدّد مصير سير الأحداث... لهذا السبب ورغم كبر سني سأشاركُ في السفر، أنا إذا بقيت في القصر ومتّ على فراشي، غدًا يوم المحشر بأيِّ وجهٍ أقابل أجدادي الفاتحين.

فسكت سقلّلو مكتفيًا بقوله: الأمر لمولانا السلطان».

ولكن كيف يمكن أن يستمرّ السلطان مع كبر سنّه في متابعة هذا السفر الذي قد يمتدّ لشهور؟ لأجل هذا... لُفَّ على ظهره حزام عريض حتى يثبت على ظهر الخيل باستقامةٍ، ويَظْهَر حازمًا أمام الجند.

وخرجوا في السفر وكان الموسم ماطرًا، وبعد فترة غاصت عربات المدافع في الطين، ولم تعد قوة الدوابِّ كافيةً لسحب المدافع من الطين، وكان معظم الجيش قد ابتعد عنهم، ولم يبقَ بجوارهم سوى قلّة من الجنود والباشوات.

عندئذٍ أصدر السلطان أمرًا:

«على كل الأركان والرتب العليا حتى الباشوات أن ينزلوا في الطين، ويدفعوا عربات المدافع بأكتافهم!، فخلعوا جميعًا ألبستهم ونزلوا في الطين، وبتلك الروح المعنوية العليّة سحبوا عربات المدافع.

والْتفت السلطان لكاتب تاريخه وقال له: اكتب! حتى يقرأها الجيل القادم ويطبّقونها!... باشاوات ووزراء القانوني انغمسوا في الطين، ودفعوا عربات المدافع بأكتافهم، وبهذه الطريقة تجاوزنا إحدى العقبات بإذن الله».

ولما ختم الحاكم الكبير نهايةَ أختامه في «زكدوار» رفع يديه إلى السماء داعيًا الله تعالى:

«يارب... ما أكثر المرّات التي ملأت فيها الأرض بانتصاراتٍ لي... ولم يبق لي رجاءٌ واصلٌ ولا دعاءٌ حاصلٌ...

يا رب... أكرم ـ بكرامة الحبيب الأديب ـ عبدَك الفقير هذا الشهادةَ السعيدة ونعمة مشاهدة جمالك...».

وبعد هذا الدعاء بمدةٍ يسيرة توفي السلطان العظيم، وكان رابع السلاطين العثمانيين الذين رحلوا إلى رحمة الرحمن أثناء غزواتهم.

ويا له من نموذج رائع حال القانوني المسرع والمبتغي رضا الله ﷻ حتى نفسه الأخير.

❀

وكان أفراد الجيش الإيماني في حرب «جاناق قلعه» من الذين نشؤوا على التربية المعنوية للنبي عليه الصلاة والسلام، واتخذوا من أخلاق الصحابة الكرام نبراسًا هاديًا لأنفسهم، وفتحوا صدورهم لمعنوياتهم الروحية.

وكان المجنّد حسين واحدًا من هؤلاء الأفراد، وكان يتداوى من جرح بليغ جدًا أصيب به، ولكنه كان على درايةٍ بجديّة الوضع وصعوبته، فأمسكَ بيده رغيف الخبز الذي قدّمه إليه رفاقه، ورفعه إلى فيه ليأكله، وكاد أن يعضّه... ولكنه توقف فجأة!!... وكأنه يريد أن يجدّد ويكرّر إحدى نماذج التضحية التي أظهرها الصحابة، بترجيحِ إخوته المؤمنين على نفسه، فقال والفيض الإيماني الهائل يلفّه:

«يا رفاق الروح: ليس من حقّي أن آكل هذا الرغيف.. لقد دنا أجلي وبات قريبًا مني، فخذو هذا الرغيف وأطعموه الأبطال الأحياء...».

وبعد أن أنهى مقالته، دفع بالرغيف لرفيقه في السلاح «مصطفى».

وبعد مدةٍ قصيرة، ذاقت هذه الشخصية الاستثنائية والنموذجية للإيمان والفداء طعمَ الشهادة بسعادة ونشوة، ونالت شرف الوصول للمولى شهيدًا.

❀

وحاصله...

إن التضحية والإيثار من الأخلاق العالية التي امتدحها الإسلام.

التضحية بالراحة الشخصية ورفاهيتها وزينة البيوت والنفقات اليومية، إلى أصغر تضحية يقدمها المرء....

ولا بدّ لكل واحدٍ أن يأخذ حظه من هذا الخُلُق العظيم، وبالقدر المستطاع، لأن الحق تعالى سيجازي كل تضحية في سبيله بأضعافٍ مضاعفة من الثواب، وسيندم الذين لم يضحّوا في الحياة الدنيا، ويحترقون حسرةً فيما بعد على الفرص التي أضاعوها، لكن حينها لن ينفع الندم.

لقد كان وصول الإسلام لنا نتيجةً لتضحيات لا تحصى، ونحن يجب علينا تقديم ما نستطيع من التضحيات حتى نوصل الإسلام للجيل القادم، وحتى تبرأ ذممنا من المسؤولية أمام الحق تعالى، لأن النبي ﷺ بيّن لنا في حجة الوداع أنه ترك الكتاب والسنة أمانة في أعناقنا.

٤ ـ الوقوف إلى جنب أصحاب المآسي

أ ـ الإحساس بالمسلمين والحزن لأحزانهم

إن الحق تعالى أراد من الناس ـ الذين خلقهم في ضعفٍ وعجز ـ أن يعيشوا في جماعة ويتعاونوا فيما بينهم، وطلب من عباده ـ الذين امتحنهم في الدنيا ـ أن يزكّوا أنفسهم من الأنانية وحبّ الذات إلى الإحساس بالآخرين، ووعدهم بأنّ من نفَّس عن أخيه كربة أو قضى له حاجة قضى اللهُ له حاجاته ونفّس عنه كرباته يوم القيامة، حيث قال الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿...وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٩٩]

---

٢٩٩ الحجر: ٨٨.

وأمر المسلمين من خلال أمره لرسول الله ﷺ أن يكونوا دومًا بجوار المصابين، ويشاركوا إخوتهم المؤمنين في أحزانهم ومصائبهم.

وقد بشّر رسولُ الله ﷺ صاحبَ هذا الخلق بهذه البشارة:

«إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس، تفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله»[300]

فمن الناس الذين يحبهم الله ورسوله، المؤمن الذي يقاسم المسلمين مصابهم ويحضر مآتمهم، ذلك الذي يكسب الحسنات بخلقه الحسن هذا، وقد بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أجر الذي يقضي حوائج الناس فقال:

«إن الرجل ليسألني الشيء فأمنعه حتى تشفعوا فيه، فتؤجروا، اشفعوا، تؤجروا»[301]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[302]

من أراد الوصول إلى الله ﷻ فعليه مجاورة المحزونين والمصابين، وكما روي أن موسى عليه السلام سأل ربه قائلًا:

«يا رب، أين أبغيك؟»

قال:

«ابغني عند المنكسرة قلوبهم»[303]

---

٣٠٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ١٩٢/ ١٣٧١٠.

٣٠١ النسائي، الزكاة، ٦٥/ ٢٥٥٧.

٣٠٢ البخاري: المظالم، ٣/ ٢٤٤٢؛ مسلم، البر، ٥٨/ ٢٥٨٠.

٣٠٣ أبو نعيم،الحلية، ٢/ ٣٦٤.

وكم من عبرةٍ في قول سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ الذي أدرك هذه الحقيقة وعاش بموجبها:

«ما أدري أي النعمتين أعظم علي منة من ربي، رجل بذل مصاص وجهه إلي فرآني موضعا لحاجته، وأجرى الله قضاءها أو يسره على يدي، ولأن أقضي لامرئ مسلمٍ حاجةً أحب إليَّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة»[٣٠٤]

أما محبّة النفس فقط وعدم الإحساس بالآخرين، والوقوف منهم موقف اللامبالاة، فهذا لا يكون خلقاً لمسلم أبداً، لأن سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يقول:

«**ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع**»[٣٠٥]

ومِن كلام أهل الحق والعارفين في هذا الموضوع ما يأتي:

يقول سيدنا أبو بكر ﷺ:

«خدمة الناس تحفظ المرء من الآفات والمصائب».

ويقول سعد الشاذلي:

«إن لم تُردْ لنفسك كربة، قم ونفّس الكربة عن المكروبين».

ويقول حضرة مولانا:

«الدواء لا ينظر في العالم إلى شيءٍ غير الداء».

ويقول يوسف خاصّ الحاجب:

«يجب على المرء أن يتحمّل أعباء الآخرين، لا أن يكون عبئًا على الآخرين... وأن يَصِلَ بصمتٍ كل مَن جفاه».

---

٣٠٤ علي المتقي، كنز العمال، ٦، ٥٩٨/ ١٧٠٤٩.

٣٠٥ الحاكم، المستدرك، ٢/ ١٥/ ٧٣٠٧.

صور الفضائل

عن عمر بن الخطاب ﵁، قال:

«كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنا معهما»[٣٠٦]

❁

وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يتذكّر أحوال المؤمنين حتى حينما يأوي إلى فراشه، ويدعو لهم بقوله:

«الحمدُ لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» [٣٠٧]

❁

كان رسول الله ﷺ يهتمُّ بالناس الذين من حوله ويشاركهم في مصابهم، ويحاول مداواة أمراضهم، وكان ﷺ إذا تألم منهم أحد أو جرح، لمس بسبابته التراب ومسحه به وهو يقول:

«**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا**» [٣٠٨]

ولكي يتحقق هذا الشفاء لا بدّ من أمور ثلاثة:

١. إرادة الله ﷻ بالشفاء.

٢. إخلاص الراقي: الذي يقرأ الدعاء.

٣. إخلاص المرقَّى: الذي يُقرأ عليه الدعاء.

❁

٣٠٦ الترمذي، الصلاة، ١٢/ ١٦٩.

٣٠٧ مسلم، الذكر، ٦٤/ ٢٧١٥؛ أبو داود، الأدب، ٩٨/ ٥٠٥٣.

٣٠٨ البخاري، الطب، ٣٨/ ٥٧٤٥؛ مسلم، السلام، ٥٤/ ٢١٩٤؛ أبو داود، الطب، ١٩/ ٣٨٩٥؛ ابن ماجه، الطب، ٣٦/ ٣٥٢١.

وقد روي أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال:

«**يا أم فلان انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك**» فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها.[٣٠٩]

❁

لما هاجر المسلمون إلى الحبشة، استُقبلوا هناك أحسن استقبال، وبعد مدة قصيرة عادوا إلى مكة إثر إشاعةٍ كاذبة عن إسلام مشركي مكة، ولما علم مشركو مكة حسن المعاملة التي تلقّاها المسلمون في الحبشة، أحسّوا بقلقٍ شديد، فزادوا من العذاب الذي كانوا يمارسونه على المسلمين.

وكان عثمان بن مظعون ﵁ الذي في عافيةٍ من العذاب في جوار قريبه الوليد بن المغيرة، فلما أبصر الذي يلقاه رسول الله ﷺ وأصحابه من البلاء، وتعذيب طائفة منهم بالنار وبالسياط، رجع إلى نفسه وقال:

«والله إنَّ غدوِّي و رواحي آمِنًا بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابي وأهل بيتي يلْقَون من البلاء والأذى في الله ﷻ ما لا يصيبني لنقصٌ كثير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن عم أجرتني فأحسنْت جواري، وقد أحببتُ أن أخرج منه إلى رسول الله ﷺ، ولي به وبأصحابه أسوة، إني أحب أن تخرجني إلى قريش فتبرأ مني بين أظهرهم»[٣١٠]

لقد اختار عثمان ﵁ مشاركة المؤمنين مصابهم، ولم يرضَ أن يراهم يُعذبون، وهو يتقلب في رغد من العيش، فلما علم أنه لا يقدر على منع العذاب عنهم، قاسمهم آلامهم.

❁

٣٠٩ مسلم، فضائل، ٧٦/ ٢٣٢٦؛ أبو داود، الأدب، ١٢.

٣١٠ ابن اسحاق، السيرة، قونية ١٩٨١، ص ١٥٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ٣٤.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

«أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عام الرمادة – وكانت سنة شديدة ملمة، بعدما اجتهد عمر في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلها، حتى بلحت الأرياف كلها مما جهدها ذلك – فقام عمر رضي الله عنه يدعو فقال:

اللهم اجعل رزقهم على رءوس الجبال، فاستجاب الله له وللمسلمين، فقال حين نزل به الغيث: الحمد لله، فوالله لو أن الله لم يفرجها ما تركت بأهل بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت معهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحدا»[٣١١]

❁

خرج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه الناس، فمرّ بخولة العجوز رضي الله عنها، فاستوْقَفته، فوقف واقترب منها وحنَى رأسَه لها، فجعل يحدّثها وتحدثه، وبعد أن سمع منها وقضى حاجتها، قال له رجل:

يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز، فغضب سيدنا عمر، وقال: ويلك! أتدري من هي هذه؟، امرأةٌ سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا للصلاة ثم أرجع إليها.[٣١٢]

❁

عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه كان معتكفا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه، ثم جلس فقال له ابن عباس: يا فلان أراك كئيبا حزينا، قال: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ لفلان علي حق، لا وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه، قال

٣١١ البخاري، الأدب المفرد، الرقم ٥٦٢.

٣١٢ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٢٩٠؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٦، ٩٣.

ابن عباس: أفلا أكلمه فيك، قال: إن أحببت، قال: فانتقل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه قال: لا ولكني سمعت صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام والعهد به قريب فدمعت عيناه، وهو يقول:

«**من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد ما بين الخافقين**»[٣١٣]

❀

عن عتبة بن فرقد قال:

«قدمت على عمر رضي الله عنه بسلال خبيص فقال: ما هذا؟ فقلت: طعام أتيتك به لأنك تقضي في حاجات الناس أول النهار فأحببت إذا رجعت أن ترجع إلى طعام فتصيب منه فقواك، فكشف عن سلة منها فقال: عزمت عليك يا عتبة أرزقت كل رجل من المسلمين سلة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أنفقت مال قيس كلها ما وسعت ذلك، قال: فلا حاجة لي فيه، ثم دعا بقصعة ثريد خبزا خشنا ولحما غليظا وهو يأكل معي أكلا شهيا، فجعلت أهوي إلى البيضة البيضاء أحسبها سناما فإذا هي عصبة: والبضعة من اللحم أمضغها فلا أسيغها فإذا غفل عني جعلتها بين الخوان والقصعة؛ ثم دعا بعس من نبيذ قد كاد أن يكون خلا فقال: اشرب، فأخذته وما أكاد أسيغه، ثم أخذه فشرب ثم قال: اسمع يا عتبة: إنا ننحر كل يوم جزورا فأما ودكها وأطايبها فلمن حضرنا من آفاق المسلمين، وأما عنقها فلآل عمر يأكل هذا اللحم الغليظ ويشرب هذا النبيذ الشديد يقطع في بطوننا أن يؤذينا»[٣١٤]

❀

٣١٣ البيهقي، شعب، ٣، ٤٢٤-٤٢٥/ ٣٦٧٩.

٣١٤ علي المتقي، كنز العمال، ١٢/ ٣٥٩٣٦.

عن أبي عبد الرحمن الجبلي قال:

في حربٍ لنا أمام الروم، كنا في البحر، وعلينا عبد الله بن قيس، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ﵁، فمرّ بصاحب المقاسم وقد أقام السّبي، فإذا امرأة تبكي ـ وكانت إحدى اللواتي أُسرن ـ فقال أبو أيوب الأنصاري ﵁: ما شأن هذه المرأة تبكي؟ قالوا: فرّقوا بينها وبين ولدها، قال: فأخذ أبو أيوب الأنصاري ﵁ بيد ولدها حتى وضعه في يدها، فانطلق صاحب المقاسم إلى عبد الله بن قيسٍ فأخبره، فأرسل إلى أبي أيوب فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**»[315]

❁

خرج سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ من بيته في سوادِ ليلةٍ، فرآه طلحة ﵁، فتبعه دون أن يراه عمر، فذهب سيدنا عمر ﵁ ودخل بيتًا، ثم دخل آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوزٍ عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذًا وكذا، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع؟.[316]

❁

كان عمر بن عبد العزيز يهتمّ بأمور المسلمين ويكلف المنادين أن ينادوا في الأهالي:

«أين الغارمون! والمحتاجون، واليتامى، والفقراء طالبوا الزواج، أين المظلومون! يا أصحاب الحق والحاجة تعالوا! وخذوا حقوقكم».

❁

٣١٥ أحمد، مسند، ٥، ٤٢٢/ ٢٣٤٩٩؛الترمذي، البيوع، ٥٢/ ١٥٦٦.

٣١٦ أبو نعيم:الحلية، ١/ ٤٨.

أصابت الشيخ عبيد الله أحرار رعشةُ بردٍ شديدة، فأشعلوا له النار لتُدخل الدفء إلى أوصاله ولكن دون جدوى، بقي السيد يرتعش بشدةٍ، وفي هذه الأثناء دخل من الباب مريدٌ يماثله، وقع في خندقٍ مليءٍ بالماء البارد وتبلّلت جميع أطرافه، دخل وهو يرتعش مثله، وبسرعة بُدّلت ثيابه وقُرب من النار فتدفأ، وعندما رأى مولانا عبيد الله دفء ذلك المريد سرى إليه أيضًا وهدأت رعشته.

ولعل هذه الحالة ظاهرةٌ تُظهر المعنى المتكامل لخلق مشاركة المسلمين مصائبهم.

❀

يروي أبو يزيد البسطامي قدّس سره فيقول:

«بلغ عدد الأولياء في زماننا الآلاف، لكن وظيفة قطب الزمان أعطيت لحدادٍ يُعرف بأبي حفص، ولأفهم حكمة ذلك ذهبت إلى دكّانه، ورأيته مهمومًا جدًا وعندما سألته عن السبب، قال والحزن يلفُّه: «أتسائل: هل هناك مصيبةٌ أكبر من مصيبتي؟ وهل هناك مَن هو مصابٌ أكثر مني؟ ومصيبتي هي: كيف سيكون حال كل هؤلاء العباد يوم القيامة؟ «وأجهش بالبكاء وأبكاني معه، ثم سألته بقلقٍ: لم تحزن كل هذا الحزن على عذاب الخلق؟ فأجاب مولانا أبو حفص: «لقد عُجنت فطرتي بخميرة الرحمة والشفقة، وإني لأرضى أن أُحمَّل عذاب أهل جهنم، ويغفر لهم، وعند ذلك تنتهي مصيبتي».

وعندها علمت أن أبا حفص لم يكن من الذين يقولون: «نفسي نفسي»، بل كان من الذين يمشون على خُطى النبوة ويقولون: «أمتي أمتي»، فبقيتُ عنده مدةً من الوقت، وخلال هذه المدة علّمته بعض سور القرآن، إلا أنني وصلت بواسطته الدرجة التي لم أقدر على تحصيلها منذ أربعين سنة، يعني هو الذي كان يعلمني العلم الحقيقي، فامتلأت سريرتي بالفيض الرباني، وعندها فهمت أن القطبية سرّ مختلف، وأن الفضيلة ليست فقط بالعلم وكثرة العبادة، بل تبديلهم إلى العرفان

يكون بمواهب الحق تعالى وتوجّهاته، ويجب ألا ينسى أن وهْب هذا التوجه والموهبة لأبي حفص ما كان لولا بركات الرحمة والشفقة العميقة التي فيه والتي أصبحت من جبلّته الأصلية.

❀

وكان السري السقطي يقول:

حمدت الله مرة، فأنا استغفر الله من ذلك الحمد منذ ثلاثين سنة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كان لي دكان فيه متاع، فوقع الحريق في سوقنا، فقيل لي، فخرجت أتعرف خبر دكاني، فلقيت رجلًا فقال: أبشر فإن دكانك قد سلم. فقلت: الحمد لله، ثم إني فكرت فرأيتها خطيئة.

❀

شوهد فضيل بن عياض يومًا وهو يبكي فقالوا: ما الذي يبكيك؟ فقال: «أبكي لمسكينٍ كان يظلمني! وكل همّي أنه سيُفضَح يوم القيامة...».

هذا هو أفق فؤاد أحد أولياء الله تعالى لا يبالي بالظلم الذي يلقاه، وإنما يغتم للمشقة التي سيلقاها الظالم الذي صدر عنه الظلم في جهنم.

❀

يروي مدير التشريعات في قصر عبد الحميد الثاني هذه القصة التي تشدّ الانتباه:

«في إحدى الأمسيات كانت نوبتي في قصر السلطان، فأعددت قائمةً بالرسائل والتلغرافات، وبينما تأهّبت للدخول على السلطان، وإذ يأتيني تلغراف، وكان مرسَلًا من أحد موظفي بريد «لَالَلِي» باسطنبول إلى السلطان.

يذكر الموظف المسكين في تلغرافه، أن امرأته ستلد هذه الليلة وأن الأطباء أبلغوه بأن الولادة ستكون عسيرة، ولكنه يشتكي من ضيق اليد، ولهذا استجار بذي الرحمة البالغة التي لا تليق إلا بالسلاطين.

لم أنظر إلى هذا التلغراف بعين الاعتبار فلم أقيّده في القائمة التي أرفعها للذات العلية، ولكن عندما كنت في حضرته وعاين السلطان ـ حسب عادته الدائمة ـ كل رسالة على حدة ودقّق فيها، سألني: «هل بقي من شيء».

ورغم أني قلت له: لم يبق شيءٌ يستحقّ الاعتبار...سيدي، إلا أن السلطان أعاد السؤال بإصرار: «أخبرني حتى عن التي لا تستحق الاعتبار»، فأتيته وأنا في دهشةٍ بذلك التلغراف، وقرأ السلطان ما كُتب فيه بدقة، وبعدها ـ وعلى خلاف توقعي ـ نادى طبيب القصر والتفت إلي وأصدر أمره: «على الفور اذهبا سوية إلى «لاللي» وقوموا بكل ما يلزم لتلك المرأة المسكينة التي ستلد...»، وبناءً على أمر السلطان ذهبتُ برفقة طبيب القصر إلى منزل ذلك الموظف.

وبعد أن قمنا بواجبنا وعدنا من المشفى كان قد أشرف الفجر على البزوغ، وعندما دخلنا القصر انتبه السلطان إلينا من صوت الباب، ومن بين أطراف الستائر أشار إلينا بيده أن تعالوا، وكانت أضواء غرفته ما تزال مضيئة، وهذا يعني أنه إلى الفجر انشغل بالعبادة والدعاء، وعلى الفور دخلنا حضرته، وسألَنا عن النتيجة؟ فأخبرته بماجرى كما هو:

«مولاي السلطان، كانت الولادة عسيرة جدًا، ولكن بهمة الأطباء المتخصصين نجت المريضة، ـ والحمد لله ـ وأنجبت ولدًا ذكرًا سمّوه عبد الحميد وظلّوا يدعون لذاتِكم العلية حتى الفجر.

السلطان ـ أب الأمة الرحيم ـ الذي كان يستمع إليَّ واقفًا على قدميه، أطمأن على إثر ذلك، وقال من أعماقه: «الحمد لله»، وبعد ذلك دخل حجرته، وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى.

❀

كان يامان ده ده –من شيوخي في التعليم– في بدايته من نصارى «الأرثذوكس»، وقد اهتدى ببركات «المثنوي» لحضرة مولانا، وكان محترق الفؤاد بعشق النبي ﷺ، وكأنه قد تخلّق بأخلاقه وأخلاق أصحابه.

وهذه الحادثة تعكس حالته التي كان عليها: «سأله أحد الطلاب يومًا في درسه: أستاذي، أيهما تفضّلون؟ أن ترتكبَ واحدة من كبائر الذنوب وتبقى تحت إثمها، أم تعتلّ بمرض الجذام؟ فقال السيد يامان :

«أن أُحرق حيًا حتى أغدو رمادًا خيرٌ لي من أن أبقى بلا إحساسٍ، وبعيدًا ولو للحظةٍ عن قلوب عباد الله».

نعم، هذه هي مكاسب الإسلام للإنسان: الإحساس بالآخرين، والتراحم، وعمق آفاق المحبة.

❀

في اسطنبول وفي زمنٍ بلغت فيه حوادث التطرّف ذروتها، يمكن أن تكون هذه الحادثة الحقيقية شاهدًا ذا عبرة على أن بركات مشاركة المحتاجين في مصابهم ما تزال موجودة في هذه الدنيا:

«دخل ما يقارب الخمسة أو الستة من اللصوص متجرًا، وطلبوا من صاحب المتجر أن يعطيهم كل ما في الخزنة من مالٍ، وبينما مدّ العجوز المسكين يده إلى مفتاح الخزنة وكاد أن يلمسه... وإذ باللّص الذي يرقب الباب ويراقب الغادي والرائح ينتبه للعجوز، وعلى الفور ترك مكانه ودخل إلى المتجر، ووقف أمام صاحب المتجر العجوز مدافعًا عنه ووجه سلاحه تجاه رفاقه، وصاح فيهم: «دَعُوا هذا المكان، واخرجوا منه دون أن تأخذوا قرشًا واحدًا».

أمام هذا التحوّل المفاجئ الذي أذهل رفاقه قالوا له: خيرًا!!؟ إلى الآن سرقنا العديد من المتاجر ولم تقل شيئًا! ما الذي بدا لك فجأة؟!. ابتعدْ عن طريقنا ولا تؤخرنا عن عملنا، ولكنه... كان مصرًّا على منع رفاقه، وبأداء خجولٍ قال:

«لا..! لن تأخذوا من هذا المكان حتى قدر أنملة! لا تصرّوا في ذلك، واعلموا أنه ما لم تهضموا جسدي فلا خير لكم هنا! أتعلمون مَن هو هذا العجوز؟ أنا عندما كنت ولسنين عديدة في زوايا الحانات والملاهي مهملًا أهلي

وأولادي، مدّ هذا العجوز يد الرحمة إليهم، وكأنه يقوم بواجب الأبوة لهم، وربّى فلذات كبدي حتى كبروا ودرسوا، إنه إنسانٌ لا نظير له!. وعندها أطرقَ رفاقُه رؤوسهم ثم اعتذروا جميعًا وغادروا المكان».

إذًا، هذا مثالٌ مليء بالعبر يحكي الفوائد الدنيوية للإنفاق في سبيل الله بحادثةٍ معاشة، وتظهر تجليات مشخّصة لحقيقة: «الصدقة ترد البلاء» [٣١٧]

فالفقير يتصدق بالقليل حسب إمكانه، والمستطيع يتصدق بالكثير حسب قدرته، ليكسب كل منهما بذلك رضا الله ﷻ، ويجعل منها وقاية وحصنًا أمام البلاء والمصائب.

❀

يروي معلمٌ همّة مشاركة قلبٍ صغيرٍ آلامَ المسلمين، فيقول:

في أشدّ أيام حرب البوسنة، تذاكرتُ مع طلابي في الصف مشاهد الممارسة الوحشية التي تجري في البوسنة.

وحينها قال أحد الطلاب: أستاذي، لنُقدّم نحن أيضًا بعض المساعدات، قلت: فليكن، شرطَ أن لا تطلبوا من أهلكم أي مال، هم كان عليهم أن يهيّئوا بعض الأشياء في درس «التدريب العملي»، وكان علي أن أجد تصريفًا لمصنوعاتهم في السّوق الخيري الذي سيفتح لمساعدة البوسنة بعد خمسة عشر يومًا.

في درسي من الأسبوع القادم، سلّم كثيرٌ من الطلاب مصنوعاتهم الصغيرة ـ ولكن لها قيمة كبيرة في نظري ـ، وعدد قليل منهم أجّل التسليم للأسبوع القادم، لأنهم لم ينهوا بعد عملهم، وكلهم كانوا سعداء جدًا، ولكن الجالسة في المقعد الأمامي من الصّف الهادئة المجتهدة «صُون غول» كانت طوال حصة الدرس خافضةً رأسها ساكتة لم تتحدث ولو بكلمة، وعندما رنّ جرس انتهاء الدرس،

٣١٧ انظر: الترمذي، الزكاة، ٢٨/ ٦٦٤؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠٨.

أقبلت صُونْ غولْ إليّ بهدوء، وقالت: أستاذي، أنا لم أجد ما أقدّمه للإخوة في البوسنة والهرسك سوى هذا، أتمنى أن ينفعهم ـ إن شاء الله ـ، قالت ذلك وتركت شيئًا في كفّي، ثم خرجت مسرعةً وابتعدت، وعندما نظرت إلى ما تركته في كفّي وإذ ببطاقة ركوب سيارات الخدمة «الأوتوبيس» –فقد كانت تظنّ أن أهل البوسنة تستخدم نفس البطاقة في ركوب سيارات الخدمة–، ابتسمتُ وقمت من مكاني.

ولما خرجت من المدرسة، كان المطر يهطل بغزارةٍ كأنه يصبّ صبًّا، ركبت عربتي، وبسبب أعمال الصيانة في الطريق العام، سلكت زقاقًا فرعيًا لم أسلكه من قبل، وتوجّهت نحو منزلي، ولغزارة المطر ما كانت الماسحات تتمكن من إزالة المياه من واجهة العربة، وكنت أرى أمامي بصعوبةٍ بالغة.

على جانب الطريق الموحش لمحت فتاةً صغيرة في ١٢ ـ ١٣ من عمرها، تبلّلت بالمطر كثيرًا، تحاول أن تمشي مسرعة، أوقفت عربتي جانبًا محاولًا إركابها، ونظرت وإذ هي «صُون غولْ»...!

لأن هذه الصغيرة تبرّعت ببطاقتها الأخيرة لإخوانها في البوسنة، اضّطرت إلى أن تعود إلى البيت مشيًا على الأقدام تحت المطر، أركبتها عربتي، وأوصلتها إلى منزلها الخرب القديم، الذي كانت تعيش فيه مع أبيها وإخوتها الثلاث.

وعلى طول مسافة الطريق «ثلاث أو أربع كم» غدت دموع عيني ـ التي حاولتُ أن أحجبها عنها ـ تهمي كالسيل.

وبعد أسبوعٍ، عندما زار رئيسُ البلدية ومن معه السوق الخيري الذي أقمناه، أريتهم البطاقة، وقصصت لهم قصة طالبتي التي تتمتع بغنى النفس العظيم رغم ظروف المعيشة الصعبة التي كانت تعيشها، فعندها أعلن رئيس البلدية بيع البطاقة في المزاد العلني، فكان مبلغ مبيع البطاقة تقارب الأرباح التي جنيناها في المبيعات الأخرى التي بيعت في السوق الخيري.

وختامًا...

فعلى كل من يرجو الوصول إلى الله تعالى عليه أن يكون ذا قلبٍ مؤمنٍ رقيقٍ حساسٍ، وأن يكون دومًا قريبًا من أحزان الناس ومصابهم، وأن يجعل مشاركةً المسلمين في همومهم ومصائبهم من طبيعته وسجيته، ويبحث عن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، لأن خدمة عباد الله هي خدمةٌ لله تعالى، وخدمةُ الأمة المحمدية خدمةٌ للرسول ﷺ.

فمن أجلِّ العبادات الاجتماعية التي تستجلب رضا الله تعالى أن يكون المرء بلسمًا لأمراض المسلمين، أما مجانبتهم والابتعاد عنهم فما هي إلا أنانية وحب للذات يمقتها الحق تعالى، ولأن المسلمين كالجسد الواحد، فعدم الاعتناء بالعضو المصاب لابد أن يتسبّب في النهاية بإصابة الجسد كله بالعلل والأمراض المؤلمة.

ب ـ الاهتمام بالأرامل واليتامى

من مظاهر الامتحان الإلهي البارز في المجتمع أن تجد فيه بعضًا ممن كُسر جناحاه وانقطع معينه، هؤلاء الذين يرزق الله عباده الآخرين بفضلهم، ويرعاهم بعنايته.

ولكن الناس في كثيرٍ من الأحيان لا يدركون هذه الحقيقة، لذلك ـ ومن غير أن يبالوا بحرمان تلك الفئة ـ يحاولون استجداء المزيد من القدرات والإمكانات لأنفسهم، مع أن الله جعل الاهتمام بذوي الأجنحة المكسورة من الفرائض المفروضة على أصحاب الإمكانات، حيث جاء في الآية الكريمة ردا على من يطلبون من الله المزيد من النعم ودوامها:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٣١٨]

---

٣١٨ الفجر: ١٧ـ١٨.

أما الذين يكونون بالقرب من الضعفاء والمحتاجين في المجتمع، ويهتمّون بإخلاصٍ بحاجاتهم فإنهم يدخلون في قائمة العباد الذين رضي الله عنهم، ويضمنون سعادة الدارين.

وتعتبر الأرامل والأطفال اليتامى الأكثر حزنًا وكربًا من بين فئة المنكسرة قلوبهم في المجتمع، وحالتهم الروحية تكون معجونةً بالألم العميق والحسرة والضيق.

إنّ مداواة جراح هؤلاء المادية والمعنوية وإيناس وحشتهم دَين معلّق في أعناق الأمة جميعها، حيث قال النبي ﷺ:

«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو: كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[٣١٩]

وقد تعهّد الله ﷻ أن يحفظ حقوق اليتامى بنفسه، وأنزل العديدَ من الآيات الكريمة بخصوص هذا الأمر، وأمر عبادَه أن يعاملوهم المعاملة الحسنة[٣٢٠]، وأخبرَ أنّ الاهتمام باليتيم وقضاء حاجاته يشبه صعود الطريق الوعر من الجبل[٣٢١]، وقد مدحَ الله تعالى هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق الوعر، لا يسلكونه إلا لنيل رضى الله تعالى، فيُطعمون الطعام لحبّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. [٣٢٢]

يقول الله تعالى في الآيات الكريمة:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [٣٢٣]

---

٣١٩ البخاري، النفقات،١، الأدب، ٢٥-٢٦؛ مسلم، الزهد، ٤١.

٣٢٠ انظر: البقرة: ٨٣، ١٧٧، ٢١٥، ٢٢٠؛ النساء: ٢، ٣، ٦، ٨، ١٠، ٣٦، ١٢٧؛ الأنعام: ١٥٢؛ الأنفال: ٤١؛ الإسراء: ٣٤؛ الكهف: ٨٢؛ الحشر: ٧؛ الإنسان: ٨.

٣٢١ انظر: البلد: ١١-١٦.

٣٢٢ انظر: القيامة: ٨.

٣٢٣ الضحى: ٩.

أي لا تعامله معاملة سيئة تَقهره بها.

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [٣٢٤]

إنّ هضم حقوق المنكسرة قلوبهم بدَل الاهتمام بهم، صورةٌ عن القلوب القاسية المغموسة في الكفر والجاحدة، أمثال هؤلاء يهدّدهم الله تعالى بقوله:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [٣٢٥]

وبالمقابل فقد حثّ النبي ﷺ الأمّة على الاشتغال بأحوالِ المنكسرة أجنحتهم في المجتمع، وبشّر عليه الصلاة والسلام الذين يحسنون معاملة اليتيم بالبشارة الآتية:

«**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى [٣٢٦]

وحيث قال ﷺ:

«**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه**»[٣٢٧]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**من قبض يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له**»[٣٢٨]

«**من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات...**»[٣٢٩]

---

٣٢٤ النساء: ١٢٧.

٣٢٥ الماعون: ١ ـ ٢.

٣٢٦ البخاري، الأدب، ٢٤/ ٦٠٠٥، الطلاق، ١٤.

٣٢٧ ابن ماجه، الأدب، ٦/ ٣٦٧٩.

٣٢٨ الترمذي، البر، ١٤/ ١٩١٧.

٣٢٩ أحمد، مسند، ٥/ ٢٥٠/ ٢٢١٥٣.

عن أبي هريرة ﵁: أن رجلاً، شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فقال له:

«**إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٣٣٠]

وعن عبد الرحمن بن أبزى قال: قال رسول الله ﷺ:

«**كن لليتيم كالأب الرحيم**»[٣٣١]

وهكذا كان سيدنا فخر الكائنات الذي فتح عينيه على الحياة يتيمًا، كان بذاته يهتمّ عن قربٍ بيتامى أمّته، وإن إحدى الشواهد التي تعتبر مثالًا رائعًا على قدوته الحسنة للإنسانية، حديثُه الذي يُعد نموذجًا للفضيلة، وهو:

«**...أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دينا أو ضياعا فإليَّ وعليَّ**»[٣٣٢]

نعم... حديث سيدنا رسول الله ﷺ هذا، يمنح كلَّ مؤمنٍ تشرفًا بالانتساب إلى أمته، تعليمات لا مثيل لها للشفقة والرحمة والإحساس بالآخر والشعور بالمسؤولية.

صور الفضائل

عن بشير بن عقربة الجهني ﵁ قال:

لقيت رسول الله ﷺ يوم أحد فقلت: ما فعل أبي؟ قال: «**استشهد، رحمة الله عليه**». فبكيت، فأخذني فمسح رأسي، وحملني معه وقال:

«**أما ترضى أن أكون أنا أبوك وتكون عائشة أمك؟**»[٣٣٣]

---

٣٣٠ أحمد، مسند، ٢/ ٢٦٣-٣٨٧/ ٧٥٧٦.

٣٣١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ١٦٣/ ١٣٥٢٩.

٣٣٢ مسلم: الجمعة، ٤٣/ ٨٦٧؛ ابن ماجه: المقدمة، ٧.

٣٣٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ١٦١/ ١٣٥١٧.

قلت: بلى يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فمسح على رأسي، فكان أثر يده من رأسي أسود وسائره أبيض.[٣٣٤]

❀

لما خرج النبي عليه الصلاة والسلام من مكة بعد عمرة القضاء، تبعته أمامة ـ ابنة حمزة رضي الله عنهما ـ، تنادي: يا عمّ، يا عمّ، فتناولها سيدنا عليّ فأخذ بيدها، وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فاحمليها. فلما وصلوا إلى المدينة اختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم. قال علي رضي الله عنه: أنا أخذتها، وهي بنت عمي. وقال جعفر رضي الله عنه: ابنة عمي وخالتها زوجتي. وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**».

وقال لعلي رضي الله عنه: «**أنت منّي وأنا منك**».

والتفتَ إلى جعفر رضي الله عنه وقال: «**أشبهت خُلُقي وخَلْقي**».

ثم التفتَ إلى زيد رضي الله عنه، وقال: «**أنت أخونا ومولانا**»،

وهكذا ذكر لكلٍّ واحد منهم صفةً طيَّب بها نفوسهم.[٣٣٥]

يقول علي رضي الله عنه:

«لما سمع زيد قولَ النبي ﷺ فيه فرح كثيرًا، وقام من شدة فرحه فحجل حول رسول الله ﷺ على رجل واحدة، ولما سمع جعفرُ قولَ النبي ﷺ لحق زيدًا، وحجل مثله حول النبي ﷺ، ولما سمعت قوله فيَّ حجلت خلف جعفر حول النبي عليه الصلاة والسلام على رجل واحدة».[٣٣٦]

❀

---

٣٣٤ انظر: البخاري، التاريخ الكبير، بيروت ٢٠٠١، ٢، ٦٥؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٣، ٢٩٨/ ٣٦٨٦٢.

٣٣٥ البخاري، المغازي، ٤٣، الصلح، ٦، العمرة، ٣؛ مسلم، الجهاد، ٩٠؛ أبو داود، الطلاق، ٣٥.

٣٣٦ أحمد، مسند، ١، ١٠٨؛ الواقدي، المغازي، ٢، ٧٣٩.

قالت أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر رضي الله عنهما:

لما أصيب جعفر وأصحابه، دخل علينا رسول الله ﷺ، وقد دبغت أربعين إهابًا، وعجنت عجيني، وغسلت بنيَّ، ودهنتهم ونظّفتهم، فقال رسول الله ﷺ:

«ائتيني ببني جعفر»

فأتيته بهم، فشمّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبَلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال:

«نعم، أُصيبوا هذا اليوم»

قالت: فقمت أصيح: واسيداه، واجعفراه، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال لها:

«لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم».

فقدّموا لأهل جعفر طعامًا ثلاثة أيام بتمامها، ثم إن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم ثم أتاهم، فقال:

«لا تبكوا على أخي بعد اليوم،...»

يُكمل عبد الله بن جعفر الرواية، فيقول:

ثم إنَّ النبي ﷺ قال: ادعوا إلي ابني أخي ، فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: **«ادْعُوا لِي الْحَلَّاقَ»**، فأمره فحلق رؤوسنا، ثم رفع ﷺ يديه إلى السماء وأخذ يدعو:

«اللهم اخلف جعفرا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»، قالها ثلاث مرار.

فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تفرح له، فقال:

«العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!»[٣٣٧]

٣٣٧ أحمد، مسند، ١، ٢٠٤-٢٠٥؛ أبو داود، الترجل، ١٣/ ٤١٩٢؛ ابن هشام، سيرة، ٣، ٤٣٦؛ الواقدي، المغازي، ٢، ٧٦٦؛ ابن سعد، الطبقات، ٤، ٣٧.

ويروي عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قصة اعتناء النبي ﷺ بهم عن قُربٍ فيقول:

«لو رأيتني وقُثم وعبيد الله بن العباس نلعب إذ مرّ رسول الله ﷺ على دابة، فقال: «**احملوا هذا إليَّ**» فجعلني أمامه، ثم قال لقثم: احملوا هذا إليّ فجعله وراءه، ثم مسح برأسي ثلاثًا، وكلما مسح قال:

«**اللهم اخلف جعفرًا في ولده**»[٣٣٨]

❀

أودع الصحابي الكريم أبو أمامة رضي الله عنه قبيل وفاته بناته الثلاثة كبشة وحبيبة وفارية عند رسول الله ﷺ، وسيدنا فخر الكائنات جعل هذه اليتامى تحت جناحه، ولبّى جميع حوائجهم واهتمّ بهم عن قرب، وربّاهم التربية النبوية الخالصة.[٣٣٩]

وكذلك ضمّ النبي ﷺ إليه يتامى الأرامل اللاتي عقد عليهن، واعتنى في تعليمهم وتربيتهم وكأنهم أولاده الحقيقيون، وقال لأم سلمة التي أخبرته أنها امرأة مُصْبِيَة «أي ذات صبيان»: «**فستكفين صبيانك**»[٣٤٠]

وبذلك هؤلاء اليتامى الذين تربّوا في حضن التربية المحمدية تحوّلوا إلى شخصيات مهمة في العلوم الإسلامية كالحديث والفقه وغيره.

عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ حيث حضرته الوفاة، قال: فقال لنا:

«**اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة ثلاثا، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، اتقوا الله في الضعيفين المرأة الأرملة والصبي اليتيم، اتقوا الله في الصلاة**»

فجعل يرددها وهو يقول: «**الصلاة**» وهو يغرغر حتى فاضت نفسه.[٣٤١]

---

٣٣٨ أحمد، مسند، ١، ٢٠٥؛ الحاكم، المستدرك، ٣، ٦٥٥/ ٦٤١١.

٣٣٩ ابن سعد، الطبقات، ٣، ٦١٠.

٣٤٠ النسائي، النكاح، ٢٨/ ٣٢٥٤.

٣٤١ البيهقي: شعب الإيمان، ٧، ٤٧٧/ ١٠٥٤٢.

كذلك أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ضمّت إليها يتامى أخيها محمد بن أبي بكر وربّاهن أحسن تربية.[342]

❁

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

«في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كنت أتعهّد عجوزًا كبيرةً عمياء في بعض حواشي المدينة من الليلِ، فأسقي لها وأقوم بأمرها، ولكني كلما جئتها وجدت غيري قد سبقني إليها، فأُصلح ما أرادت، فرصدْتُه واختبأت في مكان قريب من بيت العجوز أنتظر قدومه، فإذا هو أبو بكر ـ وكان يومئذٍ خليفة ـ فعندما رأيته قلت في دهشةٍ كبيرة: أنت هو لعمري»[343]

❁

عن الصحابي أسلم رضي الله عنه قال:

«كنت مع عمر رضي الله عنه نطوف ليلة، فإذا هو بامرأةٍ في جوف دارٍ لها وحولها صبيان يبكون، وإذا قِدْرٌ على النار قد ملأتها ماء، فدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من الباب، فقال: يا أمة الله، لم بكاء هؤلاء الصبيان؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع، قال: فما هذه القِدر التي على النار؟ فقالت: قد جعلتُ فيها ماء أعلّلهم بها حتى يناموا، أُوهِمهم أنّ فيها شيئًا من دقيق وسمن، فجلس عمر فبكى، ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة، وجعل فيها شيئًا من دقيق وسمنٍ وشحم وتمر وثياب ودراهم، حتى ملأ الغرارة، ثم قال: يا أسلم، احمل عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك! فقال لي: لا أمّ لك يا أسلم، أنا أحمله فأنا المسؤول عنهم في الآخرة، قال: فحمله على عنقه، حتى أتى به منزل المرأة، وأخذ القدر، فجعل فيها شيئاً، وأخذ يحرّكه

٣٤٢ الموطأ، الزكاة، ١٠

٣٤٣ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصر ١٩٦٩، ص ٨٠؛ محمود سامي رمضان أغلو: سيدنا أبوبكر الصديق، اسطنبول ١٩٨٥، ص١٢٠.

بيده وينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته، حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا، ثم خرج وربضَ بحذائهم كأنه سبع، وخِفت منه أن أكلّمه، فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، أتدري لم ربضت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين! قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي..»[٣٤٤]

❀

عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

«أجّر علي بن أبي طالب رضي الله عنه نفسه، يسقي نخلًا بشيءٍ من شعير ليلة حتى أصبح، وقبض الشعير وطحن ثلثه، فجعلوا منه شيئًا ليأكلوا يقال له الخزيرة، فلما تمّ إنضاجه، أتى مسكين وطلب منهم أن يطعموه، فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني، فلما تمّ إنضاجه، أتى يتيمٌ فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي، فلما تم إنضاجه، أتى أسير من المشركين فأطعموه وطووا يومهم ذلك».

وفي رواية أخرى أنهم في ثلاثة أيام متتالية دفعوا طعام فطرهم، حيث كانوا يومهم صائمين، فجاءهم في اليوم سائل، وكان عندهم قوت يومهم فأعطوا السائل ذلك الطعام، ثم جاءهم يتيمٌ في اليوم الثاني، فأعطوه ذلك الطعام، ثم جاءهم أسيرٌ في اليوم الثالث، فأعطوه الباقي، وأفطروا على الماء وحده، وعلى إثر ذلك نزلت هذه الآيات:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٣٤٥] [٣٤٦].

٣٤٤ علي المتقي، كنز العمال، ١٢، ٦٤٨/ ٣٥٩٧٨.

٣٤٥ الإنسان: ٨ ـ ١١.

٣٤٦ الواحدي، ص ٤٧٠؛ الزمخشري، ٦، ١٩١ – ١٩٢؛ الرازي، ٣٠، ٢٤٤.

والعباد الذين مدحهم الحقّ تعالى في الآيات الكريمة، وأنهم عندما ينفقون يقولون:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾

ولكن هذا البيان من العباد الأجواد عند الإنفاق لا يقولونه في وجه المحتاجين مباشرة، بل يقولون ذلك في نفوسهم أو على لسان حالهم، والآية الكريمة تشير إلى هذه النقطة بإضمار الفعل «يقولون» وكأنهم يضمرون هذا القول في أنفسهم.

❁

عن الحسن البصري رحمه الله تعالى ـ الذي أدرك الصحابة وكان من كبار التابعين ـ أنه قال:

«أن يتيمًا كان يُحضر طعام ابن عمر رضي الله عنهما، فدعا بطعام ذات يوم، فطلبَ يتيمهُ فلم يجده، فجاء بعد ما فرَغ ابن عمر، فدعا له ابن عمر بطعامٍ، فلم يكن عندهم، فجاءه بسويقٍ وعسل، فقال: دونك هذا، فوالله ما غُبِنْتَ».

فيقول الحسن البصري الذي ينقل هذه الحادثة: وابن عمر والله ما غُبِن «لأنه بتصرّفه هذا نال الثواب الجزيل»[347]

❁

وعن الحسن البصري رضي الله عنه أيضًا أنه قال:

«لقد عهدت المسلمين، وإن الرجل منهم ليصبح فيقول: يا أهليه، يا أهليه، يتيمكم يتيمكم، يا أهليه، يا أهليه، مسكينكم مسكينكم، يا أهليه، يا أهليه، جاركم جاركم، وأسرع بخياركم وأنتم كل يوم ترذلون» [348]

❁

٣٤٧ البخاري، الأدب المفرد، رقم، ١٣٤؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٩٩.

٣٤٨ البخاري، الأدب المفرد، رقم، ١٣٩.

وعن السري السقطي قال:

«في يوم عيد رأيت معروف الكرخي في الزقاق يجمع نوى التمر، ولما سألته: ما الذي تفعله بهذه النّوى؟ قال لي: رأيت طفلًا صغيرًا يبكي هناك، اقتربت منه وسألته، ما يبكيك؟ قال: أنا يتيمٌ وليس لي ما ألبسه ولا ما ألعب به كأقراني، ثم عاود البكاء، وقد آلمني حاله، لذلك أنا أجمع نوى التمر، لأبيعها في السّوق وأبتاع له بثمنها ما يلبسه ويلعب به.وعندما سمعت ما قاله، تألمت أنا أيضًا على حاله ورجوت الشيخ، وقلت له: إن تأذن لي، أنا أتولى أمر ذلك الصغير، ولا تشغل بالك به، ثم أخذت الطفل وقضيت له حاجته».

ثم يخبر السري السقطي الحال الذي ناله من بركات هذا العمل الصالح الجميل:

«تولّد ببركات هذا العمل في نفسي نورٌ واضح، جعلني مظهرًا لتجليات أحوالٍ كثيرة، وذقت به مختلف اللّذات المعنوية»

❀

بعد معاهدة «مندروس» عام ١٩١٨، والأيام الصعبة التي عاشتها اسطنبول بعد الاحتلال، لم يبق لمؤسسات رعاية الأيتام أبنيةً تؤوي فيها الأيتام، ومع ذلك لم يسمح الإحساس الرفيع الذي يتّصف به أجدادنا أن يُترك هؤلاء الصغار المساكين في العراء، فحُوّلت بعض القصور الفارغة، داخل وخارج اسطنبول، إلى مأوىً لرعاية اليتامى، حتى قصر «جاغلايان» الواقع في منطقة «كاغت خانه» خصّص لهذا الموضوع.[٣٤٩]

وكذلك في تلك الأيام خلَّفت المذابحُ التي قامت بها عصابات الأرمن أربعةَ آلاف يتيم وألفي يتيمة، ولكن هذا العدد الكبير لم يُترك في العراء بلا صاحب، فقد قام الّباشا كاظم قره بكر بحمايتهم ووضَعهم تحت رعايته، وفيما بعد شَكَّل

٣٤٩ هدايت نوح أوغلو، مادة، دار الأيتام، الموسوعة الإسلامية «DİA»، اسطنبول ١٩٩٣، ٨، ٥٢١.

بعضُ هؤلاء الأطفال جيش « غوربزْلار» وبدأ أولئك اليتامى ـ وبناءً على رغباتهم الشخصية ـ بتقديم خدماتهم للوطن والأمة، وبعد تدريب ليس بالطويل اختار كلُّ واحدٍ منهم مسلَكه الذي يرغب به، وفي سنوات النفير العام أصدر الذين اختاروا عمل الطباعة منهم جريدة «الوجود» «وارلق» ودعموا بذلك مجاهدة الأمة ضد المحتلين.

❀

وباختصارٍ إن الموت حقّ قد يأتينا في أية لحظة... فعلينا إذًا أن نهتمّ ونرعى الأرامل واليتامى الذين مِن حولنا بنفس السوية التي نرغب أن يعامَل بها أطفالُنا وأهلونا بعد موتنا، وأن ننظر إليهم على أنهم أمانةً من الله في أعناقنا، ونلبي احتياجاتهم المادية والمعنوية وخاصة تربيتهم الدينية، ولا ننس أن الحقّ تعالى أودعَ في دعوات هؤلاء ما لا يحصى من البركات والخيرات، ونحسب كلّ واحد منهم رأسمالنا في الآخرة، ونعتبر قضاء حوائجهم أحد أهمّ أسباب القرب من الله تعالى.

ج ـ رعاية المرضى والمصابين

ومِن بين فئاتِ الناس المنكسرة قلوبهم المرضى والمهمومون الذين يعيشون بيننا في هذا المجتمع وقد أقض مضاجعهم المرض والهم.

فالصحة والعافية مِن أعظم النعم التي أكرم الله تعالى الإنسان بها وأكثرها قيمة، ولكن ومع الأسف فإن الإنسان لا يدرك قيمتها وقدرها الحقيقي إلا عندما يقع في براثن المرض، فعِندما يمرض أو يُبتلى بداءٍ يُدرِك عَجزه وينكسرُ قلبه ويكون قريبًا مِن الله ﷻ، ولِبيان الحالة الروحية التي يكون عليها المريض يقول سعْدِ الشّيرازي:

«لا يُدرك أحدٌ طُوْل الليل كما يدركه المريض...»

وأنشد شعراً في هذا المعنى:

ما أدراه المنجّم وكذا الموقّت بطولِ الليالي

سلِ المبتلى بالغمّ كم هي ساعات الليالي

فالمريض الذي انكسرت نفسه لما ذاق طعم العجز، يكون أكثر ما يتمنّاه زيارة رفاقه وأصحابه وجيرانه وسؤالهم عن حاله.

وزيارة مريض من هولاء المنكسرة قلوبهم والسؤال عن أحوالهم وأوضاعهم، تُعتبر من أهم العبادات والخدمات الموصلة لنيل رضى الله تعالى.

وزيارة المريض سنّة مؤكّدة، بل من العلماء من ذهب إلى وجوب الزيارة واعتبارها فرض كفاية، وإذا لم يزر المريضَ أحدٌ ممن في محيطه، ويقضِ حوائجه، فإنّ كلّ من سكن في ذلك المحيط يأثم ويدخل تحت المسؤولية.

قال رسول الله ﷺ:

«**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»[٣٥٠]

وزيارة المريض من أفضل الأعمال الصالحة، ويبين النبي ﷺ في هذا الحديث فضل زيارة المريض فيقول:

«**من عاد مريضا أو زار أخا له في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا**»[٣٥١]

وقال رسول الله ﷺ:

«**من عاد مريضا، لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع**»،

قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ ، قال: «**جناها**»[٣٥٢]

---

٣٥٠ البخاري، الجنائز، ٢/ ١٢٤٠؛ مسلم، السلام، ٤/ ٢١٦٢.

٣٥١ الترمذي: البر، ٦٤/ ٢٠٠٨– ابن ماجه: الجنائز، ٢.

٣٥٢ مسلم، البر، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢/ ٢٥٦٨.

إهمالُ المؤمن لهذه الفضيلة المهمّة تضييعٌ لقيمة كبيرة، ودخولٌ تحت مسؤولية عظيمة، ويوضح ذلك النبيُّ ﷺ بقوله:

«**إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ ...**»[٣٥٣]

وأخبر سيدنا فخر الكائنات ﷺ أن دعاء المريض للزائر كمثل دعاء الملائكة «أي إنه مستجاب»، حيث قال ﷺ:

«**إذا دخلت على مريض، فمره أن يدعو لك؛ فإن دعاءه كدعاء الملائكة**»[٣٥٤]

وعلى زائر المريض أن يكون متفائلًا، ويتقيد بوصية النبي ﷺ هذه:

«**إذا حضرتم المريض، أو الميت، فقولوا خيرا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»[٣٥٥]

وإذا كان المريض يحتضر فيتعيّن على الزائر أن يلقّنه «**لا إله إلا الله**» [٣٥٦]، بأن يردّد ذلك على سمع المريض، لا أن يجبر المريض على قول كلمة التوحيد بأن يقول له: قل «لا إله إلا الله»، ويصرّ عليه في قوله، لأن ذلك يؤدّي إلى غضب المريض الذي يعاني الشدة، وقد يموت دون أن ينطق بـ «لاإله إلا الله» ويكون ذلك من أكبر المصائب.

وكذلك يستحبّ اختصار مدة زيارة المريض، وإذا كانت له حاجة فينبغي أن تلبّى بكل ترحيبٍ ومحبة.

---

٣٥٣ مسلم ، البر، ٤٣/ ٢٥٦٩.

٣٥٤ ابن ماجه، الجنائز، ١/ ١٤٤١.

٣٥٥ مسلم، الجنائز، ٦/ ٩١٩؛ أبو داود، الجنائز، ١٥.

٣٥٦ انظر: مسلم، الجنائز، ١-٢.

صور الفضائل

أبدى سيدنا محمد ﷺ عنايةً خاصة بزيارة المرضى والمصابين وتأمين احتياجاتهم، وكذلك حثّ الصحابة وربّاهم على هذا المنوال.

فعن سلمان رضي الله عنه قال:

«خرج رسول الله ﷺ يعود رجلا من الأنصار فلما دخل عليه وضع يده على جبينه فقال: «**كيف تجدك؟**» فلم يحر إليه شيئا فقيل: يا رسول الله إنه عنك مشغول فقال: «**خلوا بيني وبينه**». فخرج الناس من عنده وتركوا رسول الله ﷺ فرفع رسول الله ﷺ يده فأشار المريض: أن أعد يدك حيث كانت ثم ناداه: «**يا فلان ما تجد؟**» قال: أجدني بخير وقد حضرني اثنان أحدهما أسود والآخر أبيض فقال رسول الله ﷺ: «**أيهما أقرب منك؟**» قال: الأسود، قال: «**إن الخير قليل وإن الشر كثير**» قال: فمتعني منك يا رسول الله بدعوة فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اغفر الكثير وأنم القليل**»، ثم قال: «**ما ترى؟**» قال: خيرا بأبي أنت وأمي أرى الخير ينمى وأرى الشر يضمحل وقد استأخر عني الأسود قال: «**أي عملك أملك بك؟**» قال: كنت أسقي الماء، قال رسول الله ﷺ: «**اسمع يا سلمان هل تنكر مني شيئا؟**» قال: نعم بأبي وأمي قد رأيتك في مواطن ما رأيتك على مثل حالك اليوم!! قال: «**إني أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا وهو بألم الموت على حدته**»[٣٥٧]

❀

يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خبرًا يبيّن اهتمام النبي عليه الصلاة والسلام بزيارة المريض، فيقول:

«كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟**»، فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «**من يعوده منكم؟**» فقام، وقمنا معه، ونحن

٣٥٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٣٢٢-٣٢٤/ ٣٩٠٧.

بضعة عشر، ما علينا نعال، ولا خفاف، ولا قلانس، ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله، حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه»[358]

❁

وفي رواية أخرى عن ابن عمر رضي الله عنه قال:

اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتى رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: «**أقد قضى؟**» قالوا: لا، يا رسول الله فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا، فقال:

«**ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا** - وأشار إلى لسانه - **أو يرحم**»[359]

ويظهر من حديث فخر الكائنات ﷺ هذا منعُه كل ما لا يليق من الكلام المخالف للشرع خلف الميت، وكذلك تمزيق الثياب والنّياحة عليه. ويتبين من خلاله، حثّه عليه الصلاة والسلام على الصبر والرضا وتسليم الأمر لله تعالى والاستعانة به، وأن ذلك سببٌ لفتح باب الرحمة للميت وللأحياء في آنٍ واحد.

❁

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

«أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حبّان بن العرقة، رماه في الأكحل فضرب النبي ﷺ خيمةً في المسجد ليعوده مِن قريب.»[360]

❁

---

358 مسلم، الجنائز، ١٣/ ٩٢٥.

359 البخاري، الجنائز، ٤٥، الطلاق، ٢٤؛ مسلم، الجنائز، ١٢/ ٩٢٤.

360 البخاري، المغازي، ٣٠.

كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فَقَالَ: «**أسلم!**» فنظر إلى أبيه، وهو عند رأسه، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» [٣٦١]

❀

وعلّم النبي ﷺ الصحابة المصابين بالأمراض بعضًا من الأدعية للرقية بها، حيث ورد أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، شكا إلى النبي ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له النبي ﷺ:

«**ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[٣٦٢]

قال عثمان رضي الله عنه، الذي طبّق وصية رسول الله ﷺ بدقّة: «ففعلتُ ذلك فأذهبَ الله عز وجل ما كان بي، فلم أزل آمرُ به أهلي وغيرهم»[٣٦٣]

ولكن يشترط أن يدعم هذه الأدعية بالإخلاص والعمل الصالح. لأن الأدعية عندما تؤدّى بمثل هذا الإخلاص تكون مستجابة بلطف الله تعالى وكرمه.

❀

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

أن النبي ﷺ، عاد رجلا، فقال: «**ما تشتهي؟**» قال: أشتهي خبز بر، قال النبي ﷺ: «**من كان عنده خبز بر، فليبعث إلى أخيه**» ثم قال النبي ﷺ:

«**إذا اشتهى مريض أحدكم شيئا، فليطعمه**»[٣٦٤]

❀

---

٣٦١ البخاري،الجنائز،٨٠/ ٥٢٤.

٣٦٢ مسلم، السلام، ٦٧/ ٢٢٠٢.

٣٦٣ أبو داوود، الطبّ، ١٩/ ٣٨٩١.

٣٦٤ ابن ماجه، الجنائز، ١/ ١٤٣٩/ ٣٤٤٠.

وعن أنس ﷺ:

أن رسول الله ﷺ، عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ:

«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»

قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ:

«سبحان الله لا تطيقه – أو لا تستطيعه – أفلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٣٦٥]»

قال: فدعا الله له، فشفاه.[٣٦٦]

❁

وعن ابن عباس ﷺ، أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، فقال:

«لا بأس عليك، طهور إن شاء الله»[٣٦٧]

❁

عن سلمان ﷺ قال:

«دخل علي رسول الله ﷺ يعودني فلما أراد أن يخرج قال:

«يا سلمان كشف الله ضرك وغفر ذنبك وعافاك في دينك وجسدك إلى أجلك» [٣٦٨]

❁

---

٣٦٥ البقرة: ٢٠١.

٣٦٦ مسلم، الذكر، ٢٣/ ٢٦٨٨؛ الترمذي، الدعوات، ٧١/ ٣٤٨٧.

٣٦٧ البخاري، التوحيد، ٣١.

٣٦٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٩٩/ ٣٧٧٩.

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال:

عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله، بلغني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «**لا**»، قال: قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال:

«**لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله ﷻ، إلا أجرت بها، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك**»،

قال: قلت: يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي، قال:

«**إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله، إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك تخلف حتى ينفع بك أقوام، ويضر بك آخرون**»[٣٦٩]

وفي رواية أخرى عن سعد ﷺ قال:

لما تشكيْتُ شكوًا شديدًا جاءني النبي عليه الصلاة والسلام يعودني، فقال:

«**اللهم اشف سعدا، اللهم اشف سعدا**»[٣٧٠]

وقولُ فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام لسعدٍ ﷺ، بأنه لن يموت بهذا المرض، وأنه سيعيش ليقدّم الكثير من النفع والخير، ما هو إلا معجزة واضحة من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، لأن سعدًا ﷺ عاش خمسًا وأربعين سنة بعد ذلك، وقدّم العديد من الخدمات للإسلام والمسلمين وشارك في كثير من الغزوات.

❁

٣٦٩ البخاري، الجنائز، ٣٦، الوصايا، ٢/ ٢٧٤٢، النفقات، ١، المرضى ١٦، الدعوات، ٤٣، الفرائض، ٦؛ مسلم، الوصايا، ٥/ ١٦٢٨.

٣٧٠ مسلم، الوصايا، ٨/ ١٦٢٨.

وتقول عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى، ويقول:

«**أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما**»[٣٧١]

❀

ولما اشتكى النبي عليه الصلاة والسلام من وجع يومًا فإنَّ جبريل عليه السلام أتاه، فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال رسول الله ﷺ: **نعم**. قال جبريل عليه السلام:

«باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك باسم الله أرقيك»[٣٧٢]

❀

ومثال رائع لفضل الاهتمام بالمرضى والمصابين ورعايتهم يمثّله حال أبي بكر رضي الله عنه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من أصبح منكم اليوم صائما؟**»

قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال:

«**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**»

قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال:

«**فمن أطعم منكم اليوم مسكينا**»

قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال:

«**فمن عاد منكم اليوم مريضا**»

قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ:

«**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»[٣٧٣]

---

٣٧١ البخاري، المرضى، ٢٠، ٣٨، ٤٨؛ مسلم، السلام، ٤٦/ ٢١٩١.

٣٧٢ مسلم، السلام، ٤٠ / ٢١٨٦.

٣٧٣ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢/ ١٠٢٨.

فقد قام أبو بكر ﵁ في يوم واحدٍ بأداء عباداته الفردية، كأداء الصلاة والصيام، وكذلك أدّى عباداته الاجتماعية، كإطعام مسكينٍ وزيارة مريض، فيا روعة أخلاقه ﵁، وعلى هذا الخلُق يريد الحق تعالى أن يكون عباده.

❁

عن قيس بن أبي حازم قال:

«دخلنا على خبّاب بن الأرت نعوده في مرضٍ اشتكى منه، وقد اكتوى سبع كيّات. فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا، مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب، ولولا أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا أن ندعو بالموت، لدعوت به، ثم أتيناه مرةً أخرى وهو يبني حائطًا له، فقال: إن المسلم ليؤجر في كل شيءٍ ينفقه، إلا في شيءٍ يجعله في هذا التراب»[٣٧٤]

❁

وعن سعيد بن علاقة قال:

أخذ علي ﵁ بيدي، قال: انطلق بنا إلى الحسن نعوده، فوجدنا عنده أبا موسى، فقال علي ﵁: أعائدًا جئت يا أبا موسى أم زائرًا؟ فقال أبو موسى: لا، بل عائدًا، فقال علي ﵁:

«ما من مسلم يعود مسلما غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة»[٣٧٥]

❁

وعن الربيع بن عبد الله قال:

---

٣٧٤ البخاري، المرضى، ١٩، الدعوات، ٣٠، الرقاق، ٧، التمني، ٦؛ مسلم، الذكر، ١٢؛ الترمذي، القيامة، ٤٠؛ النسائي، الجنائز، ٢..

٣٧٥ الترمذي، الجنائز، ٢/ ٩٦٩؛ أبو داوود، الجنائز، ٣؛ ابن ماجه، الجنائز، ٢.

«ذهبت مع الحسن إلى قتادة نعوده، فقعد عند رأسه، فسأله ثم دعا له قال: اللهم اشف قلبه، واشف سقمه»[٣٧٦]

❀

نزل مرةً عجوزٌ مريض متألم ضيفًا على سيدنا معروف الكرخي، وكان في حالةٍ يُرثى لها: تساقط شعره، وزالت ملامح وجهه، كأن روحه تقطّع بدنه بالمنجل، ففرشَ معروف الكرخي للضيف فراشًا وأعدّ له ما يؤمّن راحته.

كان المريض من شدة آلامه يئنّ ويتأوّه دون توقف، ويصيح ويستغيث.

وكما أنه لم يذق طعم الرقاد ولو للحظةٍ طوال الليل حتى الصباح، كذلك لم يترك بصيحاته لغيره من أهل الدار مجالًا للنوم، وفوق ذلك بدأت تسوء أخلاقه، ويزداد عنفه على أهل الدار حتى أفقدهم الشعور بالراحة داخل بيتهم، مما اضّطر سكان البيت الذين لا يحتملون قسوة طباعه وسوء أخلاقه على ترك المنزل فرادى وجماعات، ويسكنوا في مساكن أخرى، ولم يبق في الدار غير المريض ومعروف الكرخي وزوجته.

وكان معروف الكرخي ـ الذي لم يعد ينام حتى الليل ـ يتفانى في خدمة وتلبية حاجات المريض ذي الخلق السيء، لكن في يومٍ بلغ نعاس الكرخي حدّه الأقصى، حتى سلّم نفسه لرقادٍ غير اختياري.

وعندما رأى المريضُ الغافل نوم الكرخي، بدأ يعنّفه –بدَل أن يقدّم شكره للإنسان الذي فتح له ذراع الرحمة والشفقة– ويتمتم بينه وبين نفسه:

ما بال هذا الدرويش الزاهد على هذه الحالة!.. حقًا أمثال هؤلاء لهم سمعة وشهرة لدى الناس، والحقيقة أنهم مُرآؤون، وكل أعمالهم ممزوجة بالرياء، في ظاهرهم الحسن، وفي باطنهم الخبث، يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم.

وها هو.. بدل أن يرْعاني ويهتمّ بحالي راقدٌ في نومه...

---

٣٧٦ البخاري، الأدب المفرد، الرقم: ٥٣٧.

وما يدري الذي يملأ بطنه بالطعام وينام، بحال مريضٍ مسكينٍ لم يُسلم عينه للرقاد حتى الصباح، وكان معروف الكرخي يقابل هذا الكلام القاسي الذي يسمعه بالصبر والإحسان، وكأنه لم يسمع ذلك، إلا أن زوجته التي نفذ صبرها لم تتحمل أكثر من ذلك وقالت لمعروف الكرخي بصوتٍ منخفض:

«أسمعت ما يقوله هذا الرجل سيء الخلق؟ لم أعد أقدر على إيوائه في المنزل بعد اليوم، ولن نسمح له أن يزيد من ثقله علينا ويستمر في جفائه لك، أخبرْه أن يغادر المنزل ويدبر أموره في مكانٍ آخر، فلا يُصنَع المعروف إلا مع من يعرف قدره، أما اللئيم فكلما صنعت معه معروفًا ازداد سوءًا، وزاد من تمرّد هؤلاء الناس، فالشقيّ لا يوسَّد بوسادة تحت رأسه بل يوضع رأس الظالم على الحجر».

أما معروف الكرخي رحمه الله الذي كان يستمع إلى زوجته بكل هدوءٍ وسكينة، فقد قال لها بوجهٍ مبتسم:

«يا امرأة: وما يُحزنك من كلامه؟ إن صاح فصياحه إليَّ دونك، وإن أساء فإساءته موجهة إلي، وتطاوله علي أستقبله بكل رحابة صدر... وأنت ترين حاله، هو في عذاب وتألم مستمر، أما ترين المسكين لا ينام ولو لبرهة!، ثم اعلمي أن القدرة الحقيقية والشفقة والرحمة العليّة تكمن في تحمّل جفاء وقسوة أمثال هؤلاء...».

❀

أصبح عبيد الله أحرار رحمه الله تعالى، بفضل الله تعالى صاحب ثروة كبيرة، حتى غدا يعمل في مزارعه الآلافُ من العمال، ولكن الرجل الصالح ورغم ذلك ما كان يتأخر عن عمل الخير أبدًا، وفي سبيل الوصول إلى الكمال المعنوي كان يقدّم العون لكل من يعرفه ومن لا يعرفه، ويروي لنا رحمه الله واحدةً من هذه الخدمات:

«كنت أخذت على عاتقي رعاية أربعة مرضى في مدرسة مولانا قطب الدين بسمرقند، ولزيادة أعراض المرض عليهم كانوا ينجّسون على أسرّتهم وكنت أتولى غسلها بنفسي، وأغيّر ملابسهم، ولمداومتي على خدمتهم والبقاء قريبًا منهم سَرَت إليّ العدوى منهم، وجعلتني طريح الفراش، ورغم حالتي هذه كنت أجلب الماء بالطّسوت وأقوم بغسل وإزالة النجاسات من تحتهم، وتنظيف وتغيير ملابسهم».

وقد كان الأستاذ محمود سامي رمضان أوغلو يقوم بخدمة ورعاية مريضٍ مقعدٍ، فقد خدَم مفتي محافظة جِيْدَاْ السيد حسين بنفسه ولمدةٍ تقارب السنة.

نعم... هذه هي إذًا الخصال الحميدة التي رفعت شأن أهل الله تعالى، فلقد كانوا دائمًا إلى جانب اليتامى وفي جوار المساكين والثكالى، ويتعاملون مع أصحاب المتاجر التي لا يمرّ بها أحد.

❀

وكان موسى أفندي الذي يمتلك فطرةً سليمة، وكأنها عُجنت بخميرة الرحمة الإلهية، وسيلة في افتتاح مركز «محمود عزيز هدائي» الصّحي لرعاية مرضى الفقراء والمساكين، ولكنه كان يتأسّف على عدم تمكّنه من تقديم المساعدة الفعلية، وما ذلك إلا لضعف قدرته الجسدية، وكان يردّد والشوق يلفّ حديثه:

«لو كنت مستطيعًا وذا قدرةٍ لأتيت الفقراء وقدّمت لهم الخدمة الفعلية».

وفي سياق الرّحمة ذاتها كان يقول:

«إيواء المساكين ورعايتهم واجبٌ علينا، وإن لم نقم بذلك كنّا آثمين مسؤولين أمام الحق تعالى»

هذا وإن دور العجزة التي أسّسها مع أقاربه ما هي إلا مظهرٌ لشفقته العميقة.

❀

وثمة مثالٌ رائع للإحساس العالي الذي يبديه المسلمون في رعايتهم المرضى وانشغالهم بمصابهم، ففي المقطع الذي اقتطفته «المستشرقة الألمانية هونكه» من رسالة شابٍ يرقد في مشفى للمسلمين كتبها لأبيه:

«أبي! تسأل إن كنتُ بحاجةٍ للنقود أم لا، عندما يتمّ تخريجي من المشفى سيعطونني لباسًا جديدًا، وحتى لا اضطر للعمل مباشرة بعد خروجي سيُصرف لي خمس قطع ذهبية، فلا داعي أن تبيع بعض الأغنام... لا ترغب نفسي في الخروج من هذا المكان، ففرش الأسرّة ناعمة... والأغطية ناصعة، ودثارها مخملية، في كل غرفةٍ بيتُ للخلاء خاصّ بها، في ليالِ البرد يدفئون كل الغرف، يتمتع الذين يقومون بمداواتنا بالشفقة والرحمة، ويُطعَم من استطاعت معدته الهضم الدجاجَ واللحم المشوي.

ولكي يأكل المزيد من صدور الدجاج اللذيذة، يتحايل جاري البقاء هناك مدة أكثر، فيتظاهر لهم أنه لم يتعافَ بعد.

ولكن رئيس الأطباء شكّ في الأمر، وكشف حيلته، وليثبت صحته سمح له أن يأكل دجاجةً برغيف خبز كامل، ثم أرسله إلى منزله.

نعم.. تعالَ فورًا وقبل أن توضع أمامي الدجاجة المشوية الأخيرة!..»

❀

وختاماً...

فإنَّ الذي يقوم بتقديم الخدمات المخلصة لعباد الله، يتجلّى الرحمن عليه برضاه فيكسب الأجر الجزيل.

وفي هذا المجال وبشكل خاص زيارة أصحاب القلوب المنكسرة والنفوس الحزينة والانشغال بقضاء حوائجهم، تعتبر من أهم الوظائف والمسؤوليات الملقاة في أعناق المسلمين.

ولا ننس أنه ربما قد تكون حالنا يومًا كحال المتألمين والمحتاجين، ولذلك فانشغالنا بأمور المرضى والمصابين والغرباء ورعاية اليتامى والمحتاجين وإطعام الجائعين، كل ذلك بمنزلة أداء واجب الشكر لله تعالى.

جعل الله تعالى مشاركتنا بالإمكانات التي في أيدينا مع المحتاجين وإدخال البهجة والسرور في نفوسهم سبباً لترقي أرواحنا في الدنيا، ومددنا في الآخرة، وسعادتنا في الجنة.

د ـ مساعدة المحتاجين، والغارمين وابن السبيل

جعل الله تعالى هذا العالم دار امتحان وابتلاء، ولحكم كثيرة بالغة جعل الناس شعوبًا متفاوتة المستويات والمراتب، حيث قال الله تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٣٧٧]

ولهذا يجب على أصحاب القدرات والإمكانات ـ وإدراكًا منهم للتقدير الإلهي هذا ـ ألا يقفوا أمام المحتاجين بلا إحساس، بل عليهم أن يتنافسوا وبروح العبودية لله تعالى في مساعدتهم ورعايتهم.

فأكثر ما تردد في القرآن الكريم من صفاته سبحانه وتعالى، صفة الرحمة على اختلاف اشتقاقاتها.

والرحمة: إكرام ما تملكه لمن لا يملكه، وبمعنى آخر، الرحمة التسابق في سبيل تلافي حرمان الغير والتنافس في مساعدتهم.

لذا لا يمكن تذوّق لذة الإيمان إلا بالتراحم، وثمرة التراحم مشاركة المحتاجين في همومهم.

---

٣٧٧ الزخرف: ٣٢.

ومن أهم قواعد الإسلام مساعدة المحتاجين، والغارمين، وابن السبيل، فقد أمرنا الدين أن نمد يد العون للناس الغارمين الذين وقعوا في براثن الدين لعدم تمكّنهم من تأمين حاجاتهم الضرورية.

ويتحقق هذا العون من خلال إمهال الغارم بالدين، أو بإسقاط جزءٍ من الدَّين أو كله عن الغارم، أو أن يدفع شخص آخر للغارم مبلغًا يمكّنه من وفاء دينه.

أما في الغارمين من المحتاجين، فشعار الإسلام فيهم تقديم العون الممكن، ومساعدتهم بكل أنواع الإمكانات المتاحة.

عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال:

«**على كل مُسلمٍ صدقةٌ**»

قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال:

«**يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**»

قال قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال:

«**يعين ذا الحاجة الملهوف**»

قال قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال:

«**يأمر بالمعروف أو الخير**»

قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال:

«**يمسك عن الشر، فإنها صدقة**»[٣٧٨]

بمعنى أن المسلم في كل أحواله يكون في عون أخيه المسلم، وكلٌّ حسب استطاعته وإمكاناته يجد بابًا للإنفاق منه.

ويقول الله تعالى فيما يتعلق بالصدقات المالية:

٣٧٨ البخاري، الزكاة، ٣٠، الآداب، ٣٣؛ مسلم، الزكاة، ٥٥/ ١٠٠٨.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٣٧٩]

ويقول الله تعالى:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ [٣٨٠]

وعلى المسلم أن يجعل تنفيس كربة أخيه المؤمن غايةً ومقصدًا، فأمثالُ هؤلاء يبشّرهم الحديث بهذه البشارة:

«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» [٣٨١]

وإقراضُ المحتاج الذي وقع في ضيقِ الحال يعتبر أحدُ الأعمال الفاضلة والمهمة، حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة» [٣٨٢]

---

٣٧٩ البقرة: ٢١٥.

٣٨٠ الإسراء: ٢٦.

٣٨١ مسلم، الذكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

٣٨٢ ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣١.

وإلى جانب هذا، لابد من التيسير للغارم في ديونه قدر المستطاع، وخاصّة إذا كان الغارم يحاول بكل صدقٍ وإخلاص أداء ما عليه من دَين ولكنه لا يُوفَّق إلى ذلك، فعليه أن يعطيه مهلة أخرى للأداء، حيث يقول الحق تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٣٨٣]

وجاء في الأحاديث الشريفة:

«من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة، ومن أنظره بعد حله كان له مثله، في كل يوم صدقة» [٣٨٤]

«رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى» [٣٨٥]

«غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلا إذا اقتضى» [٣٨٦]

«من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه» [٣٨٧]

ولكن على الغارم أيضًا أن لا يستثمر هذه المعاملة الحسنة استثمارًا سيئًا، بل عليه أن يحاول جاهدًا -بكل إخلاصٍ وتصميم- أداء ما عليه من دين، وإلا كان سببًا في إطفاء شمعة الإحساس بالخيرِ والإحسان في المجتمع، ويكون متسببًا في الإضرار بمصالح كثيرٍ من الناس، حيث قال رسول الله ﷺ:

---

٣٨٣ البقرة: ٢٨٠.

٣٨٤ ابن ماجه، الصدقات، ١٤/ ٢٤١٨.

٣٨٥ ابن ماجه، التجارة، ٢٨/ ٢٢٠٣.

٣٨٦ الترمذي، البيوع، ٧٥/ ١٣٢٠؛ النسائي، البيوع، ١٠٤.

٣٨٧ مسلم، الصدقات، ٣٢/ ١٥٦٣، أحمد، مسند، ٢،٢٣.

«...**فإن من خيركم، أو خيركم أحسنكم قضاء**»[388]

«**مَطْل الغنيّ ظُلم...**»[389]

يقول الإمام الرّباني: «أن تؤدّي قرشًا واحدًا من ديونك لصاحبها، خيرٌ لك من ذهب كثيرٍ تتصدق به».

كان رسول الله ﷺ ينشغل ويهتمّ بكل مصائب أصحابه ويساعدهم في ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإذا توفرت لديه الإمكانيات المادية يؤدّي ديون المدينين، ويخلّص عوائلهم من الضيق النازل بهم، حيث قال مرةً:

«**ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾**[390] . **فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه**»[391] أي أحميه وأرعاه.

وإضافة لما سبق يعتبر بسطُ النبي ﷺ جناح الرحمة للمحتاجين، وابن السبيل، والغارمين، ورعايتهم، مظهرًا مهمًا من مظاهر الأخلاق النبوية التي ربّى أمته على التخلّق بها من خلال تمثّله بشخصه القدوة الحسنة.

والتخلّق بأخلاق سيدنا محمد ﷺ، هو المطلب الأول لكل مؤمن من أمته، يريد الاجتماع به في المحشر تحت لواء الحمد، ونيل شفاعته العظمى.

صور الفضائل

الحِلف الوحيد الذي صوّبه رسول الله ﷺ وشهده في الجاهلية كان «حلف الفضول» لأن هذا الحلف كان حلفًا لإرساء العدالة، ومنعًا للظلم والاعتداء، وتعاقدٌ أُسّس على مدّ يد العون للمستضعفين والمحتاجين.

---

٣٨٨ البخاري، الاستقراض، ٤، الوكالات، ٦، الهبة، ٢٣؛ مسلم، المساقاة، ١٢٠/ ١٦٠١.

٣٨٩ البخاري، الحوالات، ١-٢، الاستقراض، ١٢؛ مسلم، ٣٣/ ١٥٦٤.

٣٩٠ الأحزاب: ٦.

٣٩١ ابن الكثير، البداية، ٢، ٢٩٥؛ أحمد، مسند،١، ١٩٠-١٩٣؛ علي المتقي، كنز العمال، ١١، ١٢/ ٣٠٤١١.

ولأول مرة تحالفوا على حماية حقّ تاجر غريبٍ وقع في الكرب، ولم يتمكن من تحصيل ثمن مبيعه، واستمر الحلف على هذا المنوال في تحقيق أهدافه. وقد قال النبي ﷺ في هذا الحلف بعد بعثته:

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أُحب أن لي به حُمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لَأجبت» [٣٩٢]

❁

عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

سمع النبي عليه الصلاة والسلام صوت خصوم بالباب، عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر، ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال:

«أين الْمتَألِّي عَلَى الله، لا يفعل المعروف؟»،

فقال: أنا يا رسول الله، وله أي ذلك أحب.[٣٩٣]

❁

ويروي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

«أن أباه توفي وترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبى أن ينظره، فكلم جابر رسول الله ﷺ ليشفع له إليه، فجاء رسول الله ﷺ وكلم اليهودي ليأخذ ثمر نخله بالذي له، فأبى، فدخل رسول الله ﷺ النخل، فمشى فيها، ثم قال لجابر: «جد له، فأوف له الذي له» فجده بعدما رجع رسول الله ﷺ، فأوفاه ثلاثين وسقا، وفضلت له سبعة عشر وسقا، فجاء جابر النبي عليه الصلاة والسلام ليخبره بالذي كان، فوجده يصلي العصر، فلما انصرف أخبره بالفضل،

٣٩٢ ابن الكثير، البداية، ٢،٢٩٥؛ أحمد، مسند، ١، ١٩٠–١٩٣.

٣٩٣ البخاري، الصلح، ١٠/ ٢٧٠٥؛ مسلم، المساقات، ١٩.

فقال: «أخبر ذلك ابن الخطاب»، فذهب جابر إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله ﷺ ليباركن فيها»[٣٩٤]

❀

وعندما قفل جيش المسلمين من غزوة ذات الرّقاع، تخلّف جابر بن عبد الله ﷺ عن الرفاق في الجيش لضعف جمله، حتى أدركه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قال جابر بن عبد الله ﷺ: يا رسول الله أبطأَ بي جملي هذا، قال: أنخه، قال: فأنخته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا، فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخساتٍ، ثم قال: اركب فركبت فخرج، والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة.

وتحدّث رسول الله ﷺ مع جابر بن عبد الله ﷺ في الطريق وسأله عن زواجه وما ترتّب عليه من ديون بسببه، وسأله ﷺ عما في يده من مال؟ فأخبره أنه لا يملك غير هذا الجمل، فقال سيد العالمين لجابر:

«أتبيعُني جملك هذا يا جابر؟»

قال: قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك. قال:

«لا، ولكن بعنيه»

فباع جابر ﷺ الجمل شرط أن يركبه حتى يصل المدينة، فلما وصل المدينة، أخذ برأس الجمل وأقبل به، حتى أناخه على باب رسول الله ﷺ، إلا أن جابرًا رأى رحمة نبوية علوية، أدخلت السرور إلى قلبه، وأدخلت الدهشة في نفوس الصحابة من حوله، فالنبي ﷺ بعد أن سلّم ثمن الجمل لجابر ﷺ، ردّ إليه جملَه أيضًا هبةً منه عليه الصلاة والسلام. [٣٩٥]

---

٣٩٤ البخاري، الاستقراض، ٩/ ٢٣٩٦.

٣٩٥ البخاري، الجهاد، ٤٩، السحر، ٣٤؛ مسلم، المساقاة، ١٠٩؛ أحمد، مسند، ٢٣، ٢٧٠/ ١٥٠٢٦

يروي جابر ﵁ فيقول:

«عندما ردّ إليَّ رسولُ الله ﷺ ثمن الجمل، وثمّ وهبني الجمل، التقيت يهوديًا أعرفه فأخبرته الخبر».

فأخذ اليهودي يردّد وهو في دهشةٍ: إذًا، أعطاك ثمن الجمل وبعدها وهبه إياك؟! وأنا أقول في كل مرة «نعم».[٣٩٦]

❀

عن أنس ﵁ قال:

«كان النبي ﷺ رحيما، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده، وأنجز له إن كان عنده، وأقيمت الصلاة، وجاءه أعرابي فأخذ بثوبه فقال: إنما بقي من حاجتي يسيرة، وأخاف أنساها، فقام معه حتى فرغ من حاجته، ثم أقبل فصلى».[٣٩٧]

❀

وعن ابن عباس رضي الله قال:

أن رجلا لزم غريما له بعشرة دنانير، على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: ما عندي شيء أعطيكه، فقال: لا والله لا أفارقك حتى تقضيني أو تأتيني بحميل، فجره إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له النبي ﷺ: «**كم تستنظره؟**» فقال: شهرا، فقال رسول الله ﷺ: «**فأنا أحمل له**» ، فجاءه في الوقت الذي قال النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**من أين أصبت هذا؟**» قال: من معدن، قال: «**لا خير فيها**» ، وقضاها عنه.[٣٩٨]

❀

---

٣٩٦ أحمد، مسند، ٣، ٣٠٣.

٣٩٧ البخاري، الأدب المفرد، رقم، ٢٧٨.

٣٩٨ أبو داوود، البيوع، ٢/ ٣٣٢٨؛ ابن ماجه، الصدقات، ٩/ ٢٤٠٦.

وعدم قبول النبي عليه الصلاة والسلام الذهب الذي أخرجه الغارم من المعدن كان لسببٍ خاصٍ اطّلع عليه النبي ﷺ، ولا يُفهم منه منع النبي عليه الصلاة والسلام التصرّف بالذهب المستخرج من المعدن وتملّكه، أو أنَّ الدين الذي تحمّله النبي ﷺ كان من الذهب المضروب والمسكوك، وأما الذهب الذي جاء به الرجل فكان من الذهب الخامّ غير المضروب والمسكوك، ولم يكن عند رسول الله من يسكّه أو يضربه.

❁

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

«كان النبي ﷺ يتخلّف في المسير فيزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم»[٣٩٩]

❁

ويبين النبي ﷺ المكافأة التي ينالها من يقدّم العون للغارمين، فيقول:

«تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئا؟ قال: لا، قالوا: تذكر، قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجوزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوزوا عنه»[٤٠٠]

وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام:

«كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»[٤٠١]

❁

٣٩٩ أبو داوود، الجهاد، ٩٤/ ٢٦٣٩.

٤٠٠ البخاري، البيوع،١٧-١٨؛ مسلم، المساقاة، ٢٦/ ١٥٦٠.

٤٠١ البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، المساقاة، ٣١/ ١٥٦٢.

يُروى أن رجلًا أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال:

«إني أسلفت رجلًا سلفًا، واشترطت عليه أفضل مما استلفته، فقال عبد الله بن عمر: فذلك الربا، قال: فكيف تأمرني يا أبا عبد الرحمن؟ فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: السّلف على ثلاثه وجوه:

ـ سلف تسلفه تريد به وجه الله، فلك وجه الله.

ـ وسلف تسلفه تريد به وجه صاحبك، فلك وجه صاحبك.

ـ وسلف تسلفه لتأخذ خبيثًا بطيب، فذلك الربا.

قال: فيكف تأمرني يا أبا عبد الرحمن؟ قال: أرى أن تشقّ الصحيفة.

فإن أعطاك مثل الذي أسلفته قبلته، وإن أعطاك دون الذي أسلفته فأخذته أجرت، وإن أعطاك أفضل مما أسلفته، طيبةً به نفسه، فذلك شكرٌ شكره لك، ولك أجرُ ما أنظرته».[٤٠٢]

❀

ويبين مولانا جلال الدين الرومي ـ رحمه الله ـ أهمية مساعدة المحتاج وابن السبيل في حادثةٍ يرويها:

«كان الغوث الأعظم «أبو يزيد البسطامي» في رحلة للحج والعمرة، وسار في طريقه إلى مكة مسرعًا، وكلما مرّ ببلدة يبحث عن أرباب القلوب، ويسأل كل من يراه: هل من أحد من أصحاب البصيرة في هذه البلدة؟ لأنه كان أينما حل أو ارتحل يعتقد بضرورة معرفة أهل الحق والوصول إليهم، لأن الحق تعالى يقول:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤٠٣]

وحتى موسى عليه السلام، أُمر بزيارة الخضر صاحب «العلم اللّدني».

---

٤٠٢ الموطأ، البيوع، ٩٢.

٤٠٣ النحل: ٤٣؛ الأنبياء: ٧.

التقى أبو يزيد بغَوث، طويل القامة، منحني الظهر كالهلال، تعلوه روحانيات الأولياء، أعمى البصر لدنياه، ولكن بصيرته تضيء كالشمس، تقدّم إليه أبو يزيد وجلس أمامه.فقال له الغوث: يا أبا يزيد، إلى أين المسير؟ إلى أي مكان تحمل زاد الغربة؟ قال أبو زيد: قصدت المسير إلى الحج، وفي جعبتي مئتا درهم... فقال الغوث: يا أبا يزيد! أنفِق جزءًا من ذلك المال في سبيل الله، للمحتاجين والغرباء والمساكين، واكسب محبة قلوبهم، لكي تُفتح لك آفاق روحك! ولتحجّ نفسك أولًا! وبعدها تسير بنفسٍ منكسرةٍ في طريقٍ لطيفٍ إلى الحج... لأن الكعبة ما هي إلا بيت الله تعالى، يعني زيارته واجبةٌ وثوابُ زيارته ثابتة، لكن قلب الإنسان خزينةٌ من خزائن الأسرار... الكعبة عمارة بانيها إبراهيم بن آزر، ولكن القلب محطّ نظر الله الجليل الكبير.

فإذا كنت تتّمتع بالبصيرة، فاجعل طوافك حول قلبك أولًا، لأن المعنى الحقيقي للكعبة، هو القلب، وليس المعَمَّر من التراب كما تظن، والحق تعالى، لـمّا فرض عليك الطواف حول الكعبة المرئية المعروفة، إنما أراد منك الوصول إلى كعبة القلوب الطاهرة المطهرة من الأدران والرذائل.

واعلم أنك إن آذيت أو كسرت خاطرًا هو محطّ نظر الله لا تساويه كل الحسنات التي تنالها، ولو سِرت إلى الكعبة مشيًا على الأقدام لن تعادل بثوابه إثمَ كسر الخواطر.

أنفق كل ما تجده في سبيل جبر الخواطر... اجبر الخواطر حتى يضيء لك نوره ظلمة الليل في قبرك، وتقف في الحضرة الإلهية وقد حملت معك جُعَبًا مُلِئت ذهبًا، لأن الحق تعالى يقول:

«إن أردت أن تأتينا بشيء، فأتنا بنفسٍ جبرتَ خاطرها، ولا تأتنا بالذهب والورق، فإنها لا تساوي عندنا شيئًا.

واعلم أن السبيل إلينا ولمرضاتنا في جبر كسر القلوب...

وإن أردت أن ترى تجليّات أنوار الحق على الخلق فافتح عيون بصيرتك كلها...

استوعبَ أبو يزيد نصيحة الغوث، واستخلصتْ نفسُه نصيبها من أسرار الرحمة من حديث الغوث وصُحبته، وتابع بوجدٍ وسكينة سيرَه في رحلته إلى الحج.

إن القرب من الحزانى والمصابين، والمحتاجين، والمنكسرة أجنحتهم ورعايتهم وخدمتهم، وإدخال السرور إلى قلوبهم، ومساعدة الغارمين وابن السبيل الذي انقطعت عنه السبل، وغيرها من العبادات الاجتماعية، تعتبر أهم الوسائل التي تُكسب المرء هوية الإنسان الكامل.

ولأن المؤمن الكامل ينظر إلى المخلوقات بعين الخالق، فإنه يصطبغ بصبغة الأخلاق الإلهية، ولذلك تراه يتسابق في مساعدة أصحاب الحاجات.

❁

كان السيد أحمد الرفاعي يُلقي تحية السلام على كل شخص يراه، وإذا سمع بمريض في قرية أو بلدة بادر إلى زيارته في أول فرصة تتاح له، يأخذ بأيدي العُمي الذين يلتقيهم في طريقه، ويوصلهم إلى حيث يقصدون، وإذا ما التقى بشيخ عجوز يأخذ كلّ ما في يده منْ حِمل فيحمله عنه، وينصح كلَّ من حوله من أصحابه بالحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ:

«ما أكرم شاب شيخا لِسِنِّهِ إلا قيض الله له من يكرمه عند سِنِّهِ»[٤٠٤]

وأثناء عودته من سفره خارج بلدته يمرّ من الغابة فيحتطب ثم يحمل الحطب على مركبه، ويأتي المدينة ويفرّقها على الأرامل واليتامى والمساكين والفقراء والمحتاجين.

---

٤٠٤ الترمذي، البر، ٧٥/ ٢٠٢٢.

وكان يُسرِع في خدمة المجنون والمريض المزمن، يغسل ملابسهم، ويجالسهم ويتحدث إليهم، ويحضر لهم طعامهم بيديه، ويتولى إطعامهم بنفسه، ثم يرجو منهم الدعاء له، ويقول لمريديه:

«زيارةُ أمثال هؤلاء العاجزين ليست مستحبة، بل واجبة».

مرَّ يوما على أطفال يلعبون، فهرب بعضٌ منهم تهيبًا وإجلالًا للسيد أحمد الرفاعي، فركض السيد من فوره خلفهم، وضمّهم إلى صدره بشفقةٍ ومحبة كبيرة، وأدخل البهجة في نفوسهم وقال:

«أولادي! لا تخافوا، فكما ترون فأنا مثلكم، عبدٌ عاجز! إن أدخلتُ القلق في قلوبكم فسامحوني!».

❁

في يوم من أيام الشتاء البارد كانت امرأة فقيرة تعيش في «كوسوفو»، لم تستطع تحمّل رؤية الحالة الصعبة لطفلٍ مسكينٍ غريب، فقدّمت له زوجًا من الأحذية.

ودارت الأيام، واستطاع هذا الطفل أن يدخل القصر العثماني حسب أصول الترقّي والتوظيف، وارتقى هناك في الرتب، حتى بات يُعرف بالباشا «عياظ»، ولكن الباشا عياظ لم يَنس الأيام الخالية من ماضيه، وخبّأ تلك الأحذية القديمة في مكانٍ ما عنده، وعندما وصل إلى رتبة الباشوية، أخذ الحذاء وملأه بالذهب وبعث به إلى تلك المرأة الفقيرة وفاءًا واعترافًا منه لمعروفها في الماضي.[٤٠٥]

هذا المثل يرينا فوائد تقديم العون للمحتاج في الدنيا، من يدري كم هي الفوائد التي سيحصل عليها في الآخرة وكيف ستكون؟!.

❁

٤٠٥ إلبر أورطالي، كشف العثمانية من جديد، ص ٣٠.

من ذكريات الشيخ الحاج جمال أُوغُوت الأَلَاصوني ـ فيما يتعلق بمساعدة المحتاج ـ والتي فيها أقصى درجات الاعتبار، وهي كالآتي:

في إحدى فصول الشتاء، يمرّ بائع اللبن من زقاقهم عند المساء، يسأل ابنته: أنشتري لبنًا، فتجيب ابنته: لدينا في البيت ما يكفي من اللبن ولا حاجة للمزيد، وبعد برهةٍ من الزمن يمر البائع وهو ينادي: من يشتري لبنًا... اللبن...

يكرر الشيخ السؤال لابنته، فتجيب ابنته بنفس الجواب الأول، وعندما تتكرر الحادثة مرة أخرى، لا تستطيع ابنته التحمّل وتسأل:

«يا أبتِ، قلت لا حاجة لنا بالمزيد منه، فما سبب إصرارك لهذه الدرجة؟»

فكان جواب الشيخ جوابًا ينشر عبق جمال النفس الحسّاس للمؤمن، فقال:

«ابنتي، لو لم يكن المسكين في حاجةٍ وضيق، لما دار عدة مراتٍ في هذا الشتاء البارد وقت المساء، فلنشترِ منه اللبن وليذهب المسكين إلى بيته، فأنت تستطعين أن تصنعي من اللبن شيئًا ما، ولعلّنا بهذا نكون قد قضينا حاجة الغريب المسكين...»

❀

وباختصار، لابد لنا أن نتذكر دائمًا أنَّ أحوالنا قد تنقلب فيكون حالنا يومًا مثل حالهم، وهم يكونون مثل حالنا، نتذكر ذلك دائمًا فنتسابق في تقديم العون للمحتاجين، ونبحث عن السّبل الموصلة إلى مرضاة الله تعالى.

وجميلٌ ما يقوله السيد يونس إمْرَه، فيما يتعلق بفعل الخير ومدّ يد المساعدة للمساكين ـ ولو بالشيء اليسير ـ وما يلقاه من أجرٍ في ذلك:

إن سلكت للهدى سبيلْ
وجزت حد الرجال بقليلْ
وكنت لفعل الخير عميلْ
هل الألف للواحد قليلْ؟.

إن رأيت يومًا مسكينًا

وإن كسوته شيئًا قديمًا

ستنال في العقبى غدًا

يكسوك الرحمن ثوبًا.

ومن جانب آخر، لا بد لنا من إحياء فضيلة الإقراض الحسن والاستقراض، لأننا عندما ننتقل يومًا إلى المستقر الأبدي، فلا الغنيّ تتاح له فرصة مثل هذه مرة أخرى، ولا المحتاج تبقى في يده مثل هذه الحاجة، فلا يعلّلن المستطيع نفسه ببعض العلل الواهية ليمتنع عن أداء عبادة القرض الحسن، وبالمقابل على الغارم أن لا يتذرع بأسباب تافهة فيهمل أداء ما عليه من الدين، فيتهرّب من تحصيل هذه الفضيلة.

وكذلك نهتم بحال المقطوع في الطريق «ابن السبيل»، ونكسب دعاءهم، لأن الغريب عن أرضه يكون أقرب إلى الله تعالى من غيره، ولهذا السبب يكون مستجاب الدعاء، والحقّ جل جلاله أبدى اهتمامًا بالغًا بابن السبيل، حتى جعلهم ممن يستحقون الأخذ من مال الزكاة، مهما بلغ غِناه في وطنه، مادام أنه دخل في عداد المحتاجين عند انقطاع السبيل عنه.

هـ.إطعام المساكين وسُقياهم

إن من أهم ما يحتاجه الإنسان ليتقوى على عبادة الله ﷻ هو الغذاء، وإن لم يستطع الإنسان سد حاجته هذه فلن يتمكن من الاستمرار في حياته، وبالتالي لن يستطيع الإيفاء بالهدف الذي خُلق لأجله وهو: العبادة، لهذا السبب جُعل إطعام المساكين وإرواؤهم من أهم الخدمات الاجتماعية، فقد قال بعض علماء المسلمين:

«أفضل الإحسان والإكرام الإطعام، فبنية الإنسان قائمة بالطعام، والحياة إنما تستمر به».

كما أن في إطعام المساكين سر إلهيٌّ عميق، وقد أشار الله تعالى إلى أهمية هذا بتذكير قريش بنعمه بقوله:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [٤٠٦]

وقد أسند الله تعالى فعل الإشباع لنفسه مبينًا أنه هو الطاعم الساقي للمخلوقات وأنه لا يحتاج لشيء من هذا.[٤٠٧]

وهكذا يكون المؤمن بإطعام الجائع وسُقيا العطشان قد اكتسب أجرًا عظيمًا وتخلّق بالأخلاق الإلهية. ويقول الله تعالى عن الأضحية المذبوحة لتشويق عباده لهذه الصفات العلوية:

﴿...فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [٤٠٨]

﴿...فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ...﴾ [٤٠٩]

وقد جُعل جزاء بعض العقوبات الشرعية إطعام الفقراء، فمثلًا كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين [٤١٠]، وكفارة الظِهار إطعام ستين مسكينًا [٤١١]، ومن يصطاد وهو محرم يطعم الفقراء [٤١٢]، ومن لا يستطيع الصيام أيضًا يدفع فدية بإطعام مسكين بدلًا عن الصيام. [٤١٣]

---

٤٠٦ قريش: ٣ ـ ٤.

٤٠٧ انظر: الأنعام: ٨٩.

٤٠٨ الحج: ٢٨.

٤٠٩ الحج: ٣٦.

٤١٠ انظر: الأنعام: ٨٩.

٤١١ انظر: المجادلة: ٤.

٤١٢ انظر: المائدة ٩٥.

٤١٣ انظر: البقرة:١٨٤.

يقول رسول الله ﷺ:

«فكوا العاني[414]، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»[415]

ويحدثنا النبي ﷺ عن إطعام المسكين بأسلوب رائع في الحديث القدسي:

«إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: ... يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك، فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[416]

وهذا يعني أن الإرادة الإلهية مع إطعام المساكين على كل حال.

ويمتدح الله تعالى عباده المحسنين بقوله:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[417]

وفي موضع آخر يُطلق القرآن الكريم على إطعام الجائعين والاهتمام بهم «اقتحام العقبة»، يقول تعالى:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[418]

---

٤١٤ العاني: الأسير.

٤١٥ البخاري الجهاد. ١٧١/ ٣٠٤٦.

٤١٦ مسلم، البر، ٤٣/ ٢٥٦٩.

٤١٧ الإنسان: ٨ ـ ١١.

٤١٨ البلد: ١١ ـ ١٦.

فإطعام اليتامى والمساكين ـ مع صعوبتها ـ خدمة ذات فضيلة وبركة، والذين ضيعوا هذه الفرصة بعدم تمكنهم من تجاوز العقبة ـ يعني الذين لا يستطيعون تجاوز حاجز النفس الصلب لإظهار فضيلة الإنفاق ـ سيندمون في الآخرة، وتُبين الآية الكريمة منظر حزنهم وندمهم بقوله:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ.مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ. فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [٤١٩]

فينبغي على المؤمن مع جهده في إطعام الجوعى حسب مقدرته أن يجتهد في القيام بوظيفته المهمة هذه في المجتمع، ويشجع الناس على هذا العمل، فالله تعالى يحذر الذين لا يطعمون الجوعى شخصيًا، كما إنه يحذر الذين لا يشجعون الناس على الإطعام بقوله:

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٤٢٠]

وفي حديثه عن المجرمين الخاسرين الذين يؤتون كتابهم بشِمالهم يقول:

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٤٢١]

وفي أول وصف الكافرين بيوم القيامة يأتي قوله:

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٤٢٢]

٤١٩ المدثر: ٣٩ـ٤٨.

٤٢٠ الفجر: ١٨.

٤٢١ الحاقة: ٣.

٤٢٢ الماعون: ٣٤.

إذن فإن من أبرز خصائص المؤمنين يوم القيامة إطعام الجوعى، والإنفاق على المساكين، فعن عبد الله بن عمرو ﵄، أن رجلا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال:

«**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[٤٢٣]

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«**أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز**[٤٢٤]**، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة**»[٤٢٥]

ويوصي النبي ﷺ أحدَ الصحابة، وكان يشكو من قساوة قلبه بقوله:

«**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»[٤٢٦]

فلا يُعرف رضا الله في أي عمل يكون، فرضاه الإلهي مخفي في الأعمال التي تُرى صغيرة أحيانًا، وأحيانًا عادية، وأحيانًا كبيرة، وهذا يعني أنه ينبغي ألا نرى إطعام المسكين وسُقيا العطشان أمرًا صغيرًا، فالنبي ﷺ يحدثنا عن سُقيا العطشان فيقول:

«**يَصُفُّ الناس يوم القيامة صفوفا -وقال: ابن نمير أهل الجنة- فيمر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهورا؟ فيشفع له قال: ابن نمير - ويقول: يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك، فيشفع له**»[٤٢٧]

---

٤٢٣ البخاري، الإيمان، ٦-٢٠، الإستئذان، ١٩، ٩؛ مسلم، الإيمان، ٦٣/ ٣٩.

٤٢٤ منيحة العنز: أنثى العنز تعطى لينتفع بلبنها ثم ترد.

٤٢٥ البخاري، الهبة، ٣٥/ ٢٦٣١؛ أبو داود، الزكاة، ٤٢/ ١٦٨٣.

٤٢٦ أحمد، مسند، ٢/ ٢٦٣، ٣٨٧/ ٩٠١٨.

٤٢٧ ابن ماجه ،الأدب، ٨.

صور الفضائل

كان رسول الله ﷺ يهتم بأصحابه وأمته أكثر من نفسه، فهو كما ذكر القرآن الكريم «رؤوف» و «رحيم»، وكان النبي ﷺ وعائلته لا يشبعون قبل شبع أصحابه، فكان يعطي ما في يده للمحتاجين، وكانت تمضي أيامٌ لا توقد في بيته عليه الصلاة والسلام نار ولا يوجد شق خبز، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما يحدثنا به مجاهد، أن أبا هريرة، كان يقول رضي الله عنه:

«الله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم عليه الصلاة والسلام، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يا أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق**» ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «**يا أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**خذ فأعطهم**» قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم

يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**اقعد فاشرب**» فقعدت فشربت، فقال: «**اشرب**» فشربت، فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا، قال: «**فأرني**» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة»[428]

❀

وينقل عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما هذه الحادثة:

أن أصحاب الصفة، كانوا أناسا فقراء وأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس**»

وأن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي عليه الصلاة والسلام بعشرة، قال: فهو أنا وأبي وأمي – فلا أدري قال: وامرأتي وخادم – بيننا وبين بيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي عليه الصلاة والسلام، ثم لبث حيث صليت العشاء، ثم رجع، فلبث حتى تعشى النبي عليه الصلاة والسلام، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: وما حبسك عن أضيافك – أو قالت: ضيفك – قال: أوما عشيتيهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا فأبوا، قال: فذهبت أنا فاختبأت، فقال يا غنثر فجدع وسبَّ، وقال: كلوا لا هنيئا، فقال: والله لا أطعمه أبدا، وايم الله، ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها – قال: يعني حتى شبعوا – وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان – يعني يمينه – ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده،

---

٤٢٨ البخاري، الرقاق، ١٧/ ٦٤٥٢.

وكان بيننا وبين قوم عقد، فمضى الأجل، ففرقنا اثنا عشر رجلا، مع كل رجل منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون»[٤٢٩]

❀

إضافة إلى الحاجة إلى إطعام المساكين نجد أن هذه الروايات التي تقدم منهجًا تربويًا رائعًا تشد الانتباه بشكل كبير:

عن عباد بن شرحبيل قال:

«أصابتني سنة فدخلت حائطا من حيطان المدينة ففركت سنبلا فأكلت، وحملت في ثوبي، فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال له: «**ما علمت إذ كان جاهلا، ولا أطعمت إذ كان جائعا**» – أو قال: «**ساغبا**» – وأمره فرد علي ثوبي وأعطاني وسقا أو نصف وسق من طعام»[٤٣٠]

فالمسلمون مكلفون بتعليم الجاهل لابعاده عن الحرام، ولأن الفاقة والحاجة تدفع الإنسان إلى مد يده إلى الحرام من يأسه، فإطعام المساكين أهم وظيفة إنسانية، كما ينبغي تنبيه المخطئين بلطف دائمًا والدعاء لهم.

❀

وكان سيد العالمين ﷺ يقدم أصحابه الفقراء على نفسه وعائلته حتى غدا إطعام الطعام شعارًا نبويًا، فعن ابن أعبد، قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أحدثك عني، وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت من أحب أهله إليه؟ قلت: بلى، قال: إنها جرت بالرحى حتى أثر في يدها، واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم، فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادما، فأتته فوجدت عنده حداثا فرجعت، فأتاها من الغد، فقال: «**ما كان حاجتك؟**» فسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله، جرت بالرحى حتى أثرت في يدها،

٤٢٩ البخاري، المواقيت، ٤١، الأدب، ٨٧–٨٨، المناقب، ٢٥؛ مسلم، الأشربة، ١٧٦/ ٢٠٥٧ .

٤٣٠ أبو داود، الجهاد، ٨٥/ ٢٦٢٠؛ النسائي، قضاة، ٢١

وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هي فيه، قال:

«**اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثا وثلاثين، واحمدي ثلاثا وثلاثين، وكبري أربعا وثلاثين، فتلك مائة، فهي خير لك من خادم**»

قالت: رضيت عن الله ﷻ، وعن رسوله ﷺ.[٤٣١]

وفي رواية أخرى يقول فخر الكائنات عليه أفضل الصلاة والتسليم:

«**والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم**»[٤٣٢]

❀

يقول أنس رضي الله عنه:

«قال أبو طلحة لأم سليم: قد سمعت صوت النبي ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخذت خمارا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي وردتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى النبي ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدت النبي ﷺ جالسا في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال النبي ﷺ: «**أرسلك أبو طلحة**»، قال: فقلت: نعم، فقال: «**ألطعام؟**»، فقلت: نعم، فقال النبي ﷺ لمن معه: «**قوموا**»، قال: فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء النبي ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي النبي ﷺ، فأقبل النبي ﷺ معه حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ:

---

٤٣١ أبو داود، الخراج، ١٩-٢٠/ ٢٩٨٨.

٤٣٢ أحمد، مسند، ١، ١٠٦/ ٨٣٨.

«**هلمي ما عندك يا أم سليم؟**» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة** حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلا أو ثمانون»[٤٣٣]

يقول جابر رضي الله عنه:

«إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «**أنا نازل**». ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب، فعاد كثيبا أهيل، أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي عليه الصلاة والسلام شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «**كم هو**» فذكرت له، قال: «**كثير طيب**»، قال:«**قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا**» فقام المهاجرون، والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال:

«**كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»[٤٣٤]

---

٤٣٣ البخاري، المناقب، ٢٥؛ مسلم، الأشربة، ١٤٢/ ٢٠٤٠.

٤٣٤ البخاري، المغازي، ٢٩/ ٤١٠١..

يكمل جابر ﵁ قوله:

«فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينتنا لتخبز كما هي»[٤٣٥]

ليس إطعام الناس فقط بل إطعام الكائنات الأخرى وسُقياهم أيضًا باب لأجر عظيم، يُحدِّث سُراقة بن جُعْشُمٍ ﵁ قال:

سألت رسول الله ﷺ عن ضالة الإبل تغشى حياضي، قد لطتها لإبلي، فهل لي من أجر إن سقيتها؟ قال:

«**نعم، في كل ذات كبد حرى أجر**»[٤٣٦]

❁

وكان أبو ذر ﵁ قد جاء إلى مكة ليرى النبي ﷺ، ويتعرف عليه، وعندما سأل رجلًا ضعيفًا في إيمان قال: ذلك الذي ارتد عن دينه مشيرًا إلى أبي ذر فاجتمع المشركون حوله وضربوه، وبقي في مكة ثلاثين يومًا لم يأكل شيئًا، ولم يشرب إلا ماء زمزم، وفي النهاية رأى النبي ﷺ وأبا بكر ﵁، فسلّم عليهم وعرَّفهم بنفسه، يقول أبو ذر ﵁: ثم قال لي: «**متى كنت هاهنا؟**» قال قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم، قال: «**فمن كان يطعمك؟**» قال قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما أجد على كبدي سخفة جوع، قال: «**إنها مباركة، إنها طعام طعم**» فقال أبو بكر ﵁: يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلة، فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر ﵁، وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر بابا، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف وكان ذلك أول طعام أكلته بها.[٤٣٧]

---

٤٣٥ مسلم، الأشربة، ١٤١/ ٢٠٣٩.

٤٣٦ ابن ماجه، الأدب، ٨/ ٣٦٨٦.

٤٣٧ مسلم، فضائل الصحابة، ١٣٢.

كان أبا بكر الصديق ﷺ يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وا مر الأغنياء بالإعطاء. فقال: والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت؟ فنزلت هذه الآية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ الله أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٤٣٨] [٤٣٩]

وكما نرى فقد كان إطعام المساكين صفة من محاسن أبي بكر الكثيرة، أما الإعراض عنهم فكان صفة من مساوئ أبي جهل الكثيرة. فنسأل المولى ﷻ أن يجعلنا جميعًا من التابعين لنهج أبي بكر ﷺ.

❁

عن أبي هريرة ﷺ:

«أن الناس، كانوا يقولون أكثر أبو هريرة! وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حتى لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية، هي معي، كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء، فنشقها فنلعق ما فيها»[٤٤٠]

❁

٤٣٨ يس: ٤٧.

٤٣٩ القرطبي، تفسير سورة يس، جـ١٥، ٢٣.

٤٤٠ البخاري، أصحاب النبي، ١٠/ ٣٧٠٨.

لما حضر أبا موسى الوفاة، قال: يابني، اذكروا صاحب الرغيف، قال: كان رجل يتعبد في صومعة سبعين سنة، لا ينزل إلا في يوم واحد، قال: فشبه أو شبه الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال، قال: ثم كشف عن الرجل غطاؤه فخرج تائبًا، فكان كلما خطا خطوة صلى وسجد فآواه الليل إلى دكان كان عليه اثنا عشر مسكينًا، فأدركه العياء فرمى بنفسه بين رجلين منهم، وكان ثم راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة، فيعطي كل إنسان رغيفًا، فجاء صاحب الرغيف فأعطى كل إنسان رغيفًا، ومر على ذلك الرجل الذي خرج تائبًا فظن أنه مسكين فأعطاه رغيفًا، فقال المتروك لصاحب الرغيف: مالك لم تعطني رغيفي ما كان بك عنه غنى؟ فقال: أتراني أمسكته عنك؟ سل، هل أعطيت أحدًا منكم رغيفين؟ قالوا: لا، قال: تراني أمسكته عنك والله لا أعطيك الليلة شيئًا، فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذي ترك، فأصبح التائب ميتًا، قال: فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي فرجحت السبع الليالي، ثم وزنت السبع الليالي بالرغيف فرجح الرغيف، فقال أبو موسى: يابني اذكروا صاحب الرغيف.[441]

فنيل رضا الله تعالى يكون أحيانًا بأشياء نظنها بسيطة، فقد يكون في قطعة خبز حياة لإنسان، وجبر لخاطر.

❀

يحدث عبيد الله أحرار قائلًا:

«خرجت يومًا إلى السوق فجاءني أحدهم وقال: أنا جائع، أطعمني رضاءً لله ﷻ، وكنت مُعدمًا في ذلك الوقت ولم يكن لدي إلا عمامة قديمة، فدخلت مطعمًا وقلت للطباخ: خذ عمامتي هذه، قديمة لكنها نظيفة ولكن أرجو أن تطعم هذا الإنسان الجائع بدلًا عنه، فقدم الطباخ الطعام لذلك الجائع وأراد

---

٤٤١ أبو نُعيم، الهلالي، ١، ٢٦٣.

إعادة عمامتي، ولكن مع إلحاحه علي لم أقبل، ومع أنني كنت جائعًا أيضًا انتظرتُ إلى أن يشبع ذلك الفقير».

❁

وعندما أخبر النبي ﷺ أن كل خير يبذله المحسن لمخلوق ما سيثاب عليه من الله تعالى، اهتم الناس بإطعام الحيوانات بل وعملوا على الاهتمام بالنباتات أيضًا، ومن أمثلة ذلك:كان أجدادنا قد أحدثوا مهنة بائع الكبد في فترة من الزمن، فكان الناس الذين يعملون في هذه المهنة يحملون قطعًا من الكبد ويتجولون في الأحياء والأسواق، فيشتري أصحاب الخير هذه الكبد ويطعمونها للقطط والكلاب الجائعة طلبًا للأجر من الله ﷻ.

❁

وقد تجوّل الإيطالي «Ricoldo de Monte Croce» في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وكتب عما رآه وذهل به:

«المسلمون كرماء جدًا في إقامة الجمعيات، ولكي يعملوا أعمالًا خيرية كانوا يشترون الأسرى المسيحيين ويُعتقونهم، ويقدمون ثواب أعمالهم لأرواح أمهاتهم وآبائهم، ويقوم المسلمون بفرز حصة من أموالهم الخاصة حتى لإطعام الكلاب، ونجد في كثير من مدن تركيا وإيران مربي الكلاب، للعمل بوصية من وصى بجزء من ماله لإطعام الكلاب»

❁

يقول المؤلف «Pere Jehammot» الذي جاء إلى الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي في مذكرات رحلته:

«الأتراك لا يقبلون إدخال كلاب الشارع إلى بيوتهم أبدًا لقذارتها، لكنهم في الوقت نفسه يقومون بإعطاء مقدار من النقود للجزار ليطعمها»[٤٤٢]

❁

---

٤٤٢ أخلاق وسجايا الأتراك القدماء، إسماعيل حامي دانشمند، اسطنبول ١٩٨٢/ ص١٨٢.

ختامًا...

فإن إطعام المساكين عمل حميد، وقد قال النبي ﷺ:

«يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٤٤٣]

وقد أكد النبي ﷺ أن البيت الذي يُطعم فيه كثيرًا، والذي يكثر ضيوفه بيتٌ مليءٌ بالخير والبركة، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه، من الشفرة إلى سنام البعير»[٤٤٤]

ولكن الشيطان يجتهد في إبعاد الإنسان عن الخير خوفًا من الفقر، ومن هذه الناحية يكون قد وقع في هذه المصيدة وامتنع من إطعام الفقراء والمحتاجين، فقد قال النبي ﷺ:

«طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة»[٤٤٥]

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»[٤٤٦]

ومن ناحية أخرى فإن فضل إطعام الجائعين لا يقتصر على الناس فحسب، إنما يشمل الحيوانات أيضًا، وإذا أمعنا النظر في معنى الحديث نجد أن إطعام الجوعى يشمل جميع الأحياء إنسانًا كان أو حيوانًا، وهو واجب على المسلمين، فإذا كان هناك كائن حيٌّ يكاد يهلك من الجوع فإطعامه فرض على الذين يعيشون في ذلك المكان، وإلا فإطعامه فضيلة وخير يثاب عليه المسلم ويؤجر.

---

٤٤٣ ابن ماجه، الأطعمة، ١/ ٣٢٥١؛ الترمذي، الأطعمة، ٤٥.

٤٤٤ ابن ماجه، الأطعمة، ٥٥/ ٣٣٥٧.

٤٤٥ البخاري، الأطعمة، ١١/ ٥٣٩٢؛ مسلم، الأشربة، ١٧٨/ ٢٠٥٨.

٤٤٦ مسلم، الأشربة، ١٧٩/ ٢٠٥٩.

و. تشييع الجنازة والعزاء

من أهم حقوق الأُخُوّة الإسلامية قيام المسلم تجاه أخيه المؤمن المتوفى بالمهمة الأخيرة، وذلك بتوديعه واتباع جنازته ودفنه بالشكل اللائق لكرامة الإنسان وتعزية أهله ومواساتهم.

وقد علَّمنا المولى ﷻ هذا بمثال حي، فصلاة الجنازة والاهتمام بدفنها فرض كفاية[٤٤٧]، أما الخدمات الأخرى فهي سنة ومستحبة، وبترك هذه الفضيلة يكون أهل المنطقة تلك قد تركوا الفرض وأثموا.وقد وصى النبي ﷺ أن يغسِل الميتَ أناسٌ أمناء، وأن يُغسل الميت باهتمام، وأن يُعطّر، وقد ذكر أهميه هذا بقوله:

«**من غسل ميتا فكتم عليه غفر له أربعين مرة، ومن كفن ميتا كساه الله من السندس، وإستبرق الجنة، ومن حفر لميت قبرا فأجنه فيه أجري له من الأجر كأجر مسكن أسكنه إلى يوم القيامة**»[٤٤٨]

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«**حقُّ المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»[٤٤٩]

وأول دعاءٍ للميت هو الصلاة على جنازته، بعد ذلك يُدعا له وتُقام بعض الأعمال الخيرية وتُهدى إلى روحه، فقد قال النبي ﷺ:

«**إذا صليتم على الميت، فأخلصوا له الدعاء**» [٤٥٠]

كما بشرنا سيدُ الوجود صلوات الله عليه وسلامه قائلًا:

---

٤٤٧ انظر: المائدة: ٣١.

٤٤٨ الحاكم، المستدرك، ١/ ٥٠٥/ ١٣٠٧.

٤٤٩ البخاري، الجنائز، ٢/ ١٢٤٠؛ مسلم، السلام، ٤.

٤٥٠ أبو داود، الجنائز، ٥٤-٥٦/ ٣١٩٩.

«ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه»[٤٥١]

وعدد أربعين هنا ذكر لكثرة المصلين، فقد ذكر في روايات أخرى مائة رجل، وفي رواية أنه يكفي ثلاثة صفوف من المصلين.

وكان راوي الحديث الأخير مالك بن هبيرة إذا رأى قلة المصلين في صلاة الجنازة فسارع لجعلهم صفوفًا ثلاثة.

إلا أنه على المسلم ليحظى بحسن الشهادة أن يقضي حياته ساعيًا في إرضاء الله ﷻ، لأن اجتماع جماعة على الخطأ صعب جدًا.

فينبغي على المسلم أن يكون جاهزًا للموت، وأن يخشى منه إذا كان مديونًا، فإذا مات مديونًا يجب على الأقارب أن يقضوا ديونه أولًا، لأنه لا يدخل الجنة مادام ذلك الدين معلقًا في رقبته حتى لو كان شهيدًا.

كما وصى النبي ﷺ بالإسراع في دفن الجنازة وعدم المماطلة، فقد قال عليه الصلاة والسلام في هذا الصدد:

«أسرعوا بالجنازة، فإن كانت صالحة قربتموها إلى الخير، وإن كانت غير ذلك كان شرا تضعونه عن رقابكم»[٤٥٢]

فالصلاة على الجنازة واتباعها حتى الدفن فيه أجر عظيم للرجال، أما للنساء فهو مكروه تنزيهًا، لأنه قد تغلب النساء عاطفتهن فيتصرفن تصرفات غير لائقة في مواضع حزينة ومؤلمة كهذه وفقًا لفطرتها الرقيقة والحساسة.

تقول أم عطية رضي الله عنها:

«كنا ننهى عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»[٤٥٣]

---

٤٥١ مسلم، الجنائز، ٥٩/ ٩٤٨.

٤٥٢ مسلم، الجنائز، ٥١/ ٩٤٤؛ النسائي، الجنائز، ٢٠٤٩.

٤٥٣ البخاري، الجنائز، ٢٩؛ مسلم، الجنائز، ٣٤/ ٩٣٨.

ويقوم الناس بتعزية من مات قريبه أو أصيب بأي مصيبة مؤلمة وتوصيتهم بالصبر ومواساتهم، وهذه خدمة اجتماعية مهمة، فقد قال رسول الله ﷺ:

«ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة، إلا كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة»[٤٥٤]

فالإنسان مخلوق ضعيف يحتاج إلى العزاء والمواساة في المحن والمصائب، لذلك كانت كل من التعزية وتشييع الجنازة وظائف مهمة على عاتق الإنسان، وتركها يعني إهمال للمسؤولية، ولا ننس أن تعزية أو زيارةً لا نعيرها أهمية لأخ لنا من الممكن أن نحتاج إليها يومًا ما، فإن لم نزرع بذور الخير في وقتها لن نجد ظلًا نستظل به وقت الحاجة.

صور الفضائل

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: كيف أصبحت؟ قال:

«بخير من قوم لم يشهدوا جنازة، ولم يعودوا مريضا»[٤٥٥]

ومن هذا التعبير نفهم أن النبي عليه الصلاة والسلام يبين أنه قضى ليلة مليئة بالخير، إذا أضاف إليها الأجر والثواب الذي يكسبه الإنسان بزيارة المريض وتشييع الجنازة لوجه الله تعالى وبكل إخلاص، وبهذا يشير إلى أن زيارة المريض وتشييع الجنازة من الفضائل الراقية.

❁

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال:

«قد كنّا مُقدَّم النبي عليه الصلاة والسلام إذا حضر منا الميت آذنا النبي ﷺ، فحضره واستغفر له حتى إذا قبض انصرف النبي ﷺ، ومن معه حتى يدفن، وربما

---

٤٥٤ ابن ماجه، الجنائز، ٥٦/ ١٦٠١.

٤٥٥ البخاري، الأدب المفرد، رقم، ١١٣٣؛ ابن ماجة، الأدب، ١٨.

طال حبس ذلك على النبي ﷺ، فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض: لو كنا لا نؤذن النبي بأحد حتى يقبض، فإذا قبض آذناه، فلم يكن عليه في ذلك مشقة ولا حبس، ففعلنا ذلك وكنا نؤذنه بالميت بعد أن يموت فيأتيه فيصلي عليه، فربما انصرف، وربما مكث حتى يدفن الميت، فكنا على ذلك حينا، ثم قلنا لو لم يشخص النبي عليه الصلاة والسلام، وحملنا جنازتنا إليه حتى يصلي عليه عند بيته لكان ذلك أوفق به، ففعلنا فكان ذلك الأمر إلى اليوم »[456]

❀

عندما مرض طلحة بن البراء زاره النبي عليه الصلاة والسلام يعوده، فقال:

«إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت، فآذنوني به وعجلوا، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله»[457]

وروى أنه توفي ليلًا، فقال: ادفنوني وألحقوني بربي، ولا تدعوا رسول الله ﷺ، فإني أخاف عليه اليهود أن يصاب في سببي، فأخبر رسول الله ﷺ حين أصبح، فجاء حتى وقف على قبره، وصفّ الناس معه، ثم رفع يديه وقال:

«اللهم، الق طلحة وأنت تضحك إليه، وهو يضحك إليك» [458]

عن أم سلمة، قالت:

دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال:

«إن الروح إذا قبض تبعه البصر»

فضج ناس من أهله، فقال:

«لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»

---

٤٥٦ الحاكم، المستدرك، ١، ٥١٩/ ١٣٤٩؛ ابن سعد، الطبقات، ١، ٢٥٧.

٤٥٧ أبو داود، الجنائز، ٣٣-٣٤/ ٣١٥٩.

٤٥٨ ابن الأثير، اسد الغابة، ٢، ٢٩/ ٥٤٩.

ثم قال:

«اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه»[٤٥٩]

❁

عن أسامة بن زيد ﷺ قال:

كنا عند النبي عليه الصلاة والسلام، فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أن صبيا لها، أو ابنا لها في الموت، فقال للرسول:

«ارجع إليها، فأخبرها: أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب»

فعاد الرسول، فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، قال: فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا؟ يا رسول الله قال:

«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٤٦٠]

❁

عن أم عطية ﷺ، قالت:

دخل علينا رسول الله ﷺ ونحن نغسل ابنته، فقال:

«اغسلنها ثلاثا، أو خمسا، أو أكثر من ذلك، بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورا، فإذا فرغتن فآذنني»

فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوه، فقال: «**أشعرنها إياه**»، فقال أيوب، وحدثتني حفصة بمثل حديث محمد، وكان في حديث حفصة: «**اغسلنها وترا**»،

---

٤٥٩ مسلم، الجنائز، ٧/ ٩٢٠.

٤٦٠ البخاري، الجنائز، ٣٣؛ مسلم، الجنائز، ٩، ١١/ ٩٢٣.

وكان فيه: «**ثلاثا أو خمسا أو سبعا**» وكان فيه أنه قال: «**ابدءوا بميامنها، ومواضع الوضوء منها**»، وكان فيه: أن أم عطية قالت: ومشطناها ثلاثة قرون» [٤٦١]

ونزل قبرها وهو مهموم محزون فلما خرج سرّي عنه، وقال:

«**كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمّه، ففعل وهوَّن عليها**»[٤٦٢]

فإذا كانت بنت النبي عليه الصلاة والسلام التي قدمت تضحيات كبيرة في سبيل الإسلام لم تنجُ من ضمّة القبر، فكيف يكون حالنا نحن؟! لهذا علينا التفكر دائمًا بمستقبلنا، والنظر في حالنا وتصرفاتنا.

❁

يقول عوف بن مالك رضي الله عنه:

صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظتُ من دعائه وهو يقول:

«**اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر، أو من عذاب النار**»

قال عوف: حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت.[٤٦٣]

❁

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرا، فقال نبي الله ﷺ: «**وجبت، وجبت، وجبت**»، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرا، فقال نبي الله ﷺ: «**وجبت، وجبت، وجبت**»، قال

٤٦١ البخاري، الجنائز، ٨-١٧؛ مسلم، الجنائز، ٣٦؛ ابن سعد، الطبقات، ٨، ٣٤-٣٦.

٤٦٢ ابن الأثير، اسد الغابة، ٧، ١٣١.

٤٦٣ مسلم، الجنائز، ٨٥/ ٩٦٣.

عمر: فدى لك أبي وأمي، مُرَّ بجنازة، فأثني عليها خير، فقلت: «**وجبت، وجبت، وجبت**»، ومُرَّ بجنازة، فأثني عليها شر، فقلت: «**وجبت، وجبت، وجبت**»؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض**»[٤٦٤]

❁

عن معاذ بن جبل ﷺ أنه مات له ابن، فكتب إليه رسول الله ﷺ يعزيه عليه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، فإن أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله ﷻ الهنيئة وعواريه المستودعة، متعك به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير الصلاة والرحمة والهدى، إن احتسبته فاصبر، ولا يحبط جزعك أجرك فتندم، واعلم أن الجزع لا يرد شيئا، ولا يدفع حزنا، وما هو نازل فكان قد، والسلام**»[٤٦٥]

❁

وكان النبي ﷺ لا يكتفي بتعزية أهل الميت فقط، فقد كان يقوم بجميع أنواع المساعدات المادية والمعنوية، فعندما استشهد جعفر الطيار قال لأهله:

«**اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم ما يشغلهم**»[٤٦٦]

وبعد ذلك قام بنفسه بالاهتمام بأيتام جعفر وتولى تربيتهم.

❁

---

٤٦٤ البخاري، الجنائز، ٨٦؛ مسلم، الجنائز، ٦٠/ ٩٤٩.

٤٦٥ الحاكم، المستدرك، ٣، ٣٠٦/ ٥١٩٣.

٤٦٦ أبو داود، الجنائز، ٢٥-٢٦؛ ابن هشام، سيرة، ٣، ٤٣٦.

وعن أبي عيينة ﵁، قال:

«كان أبو بكر الصديق ﵁ إذا عزى رجلا قال: ليس مع العزاء مصيبة، وليس مع الجزع فائدة، الموت أهون ما قبله وأشد ما بعده، اذكروا فقد رسول الله ﷺ تصغر مصيبتكم وأعظم الله أجركم»[٤٦٧]

قال رسول الله ﷺ:

«من اتبع جنازة مسلم، إيمانا واحتسابا، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط» [٤٦٨]

وعن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أنه كان قاعدا عند عبد الله بن عمر ﵄، إذ طلع خباب صاحب المقصورة، فقال يا عبد الله بن عمر: ألا تسمع ما يقول أبو هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ:

«من خرج مع جنازة من بيتها، وصلى عليها، ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من أجر، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها، ثم رجع، كان له من الأجر مثل أحد»؟

فأرسل ابن عمر ﵄ خبابا إلى عائشة ﵂ يسألها عن قول أبي هريرة ﵁، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت: وأخذ ابن عمر قبضة من حصى المسجد يقلبها في يده، حتى رجع إليه الرسول، فقال: قالت عائشة ﵂: صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة. [٤٦٩]

---

٤٦٧ علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٧٤٤/ ٤٢٩٥٨.

٤٦٨ البخاري، الإيمان، ٣٥/ ٤٧.

٤٦٩ مسلم، الجنائز، ٥٦/ ٩٦٣.

نجد أن المقصود في هذا الحديث ليس مقدارًا معينًا من الثواب فحسب، بل إن تشييع الجنازة من الفضائل العظيمة، فالمولى جل وعلا يثيب على الأعمال وفقًا للنيات والإخلاص فيها.

❀

عن القاسم بن محمد، أنه قال:

هلكت امرأة لي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها فقال:

«إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة. وكان بها معجبا ولها محبا، فماتت فوجد عليها وجدا شديدا، ولقي عليها أسفا، حتى خلا في بيت، وغلق على نفسه، واحتجب من الناس. فلم يكن يدخل عليه أحد. وإن امرأة سمعت به فجاءته، فقالت: إن لي إليه حاجة أستفتيه فيها. ليس يجزيني فيها إلا مشافهته، فذهب الناس، ولزمت بابه. وقالت: ما لي منه بد، فقال له قائل: إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك، وقالت: إن أردت إلا مشافهته وقد ذهب الناس. وهي لا تفارق الباب. فقال: ائذنوا لها. فدخلت عليه. فقالت: إني جئتك أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة لي حليا، فكنت ألبسه وأعيره زمانا، ثم إنهم أرسلوا إلي فيه، أفأؤديه إليهم؟ فقال: نعم. والله. فقالت: إنه قد مكث عندي زمانا، فقال: ذلك أحق لردك إياه إليهم، حين أعاروكيه زمانا، فقالت: إي يرحمك الله، أفتأسف على ما أعارك الله، ثم أخذه منك وهو أحق به منك؟» فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها.[٤٧٠]

❀

ويتأثر طاهر المولولي شارح كتاب المثنوي كثيرًا بخبر وفاة أم مع توأمها أثناء الولادة، ويبحث عن أهلها ويجدهم، ويقول:

٤٧٠ مالك، موطأ، الجنائز، ٤٣.

«أريد كتابة شيء على حجر مقابر هؤلاء الثلاثة تعزية لهم» ويعبر في هذه الرباعية من الأعماق عن شفقة الأم وحنانها:

كتابة على حجر مقبرة:

لم يسمح لي الأجل أن أحضن طفلاي في هذه الدنيا،

لارتحالي معهما عن الحياة الدنيا.

فيا ربي أمسكت بيدي اليتيمين،

وجئت بطفليي المسكينين إليك».

❁

وفي الحديث الذي رواه ابن عباس عن النبي ﷺ:

«ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال فإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم» [٤٧١]

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال:

«أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»،

قال فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال:

«لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا»[٤٧٢]

٤٧١ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت، ١٩٨٦، ٤ ١٠٣/ ٦٣٢٣؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٧٤٩/ ٤٢٩٧١.

٤٧٢ مسلم، الطهارة، ١١١/ ٢٩٢.

ويوضح المفسر القرطبي هذا الحديث فيقول:

إن قوله: «**لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا**»

أي أنها تستغفر لهما ما دامت لم تجف، وقد قال علماؤنا: زرع الأشجار في المقابر، وقراءة القرآن تفيد أهل القبور، فإذا كانت شجرة تخفف من عذاب الميت، فمن يعلم مدى فائدة قراءة القرآن الكريم للمؤمن! حتى إن ثواب ما يُهدى للميت يصل إليه.[٤٧٣]

وليستفيد الميت من الرحمة الإلهية بقراءة القرآن وخاصة قراءة سورة يس كما يعرفه الجميع ويطبقه، فقد ورد في الحديث الشريف:

«... **يس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، واقرءوها على موتاكم**» [٤٧٤]

ويمكن قراءة آيات وسور أخرى على أرواح الموتى، من الأحاديث الواردة بهذا الخصوص:

«**إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وعند رجليه بخاتمة البقرة**» [٤٧٥]

وعن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه، أنه قال لبنيه:

«إذا أدخلتموني قبري فضعوني في اللحد وقولوا: باسم الله وعلى سنة رسول الله ﷺ وسنوا علي التراب سنا واقرءوا عند رأسي أول البقرة وخاتمتها فإني رأيت ابن عمر يستحب ذلك»[٤٧٦]

---

٤٧٣ القرطبي، ١٠، ٢٦٧.

٤٧٤ أحمد، مسند، ٥، ٢٦/ ٢٠٣٠٠.

٤٧٥ الطبراني، الكبير، ١٢، ٣٤٠؛ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ١، ٢٨٤/ ١١١٥؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٦٠١/ ٤٢٣٩٠.

٤٧٦ البيهقي، السنن الكبرى، ٤، ٥٦/ ٧٠٦٨.

وعن عمرو بن العاص قال:

«...فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي» [٤٧٧]

وقد نقل النووي بعد ذكر هذا الحديث في كتابه قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: «يستحب قراءة آيات أو سور من القرآن الكريم في القبر، أما قراءة القرآن كاملاً فهو أفضل» [٤٧٨]

ونفهم من كل تلك الروايات أن زيارة أهل القبور، وإلقاء السلام عليهم، والدعاء والاستغفار لهم، وقراءة القرآن وعمل بعض الأعمال الخيرية على أرواحهم كل ذلك نرجو أن يكون رحمةً لهم، وقد وصانا المولى عز وجل في القرآن الكريم أن ندعو لإخواننا المؤمنين الذين انتقلوا إلى حياة الخلود فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٤٧٩]

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام زيارة القبور ووضح أنه لا ينبغي الإفراط ولا التفريط في هذا الأمر، فقال عليه الصلاة والسلام:

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة» [٤٨٠]

كما قال رسول الهداية عليه الصلاة والسلام:

---

٤٧٧ مسلم، الإيمان، ١٩٢/ ١٢١.

٤٧٨ النووي، رياض الصالحين، بيروت، ص ٢٩٣.

٤٧٩ الحشر: ١٠.

٤٨٠ ابن ماجة، الأدب، ١/ ١٥٧١؛ أحمد، مسند، ٢، ٥٠٩.

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [٤٨١]

وعن ابن عباس ﵄، قال:

«أن سعد بن عبادة ﵁ توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال: «**نعم**»، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها». [٤٨٢]

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، أن أمه أرادت أن توصي، ثم أخّرت ذلك إلى أن تصبح فهلكت، وقد كانت همت بأن تعتق، فقال عبد الرحمن، فقلت للقاسم بن محمد أينفعها أن أعتق عنها؟ فقال القاسم: إن سعد بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: إن أمي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله ﷺ: **نعم**.[٤٨٣]

وتوفي عبد الرحمن بن أبي بكر في نوم نامه فأعتقت عنه عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام رقابا كثيرةً.[٤٨٤]

وعن ابن عباس ﵄، قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال:

«لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها؟»

قال: نعم، قال:

«فدين الله أحق أن يقضى».[٤٨٥]

---

٤٨١ مسلم، الوصية، ١٤.

٤٨٢ البخاري، الوصايا، ١٥/ ٢٧٥٦.

٤٨٣ مالك، موطأ، العتق، ١٣.

٤٨٤ مالك، موطأ، العتق، ١٤.

٤٨٥ مسلم، الصيام، ١٥٥/ ١١٤٨.

كل هذه الأحاديث تحث الإنسان على عمل الخير، وتوضح لنا أن الإنسان المتوفى يصله ثواب كل الأعمال الصالحة التي عملها قبل موته وتبقى مستمرة بعد وفاته، إضافة إلى أن ثواب الأعمال الخيرية والنفقات التي يقوم بها أقرباء المتوفى تصل إليه أيضًا.

❁

وختامًا... نجد أن الإسلام وضع القوانين موافقة لفطرة الإنسان وحاجته، فحث على تجهيز وتكفين وتشييع الجنازة في أسرع وقت حتى يصل الإنسان عندما يُتوفى إلى راحته الأبدية بطهارة، وإلا سيظهر منظر لا يليق بكرامة الإنسان مما ينفر الإنسان منه.

من جهة أخرى فإن الأوامر التي أمر بها الإسلام بني آدم تُظهِر مدى قيمة الإنسان عند الله تعالى، فيطلب المولى جل وعلا من عباده المقربين أن يعيشوا في بيئة محفوفة بالأخوة والمحبة والسلام، وأما حين نعدل عن أوامر الله تعالى فيصبح إنشاء بيئة كهذه أمرًا مستحيلًا.

فالعزاء -الذي يُعتبر واجبًا من واجبات الأخوة الدينية- هو في حقيقته ترويح ومواساة للإنسان في أشد أوقاته حزنًا، وإظهار لأخينا المسلم أننا معه دائمًا، وينبغي أن لا ننس أن الوقوف بجانب الإنسان -الذي خُلق مكرمًا وفي أحسن تقويم- في حزنه ومقاسمته همومه من أفضل الأعمال الصالحة التي يُنال بها رضا الله ﷻ.

٥. المسارعة في الخيرات

إن نعمة الحياة التي كرَّم الله تعالى بها ابن آدم هي في حقيقتها امتحان إلهي، والإنسان العاقل يبحث عن الطرق التي تُمكّنه من قضاء هذه الإمكانية القيِّمة والمحدودة بأنفع وأفضل شكل، فقد قال أبو بكر رضي الله عنه:

«الدنيا سوق المؤمن، فرأسماله الليل والنهار، وبضاعته العمل الصالح، وربحه الجنة، وخسارته جهنم».

وعلى المسلم الذي يؤمن باليوم الآخر إيمانًا صادقًا ـ إن كان يحرص على أن يملأ صحيفة أعماله بالخير ـ أن يستخدم رأسمال الحياة على أحسن صورة، ويسعى بجد للعمل الصالح، وأن لا يفرط في أي باب خير وجده، وأن يعلم أنها فرصة لا تُفوّت، كما ينبغي عليه أن لا يعير أي اهتمام لما لا يراه الناس خيرًا، بل عليه أن يسعى مباشرة لعمل أي خير يلقاه. ونرى الإنسان الذي أصبح أسيرًا لشهواته النفسية يسعى لجمع جميع المصالح الدنيوية له، وهكذا يكون قد غفل عما وعده الله ﷻ في الآخرة، يقول تعالى عن هؤلاء الناس:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [٤٨٦]

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [٤٨٧]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٤٨٨]

ويشبه سعد الشيرازي الإنسان الذي يجري وراء منافعه الدنيوية بهذا التشبيه:

«لولا هم البطن لما وقع طائر في مصيدة».

ويعطي مولانا جلال الدين الرومي هذا المثال:

«كثير من الأسماك وقعت في صنارة الصيد بحرصها على بطنها، مع أنها كانت في أمان في الماء».

بناء على ذلك يجب على الإنسان ألا ينسى الآخرة بانشغاله بالأمور الدنيوية، فجميع أعمال الخير باقية للآخرة، وتعمل النفس والشيطان على جرّ الإنسان إلى الغفلة بخداعه وقد ذكرت الأية الكريمة هذا:

---

٤٨٦ القيامة: ٢٠–٢١.

٤٨٧ الإنسان: ٢٧.

٤٨٨ الأعلى: ١٤ـ١٧.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [489]

وقد ذكر الله تعالى أن الطريق الموصل إلى النجاة الأبدية هو المسابقة في أعمال الخير:

﴿...وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [490]

﴿...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ [491]

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [492]

وقد بشر الله ﷻ المتسابقين بالخيرات بقوله:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [493]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» [494]

ويحذر في حديث آخر قائلًا:

---

٤٨٩ آل عمران: ١٨٥.

٤٩٠ آل عمران: ١١٤.

٤٩١ البقرة: ١٤٨.

٤٩٢ آل عمران: ١٣٣.

٤٩٣ سبأ: ٣٧.

٤٩٤ مسلم، الإيمان، ١٨٦/ ١١٨؛ الترمذي، الفتن، ٣٠/ ٢١٩٥.

«بادروا بالأعمال سبعا هل تنظرون إلا إلى فقر منس، أو غنى مطغ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» [٤٩٥]

ويقول المولى جل وعلا في سورة الحشر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٩٦]

فيجب على الإنسان في هذه الدنيا أن يخشى الله تعالى ويعيد النظر دائمًا فيما أعده للآخرة، ويقيس بعقل سليم بين ما أعده لهذه الدنيا الفانية وما يُعدُه للحياة الأبدية، وألا ينسى أن الله عالم بكل ما يفعله، ويتصرف بعد التفكير بكل هذا، ويبدأ بعزم وحرص على السباق في عمل الخير. ومما يشد الانتباه هذه الروايات التي تذكر أهمية التقدم في أعمال الخير:

فعن أبي سعيد الخدري ﵁، أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخرا فقال لهم:

«تقدموا فأتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله»[٤٩٧]

وكان سيد الكون يدعو أصحابه للتقدم إذا كانوا في الصلاة أو في مجلسه، وكان يطلب منهم الاقتراب منه، وهكذا يشد قلوبهم إلى الفيض النبوي والإقليم الروحاني، وكان يريد أن يعلمهم الأخلاق والفضائل بلياقة راقية، ومع أنه كان مشغولًا بتعليمهم فقد كان مثلًا في كيفية الإرشاد للأجيال القادمة.

---

٤٩٥ الترمذي، الزهد، ٣/ ٢٣٠٦.

٤٩٦ الحشر: ١٨-١٩.

٤٩٧ مسلم، الصلاة، ١٣٠/ ٤٣٨؛ أبو داوود، الصلاة، ٩٧/ ٦٨٠.

فإذا تصرف الإنسان بإهمال ولا مبالاة في التقدم في طريق العلم والفضائل والأخلاق فيسيحرمه الله تعالى رحمته ولطفه، ولا شك أن من تعرّض لتعاسة كهذه سيتأخر من كل الجهات.

وقد قال نَبِيَّ الله ﷺ:

«**احضروا الذكر، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة، وإن دخلها**» [498]

فمن تأخر عن عمل الخير دون سبب، واستمر في ذلك، فإنه حتى لو دخل الجنة سيكون في المراتب الدنيا، مع أن الإنسان يحتاج في الدار الآخرة إلى كل ذرة من الحسنات.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يصف الناس يوم القيامة صفوفا** -وقال: ابن نمير أهل الجنة- **فيمر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهورا؟ فيشفع له** قال: ابن نمير - ويقول: **يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك، فيشفع له**» [499]

يُفهم من هذا أنه ينبغي التسابق في جميع أنواع أعمال الخير، صغيرة كانت أو كبيرة، فكل إنسان سيجد ما عمل في هذه الدنيا خيرًا كان أو شرًا، يصوِّر الحديث الشريف لنا ذلك اليوم الصعب:

«**... ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالا؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن ألم أرسل**

498 أبو داوود، الصلاة، ٢٣٢/ ١١٠٨.

499 ابن ماجه، الأدب، ٨/ ٣٦٨٥ .

إليك رسولا؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة» [٥٠٠]

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال لي النبي ﷺ:

«**لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» [٥٠١]

فيجب عمل كثير من الخيرات والحسنات في دنيا الامتحان للاستعداد للآخرة التي يجد فيها الإنسان نتيجة عمله، وأن يكون الإنسان مفتاحًا لكل خير ومغلاقًا لكل شر، يقول رسول الله ﷺ:

«**إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**» [٥٠٢]

ويجب أن لا ننسى أن الله تعالى يجزي من عمل مثقال ذرة من الخير بحسنات أضعاف مضاعفة، وهذا فضل كبير من المولى جل وعلا لعباده، وتبين الآية الكريمة ذلك:

﴿...وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٥٠٣]

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ [٥٠٤]

---

٥٠٠ البخاري، الزكاة، ١٠/ ١٤١٣، الرقاق، ٣١، التوحيد، ٣٦؛ مسلم، الزكاة، ٩٧.

٥٠١ مسلم، البر، ١٤٤/ ٢٦٢٦؛ أبو داود، اللباس، ٢٤.

٥٠٢ ابن ماجه، المقدمة، ١٩/ ٢٣٧.

٥٠٣ المزمل: ٢٠.

٥٠٤ الأنعام:١٦٠.

وقد ذكر النبي ﷺ في تفسير هذه الآية:

«قال الله ﷻ: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها، لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» [٥٠٥]

والتسابق في الخير والإسراع إليه من علامات المؤمن الحق، فقد قال مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله-:

«من علامة قبول العبادة: العبادة بعدها، فالمسلم لا ينتهي من طاعة إلا ويبدأ بأخرى، فأعمال الخير تتوالى وتتسارع»

وعلينا ألا ننسى ـ كي نحظى بشرف فعل الخير ـ أن نسارع فيه دون إبطاء.

صور الفضائل

يحدث عبادة بن عُقْبَةَ، قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم، ثم قام مسرعا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال:

«ذكرت شيئا من تبر عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته»[٥٠٦]

وفي رواية أخرى للبخاري، أن عقبة بن الحارث ﷺ، قال: صلى بنا النبي عليه الصلاة والسلام العصر، فأسرع، ثم دخل البيت فلم يلبث أن خرج، فقلت أو قيل له، فقال:

«كنت خلفت في البيت تِبْرا من الصدقة، فكرهت أن أُبيته، فقسمته»[٥٠٧]

---

٥٠٥ البخاري، الرقاق، ٣١؛ مسلم، الإيمان، ٢٠٤/ ١٢٨؛ الترمذي، تفسير، ٦/ ٣٠٧٣

٥٠٦ البخاري، الأذان، ١٥٨/ ٨٥١، الأعمال في الصلاة، ١٨؛ النسائي، السهو، ١٠٤.

٥٠٧ البخاري، الزكاة، ٢٠/ ١٤٣٠.

فلابد أن نعلم أن فعل الخير نعمة ينبغي المسارعة إليها بكل ما نستطيع، فقد تظهر بعض العوائق لأعمال الخير والحسنات التي تؤجل، ومن يؤجّل عمل الخير فهو في خسران، يروي أبو مسعود الأنصاري ﵁، فيقول:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أبدع بي فاحملني، قال: «**لا أجد ما أحملك عليه، ولكن ائت فلانا فلعله أن يحملك**» فأتاه فحمله، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[٥٠٨]

❀

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال:

«**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان**» [٥٠٩]

❀

لقد سهل الله تعالى بجميل لطفه سُبل عمل الخير لعباده، وأخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال:

«**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**» [٥١٠]

«**ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»[٥١١]

---

٥٠٨ أبو داود، الأدب، ١١٤–١١٥/ ٥١٢٩.

٥٠٩ البخاري، الزكاة، ١١/ ١٤١٩، الوصايا، ١٧/ ٢٧٤٨؛ مسلم، الزكاة، ٩٢/ ١٠٣٢.

٥١٠ البخاري، الصلح ، ١١/ ٢٧٠٧، الجهاد، ٧٢/ ٢٩٨٩؛ مسلم، الزكاة، ٥٦/ ١٠٠٩.

٥١١ البخاري، الزرع ، ٢٣٢٠؛ مسلم، الزرع ، ١٢/ ١٥٥٣.

وكم من العبر التي يحملها هذا الحديث الدال على جزاء المسارعة في عمل الخير:

فعن جابر بن عبد الله ﵄، قال:

قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: «**في الجنة**» فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قتل.[٥١٢]

❁

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال يوم خيبر:

«لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه»

قال عمر بن الخطاب ﵁: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال فدعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﵁، فأعطاه إياها، وقال:

«امش، ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك»

قال فسار علي شيئا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال:

«قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»[٥١٣]

فنرى تسابق الصحابة جميعًا في الحصول على تلك الراية، لكن الراية كانت لرجل واحد فقط، ومع ذلك لم يؤثر ذلك عليهم بل جاهدوا في سبيل الله تحت تلك الراية.

❁

٥١٢ البخاري، المغازي، ١٧/ ٤٠٤٦؛ مسلم، الإمارة، ١٤٣/ ١٨٩٩، النسائي، الجهاد، ٣١/ ٣١٤٥.

٥١٣ مسلم، فضائل الصحابة، ٣٣/ ٢٤٠٥؛ البخاري، أصحاب النبي، ٩؛.

كانت أسماء بنت يزيد ﵂ أول من بايع النبي ﷺ من أهل المدينة، وكانت فصيحة طليقة اللسان، كما كانت تخرج إلى النبي عليه الصلاة والسلام وتسأله أسئلة الصحابيات اللاتي كنّ يخجلن من سؤاله، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقدر أسماء ويمدح نساء أهل المدينة ويذكر أنه لا حياء في الدين.

فذات يوم أتت، النَّبِيّ ﷺ وهو بين أصحابه، فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله ﷻ بعثك إلى الرجال والنساء كافّة فآمنا بك وبإلهك، وإنَّا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومَقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فُضّلتم علينا بالجُمَع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ، وإن الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النَّبِيّ ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال:

«هل سمعتم مقالة امْرَأَة قطّ أحسن من مُساءلتها في أمر دينها من هذه؟»

فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امْرَأَة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النَّبِيّ ﷺ إليها، فقال:

«انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته تعدل ذلك كله».

فانصرفت المرأة وهي تهلِّل.[٥١٤]

❀

ومن الصحابيات اللواتي كن يتسابقن في عمل الخير أم رعلة القشيريّة، فقد وفدَت إلى النبي ﷺ، وكانت امْرَأَة ذات لسان وفصاحة، فقالت: السلام عليك يا

٥١٤ ابن الأثير، أسد الغابة، ٧، ١٩؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٦، ٤٢١/ ٨٣٦٩.

رسول الله ورحمة الله وبركاته، إنّا ذوات الخدور، ومحل أُزُر البعول، ومربيات الأولاد، وممهّدات المهاد، ولا حظّ لنا في الجيش الأعظم، فعلمنا شيئًا يقربنا إلى الله ﷻ، فقال لها النبي ﷺ:

«عليكنّ بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وغضّ البصر، وخفض الصوت...»[٥١٥]

❁

وقال عالم الحديث ابن عون:

«ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه، ويدعوا الناس إلا من خير»[٥١٦]

❁

جاء سائل إلى الحسن البصري وطلب حاجة، فقام فورًا وأخرج قميصه ووضعه تحت السائل، فقيل له:

يا حسن! لو أنك ذهبت إلى البيت وأعطيته شيئًا؟ فأجاب الحسن البصري: جاءنا مرة سائل وذكر جوعه، غفلنا عنه وذهب كل منا إلى بيته، ولم نحضر له الطعام في وقته، وعندما حضرنا إلى صلاة الفجر فإذ بالرجل قد مات، فكفناه ودفناه، وفي اليوم التالي رأينا الكفن الذي كفنا به الفقير وقد كتب عليها هاكم كفنكم لا يقبله الله، ومن ذلك اليوم أقسمت أن لا أترك محتاجًا يأتيني حتى أقضي حاجته.

فالله سبحانه وتعالى يظهر بعض أسراره لأوليائه من عباده، وحكمة هذه الحوادث توجيه العباد من خلال التأثير فيهم، إلا أننا لا نحكم بهذه الحوادث

---

٥١٥ ابن حجر،الإصابة في معرفة الصحابة، ٨، ٢٠٤/ ١٢٠٢٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٧، ٣٢٠/ ٧٤٤٨.

٥١٦ البخاري، الاعتصام، ٢.

أو نعتبرها مقياسًا لعامة الناس، وإنما خاصة لأصحاب التقوى، فهي تجليات إلهية مستثناة.

❀

وختامًا...

فإن المسابقة في فعل الخير والمسارعة فيه من أجمل طرق اغتنام الحياة الدنيا، ومن يعمل أعمالًا صالحة ويسعى في عمل الخير ينفع نفسه، فقد وعد الله تعالى بقوله:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٥١٧]

﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٥١٨]

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها**»[٥١٩]

والمؤمن الذين يريد أن يرقى في درجات الجنة ويملأ صحيفه بأعمال الخير يجب عليه أن يسرع ويغتنم وقته، ويسعى إلى عمل كل خير قدر المستطاع، إلا أنه ينبغي أن يحرص بأن لا يضيع كمال أعمال الخير هذه بإسراعه، وقد ذكر الملّا علي القاري في هذا الموضوع:

«هناك فرق كبير بين السعي للخير والإسراع بعمل الطاعات التي تعتبر من أوامر الله تعالى، والعجلة في عملها، فأولاهما حسن وممدوح والثاني مذموم».

---

٥١٧ الزلزلة: ٧.

٥١٨ البقرة: ٢٧٣.

٥١٩ ابن ماجه، المقدمة، ١٠/ ٩٠؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١٢، ٤٦٤/ ٩٧٥٢.

يعني يجب الإسراع لعمل العبادة والخير في وقته تمامًا، إلا أن العجلة في عملها والانتهاء منها بسرعة ليس أمرًا حسنًا، فالله تعالى يحب المتقَن والحسن من الأعمال.

فالمؤمن –إن كان يرجو الجنة ويسعة لها– لا يشبع من عمل الخير، فقد ذكر ذلك في سورة الحجر بقوله:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٥٢٠]

٦. حس المسؤولية في الخدمات الإدارية

إن تطبيق النظام على كل أفراد المجتمع كبيرهم وصغيرهم ضروري لمنع الفوضى ووأد الفتنة، وهذا لا يكون إلا بالاجتماع حول قائد، ولهذا وصى النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين أينما حلوا –حتى لو كانوا جماعة صغيرة ومؤقتة مثل صحبة ثلاثة أشخاص في السفر ـ أن يختاروا رئيسًا لهم، وذكر ذلك في الحديث الشرف بقوله:

«.... **لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم**، .....» [٥٢١]

فالإدارة التي تعتبر وظيفة مهمة وضرورية هي في الوقت نفسه مسؤولية كبيرة وأمانة إلهية ينبغي وضعها في مكانها، ويصعب النجاح بها إلا من له قابلية إدارية وصاحب دراية وفطنة، أما من لا يمكنه إعطاء حق هذا المكان أو من يستولي على حقوق الناس فسيكون في ندم وخسران يوم القيامة.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة**» [٥٢٢]

---

٥٢٠ الحجر: ٩٩.

٥٢١ أحمد، مسند، ٢/ ١٧٧/ ٦٦٤٧.

٥٢٢ البخاري، الأحكام، ٨/ ٧١٥٠.

«ما من وال يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة» [٥٢٣]

«ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة» [٥٢٤]

فمن لم يحظَ بالتربية المعنوية كما ينبغي فإنه يلهث وراء المجد والشهرة والإمارة والإمامة، أما الإسلام فقد شجع الناس على الابتعاد عن الإمارة والإدارة إن لم يجدوا أنفسهم أهلًا لها، وأن يستغنوا عن هذه المهمة ما لم يضطروا إلى ذلك، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر، أكرههم له، قبل أن يقع فيه، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[٥٢٥]

وعن عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ بعثه على الصدقة، فقال:

«اتق الله يا أبا الوليد اتق الله لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج»[٥٢٦]

قال: يا رسول الله، إن ذلك لكذلك؟ قال:

«إي والذي نفسي بيده إن ذلك لكذلك إلا من رحم الله ﷻ»،

قال: والذي بعثك بالحق لا أعمل على اثنين أبدا.[٥٢٧]

---

٥٢٣ البخاري، الأحكام، ٨/ ٧١٥١؛ مسلم، الإيمان، ٢٢٧–٢٢٨، الإمارة، ٢١.

٥٢٤ مسلم، الإيمان، ٢٢٩/ ١٤٢، الإمارة، ٢١/ ١٤٢.

٥٢٥ البخاري، مناقب الصحابة، ١/ ٣٤٩٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٩٩/ ٢٥٢٦.

٥٢٦ الرغاء: صوت البعير، والخوار: صوت البقر، والثؤاج: صوت الغنم .

٥٢٧ علي المتقي، كنز العمال، ٦، ٥٦٩/ ١٦٩٥٦.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«تعلموا أمور الدين قبل الولاية»

ويفسر سفيان بن عيينة قول عمر رضي الله عنه فيقول:

«فمن تعلم أمور الدين حتى أدق تفاصيله نُزِعَ من قلبه حب الولاية والرئاسة»[٥٢٨]

فينبغي أن لا نكون طالبين للإدارة وإنما مطلوبين لها، كما أنه يجب على من اُضطر للإدارة بعدم توفر من هو أهل لها أن يتقيَ الله لأن مسؤولية الإدارة مسؤولة كبيرة جدًا، فكما أن الأجر والثواب كبير في هذا العمل، فكذلك العقابُ أيضًا شديد في حال الغفلة عن جدية هذه المسؤولية.

وعلى من كان مسؤولًا عن فئات مختلفة من الناس أن يعدل بينهم دون تفضيل أحدهم على الآخر، وأن يحل مشكلاتهم، وأن يعاملهم بمحامد الأخلاق والصفات، وأن يجتهد فيما يصلحهم متخذًا النبي ﷺ قدوة في الإدارة والمسؤولية.

والمسؤولية توجب التفاهم والتسامح لدرجة قصوى، فإن كانت معاملة المسؤولين للأشخاص الذين يديرونهم سيئة فسوف يحاسبون حسابًا عسيرًا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به»[٥٢٩]

كما ينبغي على المدير والمسؤول أن يؤدي عباداته بأفضل شكل، ويدع بابه مفتوح دائمًا ليسهل الوصول إليه، أما من أغلق بابه دون المظلومين والمحتاجين فستُغلَق جميع أبواب الرحمة دونه عندما يكون بأمس الحاجة إليها في يوم القيامة، وسيُحرم من كرم الله تعالى ورحمته اللامتناهية المحيطة بجميع خلقه تعالى.

---

٥٢٨ ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت ١٩٧٩، ٢، ٢٣٦.

٥٢٩ مسلم، الإمارة، ١٩/ ١٨٢٨؛ أحمد، مسند، ٦، ٩٣، ٢٥٨.

ذكر النبي ذلك في الحديث الشريف فقال:

«ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة، والخلة، والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته، وحاجته، ومسكنته»[٥٣٠]

«مَنْ وَلَّاهُ الله ﷻ شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم، وخلتهم وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وخلته، وفقره»[٥٣١]

فلم تُخلق الحياة الدنيا لنغيب في لذاتها الفانية عن حقيقتها، وإنما مهلة ومدة مُنحت لجمع متاع الآخرة وكسب الحسنات من الأعمال الصالحة، وأعمال الخير من الصدقات الجارية، فقد قال أحدهم في هذا المقام:

«مهما واجهتك من صعوبات في طريق السعادة الأبدية فتحملها، فستتلاشى الصعوبات يومًا وتبقى السعادة، فإن أذنبت سعيًا وراء الشهوات الفانية، فستذهب الشهوات ويبقى العذاب والجزاء».

يجب على الجميع وعلى رأسهم الإداريين أن يكونوا مدركين لهذا المقام، فيبتعدوا عن المنافع النفسية والشخصية، ويسعوا وراء الأجر والثواب والراحة النفسية بخدمة الناس معطين مقامهم حقه.

وعلى المسؤول أن يبتعد عن المفاخرة، فقد قال أحدهم:

«المفاخرة تبعد عن الآخرة».

فعلى الإنسان أن يتفكر جيدًا، من أين أتى وإلى أين يمضي؟ وأن يتذكر الموت ويأخذ العبرة من عاقبة الأقوام السابقة، ولا ينسى أن النعم في الدنيا فانية وليست أبدية، وأن وجوده فيها إنما هو مدة يسيرة للامتحان، وسيرحل عنها.

يقول النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم:

---

٥٣٠ الترمذي، الأحكام، ٦/ ١٣٣٢.

٥٣١ أبو داود، الخراج، ١٢– ١٣/ ٢٩٤٨.

«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا...»[٥٣٢]

كما يجب على المسؤول أن يقضي وقته بأهم وأنفع الأعمال، وأن يكون هادئًا، ذا تقوى وعدالة وقناعة، يعمل على إصلاح نفسه ويحث الناس الذين تحت إمرته على عمل الخير، فالعامة يتصرفون وفقًا للمسؤول عليهم، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

«لا يستقيم الناس حتى يستقيم الوالي»[٥٣٣]

فعلى الوالي الذي يحمل مسؤولية العامة أن لا يسعى لراحته النفسية بل أن يقضي نهاره في خدمة العباد والقيام على ما يصلحهم، وأن يقضي ليله بالعبادة والتفكر، فكثرة النوم تورث الكسل، وتترك الإنسان محرومًا يوم القيامة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول في هذا:

«قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة»[٥٣٤]

وينبغي ألا يغفل المسؤول عن الفقراء والمحتاجين الذين تحت رعايته، ويجب عليه أن يسأل عنهم دائمًا، فكسب محبة الناس طريق إلى كسب رضا الله تعالى، فعن جابر بن عبد الله قال:

«كان النبي ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم»[٥٣٥]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد رعيته، فيتجول في أحياء المدينة المنورة، بل ويتجول بين المدن يتفقد أحوال الرعية، ويجيب مسألتهم ويقضي حاجتهم.

---

٥٣٢ مسلم، الذكر، ٩٩/ ٢٧٤٢.

٥٣٣ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٧، ص٢٢٣.

٥٣٤ ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٧٤/ ١٣٣٢.

٥٣٥ أبو داود، الجهاد، ٩٤/ ٢٦٣٩.

وفي هذا الخصوص يذكر يوسف خاص حاجب في كتابه الشهير قوتادغو بيليك «Kutadgu Bilig» الذي قدمه لحاكم العصر الحادي عشر كراهانلي بعض الوصايا للمسؤولين:

«افتح عينيك! فإن بات أحد سكان بلدتك جائعًا فسوف تحاسب بين يدي الله تعالى».

«أيها الحاكم، أنت اليوم طبيب وأهل بلدتك مرضى يحتاجون إليك، بعضهم سيء الحظ قد وقع في ضيق، وبعضهم فقير قد غرق في مصائبه، أما البعض الآخر فجائع، والآخر عارٍ، وبعضهم تائه في قلقه، ودواء جميع هؤلاء عندك، فكن طبيبهم، أعطهم الدواء وداوهم، فإن لم تداوهم ولم تعطهم الدواء فستكون كارثة حياتية بالنسبة للعامة».

«أصل السيادة الحيطة والحذر، فإن كنت تريد دنيا أخرى فستجدها في هاتين».

«لا تعطي طامعًا مكانًا في البلدة! فإنه لا شك سيخرب نظام الحياة فيها».

«لا تبحث عن مصلحتك، وفكر في مصلحة العامة، فمصلحتك في مصلحة العامة».

«الحاكم سعادة للعامة، ولا يسعد العامة ببطون خاوية».

«أقم نظامًا يؤمّن السعادة والطمأنينة للعامة ليدعوا لك بالخير».

«لا تحمّل حِمل الأغنياء على متوسطي الحال! وإلا سيسوء وضعهم، وتهتز وحدة الجماعة، ولا تحمّل حمل متوسطي الحال على الفقراء، وإلا تضور الفقراء جوعًا وازدادوا سوءًا، فإن أصبح وضع الفقراء متوسطًا، سيصبح متوسطو الحال أغنياء، فإن أصبح متوسطو الحال أغنياء أصبحت البلدة غنية».

«الوزارة وقيادة الجيش مهمان جدًا، لأن أحدهم يمسك سيفًا والآخر يمسك قلمًا، فمن أخذ البلدة أخذها بالسيف، ومن أمسك البلدة أمسكها بالقلم، فيمكن

أخذ بلدة بالسيف بسهولة، ولكن إن لم يكن هناك قلم فلن يستطيع إمساكها والحفاظ عليها».

«إذا كان قائد الجيش مغرورًا فسيُضرَب من قِبل العدو دون شك، فالمرؤ المغرور يهمل والمهمِل إما يفسد أو يُعجل بموته».

«أيها الحاكم للبلاد! لا تبني قصورًا، فبيتك جاهز تحت التراب، والقصور العالية المزخرفة ستبقى هنا، وأنت ستدخل بيتك في ظلمة التراب».

«أيها الحاكم! لا تخدع نفسك وتثق بالراحة التي أنت فيها! فهذا يوقعك في الغفلة، لا تنس أن جسمك المكسوَّ بالحرير سيستلقي تحت التراب، وأنك ستنزل يومًا من الحصان الأصيل وتركب قطعة من خشب الشجر!».

وختامًا...

فيجب على المسؤول أن ينطوي على جميع الصفات الحسنة في نفسه، وأن يبتعد عن البخل ويكون طلق اليد كريمًا، فالخسيس يعيش حياة الفقر في الدنيا، ويحاسب يوم القيامة حساب الأغنياء، وعلى المسؤول ألا يكون شديدًا قاسيًا وذا أخلاق سيئة، وأن يكون طبيب قلوب حاذق، ذا أخلاق حميدة، يفهم لغة رعاياه، يعزي المحزونين ويجبر خاطرهم.

صور الفضائل

قال حذيفة رضي الله عنه:

«دخلت على عمر فرأيته مهمومًا حزينًا، فقلت له: مايهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيمًا لي، فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، ففرح عمر وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحابًا يقوموني إذا اعوججت»[٥٣٦]

٥٣٦ ابن أبو شيبة، المصنف، ٨، ١٥٤.

ويقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

«رحم الله امرءًا أهدى إليَّ عيوبي»[٥٣٧]

❁

كان عمر رضي الله عنه مع أهله قويًا، فكان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم ونجاحهم وفلاحهم، بدأ بأهله، وتقدم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمره، فكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال:

«إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة»[٥٣٨]

❁

في إحدى الليالي كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدور حول المدينة ليتفقد أحوال الرعية، فرأى خيمة لم يرها من قبل فأقبل نحوها متسائلًا ما خبرها، فسمع أنينًا يصدر من الخيمة فازداد همّه، ثم نادى فخرج منها رجل.

فقال: من أنت؟

فقال: أنا رجل من إحدى نواحي البادية، وقد أصابتنا الحاجة، فجئت بأهلي نطلب رفد عمر، فقد علمنا أن عمر يرفد ويراعي الرعية،

فقال عمر: وما هذا الأنين؟

قال: هذه زوجتي تتوجع من ألم الولادة،

فقال: وهل عندكم من يتولى رعايتها وتوليدها؟

قال: لا!! أنا وهي فقط.

فقال عمر: وهل عندك نفقة لإطعامها؟

---

٥٣٧ السيوطي، تاريخ الخلافةن، ص١٣٠.

٥٣٨ الحكمة في الدعوة إلى الله، ١، ٢٢٧؛ ابن أبو شيبة، المصنف، ٦، ١٩٩/ ٣٠٦٤٣

قال: لا.

قال عمر: انتظر، أنا سآتي لك بالنفقة وبمن يولدها.

وذهب سيدنا عمر إلى بيته، وكانت فيه زوجته سيدتنا أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.فنادى : يا ابنة الأكرمين..هل لك في خير ساقه الله لك؟

فقالت: وما ذاك؟

قال: هناك مسكينة فقيرة تتألم من الولادة في طرف المدينة،

فقالت: هل تريد أن أتولى ذلك بنفسي؟

فقال: قومي يا ابنة الأكرمين وأعدي ما تحتاجه المرأة للولادة.

وقام هو بأخذ طعام ولوازم الطبخ وحمله على رأسه وذهبا.وصلا إلى الخيمة، ودخلت أم كلثوم لتتولى عملية الولادة، وجلس سيدنا عمر مع الرجل خارج الخيمة ليعد لهم الطعام.خرجت أم كلثوم من الخيمة تنادي:

يا أمير المؤمنين، أخبر الرجل أن الله قد أكرمه بولد وأن زوجه بخير،

عندما سمع الرجل منها قولها «يا أمير المؤمنين» تراجع إلى الخلف مندهشًا، فلم يكن يعلم أن هذا عمر بن الخطاب، فضحك سيدنا عمر، وقال له:

اقترب.. اقترب.. نعم أنا عمر بن الخطاب، والتي ولدت زوجك هي أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب.

فخرّ الرجل باكيًا وهو يقول:

آل بيت النبوة يولدون زوجتي؟ وأمير المؤمنين يطبخ لي ولزوجتي؟

فقال عمر: خذ هذا وسآتيك بالنفقة ما بقيت عندنا. [٥٣٩]

نفهم من معاملة سيدنا عمر الراقية هذه إلى أين تمتد مسؤولية الوالي على رعيته.

❀

٥٣٩ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر، ص ٩٥-٩٦.

عن الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب ﵁ في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو متحجز بعباءة يهنأ بعيرا من إبل الصدقة فقال: يا أحنف ضع ثيابك وهلم وأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفيك هذا؟ فقال عمر ﵁:

«يا ابن فلانة وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس هذا، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة».[540]

❀

ويروي علي ﵁ هذه القصة فيقول:

تطلعت ذات يوم من من باب غرفتي، فوجدت عمر يشدُّ ـ أي يركض ـ خلف جمل هارب، والجمل يشد وعمر يشد، فعلمت أنه يتبع جملًا هاربًا من إبل الصدقة، فرفعت صوتي مناديًا عليه: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين، قال عمر: أنت لا تكفيني يوم القيامة، فتبعه فأعاده رغم أنفه.[541]

يقول عمر ﵁ عن الصفات التي يجب أن يتصف بها المسؤول تجاه الناس:

«لا تكون الولاية على الناس إلا بـ: لين لا يتبعها تراخي، وقسوة لا يتبعها ظلم وجور».

❀

يحدث السائب بن يزيد عن ثقل حمل الولاية التي كان يحملها سيدنا عمر ﵁ قائلًا:

---

٥٤٠ علي المتقي، كنز العمال، الترغيب في الإمارة، ٥، ٧٦١/ ١٤٣٠٧.

٥٤١ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر، ص ١٥٣.

«رأيت رداء على أمير المؤمنين في عام القحط، وكانت قد رقعت ست عشرة رقعة، وكان يدعو: اللهم لا تعذب أمة محمد بسبب ذنوبي»[٥٤٢]

«لما صدر عمر بن الخطاب ﵁ عن منى في آخر حجة أناخ بالبطحاء، ثم كوم كومة ببطحاء، ثم طرح عليها صنفة ردائه، ثم استلقى ومد يديه إلى السماء، فقال:

«اللهم كبر سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط»[٥٤٣]

❀

وعن ابن عمر ﵄ قال:

«قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك، إني لأراك أم سوء ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، إني أريغه عن الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرا، قال: ويحك لا تعجليه فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر مناديا فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق»[٥٤٤]

---

٥٤٢ ابن سعد، الطبقات، ٣، ٣٢٠.

٥٤٣ مالك، المؤطأ، الحدود، ١٠؛ الحاكم، المستدك، ٣، ٩٨/ ٤٥١٣.

٥٤٤ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣، ٣٠١؛ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر، ص ٧٧.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ينشغل برعيته الذين يعيشون بعيدًا عن مركز المدينة أيضًا، وكان يقول:

«لو أن شاة عثرت في العراق لخشيت أن يحاسبني الله عنها»[٥٤٥]

وكان ﷺ يخشى ألا تصله شكوى وضيق الناس من رعيته البعيدين عنه، لهذا كان كثيرًا ما يخرج من المدينة ليتفقد أحوالهم عن قرب، مع ذلك لم يكفّ عمره للتجول في بعض المناطق، والسفر إلى مدن أخرى، وتوفي قبل أن يصل إلى تلك الأماكن.

❀

روي أن عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة بدأ بعائلته فاستدعى زوجته فاطمة، بنت الخلفاء، وأخت الخلفاء، وزوجة الخليفة، فقال لها:

«يا فاطمة، إني قد وليت أمر أمة محمد ﷺ، فإن كنت تريدين الله والدار الآخرة، فسلّمي حُليّك وذهبك إلى بيت المال، وإن كنت تريدين الدنيا، فتعالي أمتعك متاعًا حسنًا، واذهبي إلى بيت أبيك»

قالت: «لا والله، الحياة حياتُك، والموت موتُك»

وسلّمت متاعها وحليّها وذهبها، فرفَعَه إلى ميزانية المسلمين.

وفي رواية أخرى أن زوجته فاطمة بنت عبد الملك دخلت يومًا عليه وهو جالس في مصلاه واضعًا خده على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقالت له: ما لك؟ فقال:

«ويحك يا فاطمة! قد ولّيت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال

---

٥٤٥ ابن أبو شيبة، المصنف، حيدرأباد ١٩٧٦، ٨، ١٥٣.

الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت»[٥٤٦]

قالوا لامرأته فاطمة بعد أن توفي: نسألك بالله، أن تصِفي عمر؟ قالت: والله ما كان ينام الليل، والله لقد اقتربت منه ليلة فوجدته يبكي وينتفض كما ينتفض العصفور بلَّله القطْر، تقول امرأته: حين كنت أراه على هذه الحال كنتُ أقول: ليته لم تودع إلينا الولاية، ليتها ابتعدت عنا بُعد الشمس عن الدنيا.

❀

ومن النصائح التي قدمها الشيخ «EDEBALİ» أديبالي للسلطان عثمان الغازي ولجميع رجال الدولة قوله:

«يا بني! أنت الآن سيد! والغضب بعد الآن منا، والحلم منك... الاتهام منا، والتحمّل منك... العجز منا، والخطأ منا، والمسامحة منك... النشوز، والشِجار، والتطاول منا، والعدالة منك... سوء الظن، والثرثرة، والرأي غير المنصف منا، والعفو منك...

يا بني! من الآن فصاعدًا الفرقة منا والجمع منك... التكاسل منا، والتنبيه، والتشويق، والحث منك...

يا بني! حِملك ثقيل، وعملك شاق، وقوتك متعلقة بشعرة... كان الله في عونك، وبارك لك في ولايتك، وسخرك في طريق الحق للخير، أضاء نورك، ونشرها للبعيد، ووهبك قوة تحمل حِملك، وعقلًا يثبت قدمك، علينا أن نفتح الطريق لما وُعدنا به بسيفك أنت وولاتك، وبرأي وفكر ودعاء المساكين أمثالنا، فلابد أن نفتح ما احتُقن.

---

٥٤٦ ابن كثير، البداية، مناقب عمر بن عبد العزيز، ٩، ٢٠١، ٢٠٨.

يا بني! أنت ذو قوة ومتانة وعقل ولسان... لكن إذا لم تعرف متى وكيف تستخدمها، فستذهب في مهب الريح! يجتمع غضبك مع نفسك فيغلبان عقلك! لهذا كن صبورًا دائمًا! ذا ثبات وإرادة!...

الصبر هام جدًا، ولا بد للسيد أن يعرف كيف يصبر، فالزهر لا يتفتح قبل أوانه، والكمثرى التي لم تنضج لا تؤكل، وحتى لو أُكلت تبقى غصّة في حلقك، والسيف الجاهل مثل الكمّثرى غير الناضجة.

لتحيَ أمتك في عِرفانك، لا تردها، واشعر بوجودها دائمًا، والعرفان هو من يوجه المجتمع ويثبته.

يا بني! هناك ناس يلدون مع شروق الشمس ويموتون مع أذان المغرب، فالدنيا ليست كبيرة كما تراها عيناك، فكل الخفايا التي لم تُفتح، والتي لم تُعرف لن تظهر إلا بعدالتك وفضيلتك.

احترم أمك وأجدادك! واعلم أن البركة مع المسنين.

إن فقدت اعتقادك في هذه الدنيا، فستجِفّ خضرتك وتتحول إلى صحراء.

كن يقظًا! لا تتحامل على كل ما يُقال لك! لا تقل ما رأيت، ولا تذكر ما عرفت! ولا تذهب إلى المكان الذي تحبه كثيرًا، فتُسيء إلى سمعتك ومحبتك.

كن أرحم لهؤلاء الثلاثة: العالم بين الجهلاء، ومَن افتقر بعد غنى، مَن ذلَّ بعد عزّ.

لا تنس! من كان في العُلا لن يكون آمنًا كمن في الدُنى.

لا تخش من المخاصمة التي تكون فيها على حق! واعلم أنه يقال للحصان الأصيل كميت، وللشجاع الأصيل مجنون «جريء، جَسُور ومتهور».

النصر الأكبر هو معرفة النفس، فالعدو هو نفس الإنسان، أما الصديق فهو من يعرف نفسه.

الدولة ليست مالًا مشاعًا يتقاسمها أبناء وإخوة الوالي، الدولة هي للوالي فقط، فمن تولاها بعد موته تكون الولاية في يده، فمِن أجدادنا المخطئين قسّموا الدولة بين أبنائهم وإخوتهم في حياتهم، لهذا لم يستطيعوا العيش، وخربوا عيش الآخرين.

إذا جلس الإنسان مرة، فلن يستطيع القيام بسهولة، والمرء يتخدر إن لم يتحرك، وإذا تخدر بدأ بالكلام والكلام يقود للثرثرة، وإذا بدأتِ الثرثرة فلن يفلح أبدًا، يصبح الصديق عدوًا، ويتحول العدو إلى وحش...

قوة الشخص ستنتهي يومًا، لكن المعرفة تبقى، ونور المعرفة يتغلل إلى الباطن ويضيء بنوره حتى عبر العيون المغمضة.

يموت الحيوان ويبقى سرجه، يموت الإنسان ويبقى أثره، لا يُبكى على من ذهب بل على من لم يبق له أثر... فذكر الشخص يدوم مع ما تركه خلفه.

لا أحب الحرب، ولا يعجبني سفك الدماء، مع ذلك أعلم أنه لا بد للسيف أن يعلو وينزل، لكن لا بد أن يكون هذا العلو والانخفاض لنشر الحياة، ورفع الشخص سيفه على الآخر جرم كبير، الوالي لا يلي ما بَعُد عن دولته، ولا تُشَن الحرب لأجل الوالي فقط.

ليس لنا حق في التوقف والاستراحة، لأن الوقت قصير، والزمن لا يكفي!..

الوحدة للذي يخاف، فالفلاح وقت زراعة الأرض لا يستشير غيره حتى لو كان وحيدًا، ويكفي أن يعرف صلاح أرضه للزراعة.

يجب أن يكون الحب أساس الدعوة، أما المحبة فبالهدوء، فالحب لا يكون بالصراخ،كما لا يكون بالمظاهر.

من لم يعرف ماضيه لن يعرف مستقبله، يا عثمان! اعرف ماضيك جيدًا لتتقدم إلى مستقبلك بثبات! ولا تنس من أين جئت، كي لا تنسى إلى أين سترحل!...».

عندما اقتربت وفاة عثمان الغازي، أشار بيده ليجلس أورهان الغازي بجانبه، وأعلمَ مَن حوله أنه عيّنه مكانه، أمر أبناءه وقواده أن يطيعوه ويبايعوه، بعد ذلك قام بتنبيهه الأخير لأورهان الغازي بهذه الوصية التي كانت في الرسوم الرسمية للدولة العثمانية.

«يا بني، إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله، اسأل أهل العلم عما جهلته وتعلَّمه! ولا تحاول أن تقوم بأمر حتى تعلمه جيدًا! لا تبخل على جنودك بالإحسان والإكرام! واعلم أن الإنسان عبد الإحسان.

يا بني! اجعل أمور الدين في المقدمة! لأن إقامة الفرض ووضعه في مكانه يُقوي الدين والدولة! لهذا احترم العلماء ولا تبخل في رعاية حقوقهم، ولتُؤدِّ أمور الدين في محلها.

أينما سمعت بعالم فارغب إليه، وأظهر له اللين والإقبال! وإياك أن تُقرِّب إلى أمور الدولة مَن لا يحرص على الدين، ومن يعيش حياة السفهاء، ومن ليس له تجربة! فمن لا يخشى الخالق لا يرحم المخلوق!

ابتعد عن الظلم والبدعة، كي لا يجروك إلى السقوط!

اعلم أن غايتنا هي السعي في سبيل الله، ومقصدنا إحياء دينه.

قضيتنا ليست قضية نزاع عابث أو هوس بالبطولة، وإنما إعلاء كلمة الله، أرجو من الله أن لا يقبض روحي إلا وأنا ساع بروحي ومالي في سبيله.

يا بني، من ضل عن الطريق الصحيح وعن العدالة من سلالتي، أرجو أن يُحرم من شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام...

يا بني، كن وفيًا دائمًا للمخلصين من الرجال الذين قضوا عمرهم في خدمة الدولة طلبًا لرضا الله ﷻ، راعهم، واعتن بعائلاتهم بعد وفاتهم!

أكثر من الإحسان والإكرام والاحترام للعلماء الصالحين ذوي الفضل الذين يقدمون القوة المعنوية للدولة، وإذا علمت بوجود عالم أو عارف أو ولي

في دولة أخرى فادعه إلى دولتك بلطف ووقار! فشؤون الدين والدولة إنما تستقيم بهم!

احذر من الغرور بجيشك أو مالك! وخذ العبرة من حالي هذه، فقد سقطت ضعيفًا بلا حول ولا قوة، وقد أكرمني الله تعالى بفضائل شتى أكثر مما أتمنى.

أنت أيضًا اسلك دربي! وارع حقوق الله والعباد! واقنع بدَخْل محدد من بيت المال! ولا تصرف إلا لاحتياجات الدولة! ولتكن مثلًا للجيل الذي سيتبعك! ولا تعط الظلم مكانًا! وكن على عدالة ورأفة دائماً! والجأ إلى الله في كل شيء، اطلب العون منه واتخذه موئلًا!».

❀

يعتبر محمد الشّلبي المؤسس الثاني للدولة العثمانية، لأنه حفظ الدولة من النزاعات الداخلية والأخوية وأوصلها إلى بر الأمان، وأصبح وهو شاب طريح الفراش من الآلام الثقيلة التي أصابته، وكان يوصي وزراءه إلى آخر نفس له حاملًا حِمل الدولة على عاتقه:

«أرسلوا في طلب ابني الكبير مراد حالًا، فليحضر إلي! فلن أنجو من هذا الفراش بعد الآن، فإن مت قبل أن يصل مراد فلا تخبروا بموتي أحدًا، وإلا عمّت الفوضى في البلاد، وبدأ سيل دماء الأخوة من جديد!.».

هذا السلطان الذي كان مجهزًا لمسؤولية عظيمة كهذه توفي وهو في مقتبل شبابه، ووفقًا لوصيته انتظروا ابنه لرفع جنازته، إذًا هو خدم الناس والدولة حتى بجسده.

❀

بيازيد خان الثاني أيضًا كان سلطانًا واليًا صاحب مسؤولية كبيرة، وقد نصح وزراءه مبيِّنًا مدى ثِقل الحِمل الذي على عاتقه، قائلًا:

«أيها الوزراء والولاة! لا بد أنني سأُسأل يوم القيامة عن جميع أحوال الرعية الذين تحت إمرتي، سمعت أنكم قمتم بإيجاد بعض من أنظمة غير إسلامية على بابي! هل تعلمون أنكم بهذا لا تتركون لي مكانًا للراحة في يوم القيامة! كيف سأحساب عنها يوم الحساب؟ احذروا من القيام بأعمال لا ترضي الله ﷻ!.».

❁

وعندما توفي سلطان سليمان القانوني، أُحضِر صندوق وأرادوا أن يضعوه في القبر ـ حسب الوصية ـ كما قِيل، إلا أن شيخ الإسلام أبو السعود أفندي حال دون ذلك، وبيّن أنه لا يجوز أن يوضع شيء ثمين في القبر مع الجنازة، وعندما علم أبو السعود أن هذه وصية السلطان قبل وفاته بيوم، فتح الصندوق بتشوّق، ووجد الفتاوى التي قدمها للسلطان، ودُهش متحيرًا، وقال وهو يبكي حزنًا:

»لقد نجوت بنفسك! ماذا سنفعل نحن اليوم!؟.».

وكان القانوني لا يقدم على أمر إلا بفتوى من أبي السعود أفندي.

❁

لا بد للإداري أن يعرف قيمة شعبه، ويعطيهم حقوقهم.

سأل سليمان القانون يومًا المقربين إليه: مَن ولي نعمة الناس!

أجاب الجميع بصوت واحد: طبعًا سلطان وملك البلاد سلطاننا الوالي.

لم يعجب الوالي بهذا الكلام، وقال رافضًا هذا: في الحقيقة! ولي النعمة هم الشعب، فقد حرّموا على أنفسهم الراحة جاهدين بالعمل في الزراعة، ويطعموننا بما يكسبون من نعم.[٥٤٧]

❁

٥٤٧ دفتر دار صاري محمد باشا، نصائح الوزراء والأمراء، اسطنبول ١٩٨٧، ص ٩٥.

عندما تم الاستيلاء على قلعة أوزي تأثر السلطان عبد الحميد خان الأول كثيرًا، وشعر بمصيبتهم في أعماقه قائلًا: تمزق أبنائي الجنود وشعبي البريء، ولم يتحمل هذا الألم أكثر وتوفي بعد ذلك بفترة قصيرة.

هذا هو الشعور بالمسؤولية وقوة الإيمان التي تُذيب القلب بالآلام وجعلت صرخة الألم تودي بحياة سلطان عظيم...

❁

اشترى رجلٌ حصانًا، فمات الحصان بعد ثلاثة أيام رغم أنه كان في غاية القوة، فشك المشتري في الرجل الذي باعه الحصان بأنه أعطاه سُمًّا طويل الأمد جراء عداوة بينهما، ومع أنه ذهب ثلاثة أيام متتالية لم يجد القاضي، فأخذ الحصان إلى البيطري لإجراء فحص له، وكانت النتيجة من الفحص تثبت ما كان يشك به، وعندما ذهب بعد فترة إلى المحكمة وجد القاضي، وشرح له القضية، وعندما قال له القاضي: لماذا لم تحضر إليّ أولًا وذهبت إلى البيطري؟ لو حضرت إلينا أولًا لَوجدنا الحل بينما كانت القضية جديدة!

أجاب المدّعي: جئت إلى المحكمة ثلاثة أيام متتاليات لكنكم لم تكونوا موجودين!

ردّ عليه القاضي: أنت على حق، عندما جئت لم أكن في المحكمة، وكنت في بلدي لأن أمي توفيت...

عمّ الصمت لحظات وبعد تفكير التفت للكاتب وقال له: القضية واضحة، اكتب! يُضمّن القاضي بالضرر لأنه لم يكن في مكان وظيفته وقت الحادثة...

❁

وختامًا...

فإن الإدارة عمل صعب وخطير كما لو أن السيف على الرقبة، لأنه يُنص موضوع حقوق المسؤول عنهم فردًا فردًا، وهذا يعني أنه مع حقوق العباد وجهًا

لوجه دائمًا، وبهذا فهي مهمة لا يُرغب بها، لكن إذا كان الشخص أهلًا لهذه المهمة في وقت انعدم فيها من هو أهله فلا بد أن يحمل المسؤولية بكل أمانة ويعمل على أدائها كما يجب، وعندها لا ينساه الله من عونه.

وحتى لا ينجرف المسؤول الإداري لأي ظلم أو هوى نفسي يجب أن يفكر بالموت باستمرار، ويضع الحياة الآخرة نصب عينه.

ولا ننس هذه النصيحة التي قدمها الفضيل بن عياض لهارون الرشيد: أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل.

وعمر ﵁ رغم أنه كان شديد الحساسية في الإدارة ومثالًا للعدالة، فقد كان يقول قبل موته أنه لا يتأمل أي ثواب من الله ﷻ بسبب الولاية التي تولاها، وكان يرجو أن يكون قد عدل في أعمال الخير التي قام بها خلال خلافته.

إلا أن الذين مدحوه لعدالته ذكروا أنه كان يقول:

«لا أرجو الثواب من الله في هذا الأمر ويكفي ألا يحاسبني» [٥٤٨]

عن عمرو بن ميمون، قال:

«لمّا طُعن عُمر ﵁، دخل عليه شابٌّ، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، كان لك من القدم في الإسلام ما قد علمت، ثم استخلفت فعدلت، ثم الشهادة بعد هذا كله، فقال: ليتني يا ابن أخي وذلك كفافا لا علي ولا لي».[٥٤٩]

فكلمات عمر الأخيرة تبين كم هي أمانة ثقيله هذه المسؤولية، كما تعرض حسّ المسؤولية لدى شخصية إسلامية مُثلى.

٥٤٨ أبو نعيم، الحلية، ٦، ٣٨٠؛ البيهقي، الشعب، ٦، ٣٥.

٥٤٩ انظر: البخاري، ٢، ١٠٣/ ١٣٩٢.

٧ ـ النظر للمخلوقات بعين الخالق

النظر للمخلوقات بعين الخالق فضيلة لا تتحقق إلا بوصول الروح إلى قمة الكمال، فهي ثمرة مقام الحب الإلهي المكتسب من الذكر والتفكر والمراقبة، فالمدركون للحب الإلهي، يحسون بجميع المخلوقات، وينظرون إليها بعين الخالق.

فالنظر للمخلوقات بعين الخالق إنما هو نتيجة التخلق بالأخلاق الإلهية، فالذين يعيشون في أجواء الحب والرحمة والعفو الإلهي التي ترقى بالعبد يقومون بنشر الرحمة على جميع المخلوقات متّسمين بهذه الأوصاف، ويعاملون الكائنات احترامًا لأصلهم، فينظرون إلى الإنسان بأنه: «خليفة الله في الأرض»، كما ينظرون إليه بإدراكٍ للسر الإلهي المتصف به، ومهما غرق في أخطائه وذنوبه فلا يُعرِضون عنه لأنهم ينظرون إلى كرامة أصله، وكما قال يونس امره: «كن مسامحًا للمخلوق نظرًا لخالقه»، فيتصرفون بتفهّم معه ويعملون جاهدين لتوجيهه إلى التوبة والهداية.

ونجد هذا الأسلوب محفوفًا بالبركة والرضا الإلهي، إضافة إلى إنه ينمي الصفات الحميدة المركوزة في الإنسان.

فـ«النظر إلى الخلق بعين الخالق» - الذي يشكل أصل التصوف- يجعل من أفئدة المؤمنين -الذين تخلقوا به كما ينبغي- ملجأ للرحمة، ومأوى للشفقة، وكفها للمساكين والمظلومين والضعفاء في الأوقات الصعبة.

صور الفضائل

عندما لقي أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام المشركين في غزوة بدر، أرسلَ النبي ﷺ رسولًا إلى المشركين قبل بدء الغزوة لينذرهم للمرة الأخيرة، فلما نزل أقبل نفر من قريش حتى وردوا ذلك الحوض، منهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ:

«دعوهم، فما شرب منه رجل يومئذٍ إلا قُتل كافرًا إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر»[٥٥٠]

كان حكيم بن حزام قريب السيدة خديجة ﵂، وكان كريمًا، رحيمًا، صاحب خير وإحسان، وكان يشتري البنات اللواتي أراد آباؤهن دفنهن أحياءً، ويعتني بهن، وجاء يومًا إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ:

«أسلمت على ما سلف من خير»[٥٥١]

وكما نرى في المثال السابق فإن النبي ﷺ يعلمنا دستورًا إنسانيًا ومنهجًا دعويًا بسماحه لأعدائه الذين سيحاربهم بعد قليل بالشرب، وكم من قلوب لانت بعد قسوة، وأُضيئت بنور الهداية والإيمان نتيجة معاملاته الرائعة كهذه، وكم من قلوب ميتة عادت للحياة نتيجة هذه الرحمة الراقية النابعة من نظره إلى المخلوقات بنظرة الخالق، ونجد ذلك في قولهم: كن سببًا لحياة العدو الذي يأتي لقتلك.

وقد كرّم المولى جل وعلا حكيمًا بدولة الإيمان تكريمًا له لتمكنه من النظر إلى المخلوقات بعين الخالق، عين الشفقة والرحمة.

❁

قطع ثمامة بن أثال سيدُ اليمامة علاقاته التجارية مع مشركي أهل مكة عندما أسلم، علمًا بأن قريش كانت تحصل على كل أرزاقها واحتياجاتها من اليمامة، فقصد أهلُ مكة النبي ﷺ وقد أحاطت بهم الفاقة والقلة، فكتب النبي ﷺ إلى ثمامة يطلب منه استمرار التجارة.[٥٥٢]

---

٥٥٠ ابن هشام، ٢، ٢٦١.

٥٥١ البخاري، الزكاة، ٢٤/ ١٤٣٦، البيوع، ١٠٠؛ مسلم، الإيمان، ١٩٤-١٩٦.

٥٥٢ ابن عبد البر، الإصابة، ١، ٢١٤ ـ ٢١٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ٢٩٥.

في حين أن أولئك المشركين كانوا قد أذاقوا المسلمين كل أنواع الأذى، من خلال ظلمهم المادي والمعنوي للمسلمين طيلة ثلاث عشرة سنة، وقد تركوهم يعانون الجوع وخاصة في سنوات المقاطعة التي دامت ثلاث عشرة سنة، وكان يسمع بكاء الأطفال من شدة الجوع من الأحياء المجاورة، فعفا رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى على هؤلاء، لأنه متخلقٌ بخُلُق الله تعالى، فينظر إلى المخلوقات بعين الرحمة والشفقة.

❁

أرسل النبي ﷺ عقب فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة، شتى صنوف المساعدات لأهل مكة الواقعين في الجدب والقحط، وقد استلم أبو سفيان تلك المساعدات كلها ووزعها على فقراء قريش، وقد قال والحيرة تلفه من هذا الكرم وهو آنذاك مشرك:

«ليجزي الله ابن أخي خيرًا، فقد راعى حق القرابة»[٥٥٣]

لقد ألانت معاملة النبي عليه الصلاة والسلام قلوب أهل مكة، وكانت سببًا في تيسير دخولهم الإسلام في فتح مكة.

❁

عنْ جبير بن نفير:

لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال:

«ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».[٥٥٤]

---

٥٥٣ تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٩٢، ٢، ٥٦.

٥٥٤ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢١٦-٢١٧.

وقد قال الله تعالى في الآيات الكريمة:

﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾[٥٥٥]

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٥٦]

وكم هي مليئة بالعبر أمثال هذه المواقف والكلمات الدقيقة للصحابة الكرام في حق الأعداء، ومن هنا ندرك أن المسلمين إنما يحاربون ضرورة إيصال الناس إلى السعادة الأبدية، وليس الهدف الانتفاع من خلال إلحاق الأذى بهم.

فلو أن أولئك الناس البائسين دخلوا في دين الله تعالى لغدوا إخوة لأبي الدرداء وكل المسلمين، ولما لحقهم ما لحقهم، إلا أنهم أصروا على عنادهم وحربهم فَغُلبوا، وكان قلب المسلم يبكي لحال هؤلاء الناس المهزومين، لأن القلب المؤمن يبتغي فوز الناس جميعًا ولا يريد الأذى لأحد أبدًا.

❀

كان الإمام الأعظم أبو حنيفة يمنع تلامذته وأقرباءه من مناقشة أمور الأصول والعقائد مع أنه يناقشها في بعض الأحيان، فرأى مرة ابنه حمادًا يناقش في مسألة كلامية، فنهاه عنها، فقال له ابنه:

يا أبتِ، أراك تنهانا عن المناظرة وقد كنت تناظر! فقال له أبوه: يا بني، كنا نناظر وكأن على رأس أحدنا الطير يخاف أن يزلَّ صاحبه، وأنتم تناظرون وكأن على رأس أحدكم الطير مخافة أن يزل هو، فيغلبه صاحبه.[٥٥٧]

❀

٥٥٥ الرعد: ١١.

٥٥٦ الأنفال: ٥٣.

٥٥٧ ابن البزاري، مناقب الإمام الأعظم، ١، ١٢١؛ محمد أبو الزهراء، الإمام أبو حنيفة، تر: عثمان كسكي أوغلو، قونيا ١٩٥٩، ص ٢٩.

بينما كان حضرة مولانا جلال الدين الرومي في مجلس وعظه إذ طلع عليهم سكران، فأراد المريدون إخراجه وقد آذوه بالكلام، فقال مولانا وقد اعتبر لجوء ذاك السكران إلى المجلس بحثًا للحقيقة:

«هو الشارب للخمر إلا أنكم الـمُسْكَرُون» وكان هذا بمثابة إيقاظ لهم.

إن هذا المثال نموذج حي للنظر إلى المخلوقات بعين الخالق، فوظيفة المسلم ليست مقتصرة على ترك المذنب وشأنه وإنما المساهمة في رده إلى الطريق القويم من خلال مد يد العون له.

❀

وفي نهاية المطاف...

إن غاية المسلم تكمن في أن يعيش حياة ترضي الله تعالى من خلال إصلاحه نفسه، ومن ثم العمل بكل ما في الوسع حتى يسلك الناس الطريق القويم ويتبعوه، وأفضل طريق لتحقيق هذا المقصد إنما هو النظر إلى المخلوقات بعين الخالق، والتعامل بالاستقامة.

عند النظر إلى المخلوقات بعين الخالق يسهل تحمّل مشاكل الناس، ومقابلة تصرفاتهم برحمة ومسامحة وإخلاص.

وكما أن الله تعالى يحب الخلق ويعفو عن ذنوبهم رغبة في إدخالهم جنته، فكذلك على المؤمن أن ينظر إلى الخلق بعين الخالق -من خلال التخلق بأخلاق الله تعالى- فيسامح الناس ويساعدهم قدر المستطاع في قضاء حوائجهم، ويعمل جاهدًا لفوزهم برضا الحق تعالى واهتدائهم إلى الطريق المستقيم.

ويسعى جاهدًا لتقربهم من الله تعالى من خلال اتباع أوامره تعالى، ويقدم شخصية مسلمة لا تكون أنانية مُستَأثِرةً، وإنما منفقة ومُؤْثِرة، تفكر في منفعة الجميع.

القسم الثاني

المعاملات



سألت عقلي: ما الإيمان؟

فانحنى هامسًا في أذن قلبي: الإيمان هو الأدب.

حضرة مولانا جلال الدين الرومي

بقي الدين الحق منذ بدء الإنسانية كما هو من ناحية أصل الإيمان وقواعد الأخلاق الأساسية، لكن طرأ عليه تغير في فروع العبادات والمعاملات من نبي لآخر حسب ظروف المجتمع.

إن هذا التغيير الإلهي، إنما ظهر بمقتضى احتياجات الناس وحسب مستوى ثقافاتهم، فما وصل الدين الحق -الذي بدأ أول ما بدأ بالإنسان الأول سيدنا آدم عليه السلام وانتهى بخاتم الأنبياء- إلى شكله المتكامل إلا بالوحي الإلهي، أي إن الإسلام قد وصل إلى ذروة الكمال مع بعثة الرسول الكريم ﷺ سواء بالأخلاق أو بالمعاملات، وهو يعتبر الدين الوحيد المحفوظ أصله وماهيته منذ ما يزيد عن ١٤٠٠ سنة بصَونٍ إلهي.[٥٥٨]

---

٥٥٨ تعد المسيحية أحد الأديان السماوية المعروفة والمستمرة إلى يومنا هذا، وإنما جاءت ببعض الأوامر الأخلاقية فقط باعتبارها قاعدة اجتماعية، حيث كانت دعوة عيسى عليه السلام منحصرة بتبليغ التوحيد وتصفية الأرواح. وبعد ذلك حول الناس هذا الدين القائم على التوحيد إلى دين متأسس على ثلاثة آلهة وهي الإله والابن وروح القدس، حتى غدا لا يعرف أصله الصحيح لكثرة ما دخله من تحريف.

وأما اليهودية فقد بلغ بها التحريف والتبديل حداً يمكن القول فيه بانعدام العلاقة بينها وبين أصلها من الناحية الاعتقادية والمعاملات، مع أنها كانت قد وضعت قواعد في المعاملات، وقد تم تحريف هذا الدين أيضًا بادعاء أن عزير عليه السلام ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومن جانب آخر فقد تم إبعاد هذا الدين من فكرة كونه يلبي احتياجات البشرية، باحتكار اليهودية لبني إسرائيل حصريًا.

والإسلام بكل فروعه يمكن رده إلى ثلاثة أصول:

١ـ عقيدة التوحيد.

٢ـ العبادات.

٣ـ المعاملات «العلاقات البشرية».

المعاملات: هي واحدة من الأنظمة التي يقوم عليها هذا الدين.

ومن المؤسف جدًا أنه ومنذ زمن طويل أهمل مجال المعاملات في الدين الإسلامي العظيم كثيرًا، نتيجة تلقينات سلبية لأناس أصبحوا أسرى للمفاهيم المادية الجافة، لهذا السبب يجب أن يولى تعلُّم المعاملات الأهمية اللائقة لكي يُفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، ثم يطبَّق بشكلٍ صحيحٍ أيضًا، ونحن من أجل ذلك نريد أن نذكر قراءنا الكرام في هذا الخصوص أهميةً بعضِ القواعد في المعاملات.

لقد أعطى الإسلام للمعاملات والعلاقات العامة بين الناس أهمية كبيرة، وقد تم صياغتها في ضوء قواعد الإسلام ومقاصده الكبرى، فكما يجب على المسلم أن يعيش حياته وفقًا للإسلام فكذلك يجب أيضًا أن تكون حياته الاجتماعية ـ يعني علاقته وأسلوبه مع الناس ـ وفقًا لأوامر الله، ولا ينجح المسلم في حياته ولا يصل إلى درجة المؤمن الصالح حق الوصول إلا إذا بذل كل جانب من جوانب حياته للإسلام، ولذلك قال رسولنا الكريم ﷺ:

«**لا يدخل الجنة سيئ الملكة**» [٥٥٩]

قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

«لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا صيامه، وانظروا إلى صدق حديثه إذا حدث، وإلى أمانته إذا ائتمن، وإلى ورعه إذا أشفى» [٥٦٠]

---

٥٥٩ الترمذي، البر، ٢٩/ ١٩٤٦.

٥٦٠ البيهقي، الشعب، ٧، ٢١٧/ ٤٨٩٥؛ السنن الكبرى، ٦، ٢٨٨.

جاء رجل إلى سيدنا عمر ﷺ يمدح رجلًا، فقال الرجل لعمر ﷺ، إن فلانًا رجل صدق. فقال له: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال: فهل كانت بينك وبينه معاملة؟ قال: لا، قال: فهل ائتمنته على شيء؟ قال: لا، قال: فأنت الذي لا علم لك به.[٥٦١]

إذًا، إنما تُعرف ماهية الإنسان بحسن معاملته للناس، وقد عبر ضياء باشا هذه الحالة بإيجاز فقال:

مرآة الشخص قلبُه، ورتبته تظهر في عقله، فلا تنظر فقط إلى كلامه

مما يعني أن المكانة المعنوية التي يصل إليها الإنسان تكون بقدر حسن معاملته مع أفراد مجتمعه.

وعندما نقول مصطلح «معاملات» فإنه تخطر في الأذهان بعض القواعد الأساسية، ونعني بها العلاقات بين الناس من العدالة والعفو ومراعاة حقوق الآخرين والتعاون والتأدب والرفق والاحترام، وباختصار يرد على العقل بعضٌ من الأصول العامة في التعامل بين الناس، فلنقف عند بعض هذه الأقسام:

١ـ العدالة

العدالة لها أهمية كبيرة في نظر الإسلام وتشريعاته، حيث أمرنا الله تعالى بمراعاة العدالة في كل شؤوننا، فعندما يتخذ الناس العدل حكمًا لهم يعيشون حياةَ عبوديةٍ مليئةٍ بالطمأنينة ورضا الله تعالى، وينالون الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وعندما يُنْزَع العدل يستحيل أن تتحدث في العالم عن الحقوق والقانون والإنصاف والتوازن والرحمة، والذين يبتعدون عن العدل بتجاوزهم حدود الآخرين ـ لغفلتهم عن ذلك في الحياة الدنيا ـ سيندمون كثيرًا، وصاحب العدل

٥٦١ الغزالي، احياء علوم الدين، بيروت ١٩٩٠، ٣، ٣١٢.

نفسه والذي يعطينا المعنى الحقيقي للعدل هو الله تعالى، بالعدل اسم من أسماء الله الحسنى.

ثم إن الحق تعالى أرسل الرسل ليُقيموا الحق والعدالة على وجه الأرض وليضعوا حدًا لاضطهاد الظلم والاعتداء على حقوق المظلومين، يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٦٢]

ويقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [٥٦٣]

فالله تعالى هو الصاحب الحقيقي لاسم العدل ويحب الذين يتعاملون بالعدل. [٥٦٤]

قال رسول الله ﷺ:

«إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» [٥٦٥]

«إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر» [٥٦٦]

---

٥٦٢ النحل: ٩٠.

٥٦٣ النساء: ٥٨.

٥٦٤ انظر: الحجرات، ٩.

٥٦٥ مسلم، الإمارة، ١٨/ ١٨٢٧.

٥٦٦ الترمذي، الأحكام، ٤/ ١٣٢٩؛ النسائي، زكاة، ٧٧ .

لا يقتصر عدل المسلم على الحكم فقط بل يتعداه إلى العدل في الوزن والشهادة، فعليه أن يتصف بالعدل في كل الأمور، وأن لا يتخلى عنه في حلمه وغضبه.[٥٦٧]

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٥٦٨]

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٥٦٩]

فالعدل هو الركن الأساسي الذي تعتمد عليه الدول في البقاء، حتى إن الدولة الكافرة تدوم مع العدل، ولكن لا تدوم مع الظلم، وقد قيل في قيام الإدارة بالعدل، العدل أساس الملك.

فيجب أن يعود الحق لصاحبه دون تأخر، فأسوأ العدالة أن تأتي متأخرة ولو أصاب صاحبه آخر المطاف، فهذا يعتبر نوعًا من أنواع الظلم لأنه بسببه يصيب صاحبه الخسارة، قال تعالى:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٥٧٠]

---

٥٦٧ انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٩٠.

٥٦٨ النساء: ١٣٥.

٥٦٩ المائدة: ٨.

٥٧٠ الجن: ١٥.

﴿...وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٥٧١]

﴿... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [٥٧٢]

وقد بين الرسول ﷺ فحش الظلم وفداحته بقوله:

«**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**» [٥٧٣]

وبعض الناس يسترون ظلمهم بذكائهم ومنطقهم الجميل وكلامهم المنمق، ولكن يجب أن يعلموا أنهم لا ينجون من الله أحكم الحاكمين أبدًا، فسيقفون أمام الله تعالى أحكم الحاكمين للعرض على الحساب لا حول لهم ولا قوة، وفي نهاية المطاف لا يجدون منجى من الله ولا ملجأ، يقول النبي ﷺ في بيان هذه العاقبة:

«**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**» [٥٧٤]

«**اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**» [٥٧٥]

ومثّل مولانا –رحمه الله– العدالة والظلم بهذا المثال، فقال:

«ماهي العدالة؟ العدالة أن تسقي الأشجار المثمرة، وماهو الظلم؟ الظلم أن تسقي الأشواك».

«والذي لا يعرف العدالة مثلُه كمثل الماعز التي تُرضع صغير الذئب».

---

٥٧١ البقرة: ٢٧٠.

٥٧٢ غافر: ١٨.

٥٧٣ أبو داوود،الأدب، ٤٣/ ٤٩٠٢؛ الترمذي، القيامة ٥٧؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٣.

٥٧٤ البخاري، مظالم، ١٠/ ٢٤٤٩، رقاق، ٤٨/ ٦٥٣٤.

٥٧٥ البخاري، زكاة ، ٤١، ٦٣، مغازي، ٦٠، توحيد، ١؛ مسلم، إيمان، ٢٩، ٣١.

أي إن الظلم الذي تقوم برعايته والاغترار به سيأتي يومًا ويقضي عليك ويدمرك، والذين تركوا العدالة من أجل المنافع الدنيوية سيقعون في الفخ الذي أعدوه بأنفسهم، من أجل ذلك يجب علينا أن نقف عند العدالة وأن لا نحيد عن الطريق أبدًا.

صور الفضائل

ورد أن رجلًا تقاضى النبي ﷺ فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه، فقال النبي ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**» [٥٧٦]

❁

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أحرج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**» ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: «**إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك**»، فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت، أوفى الله لك، فقال:

«**أولئك خيار الناس، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**» [٥٧٧]

وقد كان النبي ﷺ يستقرض بين الحين والآخر لعدة أسباب:

- ليساعد المستضعفين والمحتاجين.
- ليعلِّم ويُوضح للبشرية ضوابط وآداب قضاء الدين.

❁

٥٧٦ البخاري، استقراض، ٧، ١٦٠١؛ مسلم، المساقاة، ١١٨-١٢٢/ ١٦٠٠-١٦٠١

٥٧٧ ابن ماجه، الصدقة، ١٧/ ٢٤٢٦.

وعن النعمان بن بشير أنه قال:

«إن أباه أتى به رسول الله ﷺ، فقال: إني نحلت ابني هذا غلاما كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «**أكل ولدك نحلته مثل هذا؟**» فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**فارجعه**» [٥٧٨]

وفي رواية أخرى:

فقال له رسول الله ﷺ: «**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم**»، فرجع أبي، فرد تلك الصدقة. [٥٧٩]

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ: «**فأشهد على هذا غيري**»، ثم قال: «**أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟**» قال: بلى، قال: «**فلا إذا**» [٥٨٠]

❁

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا كان عند النبي ﷺ فجاء ابنٌ له فقبله وأجلسه على فخذه، وجاءت بنت له فأجلسها بين يديه، فقال النبي ﷺ: «**ألا سويت بينهم؟**»

فقد علّمنا النبي العدل بين الأولاد، وألا نفرق بين الابن والبنت ولا نُفضِّل أحدهم على الآخر. [٥٨١]

❁

ورد أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال:

---

٥٧٨ البخاري، هبة، ١٢، شهادة، ٩؛ مسلم، هبة، ٩/ ١٦٢٣.

٥٧٩ مسلم، هبة، ١٣/ ١٦٢٣.

٥٨٠ مسلم، هبة، ١٧/ ١٦٢٣.

٥٨١ الطحاوي، معاني الآثار، بيروت ١٩٨٧، ١٥، ٨٩؛ البيهقي، شعب، ٧، ٤٦٨؛ الهيثمي، ٨، ١٥٦.

«يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل».

قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ:

«أما تقرأ كتاب الله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ﴾ [٥٨٢]

فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم. [٥٨٣]

ولأن العبيد هم بشر أيضًا فمن قواعد الإسلام وجوب إطعام السيد العبيد من طعامه وإلباسهم من كسوته، ولا يحمِّلهم ما لا يطيقونه، ولا يظلمهم، والعدالة العليا التي جاء بها الإسلام كادت تجعل السيد عبدًا، ولهذا السبب أصبح اتخاذ العبيد شبه معدوم.

❀

وعن العرباض بن سارية قال:

نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلًا ماردًا متكبرًا، فأقبل على النبي ﷺ فقال:يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال:

«يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد: ألا إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة» ،

فاجتمعوا، ثم صلى بهم، ثم قام فقال:

---

٥٨٢ الأنبياء: ٤٧.

٥٨٣ الترمذي، التفسير، ٢١/ ٣١٦٥.

«أيحسب أحدكم متكئا على أريكته، قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد وعظت، وأمرت، ونهيت، عن أشياء إنها لمثل القرآن، أو أكثر، وإن الله ﷻ لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوكم الذي عليهم» [٥٨٤]

ما أعظم ديننا الذي يأمر بالعدل ويحث عليه، فهو يشق الشعرة أربعين شقًا بالعدل حتى مع أعدائه! ولذا يجب على المسلم أن يراقب تصرفاته، ولا يتخلى عن العدل ويعلم أنه سينال جزاء ظلمه حتى لو للكافر.

❀

كان جعفر الطيار أخا سيدنا علي رضي الله عنه، ومن الأوائل الذين دخلوا في الإسلام، هاجر إلى الحبشة مع زوجته هاربًا من ظلم المشركين، ومكث فيها سنين ولكن رجع إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة، فطلب رسول الله ﷺ من جعفر الطيار أن يحدثه عن غرائب ما رآه في الحبشة، فقال جعفر رضي الله عنه:

كنا جلوسًا فمرت راهبة عجوز من جنبنا وكانت قد حملت على رأسها جرة ماء كبيرة، فدفعها من ورائها شاب فوقعت المرأة على ركبتيها، وانكسرت الجرة، فقامت الراهبة على قدميها، وقالت للشاب: أيها الظالم! غدًا عندما يُوضع الكرسي، وتبدأ الأيادي والأرجل بالاعتراف عما اقترفته، ويستردّ المظلوم حقه من الظالم، سترى حينها كيف يُقضى بيننا، فعندما سمع رسول الله ﷺ تبسّم حتى بدت نواجذه، وقال: صدقت المرأة، نعم صدقت المرأة، كيف يبرأ الله قومًا لم تؤخذ فيها حق المستضعين من الأقوياء. [٥٨٥]

❀

٥٨٤ أبو داوود، الخراج، ٣١-٣٣/ ٣٠٥٠.

٥٨٥ ابن ماجه، الفتن، ٢٠؛ أبو يعلى، مسند، (أسد)، ٤، ٧-٨؛ ابن حبان، الصحيح (أرنؤوط)،١١، ٤٤٣-٤٤٤.

ورد أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر. فيخرص بينه وبين يهود خيبر. قال، فجمعوا له حليا من حلي نسائهم. فقالوا: هذا لك. وخفف عنا. وتجاوز في القسم. فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم. فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت. وإنا لا نأكلها.فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض. [٥٨٦]

❀

عندما وصل خبر هجوم جيش هرقل عظيم الروم إلى حمص رأى سيدنا أبو عبيدة أن يرجع بجيشه عن حمص، أمر أبو عبيدة صاحب الجزية حبيب بن مسلمة أن رُدَّ على أهل حمص كل ما أخذته من أموال الجزية؛ لأنهم لن يدافعوا عنهم بذلك الانسحاب، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم.

فقال أهالي حمص:

رَدَّكُمُ اللهُ إلينا، ولَعَنَ اللهُ الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم علينا ما ردُّوا علينا، ولكن غصبونا، وأخذوا ما قدَرُوا عليه من أموالنا، لَوِلايتُكُم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغُشْم.

فأقسم اليهود بالتوراة: نُقسم بالتوراة أننا إن لن نُغلب، لن يدخل والي هرقل مدينة حمص، فأقفلوا أبواب المدينة ودافعوا عن مدينتهم ضد الأعداء وتضامن معهم من كان بجوارهم وكانوا على دينهم من اليهودية والنصرانية، وعندما هزم الله الروم وانتصر المسلمون فتحوا أبوابهم للمسلمين وأخرجوا اللاعبين وأظهروا فرحهم في المعارض وأدَّوا الجزية.[٥٨٧]

---

٥٨٦ الموطأ، المساقاة، ٢/ ٢٥٩٥.

٥٨٧ البلاذري، فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٧، ١٨٧.

ولقد كان هذا دأب جيوش المسلمين في كل مكان وليس في حمص فحسب، فقد قاموا بتطبيق العدالة في كل البلدان التي فتحوها ثم تركوها رغمًا عنهم، فمثلاً في حرب بيلونا التي لم يظفر المسلمون بها أعاد الغازي عثمان باشا للمسيحين الجزية التي كان قد أخذها مقابل الدفاع عنهم.

❁

يروي عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته، وهو مستخفٍ من الناس، فنزل على رجل له بقرة، فراحت عليه تلك البقرة، فحلبت، فإذا حلابها مقدار ثلاثين بقرة. قال: فأعجب الملك بها، وقال: ما صلحت هذه إلا أن تكون لي، فإذا صرت إلى موضعي، بعثت إليه فأخذتها. قال: وأقام إلى الغد، فغدت البقرة إلى مرعاها، ثم راحت فحلبت، فإذا حلابها قد نقص عن النصف، وجاء حلاب خمس عشرة بقرة. قال: فدعا الملك ربها، فقال له: هل رعت في غير مرعاها بالأمس، أو شربت في غير مشربها بالأمس؟ قال: ما رعت في غير مرعاها بالأمس، ولا شربت في غير مشربها بالأمس. قال: ما بال لبنها قد نقص؟ قال: يشبه أن يكون الملك قد هم بأخذها. فقال له الملك: وأنت من أين يعرفك الملك؟ فقال له: هو كما أقول لك، فإن الملك إذا ظلم، أو همّ بظلم ذهبت البركة، أو قال: ارتفعت البركة. قال: فعاهد الملك ربه في نفسه أن لا يأخذها، ولا تكون له في ملك أبدًا. قال: وأقام الغد، ثم غدت البقرة إلى مرعاها، فحلبت، فإذا حلابها قد عاد إلى ما كان. قال: فدعا صاحبها، فقال له: هل رعت بقرتك في غير مرعاها بالأمس؟ أو شربت في غير مشربها بالأمس قال: لا. قال: فما بال لبنها قد عاد؟ قال: يشبه أن يكون الملك قد همّ بالعدل. قال: فاعتبر الملك، وقال: لا جرم، ولأعدلن، ولأكونن على أفضل من ذلك. [٥٨٨]

❁

٥٨٨ البيهقي، شعب، ٧، ٥٣؛ الخرائطي، مساوئ الأخلاق، ما جاء في ظلم الناس، ٦١٩.

قال مالك بن دينار:

«لما ولي عمر الخلافة قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس؟، فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنا إذا قام على الناس خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شأننا».

وقال راع آخر عندما سئل عن الذئاب تمشي بين الغنم لا تضرها بشيء، قال: «إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس».

ويقول محمد بن عيينة:

«كنت أرعى الغنم في البراري، وكنت أرى الغنم ترعى مع الذئاب من عدل عمر، وذات ليلة رأيت هجوم الذئاب على الغنم، وكأن السكينة والسلام فقدت من الدنيا، فتعجبت وقلت في نفسي: يجب أن يكون قد توفي الخليفة صاحب الحق والعدل».

❁

أهان أحدُهم الحجاج بن يوسف الثقفي أمام أحد الأولياء ونال منه، فقال هذا الولي: لا تصل بك إهانة الحجاج إلى هذا الحد، إن الله سيعاقب من يتعدى على أموال الناس وأرواحهم، وحتى الحجاج سينال جزاءه، ولا ينتهي الأمر عند ذلك، ثم الله سبحانه وتعالى، سيعاقب أولئك الذين تعدوا على كرامة الحجاج ويأخذ حق الحجاج منهم.

معنى ذلك:

إذا احتقر المظلوم الظالم وأساء له بالكلام فقد يصل بالمعصية إلى درجة معصية الظالم، أو يصل إلى حد يُقتص للظالم من المظلوم بتجاوزه في الإساءة للظالم. [٥٨٩]

---

٥٨٩ بابان زاده أحمد نعيم، أسس أخلاق الإسلام، استنبول١٩٦٣، ٨٦.

قال تعالى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٥٩٠]

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [٥٩١]

❀

خرج يحيى ملك تلمسان مع أركان دولته من قصره يومًا ليتجول في بلاده، فوقف الناس ينظرون بذهول إلى عظمة وأبهة موكبه احترامًا وخوفًا من السلطان، وهم يرددون: أمد الله في عمرك، ولكن رغم كثرة الناس شدَّ انتباه الملك رجل جلس غير مبالٍ في زاوية، منعزلًا عن العالم يشع النور من وجهه.

فسأل الملك عن هذا الغريب الذي يشع النور من وجهه، فقالوا له؟ أيها الملك هذا الشيخ التونسي المشهور يعيش في عزلةٍ عن الناس.

فساق الملك فرسه نحو الشيخ التونسي بشوق، ووجه إليه سؤالًا لطالما شغله: هل تجوز الصلاة بملابسي الحريرية هذه؟ فلم يرد أن يجيبه على سؤاله، وطلب منه أن يسأل من في قصره من العلماء، وبعد إصرار الملك ورجائه قال الشيخ: تخيل كلبًا وجد جيفة حيوانٍ فأكل منها حتى ملأ معدته، ثم لطّخ نفسه بالقاذورات، فإذا جاء يبول رفع رجليه حتى لا يصيبه البول، غضب الملك من هذا الكلام، وقال للشيخ ماذا تقصد بذلك؟

قال الشيخ: قصدتُّ أنه قد امتلأت معدتكم وأجسامكم بالحرام والظلم والاعتداء على حقوق الآخرين، وأنت في هذه الحالة تسألني: هل تجوز الصلاة بملابسي الحريرية؟!

---

٥٩٠ البقرة: ١٩٤.

٥٩١ النحْل: ١٢٦.

فتأثر الملك من كلام هذا الحكيم تأثرًا عميقًا، وببركة تأثُره من هذا الكلام خلع لباسه المزركش وألقاه، ورمى بالسيف الذي على خاصرته، وخاطب الناس الذين ينظرون إليه بتعجب وذهول: أيها المسلمون، سامحوني وابحثوا لكم عن ملك غيري، ولحق بالشيخ التونسي وأصبح تلميذه.

وصل الشيخ يحيى بالتربية المعنوية إلى مقام رفيع، وكان الشيخ عبد الله التونسي إذا جاءه الناس يطلبون منه الدعاء يقول لهم: اطلبوا الدعاء من يحيى بن يغان، فإنه ملكٌ تزهّد، وانقطع إلى الله تعالى، ولو كنت مكانه لما فعلت ما فعل، ولو علم الملوك خزائن السعادة التي وصلها لضحوا هم أيضًا بكل ما لديهم.

❀

عندما أتم السلطان السلجوقي علاء الدين كيكوباد بناء قلعة البلد رجى من بهاء الدين والد مولانا أن يرى القلعة ويبدي رأيه تبركًا به، فذهب بهاء الدين ورأى القلعة ثم قال: قلعتكم خارقة وجميلة وفوق العادة، ويبدو أنها قوية تحميكم من كوارث الفيضانات وهجوم الأعداء، ولكن أي تدبير أخذتَ لحمايتك من سهام دعوى الشعب المظلوم الذي غُلب على أمره؟ لأنّ سهامهم ليست أقوى من قلعتك العظيمة فحسب! بل هي تخترق مئات الآلاف من بروج القلعات وتحول الدنيا إلى أطلال، فمن الأفضل لك أن تصنع من العدل ودعوات الصالحين بروجًا لقلعتك، ومن الجنود حرفيين، وهذا أضمن لك من السور، ومن أجل سلامة وراحة الشعب يتم توفيرها من قبل الجنود دائمًا.

❀

قدَّم يلديرم بيازيد خان العديد من النجاحات في مجال السياسة الخارجية، وخطا خطوات كبيرة لوحدة الأناضول وألحق الجزء الأكبر من إمارات كرامان أوغلو وبرضا من الناس إلى الإمبراطورية العثمانية أيضًا، وبذلك أوضح الكاتب العثماني عاشق باشا زاده، الذي عاش في القرن ١٥ قائلًا: عندما اقترب بيازيد خان من قونيا أُغلقت أبواب المدينة، وكان وقت الحصاد وأكوام القمح والشعير في كل مكان من واحات قونيا، ولما التجأ الناس إلى القلعة على عجل لم يتمكنوا

من إدخال المحصول إلى داخل القلعة، وعندما رأى ذلك جنودُ يلدرم اقتربوا من أسفل القلعة وخاطبوا أهالي قونيا قائلين: أَقبلوا، وقوموا ببيع القمح والشعير لنا، لنُطعم أحصنتنا، فتعجب الناس لذالك كثيرًا ولم يجدوا تفسيرًا له، ولكن البعض منهم قالوا: فلنر إن كانوا صادقين في كلامهم، وخرجوا من القلعة متوجهين نحو جيش العثمانيين، وعندما أُخبر بيازيد خان بذلك خاطب جيشه قائلًا: هؤلاء هم إخواننا المسلمون، احذروا أن تظلموا أحدًا، وحافظوا وراعوا حقوق الفلاحين، وليبيعوا بضاعتهم عن رضا نفس وطيب خاطر.

وهكذا باع الناس برضاهم وبرغبتهم وبالسعر الذي أرادوه، وعادوا إلى القلعة بسرورٍ، آخذين معهم ثمن بيعهم الذي ابتاعوه، وعندما رأى أهل قونيا العدل والإنسانية التي دمعت منها العيون فتحوا أبواب القلعة على مصاريعها من تلقاء أنفسهم ورحبوا بالعثمانيين.

وعندما سمع أهالي المدينة المجاورة هذه الحادثة أرسلوا سفراءهم ليدعوا العثمانيين إلى مدينتهم قائلين: أهلًا بكم في بلادنا، أقبلوا إلينا واحكمونا.

❁

وهذه قصة أخرى تعبر عن العدل أبلغ تعبير، فقد أعطى محمد الفاتح للقُضاة الذين يقيمون العدل بين الرعية أهمية كبيرة، وكان يساعدهم دائمًا ليقوموا بمهمتهم على خير وجه.

كان داوو باشا من كبار رجال العصر، وقام بتجاوزات على حقوق الآخرين، فقاموا بشكايته لقاضي أدرنه، فحذّر القاضي داوود باشا، وأمره برد الحقوق لأصحابها، وهدده بالعقاب إن لم يكف عن الظلم، وثار بينهم نقاش حاد، فتجاوز داوود باشا حدوده في هذا النقاش، وقام بصفع السيد القاضي عدة مرات، فوصل الخبر للسلطان محمد الفاتح، فغضب وقال: من يتعدَ على القاضي وهو خادم العدالة بالضرب فإنه يهين الدين ويعتدي عليه، وعاقبه عقابًا شديدًا.

وإثر هذه الحادثة أصاب داوود باشا البؤس من الناحية المادية والنفسية فمرض ولازم الفراش، ولكنه ندم وتاب آخر المطاف، وتعهد بأن لا يتجاوز حدود الله تعالى، وأن لا يرتكب مثل هذا الذنب أبدًا، ثم اقترب من السلطان محمد الفاتح حتى ارتفع إلى رتبة الوزير، وبعدها إلى الوزير الأعظم في زمن بيازيد الثاني.

❀

ومن الأحداث المهمة التي حصلت للسلطان ياووز سليم أثناء سفره إلى مصر أنه اقترض من أحد الأغنياء بعض المال من أجل تكاليف السفر لأن المال لم يأتِ بعدُ من الخزينة، وعندما أتى المال من الخزينة قدم أمين الصندوق الدين لصاحبه، ولكن صاحب الدين طلب من أمين الصندوق قائلًا: ثروتي كبيرة وليس لي غير ابن واحد، وأريد أن أتصدق بهذا المال للخزينة مقابل أن تجدوا عملًا لابني عند أبواب الدولة.

وعندما عرض أمين الصندوق الطلب على السلطان ياووز سليم غضب كثيرًا وأخذ يخاطبه غاضبًا: والله لولا خوفي من أن يقال قتل السلطان ياووز سليم أمين الصندوق والرجل الذي اقترض منه طمعًا في ماله لأمرت بقتلك وقتلِ صاحب هذا الطلب الفاسد، أعدِ المال لصاحبه فورًا ولا تأتني بعد اليوم بما يخالف القانون، وبعد التحقيق من هذا الأمر تبين وثبت أن صاحب المال كان يهوديًا فأُبعد من مركز المدينة.

❀

«ما لم تشرب خيول العثمانيين من نهر فيستولا في لَهستان فلن تنال الحرية والاستقلال» هذا الكلام ضُرب مثلًا لعدالة أجدادنا.

فلَهستان في بولونيا نالت الاستقلال ثلاثة مرات! وحصل هذا عندما شربت الخيول التركية من نهر فيستولا، وبخدمتهم لباقي الدول وصلوا إلى تفضيلهم لهم.

وكلامُ غراند وك نوتراس المسيحي مشهورٌ حينما كان جيش السلطان العثماني يداهم أسوار مدينة اسطنبول، وهم يناقشون في أياصوفيا العرض الذي يقول: «نطلب إمدادًا من البابا»، إذ يقول غرندوك نوتراس: إنني أفضل رؤية عمامة الأتراك في القسطنطينية بدل قبعة الكردنال.

❁

وكم هو مليء بالعبرة والعظة المثال التالي الذي يوضح تعلق الرعية المسيحية بالدولة بسبب المعاملة العادلة التي شهدوها منهم:

ففي أحد أسفار القانوني إلى مجرستان مر ببعض المجريين، وقد أرادوا أن يسمّموا السلطان لصالح إمبراطورية ألمانيا، فأرادوا من مانكو طباخ السلطان الخاص به أن يغدر بالسلطان باسم الأَرمن، ولكن الطباخ بإظهار ولائه العظيم بات مثلاً يُضرب به حيث رفض هذا التكليف البشع، وما ذاك إلا لإعجابه بعدل السلطان وأخلاقه.

❁

وفي أحد أسفار القانوني إلى النمسا، وعند اقتراب الجيش من الأعداء، إذ كانت قرى غير المسلمين الممرَّ الوحيد لهم أراد القانوني الاستراحة، فاقترب رجلٌ من النصارى نحوه، وقال: قطف أحد جنودك عنقود العنب، وعلّق ثمنه على الشجرة، فجئت لأشكركم على ذلك.

وعندما سمع السلطان القانوني سليمان خان ذلك استدعى الجندي ومنع من السفر، فقال للمسيحي الذي اندهش لذلك: لو أن الجندي لم يُعلِق ثمن العنب على شجرتك لسُمّيَ هذا الجيش بالجيش الظالم، وقد نجا من قطع رأسه لتركه المال على شجرة العنب، ولكنه مُنع من السفر لأنه قام بقطف العنب بغير إذن صاحبه.

وقفت إمرأة عجوز مواجه السلطان القانوني عند عودته من سفره هذا ممسكة بركبتي الخيل، وقالت: سأُقاضيك! فقال السلطان: إلى من ستُقاضينني؟

قالت: أيها السلطان، سأقاضيك إلى المحكمة الإلهية، لأن جنودك اخترقوا أرضي، وأفسدوا محاصيل القمح، فحزن السلطان لهذا كثيرًا، وأحنى رأسه وبدأت قطرات الدمع تتساقط من عينيه، فطيَّب خاطر المرأة وطلب منها السماح.

❀

وما أعظم الحادثة التالية في تعامل السلطان مع رعيته التي كانت تنعم بعدالته، وما هو إلا مظهر من مظاهر التقدير.

أُرسل إلى السلطان القانوني مرة المخصصات السنوية من مصر أكثر من المحدد، ولكن والي مصر لم يتلقّ التقدير والتهنئة كما هو متوقع من قبل السلطان، بل على العكس تمامًا، قال له بشكٍ وغضبٍ: أَجَمَعَ الباشا هذا القدر من التكاليف الثقيلة وحمله إلى مصر وجمع هذا القدر من المال ليأخذ مكانًا بيننا؟

فاستجوب القانوني الباشا استجوابًا جدِّيًا، وفي آخر المطاف ولما لم يظهر ما يدين الوالي، وإن أظهر القانوني رضاه لذلك ولكنَّ قلبه لم يكن مطمئنًا لذلك، فأمر بصرف المال الزائد الذي جاء من مصر في تصليح قنوات المياه وقام بحفظه لما يلزم للخدمات العامة.

❀

وختامًا...

فالظلم وإن بدا برَّاقًا مدة من الزمن فإنه سيعود إلى بشاعة ظلامه في النهاية، والعدالة وإن بدت صعبةً في بدايتها، لكن النور والروحانية تأتي في نهايته، والمسلم الذي يكون عادلًا في كل مكان، وأمام كل الناس يكسب بذلك رضا الله ومحبة الناس له، ويكون عزيزًا ومحظوظًا في الدنيا والآخرة.

وأما الذين يبتعدون عن العدالة باتباعهم هوى أنفسهم فلن ينالوا بذلك شيئًا، وإن اكتسبوا بعض المنافع الدنيوية ولكن في النهاية لن ينالوا غير الضرر والندم والخسران.

٢. العفو وستر العيوب

من أهم وظائف الأخلاق العفو وستر عيوب الآخرين، وهي من الدلالات التي تدل على كمال الأخلاق، وهي أيضًا من الخصال التي يحبها الله تعالى.

ومن أسماء الله تعالى الحسنى «العفُّو» والذي يدل على أنه يعفو ويصفح.

قال الله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ [٥٩٢]

ومن النتائج الطبيعية للعفو محبة الله تعالى والتَخَلُق بأخلاقه، فالنظر إلى المخلوقات بعين الخالق يُعدُّ الخطوة الأولى نحو العفو.

وفي هذا الصدد المعنى الحقيقي للعفو هو أن تعفو وأنت قادرٌ على إنفاذ العقوبة، وفي هذه الحالة تكون قد فضَّلت العفو وغلبت هواك.

وقد طلب الله من عباده أن يعفوا ويصفحوا، ليُعْلَمْ أن المؤمنين الذين يحبون العفو هم من يُضرب بهم المثل، وهم أفضل من غيرهم، لأن ما قاموا به كان عملًا شاقًا، فهم قد وضعوا أنفسهم جانبًا، وفازوا بالعفو والصفح وستر عيوب الآخرين.

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٥٩٣]

قال تعالى :

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٩٤]

---

٥٩٢ الأعراف: ١٩٩.

٥٩٣ الشورى: ٤٣.

٥٩٤ آل عمران: ١٣٤.

وعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال:

«... **وما زاد الله عبدا بعفو، إلا عزا..**» [595]

فحتى لو ظنّ المخطئ أن العفو صدر عن صاحبه لعجز منه عن الانتقام فإن هذا ينبغي ألا يمنع الناس عن العفو، فالعفو يظل أسمى الخصال وأكرمها.

وقد أوضح لنا مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله- حكمة العفو بهذه الإفادة الجميلة:

«اعلم أن رحمة الله تسبق غضبه دائمًا، ولهذا فكل رسول كان هو الغالب أمام أعدائه، إذ ليس الظلم والعتاب هو الطريق الصحيح لإزالة المعاصي والبلايا، ولكن علاجه أن تعفو وتسامح».

قال رسول الله ﷺ:

«**الصدقة تدفع البلاء**» [596]

فلنتيقظ للتنبيه النبوي، ولنفهم أصول علاج الأمراض والمصائب كما علمنا إياها المولى ﷻ.

السيد إسماعيل حقي البورسوي يقول: كان شيخي السيد عثمان آتبازاري يقول: التسليم والرضا من أجمل الأخلاق التي تتعلق بالمعاملة مع الله، أما ما يتعلق بالمعاملة مع الناس فالعفو والمسامحة أسلم.[597]

والعفو عند الغضب من عيون الفضائل، فالرسول ﷺ يقول:

«**ليس الشديد بالصُّرَعةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [598]

---

٥٩٥ مسلم، البر، ٦٩ / ٢٥٨٨؛ الترمذي، البر، ٨٢/ ٢٠٢٩.

٥٩٦ انظر: الترمذي، زكاة، ٢٨؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠٨.

٥٩٧ البورسوي، ١، ٢٨٣، تفسير البقرة، ١٧٧.

٥٩٨ البخاري، الأدب، ٧٦ / ٦١١٤؛ مسلم، البر، ١٠٧، ١٠٨/ ٢٦٠٩.

عن معاذ بن أنس عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله ﷻ على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء» [٥٩٩]

والله تعالى يحث الرسول ﷺ الناس أن يتعاملوا بلين وسهولة، ولا يكون للتشدد والغضب والقهر مكانًا في حياتهم، ولذلك كان العفو عن المذنبين ومراعاة ظروفهم من أظهر صفاته ﷺ وأميزها، ومن صفات النبي ﷺ المميزة أيضًا العفو عمن كان يقع أسيرًا عنده، والإحسان بالمعاملة لمن كان شديد الإساءة إليه، ونشر السخاء والشفقة والرحمة، والإحسان لمن أساء إليه، وهي أفضل من العفو والدعاء لمن رآه يرتكب المعاصي بالهداية والإصلاح.

وعندما كُسرت ثنايا رسول الله ﷺ وأدميت جبهته في معركة أحد، و رُمي بالحجارة بالطائف لم يدعُ عليهم بالهلاك وإنما دعا لهم بالهداية، وهذا مثال بليغ على رحمة النبي عليه الصلاة والسلام وعفوه، فلم يرض الرسول ﷺ أن يُهلَك أهالي مكة بهلاكٍ إلهي ليحافظ على مجدِ الإسلام، ولكنه أراد أن يتشرف كل واحد بشرف الإسلام، فكان النبي عليه الصلاة والسلام بعفوه ورحمته وسيلة لهداية هؤلاء الكفار والمشركين.

قال تعالى :

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٦٠٠]

فيُبينُ النبي ﷺ للمسلمين أجمل الطرق بإظهار أسمى أفق الأخلاق بقوله عليه الصلاة والسلام:

---

٥٩٩ أبو داوود، باب الأدب ٤٧٧٧\٣ ؛ الترمذي باب البر ٧٤ ، قيامة ٢٨؛ ابن ماجه ، باب الزهد ١٨ .

٦٠٠ فصلت: ٣٤ .

«**لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنًّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا**» [٦٠١]

وأما أن تُحسِنَ لِمَن أَحْسن إليك، وتُسيء لمن أساء إليك فليس ذلك بشيء، ولكن حسن الخلق أن لا تقابل من أساء إليك بنفس الإساءة، فعندما تقابل المسيء إليك بالإحسان، فإن كان عدوًّا فسيصبح صديقًا لك، وإن كان بعيدًا فسيقترب منك، وإن كان قريبًا فستزيد محبته لك.

ولكن لابد أن نُذَكِّر هنا أن حديثنا هذا عن العفو والصفح هو فيما لو كانت الإساءة تتعلق بشخص معين، أما إن كانت الإساءة تتعلق بالمجتمع فيجب أن نكون عادلين، وأن نقابل الإساءة ببيان الخطأ وانتقاد المخطئ، لإصلاحه.

أما العفو والصفح لمن أساء للمجتمع وللآخرين فسيؤدي بلا شك إلى مزيد من الظلم.

ومن المهمات الأخرى الخاصة التي تتعلق بالعلاقات الإنسانية وتحتاج إلى النظر إليه بدقة، عدم تتبع عيوب المؤمنين وزلاتهم، وإنما ينبغي ستر العيوب والذنوب حتى لو كانت الزلات التي رآها مصادفة.

لأن فضيحة العاصي المستتر بذنبه قد تكون أعظم من ارتكابه للمعصية في الملأ، وربما ينتج عن إشاعة وإذاعة ذنوب الآخرين نتائج أسوأ من ارتكاب الذنب نفسه، ولهذا السبب شدد الله تعالى على منع نشر العيوب وإشاعة المعاصي.

قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [٦٠٢]

---

٦٠١ الترمذي، البر، ٦٣/ ٢٠٠٧.

٦٠٢ النور: ١٩.

يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«... لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله..» [٦٠٣]

قال رسول الله ﷺ:

«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله» [٦٠٤]

ويبين الرسول ﷺ فضائل ستر العورات بقوله:

«من رأى عورة فسترها، كان كمن أحيا موءودة من قبرها» [٦٠٥]

قال رسول الله ﷺ:

«من غسل ميتا فكتم عليه غفر له أربعين مرة..» [٦٠٦]

وعندما يتتبع إنسان عورة أحد ويكشفها، فإن العاصي يفقد ببطءٍ شعورَه بالعار، ومن فقد الحياء فلن يرعوي عن ارتكاب المعاصي، وعندما يشعر الناس أن أحدهم يخفي سوء النية تجاههم فستمتلئ قلوبهم بالبغض والكراهية ومشاعر الانتقام، ويكون لهم ضرر بالغ للفرد والمجتمع.

وعلى الإنسان أن يعمل على إصلاح عيوبه بدلًا من الاشتغال بعيوب الآخرين، كان ابن عباس رضي الله عنه يوصي فيقول:

«إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك» [٦٠٧]

---

٦٠٣ الترمذي، الأدب، ٢٠٣٢ ؛ أبو داود، ٤٨٨٠؛ ابن ماجة، حدود، ٨.

٦٠٤ الترمذي، القيامة، ٥٣/ ٢٥٠٥.

٦٠٥ أحمد، مسند، ٣، ١٥٣، ١٥٨؛ أبو داوود، الأدب، ٣٨/ ٤٨٩١.

٦٠٦ الحاكم، المستدرك، ١، ٥٠٦/ ١٣٠٧؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٣، ٣٩٥.

٦٠٧ البخاري، الأدب المفرد، ٣٢٨.

ومن إحدى النصائح المليئة بالحكمة قول أبي هريرة ﵁:

«يبصر أحدُكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه» [٦٠٨]

ومن ناحية أخرى إذا ارتكب الشخص ذنبًا كالعادة فيجب أن لا يكشفه بل يحاول ستره، حيث قال النبي ﷺ:

«كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» [٦٠٩]

وإن حديث المرء عن ذنوبه التي ارتكبها والمباهاة بها أمام الناس يظهره وكأنه يدعو لانتشار الفساد، فقد هدد الله تعالى بعذابٍ عظيم من أراد أن تشيع الفاحشة بين المسلمين في المجتمع، ومقابل ذلك فإننا نأمل من الله تعالى أن لا يفضح من ستر الذنب الذي ارتكبه في الدنيا حياءً منه سبحانه.

وختامًا...

فإن بعض الناس رغم اهتمامهم بعباداتهم وطاعاتهم يبتعدون عن معرفة اسم الله تعالى «ستَّار العيوب»، معنى ذلك أنهم بعيدون عن فضائل ستر العيوب والعفو، ولهذا السبب لم يرتقوا من الناحية المعنوية بالشكل المطلوب، رغم أن العفو وستر العيوب من أهم الأخلاق الحميدة، فكما أن الله تعالى يستر ما لا يحصى من الذنوب، فعلينا كذلك أن نكون مسامحين، فالذين يحملون في قلوبهم محبة الله تعالى يحبون أن يعفووا عن الآخرين، فلنعفووا عن عباد الله لننعم بعفو ربنا علينا.

---

٦٠٨ البخاري، الأدب المفرد، ٥٩٢.

٦٠٩ البخاري، الأدب، ٦٠/ ٦٠٦٩؛ مسلم، الزهد، ٥٢.

صور الفضائل

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته» [٦١٠]

❁

لما قصد الرسول ﷺ الطائف هربًا من ظلم أهل مكة وتعنتهم كان يأمل أن يجد من أقربائه من أهل الطائف نصرةً وإنصافًا، ولكنهم قابلوا الرسول ﷺ بأسوأ رد، وأغلظوا له في القول والأذى، ورموه بالحجارة حتى أدموا قدميه، وعندها رجع النبي ﷺ وبينما هو في طريق العودة مكدورًا محزونًا إذ أرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال، وأعلمه الملك بأنه سيفعل ما يأمره به، وأنه سيطبق الجبلين على أهل الطائف، إلا أن النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين قال:

«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا» [٦١١]

❁

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل» [٦١٢]

❁

٦١٠ البخاري، التفسير، ١١، ٤/ ٢٤٤١، الأدب، ٦٠ ، التوحيد، ٣٦؛ مسلم، التوبة ٥٢/ ٢٧٦٨.

٦١١ البخاري، بدء الخلق، ٧؛ مسلم، الجهاد، ١١١/ ١٧٩٥.

٦١٢ مسلم، فضائل، ٧٩/ ٢٣٢٨؛ أبو داوود، الأدب، ٤؛ ابن ماجه، النكاح، ٥١ .

عن أبي هريرة ﵁، قال:

كان النبي عليه الصلاة والسلام يجلس معنا في المجلس يحدثنا، فإذا قام قمنا قياما حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه، فحدثنا يوما فقمنا حين قام، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، وكان رداء خشنا، فالتفت، فقال له الأعرابي: احمل لي على بعيري هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني»

فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، فذكر الحديث، قال: ثم دعا رجلا فقال له:

«احمل له على بعيريه هذين: على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا» ثم التفت إلينا فقال: **«انصرفوا على بركة الله تعالى»** [613]

❀

كان أبو سفيان بن حارث صاحب ابن عم رسول الله ﷺ قبل البعثة، وبعدها غدا يهجو رسول الله ﷺ بشعره، وكان شاعر النبي عليه الصلاة والسلام يرد على أبي سفيان بشعره، ولكن أبا سفيان ندم بعد ذلك على شعره، فهاجر إلى المدينة المنورة، وفي طريقه التقى بالرسول ﷺ عند فتح مكة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم ينظر إلى وجه أبي سفيان، فتأثر أبو سفيان من ذلك كثيرًا، وتلا الآية التي علَّمه إياها سيدنا علي ﵁ معتذرًا بها للنبي عليه الصلاة والسلام قوله تعالى:

﴿قَالُوا تَالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [614]

---

٦١٣ أبو داوود، الأدب ١١\٤٧٧٥؛ النسائي، القسامة، ٢٤؛ ابن ماجه، اللباس، ١.

٦١٤ يوسف: ٩١.

وأما رسول الله ﷺ الذي يعنبر بحرًا من الرحمة والشفقة فقد قال:

﴿...لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ﴾ [٦١٥]

وعفا عن أفعاله وأفعال الباقين التي قاموا بها من قبل.

ثم لم يكن أبو سفيان بعد إسلامه يجرؤ على رفع رأسه والنظر إلى وجه الرسول عليه الصلاة والسلام خجلًا منه وحياءً.

❁

قال النبي عليه الصلاة والسلام للناس المجتمعين بعد فتح مكة:

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، وَقد قدرْتَ، قال: « مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته:

﴿...لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ﴾ [٦١٦]

فالذين اعتدوا على أموال المسلمين وأرواحهم قبل الفتح نالوا شرف الهداية بالإسلام نتيجة لذلك، ورغم أنَّ مكة صارت تحت سيطرة النبي ﷺ، وصار مصير المشركين في مكة بيده ﷺ إلا أنه عفا عنهم وتركهم أحرارًا، ولذلك سمي أهالي مكة بالطُلقاء يعني الأحرار. [٦١٧]

❁

كان هبار بن الأسود ـ وهو من ألد أعداء الإسلام ـ قد آذى السيدة زينب بنت الرسول ﷺ وهي على ناقتها مهاجرة لتلحق بالرسول ﷺ، فطعنها بقائم رمحه في بطنها وهي حامل فأجهضها، وأصابها مرض بقى معها حتى ماتت، فهرب هبار بعد فتح مكة ولم يتمكن من القبض عليه وأهدر الرسول دمه.

---

٦١٥ يوسف: ٩٢.

٦١٦ يوسف: ٩٢.

٦١٧ انظر: ابن هشام، ٤، ٣٢؛ الواقدي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢، ١٤٢-١٤٣

وبينما كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه مرةً في المدينة إذ جاء هبار مُعلنًا إسلامه، فعفا عنه النبي ﷺ، ونهى أصحابه عن تحقيره أو أذيته ولو بالتعريض. [٦١٨]

❁

كان النبي ﷺ لا يُحرج الشخص المذنب بإفشاء ذنبه أمام أصحابه بل كان يعرض بالذنب تعريضًا وكأنه ينتقد مجهولًا، وبعض الأحيان يخاطب أصحابَه إذا رأى الخطأ منهم بأن مثل هذا لا يليق بهم بقوله: «**مالي أراكم هكذا**» [٦١٩]

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟» [٦٢٠]

❁

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال:

«**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»

ونظر ابن عمر رضي الله عنه يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال:

«ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[٦٢١]

❁

---

٦١٨ الواقدي، ٢، ٨٥٧_٨٥٨.

٦١٩ انظر: البخاري، مناقب، ٢٥؛ مسلم، الصلاة، ١١٩.

٦٢٠ أبو داوود، الأدب، ٥/ ٤٧٨٨.

٦٢١ الترمذي، البر، ٨٥/ ٢٠٣٢.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إذا زنت أمة أحدكم، فتبين زناها، فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يثرب، ثم إن زنت الثالثة، فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر**» [٦٢٢]

ما أعظمها من أخلاق يتحلى بها النبي ﷺ ويعلمنا إياها الإسلام... اجتناب إحراج مرتكب إثم كبير، ومحاسبته على إثمه من دون جرحه.

❁

أراد إخوة سيدنا يوسف ﵇ قتله والتخلص منه، فألقوه في بئرٍ مظلمةٍ، ثم أُخرج من البئر وبيع بثمن بخسٍ كالعبيد، ثم بعدها أُلقي في السجن، وفي النهاية وبلطفٍ من الله تعالى صارت مفاتيح خزائن مصر بيده، والتجأ إخوة يوسف إليه بسبب القحط والجوع، ولكن سيدنا يوسف لم يفكر بإساءة إخوته إليه مغتنمًا الفرصة لينتقم منهم، بل على العكس تمامًا، فقد عفا عنهم وكان يقوم بتسليتهم كي لا يحرجهم، قال تعالى حكايةً عن إخوة يوسف:

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٢٣]

فقال إخوته:

﴿... تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [٦٢٤]

فأجابهم يوسف ﵇:

---

٦٢٢ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٢/ ٢٢٣٤؛ مسلم، حدود، ٣٠/ ١٧٠٣.

٦٢٣ يوسف: ٩٠.

٦٢٤ يوسف: ٩١.

﴿...لَا تَثْرِيْبَ عَلَيكُمُ الْيَومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ﴾ [625]

وعندما التقى بوالديه:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [626]

هذه الآيات الكريمة تشير إلى طريقة من أجمل طرق التربية، وهي أن تقابل الإساءة بالإحسان، فإن كنت ذا أخلاقٍ حميدةٍ، وتقابل الإساءة بالإحسان، فمن كان عدوًا لك تزول عداوته، ومن كان محايدًا لك فإنه يميل إلى صداقتك، ومن كان صديقًا لك تزداد محبته لك ويكون أقرب إليك.

كان يوسف عليه السلام يُكرم إخوته صباح مساء بموائد الطعام، وكان إخوته يخجلون من صنيعهم ومما ارتكبوه بحق يوسف عليه السلام كلما تذكروا ما فعلوا فيه، فأرسلوا رجلًا إلى يوسف عليه السلام يقولون فيه: أنت تقوم بإكرامنا صباح مساء أما نحن فنستحي مما فعلناه بك، فرد عليهم يوسف عليه السلام: إن أهالي مصر لا ينظرون إليَّ الآن مثل نظرتهم الأولى لي ويقولون: «نسبح بإله العبد الذي بيع بعشرين درهم، ورفعه مقامًا محمودًا»، بفضلكم وصلتُ إلى هذه المرتبة، الآن فَهِم أهل مصر أني أخوكم وأنني حفيد النبي إبراهيم عليه السلام، وحتى يخفف من شعور إخوته بالذنب كان يقول لوالده: لقد دخل الشيطان بيني وبين إخوتي ليوقع بيننا، ولم يحدِّث يوسف عليه السلام إخوته ليفتخر بنفسه ولكن ليضع الطمأنينة في قلوبهم، ويستعطفهم وليخفف من حرجهم وذنبهم.

---

٦٢٥ يوسف: ٩٢.

٦٢٦ يوسف: ١٠٠.

قصة سيدنا يوسف ﷺ تضعُ أمامنا سعةَ وضخامةَ فضائلِ العفوِ وسترِ العيوبِ، وتبين لنا كيف كان تواضُع سيدنا يوسف ﷺ عندما ظفر بإخوته، وأنه قدم الرغبة بهدايتهم والعفو عنهم على رغبة الانتقام منهم، فقابل الإساءة بالإحسان بُغية رضا الله ﷻ.

❀

لقد كان أبو بكر ﷺ ينفق على قريبه مسطح لأنه كان فقيرًا، ولما خاض في حديث الإفك على السيدة عائشة ﷺ عاقبه رسول الله ﷺ فيمن عاقبه في ذلك.

فقطع أبو بكر ﷺ النفقة عنه وعن عياله، وأقسم على ألا ينفق عليه وعلى عياله بعدها أبدًا، وبعث أبو بكر إلى مسطح يسأله: أخبرني عنك ـ وأنت ابن خالتي ـ ما حملك على ما قلت في عائشة؟ أما حسان فرجل من الأنصار ليس من قومي، وأما حمنة فامرأة ضعيفة لا عقل لها، وأما عبد الله بن أبي فمنافق، وأنت في عيالي منذ مات أبوك وأنت ابن أربع حجج، وأنا أنفق عليك وأكسوك حتى بلغت، ما قطعت عنك نفقة إلى يومي هذا، والله إنك لرجل لا وصلتك بدراهم أبدًا، ولا عطفت عليك بخير أبدًا، ثم طرده أبو بكر وأخرجه من منزله. فنزلت الآية :

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٦٢٧]

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٦٢٨]

٦٢٧ النور: ٢٢.

٦٢٨ البقرة: ٢٢٤.

تبين لنا الآية الكريمة من ناحية رحمته تعالى بعباده، وتبين لأهل الفضل طريقة الوصول إلى قمة الخلق والعفو من ناحية أخرى.

فلما قال تعالى:

﴿...**أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ** ...﴾ بكى أبو بكر ﷺ، فقال:

«أما وقد نزل القرآن بأمري فيك لأضاعفن لك النفقة، وقد غفرت لك، فإن الله أمرني أن أغفر لك» [٦٢٩]

❁

وكان ممن خاض في حادثة الإفك حسان بن ثابت شاعر رسول الله، ولكن أمنا السيدة عائشة التي هي مثال للعفة عفت عنه لأن النبي ﷺ كان يحبه، فعن عروة بن ثابت، قال: سببت ابن فريعة عند عائشة ﵂، فقالت:

«يا ابن أخي، أقسمت عليك لما كففت عنه؛ فإنه كان ينافح عن رسول الله عليه الصلاة ةالسلام»

فالسيدة عائشة ﵂ عفت عمن اتهمها بالإفك الذي هو من أثقل الاتهامات، وذلك لِما تُكنّ لرسول الله ﷺ من المحبة والإخلاص.

ما أعظم هذا الحب!.

ما أعظم هذا الإخلاص العميق!.

وما أعظم فضائل الصفح!.

❁

عن عائشة ﵂، قالت:

«لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال:

٦٢٩ البخاري، مغازي، ٣٤؛ مسلم، توبة، ٥٦.

أي عباد الله أبي أبي، فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال: حذيفة غفر الله لكم، قال عروة فما زالت في حذيفة منه بقية خير حتى لحق بالله» [٦٣٠]

وعندما أدى رسول الله ﷺ الدية لحذيفة تصدق بها على الفقراء. [٦٣١]

❀

ويجب على المسلم أن يبتعد عن التجسس، فلا يبحث عن عيوب وزلّات الآخرين، قال تعالى: ﴿.. **وَلَا تَجَسَّسُوا** ...﴾ [٦٣٢]

فنهى سبحانه عن هذه الفعلة البشعة ونفر المسلمين منها.

عن دخين، كاتب عقبة بن عامر، قال:

قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذوهم. فقال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا، قال: فجاءه دخين. فقال: إني نهيتهم فلم ينتهوا، وأنا داع لهم الشرط، فقال عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**من ستر عورة مؤمن، فكأنما استحيا موءودة من قبرها**» [٦٣٣]

❀

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:

﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [٦٣٤]

---

٦٣٠ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٢/ ٣٢٩٠.

٦٣١ أحمد نعيم، ترجمة التجريد الصريح، أنقرة ١٩٨٣، ٢، ٤٦٨.

٦٣٢ الحجرات: ١٢.

٦٣٣ أحمد، مسند، ٤، ١٥٣/ ١٧٣٩٥.

٦٣٤ فصلت : ٣٤.

«أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. وعندما يلتزم الناس بما أمرهم به الله تعالى فإن الله يحفظهم، ويخضع لهم الأعداء فيصيروا كأنهم أصدقاء»[٦٣٥]

❁

قال رسول الله ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم؟**» قالوا: ومن أبو ضمضم؟ قال: «**رجل فيمن كان من قبلكم**» بمعناه قال: «**عرضي لمن شتمني**» [٦٣٦]

وقد قال قتادة من التابعين:

«أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضيغم أو ضمضم – شك ابن عبيد –، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك» [٦٣٧]

ما أجمله من مثال للعفو، العفو عن مثل هذه الذنوب من الغيبة والقيل والقال والإهانات التي من الصعب على الإنسان هضمها سلفًا، ويُفهم من كلام أبي ضمضم أنه يفعل هذا مع عباد الله تعالى لشدة حبه لله، لا يريد أن يقع عباد الله في حرجٍ بسببه يوم القيامة، فهو يؤمن بأن العفو عن العباد وسيلةٌ لنيل العفو من الله ﷻ.

❁

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**حُوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه**» [٦٣٨]

❁

---

٦٣٥ البخاري، التفسير، ٤١/ ١.

٦٣٦ أبو داوود، الأدب، ٣٦/ ٤٨٨٧.

٦٣٧ أبو داوود، الأدب، ٣٦/ ٤٨٨٦.

٦٣٨ مسلم، مساقات، ٣٠/ ١٥٦١؛ أحمد، مسند، ٣/ ١٢٠.

وحُكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظرة مغضب، فقال:

يا مولاي ﴿...**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**...﴾، قال: كظمت غيظي،

قال: ﴿...**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ...﴾، قال: عفوت عنك،

قال: ﴿...**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٦٣٩]، قال: اذهب فأنت حر لوجه الله الكريم.

❁

وضع خادم عمر بن عبد العزيز السم في الطعام، وقدمه لعمر بن عبد العزيز، وما ذاك إلا مقابل شيء يسير من متاع الدنيا، وبمجرد تناول عمر بن عبد العزيز الطعام بدأ يعاني من آلام الموت الرهيبة، فأسرع إلى مناداة خادمه وقال له: كم قبضت من المال مقابل السم الذي وضعته لي؟

فقال العبد: ألف دينار.

لكن الخليفة العادل الرحيم عمر بن عبد العزيز لم يغضب أبدًا، وأراد من الخادم أن يضع المال في بيت المال مقابل أن يعفو عنه، رغم الفعل الشنيع الذي قام به، فقد كان مطلبه أن يُسلم روحه الطاهرة بقلب سليم.

❁

وقد قدم منصور الحلّاج –ويعتبر من العشاق الاستثنائيين في تاريخ التصوف– إيثارًا عظيمًا نابعًا من القلب، بقوله وهو يُرجم:

«اللهم اعف عمن رجمني قبل أن تعفو عني».

❁

---

٦٣٩ آل عمران: ١٣٤.

وقصة سيدنا حاتم الأصم ذات عبرة عظيمة:

ذات يوم جاءت إليه إمرأة ضعيفة مهمومة مسكينة، تشكو إليه وتسأله عن مسألة، فخرج منها صوت غير اختياري وهي تسرد قصتها، فذابت المرأة خجلًا، فنظر حاتم الأصم إليها بكل وقارٍ، وكأنه لم يسمع شيئًا، ووضع يده على أُذنه، وقال كي لا يُخجلها: لا أسمع ما تقولينه، ارفعي صوتك، فإنني أصم لا أسمع جيدًا.

ففرحت المرأة المسكينة المهمومة الضعيفة، وسرعان ما رُدت الحياة إليها من جديد، ظانة أن حاتم لم يسمع شيئًا.

إن هذا التصرف بالغ الدقة والروعة، ولم يصل قوم من الأقوام إلى هذه الدرجة الرفيعة من آداب المعاشرة التي ربى الإسلام أتباعه عليها، وقد لقب سيدنا حاتم بعد ذلك بالأصم، لأنه استمر يظهر صممه زمنًا، حتى توفيت المرأة العجوز، فقال عندها لمن حوله:

«أذناي تسمعان الآن، فما من حاجة إلى رفع أصواتكم»

هذه هي بحق لطافةُ ولباقةُ ورقةُ الأخلاق الإسلامية.

❀

ويقول الشيخ سعدي في مقدمة كتابه «غولستان» بستان الورد:

«يرفع امرءٌ مسرفٌ على نفسه يديه إلى الله تعالى يدعوه أملًا أن يقبَل الله دعاءه، ولكن الله لا يقبل دعاءه!، فيرجع العبد إلى الدعاء والرجاء، ولكن الله لا يقبل دعاءه أيضًا، ثم يرفع العبد يديه إلى السماء داعيًا، يرجو الله أن يقبل الدعاء للمرة الثالثة، فيقول الله ﷻ: «يا ملائكتي قبلت دعاء العبد واستجبت لإلحاحه، إني لأستحيي من إصرار عبدي بالطلب...» فانظر إلى لطف الله وكرمه، المذنب هو العبد ولكن المستحيي هو الله».

❀

كان هناك فرَّانٌ غريب مسكين، وكان إذا قدَّم إليه أحدهم الدراهم المزيفة يأخذها رغم علمه بأنها مزيفة، ولا يُحدِّث صاحبه بذلك ويعطيه الخبز، وكان الناس يحتارون في أمره ولا أحد يعرف سبب ذلك، وعندما كان في مرض موته رفع يديه إلى السماء مناجيًا ربه وقال: اللهم إنك تعلم أن الناس منذ سنوات وهم يعطونني الدراهم المزيفة، وأنا لا أضرب وجوههم بها، وألبي طلبهم وأعطيهم ما يريدون، وأنا اليوم قادم إليك بطاعاتي المزيفة، فأرجوك يا إلهي اقبلها مني، ولا تضرب بها وجهي!!

❁

وختامًا...

فيجب على المؤمن أن يتميز بالعفو عن غيره، حتى يصير العفو عنده سجية وطبعًا، فالأعمال السيئة لا فائدة من نشرها، بل على العكس تمامًا لها أضرار كثيرة، وعادة ستر العيوب هي الأفضل، لأنك بهذا الخلق تقف أمام نشر العيوب وكسر القلوب، وفي الوقت نفسه العفو بهذه الطريقة يكون أكثر فعالية في إصلاح الناس.

ومن ناحية أخرى كل ابن آدم خطَّاء، والذي تشغله ذنوبه عن ذنوب غيره يكون في خير وترقٍ دائم، وبهذا الشكل يكون قد صان نفسه من الذنوب وبتصحيح أخطائه يعزز مرتبته، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس..**»[٦٤٠]

فالكل منا يود أن تُغْفَر زلاته وتُنْسى، فيبحث عن طريق النجاة والتخلص من زلاته التي يتحرَّج منها والتي أدت إلى شقائه، فإذا كان يفكر بهذه الطريقة وعلى هذه الحال فكيف له أن يبحث عن زلات غيره ولا يعفو عنها؟

---

٦٤٠ علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٨٦٥/ ٤٣٤٤٤ .

هذه طريقة غير عادلة!!.

فلنعفُ عن عباد الله كي يغفر الله لنا عندما نكون بأمس الحاجة للعفو، معنى ذلك نحن نعفو ونعفو كي نكون عبادًا يكرمنا ربنا بالعفو، قال تعالى:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٦٤١]

٣. رعاية حقوق العباد

كرَّم الله تعالى ابن آدم فخلقه في أحسن تقويم، فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾ [٦٤٢]

وأنعم الله على الإنسان بنعم لا تُعد ولا تحصى، ومنحهم بعض الحقوق لطفًا منه ﷻ، ووضع الله تعالىً بعض القوانين والقواعد للحفاظ على هذه الحقوق التي تُنَظِّم تدفق حياة الإنسان.

ويُعدُّ تجاوز حد من حدود الله تعالى كبيرة من الكبائر، ومع أن الله يغفر الذنوب جميعا -إذا تاب العبد منها- إلا أن حقوق العباد خارج هذا النطاق، فالله تعالى ترك للعبد المظلوم حرية اختيار العفو إن أراد، وإذا تاب العبد من الظلم فعليه أولًا أن يطلب العفو ممن ظلمه، قال رسول الله ﷺ:

«يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين» [٦٤٣]

فإذا كان هذا هو حال من افتدى بروحه دين الله تعالى، فكيف سيكون حال الذين اعتدوا على حقوق العباد، فلا يمكن أن يغفر الله لهم ما لم ينالوا العفو من صاحب المظلمة.

ولذلك نهى الله تعالى العباد أن يتجاوزوا على حقوق غيرهم فقال:

---

٦٤١ النور: ٢٢.

٦٤٢ التين: ٤.

٦٤٣ مسلم، إمارة، ١١٩/ ١٨٨٦.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٦٤٤]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [٦٤٥]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«من حلف على يمين كاذبا ليقتطع مال رجل – أو قال: أخيه – لقي الله وهو عليه غضبان» [٦٤٦]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»

فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال:

«وإن قضيبا من أراك» [٦٤٧]

وقد أخبر الرسول ﷺ عن عاقبة من أخذ شيئًا بغير حقه، فقال:

«إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة» [٦٤٨]

«من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه» [٦٤٩]

---

٦٤٤ البقرة: ١٨٨.

٦٤٥ النساء: ٢٩.

٦٤٦ البخاري/ ٢٦٧٦.

٦٤٧ مسلم، الإيمان، ٢١٨/ ١٣٧.

٦٤٨ البخاري، الخمس، ٧/ ٣١١٨.

٦٤٩ البخاري، مظالم، ١٠/ ٦٥٣٤، رقاق، ٤٨.

وذات يوم قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أتدرون ما المفلس؟»

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال:

«إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» [٦٥٠]

وإن من أفحش الظلم والاعتداء على حقوق الغير أكل الربا والتعامل به، وقد توعد الحق تعالى من يقوم بهذا الظلم بالعذاب الأليم، وبالأخص آكلي الربا، المعلنون الحرب على الله تعالى ورسوله، وسيبعثون يوم القيامة يتخبطون كمن أصابه مس من الشيطان، يذهب الله بركة آخذي الربا مما كسبوه منه ويمحق الربا في حين أنهم كانوا يأملون منه ربحًا عظيمًا، وأما التجارة من طريق حلال فيبارك فيها، ويبغض الله تعالى عباده آكلي الربا. [٦٥١]

يقول الله تعالى:

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٦٥٢]

ووفق بيان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فإن الربا من الموبقات السبع،[٦٥٣] وقد لعن الله تعالى آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده، [٦٥٤] ثم إنه

---

٦٥٠ مسلم، البر، ٥٩/ ٢٥٨١؛ الترمذي، القيامة، ٢؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٧٢.

٦٥١ انظر: البقرة، ٢٧٥-٢٧٩؛ الروم، ٣٩.

٦٥٢ النساء: ١٦١.

٦٥٣ انظر: البخاري، الوصايا، ٢٣، الطب، ٣٨، الحدود، ٤٤/ ٦٨٥٧؛ مسلم، الإيمان، ١٤٥/ ٨٩.

٦٥٤ انظر: أبو داوود، البيوع، ٤، ٣٣٣٣؛ الترمذي، البيوع، ٢؛ أحمد، مسند، ١، ٣٩٣.

محكوم على المال المكتسب من الربا بالزوال، وقد أوضح النبي عليه الصلاة والسلام العذاب الذي سيلاقيه آكل الربا، حيث رآهم يسبحون في نهر أحمر كالدم ويلقّمون الحجارة. [٦٥٥]

وإن المرء حين يتساهل في معاملاته التجارية يقع في التعدي على حقوق العباد، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [٦٥٦]

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦٥٧]

فالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام رسول يفكر بالرحمة والشفقة كثيرًا، ولذلك كان يحذر أصحابه من الموبقات المادية والمعنوية، وبالتالي كان يُحذر الذين يتعاملون بالكيل والميزان، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يومًا لأصحاب المكيال والميزان:

«إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه أمم سالفة قبلكم» [٦٥٨]

فالله ورسوله قد نبها وحذرا مَن يتساهل في المعاملات التجارية من البيع والشراء وغيرها بأن مصيرهم الانجراف نحو الهلاك، لأن دعاء المظلوم مستجاب وآهاته مؤثرة.

---

٦٥٥ انظر: البخاري، تعبير، ٤٨،

٦٥٦ الإسراء: ٣٥.

٦٥٧ المطففين: ١ ـ ٦.

٦٥٨ الترمذي، البيوع، ٩/ ١٢١٧.

ومن أشد أنواع الاعتداء على حقوق الآخرين أن تأخذ شيئًا مما جُعل وقفًا لله تعالى، أو أن تأخذ شيئًا من مال الدولة الذي هو من حق العامة، أو أن تأخذه بطريقةٍ غير شرعية، فهذا أمر خطير، لأنه في نهاية الأمر عندما تندم وتريد أن تكفر عن ذنبك وترد الحق لأهله فلن تجد من تخاطبه وتطلب منه العفو.

وبالأخص من يصدرون القرارات بين الناس، ويديرون شؤونهم، فيجب على هؤلاء أن يتعاملوا مع حقوق الآخرين بدقة وحساسية وبنفس الشكل، فالذي يطلب حقه من أحدٍ أمام الحاكم، يجب على الحاكم أن يتحقق من صدق حديثه إن كان محقًا.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**» [٦٥٩]

إضافة إلى ذلك، إذا سرق أحدهم شيئًا أو أخذه من غير إذن صاحبه ولو كان مازحًا بذلك، ما هو إلا تشويه لشرفه وكرامته، وإذا قام امرؤ بإزعاج الناس أو تخويفهم أو خداعهم أو التعامل معهم بالرشوة أو تأجيل دفع الديون أو أن يُظهر لهم بأنه لن يدفع دينهم وإن كان مازحاً، فهذا كله ما هو إلا انتهاكٌ لحقوق العباد.

ولأن الاعتداء على حقوق الآخرين من المحرمات، فإن الآثار السلبية تطال معنويات الناس، فتكون السبب الرئيسي ليحجبوا عن الأعمال الصالحة، لذلك على العبد أن يرعى حقوق العباد ويلتزم بأمر الله تعالى في تعاملاته ليكرمه الله تعالى بالعبودية والخشوع بين يديه وهو يؤدي عباداته الخالصة لله تعالى.

---

٦٥٩ البخاري، شهادات، ٢٧/ ٢٦٨٠؛ مسلم، عقائد، ٤/ ١٧١٣.

صور الفضائل

عن حرب بن سريج قال: حدثني رجل من بلعدوية قال: حدثني جدي قال: «انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي، فإذا رجلان بينهما عنز واحدة، وإذا المشتري يقول للبائع: أحسن مبايعتي. قال: فقلت في نفسي: هذا الهاشمي الذي قد أضل الناس، أهو هو؟ قال: فنظرت فإذا رجل حسن الجسم، عظيم الجبهة، دقيق الأنف، دقيق الحاجبين، وإذا من ثغرة نحره إلى سرته مثل الخيط الأسود، شعر أسود، وإذا هو بين طمرين.

قال: فدنا منا فقال: السلام عليكم. فرددنا عليه، فلم ألبث أن دعا المشتري. فقال: يا رسول الله، قل له يحسن مبايعتي. فمد يده وقال:

«**أموالكم تملكون، إني أرجو أن ألقى الله ﷻ يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال، ولا في دم، ولا عرض، إلا بحقه، رحم الله امرأ سهل البيع، سهل الشراء، سهل الأخذ، سهل العطاء، سهل القضاء، سهل التقاضي**».

ثم مضى، فقلت: والله لأقصن هذا فإنه حسن القول، فتبعته فقلت: يا محمد، فالتفت إلي بجميعه فقال: «**ما تشاء؟**». فقلت: أنت الذي أضللت الناس، وأهلكتهم، وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم؟ قال: «**ذاك الله**». قال: ما تدعو إليه؟ قال: «**أدعو عباد الله إلى الله**». قال: قلت: ما تقول؟ قال:

«**أشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله، وتؤمن بما أنزله علي، وتكفر باللات والعزى، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة**»

قال: قلت: وما الزكاة؟ قال: «**يرد غنينا على فقيرنا**». قال: قلت: نعم الشيء تدعو إليه. قال: فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إلي منه، فما برح حتى كان أحب إلي من ولدي، ووالدي، ومن الناس أجمعين. قال: فقلت: قد عرفت. قال: «قد عرفت». قلت: نعم. قال:

«**تشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، وتؤمن بما أنزل علي؟**»

قال: قلت: نعم يا رسول الله، إني أرد ماء عليه كثير من الناس، فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه، فإني أرجو أن يتبعوك. قال: «**نعم فادعهم**». فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم، فمسح رسول الله ﷺ رأسه. [٦٦٠]

❁

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سَعِّرْ لنا، فقال:

«**إن الله هو المسعر، القابض، الباسط، الرزاق، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال**» [٦٦١]

❁

لما تجهز الناس إلى خيبر شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خيبر أهلك الله خيبر كما أهلك بني قينقاع والنضير وقريظة. قال: فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال: أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها. وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال. فقال أبو الشحم حسدا وبغيا: تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل!

قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله! تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا؟

---

٦٦٠ الهيثمي ، مجمع الزاوائد، ٩، ١٨/ ١٤٢٠٨.

٦٦١ الترمذي، البيوع، ٧٣/ ١٣١٤؛ أبو داوود، البيوع ٤٩/ ٣٤٥١.

والله لأرفعنك إلى رسول الله! فقلت: يا رسول الله ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم. فأسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئا، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه، فقال اليهودي: يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني وحبسني بحقي وأخذ طعامي! قال رسول الله ﷺ:

أعطه حقه. قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت علي عمامة فاستدفأت بها. [٦٦٢]

وهكذا يتبين لنا أن حقوق العباد عند رسول الله ﷺ فوق كل أمر.

❀

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ، فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ:

«كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها – أو عباءة –»

ثم قال رسول الله ﷺ:

«يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس، أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» [٦٦٣]

كلُّ الجيش لهم الحق من الغنيمة، وإذا أخذ قبل التقسيم من الغنيمة شيئًا ولو كان قليلًا فإنه بذلك يتعدى على حقوق الغير، ومن ناحية أخرى لا يمكن الفوز بصفة المسلم الحقيقي إن لم يكن مطيعًا، خاضعًا، مستسلمًا لكل أوامر الله ورسوله، ومن الضروري أن تصطبغ كل صفحة من صفحات حياتنا بالإسلام يعني في حياة العائلة وحياة التجارة والمناسبات الاجتماعية... إلخ، وأن لا نقع في غفلةٍ في أي من الميادين.

وتفيد هذه الآية وجوب العيش بالإسلام في كل ميادين حياتنا، قال الله عز وجل:

٦٦٢ الواقدي، المغازي، ٢، ٦٣٤ـ٦٣٥؛ أحمد، مسند، ٣، ٤٢٣.

٦٦٣ مسلم، الأيمان، ١٨٣/ ١١٤.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٦٦٤]

لما أنزلت هذه الآية اِبيَضّ شعر النبي ﷺ ولحيته، من الخوف والقلق. [٦٦٥]

ولكن كما قال المفسرون ليس الشيب لذاته ﷺ، وإنما من أجل أمته التي كان يخاف عليها، وينظر إليها دومًا بعين الرحمة والرأفة، إلا أن النبي ﷺ المؤيد بقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٦٦٦]

كان يخشى على أمته الضعف في هذا الشأن.

❀

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي، ومع رسول الله ﷺ عبد له، وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي، قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله، فرمي بسهم، فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئا له الشهادة يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ:

«كلا والذي نفس محمد بيده، إن الشملة لتلتهب عليه نارا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم»

قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله، أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

«شراك من نار أو شراكان من نار» [٦٦٧]

---

٦٦٤ هود: ١١٢.

٦٦٥ انظر: الترمذي، تفسير السورة، ٥٦/ ٣٢٩٧.

٦٦٦ يس: ٣-٤.

٦٦٧ البخاري الأيمان والنذور، ٣٣/ ٦٧٠٧؛ مسلم، الإيمان، ١٨٣/ ١١٥.

وفي رواية أخرى:

كان على ثقل النبي ﷺ، رجل يقال له كركرة، فمات فقال رسول الله ﷺ: «**هو في النار**»، فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلها. [٦٦٨]

❁

بعد فتح مكة بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمرَ خالد أن يقتل كلُ رجلٍ منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده، فقال:

«**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»

وبعث رسول الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه فودى لهم قتلاهم، قال له:

«**يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك**».

فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال، حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي رضي الله عنه حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا. قال: فإني. أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطا لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر: فقال: «**أصبت وأحسنت!**» [٦٦٩]

❁

٦٦٨ البخاري، الجهاد، ١٩٠/ ٣٠٧٤؛ ابن ماجه، الجهاد ٣٤ / ٢٨٤٩.

٦٦٩ البخاري، المغازي، ٥٨/ ٤٣٣٩، أحكام٣٥؛ النسائي، أدب القضاة، ١٦؛ ابن هشام، سيرة، ٤، ٥٣-٥٧؛ الواقدي، المغازي، ٣، ٨٧٥-٨٨٤.

كان أبو زرعة الجهني رضي الله عنه، يقول:

لما أراد ﷺ أن يركب من قرن راحلته القصواء وطئت له على يديها، والزمام في يدي مطوي، فركب على الرحل وناولته الزمام، ودرت من خلفه فخلف [٦٧٠] الناقة بالسوط، كل ذلك يصيبني، فالتفت إلي فقال: «**أصابك السوط؟**» قلت: نعم بأبي وأمي! قال: فلما نزل الجعرانة إذا ربضة [٦٧١] من الغنم ناحية من الغنائم، فسأل عنها صاحب الغنائم فخبره عنها بشيء لا أحفظه، ثم صاح: «**أين أبو زرعة؟**» قال: قلت: ها أنا ذا! قال: «**خذ هذه الغنم بالذي أصابك من السوط أمس**». قال: فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس. قال: فتأثلت [٦٧٢] بها مالا. [٦٧٣]

كان النبي عليه الصلاة والسلام يعطي هذا من نصيبه من الغنائم.

❀

كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادى في الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمسه ويقسمه، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال: يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة. فقال: «**أسمعت بلالا ينادي ثلاثا؟**» قال: نعم. قال: «**فما منعك أن تجيء به؟**» فاعتذر إليه، فقال:

«**كن أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله عنك**» [٦٧٤]

لم يقبل الرسول ﷺ ما جيء من الغنيمة، ولم يقبله من الرجل، لأن الغنيمة حق لكل جيش المسلمين، ولأن جمع الجيش بعد تفرقهم أمرٌ غير ممكن.

❀

---

٦٧٠ أي ضربه بسوطه على خلفها.

٦٧١ الربضة: الجماعة.

٦٧٢ تأثل مالا: اكتسبه واتخذه وثمره.

٦٧٣ الواقدي، المغازي، ٣، ٩٣٩-٩٤٠.

٦٧٤ أبو داوود، الجهادن ١٣٤/ ٢٧١٢.

خطب النبي ﷺ في أصحابه قبل وفاته مرة، فكان خطابه مثل الوصية، وكانت وصيته تذكرة للمؤمنين، وكان يتناول فيها حقوق العباد، فقال: «**يا أيها الناس، من عنده من الغُلول شيءٌ فلْيَرُدَّه**»، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، عندي ثلاثةُ دراهمَ غللتها في سبيل الله، قال: «**فلم غللتها؟**» قال كنت إليها محتاجا، قال: «**خذها منه يا فضل**»، ثم عاد رسول اللهِ ﷺ في مقالتِه الأولى، وقال: «**يا أيها الناس، من أحسَّ من نفسه شيئًا فلْيَقُمْ، أدعو الله**» فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله، إني لمنافقٌ وإني لَكذوبٌ وإني لَشَؤومٌ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويحك أيها الرجل، لقد سترك الله، لو سترت على نفسِك، فقال رسول الله ﷺ:

«**يا بن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا، وأذهب عنه النوم إذا شاء**» [٦٧٥]

ثم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**يا أيها الناس، ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت منه مالا فهذا مالي فليستقد منه، ألا لا يقولن رجل: إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقا إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس، ألا وإني لا أرى ذلك مغنيا عني حتى أقوم فيكم مرارا**»

ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، وكرر ما قاله سابقًا، فقام منهم رجل فقال: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم فقال: «**أما إنا لا نكذب قائلا ولا نستحلفه فيهم، فبم صارت لك عندي؟**» قال: أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني، فأعطيته ثلاثة دراهم قال: «**ادفعها إليه يا فضل**»[٦٧٦]

---

٦٧٥ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٢٥٥؛ الطبري، تاريخ، ٣، ١٩٠؛ الهيثمي، ٩، ٢٦.

٦٧٦ الطبراني، الأحاديث الطوال، ١، ٢٧١.

ثم دعا بقوله:

«اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة» [٦٧٧]

وفي رواية أخرى:

«اللهم إني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه، إنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته، أو شتمته، أو جلدته، أو لعنته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها يوم القيامة»[٦٧٨]

وهذا التصرف الجليل من سيد الكائنات ﷺ نموذج ينبغي على كل فرد في المجتمع من أصغر الإداريين إلى أكبرهم أن يأخذه قدوة، فكم هو عظيم ﷺ يفيد بإمكانية وجود حق للغير عليه مع أنه معصوم عن الخطأ ومُؤَيَّدٌ من الله سبحانه وتعالى، حيث قال على الملأ من الصحابة: من كان له حق عليه فليأت ليأخذه، وبتصرفه بهذا السلوك الرفيع، وإضافة الخطأ لنفسه ﷺ كان مثالًا يحتذى به.

وهكذ فقد علَّم الإنسانية جمعاء إيلاء الاهتمام الكبير في أداء الحقوق، وأنه لا يمكن الوصول إلى الشيء اليسير من اهتمامه ﷺ.

❀

عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال:

لما حضرت عبادة الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، ثم قال: اجمعوا لي موالي وخدمي وجيراني ومن كان يدخل علي، فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء وهو الذي نفسي بيده القصاص يوم القيامة! وأحرج١ إلى أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص

---

٦٧٧ مسلم، البر، ٨٩/ ٢٦٠١؛ أحمد، مسند، ٣، ٤٠٠.

٦٧٨ البخاري، الدعوات، ٣٤، أحمد، مسند، ١٣، ٥٢٠.

مني من قبل أن تخرج نفسي، فقالوا: بل كنت والدا وكنت مؤدبا، قال: وما قال لخادم سوءا قط فقال: أعفوتم ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد! ثم قال: أما لا فاحفظوا وصيتي، أحرج على إنسان منكم يبكي علي، فإذا خرجت نفسي فتوضؤا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجدا فيصلي ثم يستغفر لعبادة ولنفسه فإن الله تعالى قال: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ [٦٧٩]، ثم أسرعوا بي إلى حفرتي، ولا تتبعوني نارا، ولا تصبغوا علي أُرْجُوان. [٦٨٠]

❀

عن عبد الله بن الزبير، قال:

لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه فقال: يا بني، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوما، وإن من أكبر همي لديني، أفترى يبقي ديننا من مالنا شيئا؟ فقال: يا بني بع مالنا، فاقض ديني، وأوصى بالثلث، وثلثه لبنيه – يعني بني عبد الله بن الزبير – يقول: ثلث الثلث، فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين شيء، فثلثه لولدك، – قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله، قد وازى بعض بني الزبير، خبيب، وعباد وله يومئذ تسعة بنين، وتسع بنات –، قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه، ويقول: «يا بني إن عجزت عنه في شيء، فاستعن عليه مولاي»، قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبة من مولاك؟ قال: «الله»، قال: فوالله ما وقعت في كربة من دينه، إلا قلت: يا مولى [٦٨١] الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه، فقتل الزبير رضي الله عنه، ولم يدع دينارا ولا درهما إلا أرضين، منها الغابة، وإحدى عشرة دارا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارا بالكوفة، ودارا بمصر، قال: وإنما كان دينه الذي عليه، أن الرجل كان يأتيه

---

٦٧٩ البقرة: ٤٥.

٦٨٠ علي المتقي، كنز العمال، ١٣، ٥٥٤/ ٣٧٤٤٤.

٦٨١ مولى هو مع كونه اسما من أسماء الله تعالى وهو في ذاك الزمان الحامي، مساعد صاحب صديق السيد الذي أعتق عبده العبدالمعتِق أحد طرفي الموالاة وهو ما استعمل كثيراً في ذاك الزمان.

بالمال، فيستودعه إياه، فيقول الزبير: «لا ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة»، وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج، ولا شيئا إلا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ، أو مع أبي بكر، وعمر، وعثمان ﭫ، قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدين ، فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف، قال: فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن أخي، كم على أخي من الدين فكتمه؟ فقال: مائة ألف، فقال حكيم: والله ما أرى أموالكم تسع لهذه، فقال له عبد الله: أفرأيتك إن كانت ألفي ألف ومائتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي، قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وست مائة ألف، ثم قام: فقال من كان له على الزبير حق، فليوافنا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربع مائة ألف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم، قال عبد الله: لا، قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم؟ فقال عبد الله: لا، قال: قال: فاقطعوا لي قطعة، فقال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا، قال: فباع منها فقضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية، وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن الزبير، وابن زمعة، فقال له معاوية: كم قومت الغابة؟ قال: كل سهم مائة ألف، قال: كم بقي؟ قال: أربعة أسهم ونصف، قال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهما بمائة ألف، قال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهما بمائة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذت سهما بمائة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف، قال: قد أخذته بخمسين ومائة ألف، قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بست مائة ألف، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه، قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: لا، والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، قال: فجعل كل سنة ينادي بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم. [٦٨٢]

٦٨٢ البخاري، فرض الخمس، ١٣/ ٣١٢٩.

يتبين من هذا الحديث كيف كان جميع الصحابة يحرصون على قضاء حقوق العباد، ولا يتساهلون فيها أبدًا، لقد عاش الزبير ﷺ حياته حريصًا على حقوق الآخرين، محسنًا لمن حوله من الناس، ويتبين بتنبيهه الشديد المستمر على قضاء دينه قبل وفاته حرصه على حقوق الآخرين، فقد بذل ابنه عبد الله قصارى جهده، وفعل كل شيء من أجل قضاء دين والده، وباقي الصحابة ﷺ كانوا يسألون عن حال عبد الله، ليتقاسموا مصيبته ويسارعوا لمساعدته، وقد ساعده الناس الذين استدان منهم، ويسروا له أمره، إما بتأجيل قضاء الدين أو بالعفو عن الدين.

❁

ويُروى أنه جاءت امرأة إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة تريد أن تبيعه ثوبًا من حرير، فقال: كم ثمنه؟ فقالت: مئة، فقال: هو خير من مئة، بكم تقولين؟ اندهشت المرأة فزادت مئة، ولكنَّ أبا حنيفة لم يرض أيضًا حتى قالت: أربعمائة، قال: هو خير من ذلك، قالت: تهزأ بي؟ قال: هاتي رجلًا يقوّمه، فجاءت برجل، فاشتراه بخمسمائة.

هذه هي الأخلاق الإسلامية في التجارة، فليست التجارة في الإسلام تعني الكسب الكثير من المشتري، ومقدار الربح الذي سيحصله التاجر من الربح، وإنما هي قضاء لحوائج الخلق ومراعاة لحقوقهم.

❁

لقد كان سيدنا أبو حنيفة ﷺ صُلبًا وشديدًا في مخالفة ومحاربة النفس، وطالما انتصر في هذه الميادين، فقد وصى في أنفاسه الأخيرة أن يُدفن في أرضٍ طيبةٍ غيرِ مغصوبة.[٦٨٣] [٦٨٤]

---

٦٨٣ أبو زهراء، أبو حنيقة، ص ٦٤.

٦٨٤ أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، كلَف الإمام الأعظم أبا حنيفة ﷺ قاضيًا لبغداد، ولكن أبا حنيفة رفض، لأنه كان يفسر قبوله للقضاء دعما للظلم الذي سيقوم به الخليفة وبقاءه تحت ضغط الإدارة عند

ويروى أن السلطان سليمان القانوني كان يخاف من حقوق الآخرين كثيرًا، وكان يجتهد أن يكون خليفة عادلًا، وعندما أنهى مسجدَ السليمانية وكليته، جمع كل العاملين فيه من مهندسيه إلى عماله، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بدأ الكلام قائلًا:

«أيها الإخوة المؤمنون، لقد تم بإذن الله تعالى بناء المسجد، إن كان هناك أحدٌ لم يأخذ أجره خطًأ منا فليأتي وليأخذه، ربما الذي لم يأخذ أجره ليس هنا الآن، فرجائي من الحاضرين أن يعلموا الغائبين فليأتوا وليأخذوا حقوقهم»

وتبين من التدقيق في الوثائق أنه قد تم تنظيم برنامج للحيوانات أيضًا في أصعب أوقات البناء، فالبغال والحمير والمراكب التي عملت تم تحديد ساعات لها من أجل الاستراحة والرعي في المراعي أيضًا، وقد حاول السلطان جاهدًا أن لا يتعدى على حق أحدٍ من المخلوقات، ولربما كان اهتمام السلطان سليمان القانوني بحقوق الآخرين من إنسان وحيوان سبب ما يستشعره المرء في المسجد من الأسرار والروحانية.

❀

لم يعمل محمود سامي رمضان أوغلو –أحد أولياء الله تعالى– في مجال الحقوق رغم حصوله على شهادة الحقوق، وذلك خوفًا من الاعتداء على حقوق الآخرين، ورجح أن يمسك بدفتر الحسابات في مكان عملٍ في منطقة «طختة قلعة» وكان يتعامل بحساسية بالغة تجاه حقوق الآخرين، وكان عندما يجتاز قرية «قاراكوي» بالسفينة من أجل الوصول إلى العمل، يهتم بتجهيز الليرات مسبقًا

إصداره للحكم .ولهذا السبب أمر الخليفة بإلقاءه في السجن وأمر بجلده، وكان يعرض عليه من وقت لآخر الإفراج عنه إن قَبِل القضاء ولكن الإمام الأعظم كان يقول: أفضل البقاء في السجن بدلا من أن أجتهد، أخرج من السجن بسبب تقدمه في السن وهو في حالة إرهاقٍ وعند اقتراب أجله أوصى بهذه الوصية، معنى ذلك أنه لم يرض أن يُدفن في أرضٍ غصبت من طرف المنصور . وفي وفاته اجتمع حشد كبير من الناس من أجل صلاة الجنازة ولم تشهد بغداد هذا الحشد الكبير من الناس من قبل ،و جاء المنصور عند قبره بعد تفرق الناس وصلى عليه وبقي عند قبره قليلًا مندهشًا يفكر ويفكر وهو في ندمٍ شديد.

للحصول على تذكرة كي لا يتعدى على حقوق غيره بانتظارهم له.وعند عودته من «قاراكوي» بدلًا من ركوبه الحافلة من قراكوي إلى «طختة قلعة» كان يتصدق بالمال ـ الذي هو بحاجة له ـ ويُنفقه على المحتاجين، ويذهب إلى بيته ماشيًا.

ما أروعه من مثال للاهتمام المستمر والتفكير الدقيق بحقوق الآخرين الذي تميز به كبارُنا وجعلوا منه نموذجًا في تربيتنا وتربية الأجيال القادمة من بعد.

❀

وختامًا...

يجب على الإنسان أن يفكر بيوم الحساب ولا يتعدى حقوق غيره، وما أجمل ما قاله سيدنا محمد ﷺ:

«**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده..**» [٦٨٥]

وأما من انتقل من الدنيا محملًا بحقوق الآخرين ومظالمهم فسيصيبه الخسران والندم، ولهذا السبب ينبغي على المسلم الذي تعدى على حقوق أحدٍ من الناس عن علمٍ أو عن خطأ أن يطلب العفو منه، ويعيد ما أخذه، ويطلب العفو قبل فوات الآوانٍ، وإن كان هذا الأمر سيكلفه كثيرًا، فمعاناة المرء من الضيق والعار في الدنيا أسهل من أن يعانيهما في الآخرة.

عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أن رَسُول الله ﷺ، قَال:

«**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء**» [٦٨٦]

وإن من أولى وأهم الناس اللذين يجب على المرء أن يهتم بحقوقهم في الحياة الدنيوية والداه وعائلته وأقرباءه وجيرانه، وكل الناس الذين يرتبط معهم بعلاقة اجتماعية، أو يحيطون به، فلنقف عند هذه الأقسام وقفة موجزة.

---

٦٨٥ البخاري، الإيمان، ٤–٥/ ٦٤٨٤.

٦٨٦ مسلم، البر، ٦٠ / ٢٥٨٢؛ الترمذي، القيامة، ٢ ؛ أحمد، مسند، ٢، ٢٣٥ ، ٣٢٣ ، ٣٧٢، ٤١١.

أ- حقوق الوالدين

حقوق الوالدين من أهم حقوق العباد، وطاعة الوالدين تأتي بعد طاعة الله ورسوله، لأن آباءنا وأمهاتنا أولياء نعمتنا وسبب وجودنا في هذه الحياة، وهما نموذج الفضيلة الذي كوَّن حياتنا المعنوية، فحضن الأم وقلبها مدرسةٌ عظيمة لتربية الطفل، وبيت الأسرة هو أول مؤسسة لتشكيل وتكوين مستقبل الأطفال، ولهذا كانت حقوق الأبوين على الأولاد كثيرة لا تعد ولا تحصى.

فالوالدان الفاضلان هما نعمة وبركة كبيرة للأولاد، فالأم الصالحة رحمة من الرحمات الإلهية التي أسبغها الله تعالى على البشرية، وهي نبع السعادة، ونور الروحانية والصفاء وهي نبع الشفقة لكل فرد، واسما «الرحمن والرحيم» هما اسمان استثنائيان من أسماء الله تعالى، يتجليان في الدنيا، فالأم التي حمَلَتْنا في بطنها وذراعيها مدة من الزمن، وحملتنا في قلبها إلى الممات، لم يخلق الله تعالى أحدًا مثلها كي نشاركها في حبنا واحترامنا لها.

والأمهات اللاتي حملن أمانة العناية بالأسرة وتربية الأطفال يستحقون محبةً عظيمة واحترامًا عميقًا وشكرًا مستمرًا مدى الحياة، فهل يوجد معيار يتم به تعيين حدود الشفقة العظمى المتجمعة التي تحملها الأم في قلبها؟ فهي التي أطعمتهم ولم تأكل، وألبستهم ولم تلبس، وسهرت لراحتهم ولم تنم، هل من الممكن أداء حق من قدما كل ما بوسعهما كي لا يصيبنا غبار من عواصف الحياة التي تهب؟.. وما ألطف ما قاله حضرة مولانا فيهما:

«انتبه لحقوق الأم! اجعلها تاجًا على رأسك! فلو لم تعانِ الأم من آلام الولادة، لما وجد الأولاد طريقًا للوصول إلى الدنيا».

إن الله تعالى جعل حقوق الوالدين، والتعامل معهما معاملة حسنة ولطيفة في المرتبة الأولى بعد حقه تعالى فقال سبحانه:

﴿وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمسَاكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [٦٨٧]

وقال أيضًا:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [٦٨٨]

ولقد ربط الله سبحانه وتعالى رضاه برضا الوالدين، وأخبر عن ذلك الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، فقال:

«**رضى الرب في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**» [٦٨٩]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**من بَرَّ والديه طوبى له زاد الله في عمره**» [٦٩٠]

فدعاء رسول الله ﷺ فخر العالمين أكبر بشارة للمؤمنين.

حقوق الوالدين على الأبناء كثيرة ومن الصعب أداء حقهما بل يستحيل، قال رسول ﷺ ـ يلفت انتباه الناس لحقوق الوالدين ـ:

«**لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**» [٦٩١]

ولهذا إذا أراد المرء القيام بالأعمال الصالحة لوجه الله تعالى، فيجب عليه أن يُفكر بأبويه أولًا، وبعدهما الأقرب فالأقرب، قال تعالى في كتابه العزيز:

---

٦٨٧ النساء: ٣٦.

٦٨٨ لقمان: ١٤.

٦٨٩ الترمذي، البر، ٣/ ١٨٩٩.

٦٩٠ الهيثمي، ٨، ١٣٧.

٦٩١ مسلم، العتق، ٢٥/ ١٥١٠؛ أبو داوود، الأدب، ١١٩ ـ ١٢٠؛ الترمذي، البر، ٨/ ١٩٠٦.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٦٩٢]

فالأولاد مكلفون باحترام الوالدين وطاعتهما والقيام بخدمتهما، وإن كانا بعيدين أو مقيمين في مدينة أخرى فيجب عليهم زيارتهما وأن يطيِّبُوا قلبهما، ويكرموهما، ويطلبوا الدعاء منهما، وخاصة عندما يتقدمون في السن، فالأولاد قد استقرضوا من الوالدين أعلى مراتب الإخلاص، ولم يسمح ربنا الأعلى ولو بأصغر نوع من أنواع الأذى تجاههما، قال تعالى في كتابه المنزل:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [٦٩٣]

فمن أفضل أنواع الأعمال الصالحة التي يقوم بها المرء طاعة الوالدين، والشخص الذي لم يغتنم هذه الفرصة فهو في ضياع، ولذلك حذَّرنا الرسول ﷺ من هذا، فقال:

«رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه»

قيل: من؟ يا رسول الله قال:

«من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة» [٦٩٤]

ولا يمكن بطبيعة الحال تصور وإدراك شخص يحسن للآخرين ولا يراعي حق والديه اللذين لهما أعظم الحقوق عليه، والذي لا يُحسن لأبويه – فهو بلا شك– يعاني ضعفًا أخلاقيًا عميقًا.

---

٦٩٢ البقرة: ٢١٥.

٦٩٣ الإسراء: ٢٣ـ ٢٤.

٦٩٤ مسلم، البر، ٩، ١٠/ ٢٥٥١.

فدعاء الوالدين مستجاب، ويجب على المرء أن يجتهد في طلب الدعاء منهما، وأن يحذر من دعاويهما عليه. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده» [٦٩٥]

ودعاء الأم أشد تأثيرًا من دعاء الأب، ولذا لم تكن ثمة حاجة إلى ورود الحديث بشأنه. ويعد عصيان الوالدين من أكبر المعاصي. [٦٩٦]

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، وكان متكئا فجلس فقال:

«ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور»

فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. [٦٩٧]

وفي بعض الروايات عن النبي عليه الصلاة والسلام:

«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه..» [٦٩٨]

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى حقيقة ألا وهي أن المرء يُعامَل من قبل أولاده بما كان يعامِل به والداه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«... بروا آباءكم، تبركم أبناؤكم..» [٦٩٩]

---

٦٩٥ الترمذي، البر، ٧/ ١٩٠٥،الدعوات، ٤٧؛ أبو داوود، الوتر، ٢٩/ ١٥٣٦؛ ابن ماجه، الدعاء، ١١.

٦٩٦ الكبائر في الأصل ليست المذكورة في هذا الحديث فقط. فالنبي ﷺ ذكر الكبائر في حديثٍ آخر أيضًا، أما الفروق الموجودة في هذه الأحاديث فهي تنطلق بحسب الحادثة والزمان والمكان الذي وُجد فيه الرسول ﷺ وعلى حسب وضع المخاطب أيضًا.

٦٩٧ البخاري، الشهادات، ١٠، الأدب ٦، الإستئذان، ٣٥، الاستطابة، ١؛ مسلم، الإيمان، ١٤٣

٦٩٨ انظر: النسائي، الزكاة، ٦٩.

٦٩٩ الحاكم، المستدرك، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٨.

فمن المشاهد المليئة بالعبرة والعظة ما نراه من المعاملة السيئة من الأولاد لآبائهم الذين كانوا قد عقوا آبائهم قبلًا وأساءوا معاملتهم ولم يبروهم.

حين يتعامل الناس مع آبائهم أو فيما بينهم وفق قواعد الأدب واللباقة الإسلامية فسنرى مجتمعًا تملؤه الطمأنينة في أقصى حدودها، ولبلغ من الأمان ما يغبط به، وقد بين المؤلف الفرنسي برابر صور الفضائل التي شاهدها في المجتمع العثماني، من خلال بعض المقارنات التي أجراها فقال:

«لقد كان الأولاد عندما يكبرون في المجتمع العثماني يعاملون آباءهم بنفس الشفقة والرحمة التي كان الآباء يعاملونهم بها في صغرهم، في حين أنَّ الأولاد في باقي الدول كانوا ـ عند وصولهم إلى سن البلوغ ـ يفترقون عن آبائهم وأمهاتهم، ويختلفون معهم على أبسط الأمور من أجل المنافع المادية، وفي بعض الأحيان ـ ورغم الرفاهية التي يتمتع بها هؤلاء الآباء في حياتهم ـ يعيشون في حياة بائسة، ويشعر الأبناء أنهم مثل الغرباء تجاه آبائهم وأمهاتهم عندما يكونون بأمس الحاجة إليهم»

جعلنا الله جميعًا من الفائزين في حضرته تعالى بشرف بِرِّ والدينا وإدخال السرور إلى قلبهما... آمين

صور الفضائل

عن أبي هريرة ﵁ قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**» [700]

700 البخاري، الأدب، ٢/ ٥٩٧١؛ مسلم، البر، ١/ ٢٥٤٨.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال:

«**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك**» [٧٠١]

❀

وعن ابن مسعود ﷺ قال:

سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العملِ أفضل؟ قال: «**الصلاة لوقتها**»، قال: قلت ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قال: قلتَ: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، فما تركت استزيده إلا إرعاء عليه. [٧٠٢]

❀

وعن عائشة ﷺ قالت:

أتى النبي ﷺ رجلٌ ومعه شيخ، فقال له: «**يا فلان، من هذا معك؟**» قال: أبي، قال:

«**فلا تمش أمامه، ولا تجلس قبله، ولا تدعُه باسمه، ولا تستسب له**» [٧٠٣]

فمن أساء معاملة الآخرين وقام باستحقارهم وإهانتهم وسب آبائهم، فإنهم بالمقابل سيردون عليه بالإساءة والاستحقار له ولأبيه أيضًا، فيكون بهذا قد أساء إلى والده أيضًا.

❀

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك؟**»، قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**» [٧٠٤]

❀

---

٧٠١ مسلم ، البر، ٢/ ٢٥٤٨.

٧٠٢ البخاري، باب المواقيت، ٥ ،باب الجهاد، ١؛ رواه مسلم، باب الإيمان، ١٣٧–١٣٩/ ٨٥.

٧٠٣ الهيثمي، ٨، ١٣٧/ ١٣٣٩٦.

٧٠٤ البخاري، الجهاد، ١٣٨/ ٣٠٠٤؛ الأدب، ٣؛ مسلم ، البر، ٥/ ٢٥٤٩.

عن أبي سعيد الخدري ﵁، قال:

أن رجلا هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**»، قال: أبواي، قال: «**أذنا لك؟**» قال: «**لا**»، قال:

«**ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما**» [٧٠٥]

❀

وروي أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبواي يبكيان، فقال:

«**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**» [٧٠٦]

فإن كانت الهجرة والخروج إلى جهاد النافلة يستوجب الاستئذان من الوالدين فمن الأولى الاستئذان منهما في باقي الأمور. [٧٠٧]

❀

يروى أن رسول الله ﷺ كان جالسا فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه. [٧٠٨]

وترك رسول الله ﷺ إكرامًا لأقربائه من الرضاعة ما كان له من الأسرى في يوم حنين، وجعلهم أحرارًا، والصحابة فعلوا ما فعله الرسول تأسيًا به، قالوا: نحن

---

٧٠٥ أبو داوود، الجهاد، ١٣/ ٢٥٣٠.

٧٠٦ أبو داوود، الجهاد، ٣١/ ٢٥٢٨؛ النسائي، البيعة، ١٠.

٧٠٧ أما الخروج إلى جهاد الفرض فلا يستوجب استئذان الوالدين في ذلك أما إن كان الأبوين غير مسلمين فلا يستوجب أخذ إذنهما في الجهاد نافلةً كانت أم فرضًا.

٧٠٨ أبو داوود ، الأدب، ١١٩-١٢٠/ ٥١٤٥.

أيضًا وهبنا أسرانا للنبي عليه الصلاة والسلام. [٧٠٩] وبذلك تم إطلاق سراح ستين من الأسرى دون أي عوض مادي.

❀

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت:

قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» [٧١٠]

❀

كانت حياة النبي عليه الصلاة والسلام مليئة بنماذج الوفاء لأقربائه وسائر الناس من حوله، فقد خدمت فاطمةُ بنت أسد والدةُ سيدنا علي رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ في شبابها، وكأنها الأم الحقيقية للنبي عليه الصلاة والسلام.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب، دخل عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام: فجلس عند رأسها فقال:

«**رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، وتشبعيني وتعرين، وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبا، وتطعميني تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة**»

ثم أمر أن تغسل ثلاثا، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وغلاما أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ: فاضطجع فيه، ثم قال:

---

٧٠٩ البخاري، المغازي، ٥٤؛ ابن هشام، ٤، ١٣٤–١٣٥.

٧١٠ البخاري، هبة، ٢٩، أدب، ٨؛ مسلم، الزكاة، ٤٩– ٥٠/ ١٠٠٣.

«الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»

وكبر عليها أربعا، وأدخلوها اللحد هو والعباس، وأبو بكر الصديق ﵁ [٧١١]

❁

عن عائشة ﵂، عن النبي ﷺ قال:

«دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة، قلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان كذاكم البر، كذاكم البر»

وفي نهاية الرواية تبين أنه وصل إلى هذه المرتبة الفاضلة بإطاعته وسلوكه الحسن لأمه، قالوا عنه: كان أفضل الصحابة معاملة لأمه. [٧١٢]

❁

يقول ابن عباس ﵄:

«أن سعد بن عبادة ﵁ توفيت أمه وهو غائب عنها، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها شيء إن تصدقتُ به عنها؟ قال: «**نعم**»، فقال: فإني أشهدك أنَّ حائطي المخراف صدقةٌ عليها» [٧١٣]

❁

عن مالك بن ربيعة ﵁ قال:

بينا نحن عند رسول الله ﷺ: إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال:

---

٧١١ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٤، ٣٥١/ ٨٧١، المعجم الأوسط، ١، ٦٧/ ١٨٩.

٧١٢ أحمد، مسند، ٦، ١٥١-١٥٢/ ٢٤٠٨٠؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ١٦٧/ ٤٩٢٩.

٧١٣ البخاري، الوصايا، ١٥/ ٢٧٥٦.

«نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» [٧١٤]

❁

لقد ظل أبو هريرة ﷺ ـ ما امتدت به الحياة ـ برًا بأمه، فكان كلما أراد الخروج من البيت وقف على باب حجرتها، وقال: السلام عليكِ يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام يا بُني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربَّيتِني صغيرًا، فتقول: ورحمك الله كما بَررتَني كبيرًا، ثم إذا عاد إلى بيته فعل مثل ذلك. [٧١٥]

❁

عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر ﷺ، أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه. وأعطاه عمامة، كانت على رأسه فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله: إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه» [٧١٦]

❁

وعندما كان أبو حنيفة الإمام الأعظم رحمة الله عليه يتألم ويئن من أسواط الظلم في سجون بغداد شخَّص لنا محبته لأمه بقوله: حذارِ من أن تسمع أمي بحالي لأنني لا أطيق حزنها.

❁

---

٧١٤ أبو داوود، الأدب، ١١٩–١٢٠/ ٥١٤٢؛ ابن ماجه، الأدب، ٢.

٧١٥ البخاري، الأدب المفرد، ١٢–١٤.

٧١٦ مسلم، البر، ١١–١٣/ ٢٥٥٢؛ أبو داوود، الأدب، ١٢٠؛ الترمذي، البر، ٥.

ويكشف لنا محمد بهاء الدين النقشبندي ـ وكان من كبار مرشدي الطرق الصوفية ـ في أحد وصاياه المؤثرة عن الأخلاق الإسلامية العالية، يقول:

«من يأت لزيارة قبرنا فليقم أولًا بزيارة والدتنا»

وبالتالي فإن الذي يزور محمد بهاء الدين النقشبندي في يومنا هذا في قبره يقوم بزيارة والدته أولًا.

عبد الرحمن قُدِس سره يقول في محبة أمه: كيف لا أحب أمي وهي التي حملتني في بطنها وذراعيها زمنًا، وفي زاوية من قلبها عاطفة لا أعلم شيئًا أسوأ من عدم احترامها!..

❀

وختامًا...

فحقوق الوالدين كثيرة على المرء ولها أهمية كبيرة لا تُقاس، ومن أهم الأعمال التي يجب على الإنسان فعلها بعد الإيمان بالله تعالى إسعاد الأبوين بإطاعتهما ما لم يأمرا بالشرك وارتكاب المعاصي.

فطريق الجنة يمر من رضا الوالدين، فالجنة تحت أقدام الأمهات الصالحات، والآباء في منتصف باب الجنة، فمن أراد أن يسعد بالجنة فليُسعد أبويه، ومن أراد الخسران فليؤذهما.

ب- حقوق العائلة

الإنسان بفطرته يحتاج إلى بناء عائلة والعيش فيها، فالحياة خارج العائلة حياة خالية عن السعادة والطمأنينة، ولكن من أجل منح السعادة والطمأنينة لأفراد العائلة يجب على كل فرد من أفراد العائلة أن يعرف الحقوق المترتبة عليه، فمن أكبر المسؤوليات والحقوق المترتبة على المرء واجباته تجاه أفراد العائلة لأنهم أقرب الناس إليه. وبالتالي قال الله تعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [٧١٧]

فهناك حقوق لكل من الآباء والأمهات والأولاد على بعضهم البعض، ويجب على المرء أن يُجِّهز زوجته وأولاده للآخرة بأن يربيهم التربية الصالحة، ويؤمّن جميع احتياجاتهم من الرزق الحلال بأجمل شكلٍ، ويجب على الزوجة أن تقوم بوظائفها تجاه زوجها بدقةٍ وحساسية، وأن تحمل مسؤولية زوجها وأولادها، وفي المثل: «أنثى الطير هي التي تبني العش»، فيجب أن تكون ذات قناعة، وأن تجتنب الإسراف، وأن تكون صاحبة درايةٍ في حركاتها، ويجب على الأبوين أن يكونا عادلين تجاه أولادهم، وأن لا يُفرقا بينهم، ويجب على الأبناء أن يكون احترامهم ومحبتهم للوالدين غاية الاحترام، وأن يُسارعوا إلى خدمتهم.

ومن الأعمال المهمة التي ينبغي على الرجل أن يقوم بها إعطاء كل فرد من أفراد الأسرة التربية الإسلامية، وأن يسعى من أجل فوزهم بسعادة الآخرة.

قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [٧١٨]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٧١٩]

---

٧١٧ الأحزاب، ٦

٧١٨ طه: ١٣٢.

٧١٩ التحريم: ٦.

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: الأب هو الأكثر مسؤوليةً عن حماية أفراد العائلة، ومسؤول أيضًا عن تلقينِهم التعليم الديني ومراقبتهم وحمايتهم، وتأتي حقوق الأطفال من الحاجات الدنيوية بعد الحقوق الأُخروية. [٧٢٠]

عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال:

يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال:

«أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت» [٧٢١]

النبي ﷺ يحث المسلم على تقديم ما وجب عليه فعله من أجل تأمين القوت لعائلته، ويبين في الحديث الآتي أن من يسعى من أجل رزق عائلته، فهو في حالة عبادة وإنفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك» [٧٢٢]

هذه بشارة إحسان ولطف من رب العالمين للمؤمنين، فالله عز وجل يوجه المؤمنين إلى كسب الحلال، والمرء يشعر بالراحة والطمأنينة حين يفكر عند كسبه الرزق الحلال أنه لا يحتاج لأحدٍ، وأنه سينال الثواب في الآخرة، فيجب على أفراد العائلة أن يلتزموا بوظائفهم وفق فطرتهم وحالهم.

حينما أراد رسول الله ﷺ أن يقسِّم المسؤولية بين الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وصى صهره علي رضي الله عنه أن يقوم بالوظائف خارج المنزل، ووصَّى السيدة فاطمة أن تقوم بأعمال المنزل. [٧٢٣]

---

٧٢٠ انظر: القرطبي، ١٨، ١٩٥؛ الرازي، ٣٠، ٤١.

٧٢١ أبو داوود، النكاح، ٤٠-٤١/ ٢١٤٢؛ ابن ماجه، النكاح، ٣.

٧٢٢ مسلم، الزكاة، ٣٩/ ٩٩٥.

٧٢٣ انظر: الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت ١٩٨٢، ٤، ٢٤.

والمأوى الذي يقوم الأب بتأمينه للعائلة ـ ملكًا كان أو إيجارًا ـ يجب أن يستوعب العائلة بشكلٍ مريح، وأن يكون في محيطٍ مناسبٍ، وأن يكون جيرانه ذوي أخلاقٍ حسنة، ويجب على الأب أيضًا تأمين لباسين على الأقل يناسبان الصيف والشتاء لكل أفراد العائلة، ولا يعتبر تخصيص الأب لباسًا خاصًا ليوم الجمعة والأعياد والمناسبات إسرافًا وإنما أمر مشروع ومندوب.

يجب على راعي البيت أن لا يطيل السفر دون علم الزوجة، وأن لا يستقبل من الضيوف الأجانب ولمدة طويلة من غير علم الزوجة، ولا يجوز للزوج أن يطلب من زوجته خدمة الضيوف غير المحارم، وعليه أن يُبعد زوجته من الاختلاط قدر المستطاع.

وعلى المرء أيضًا أن يكون ذا أخلاقٍ حسنة مع أقرباء والده، ومن أهم الواجبات أيضًا أن يحسن معاملته معهم، يقول في الحديث الشريف:

«**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي..**» [٧٢٤]

«**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر**» [٧٢٥]

و ينبغي أن تكون أحاسيس المحبة والشفقة والرحمة من الأولوليات في حياة الأسرة، فالأشخاص الذين يقدمون عقولهم على أحاسيس قلوبهم في حياتهم المنزلية لا يكسبون إلاّ مرافقة جافة ومعاملة باردة، فبيوت أمثال هؤلاء تخرج من كونها بيت العائلة حميم إلى فندق باهت الملامح والعلاقات.

وينبغي على الفرد أن يكون متسامحًا ومسالمـًا في العائلة، وإذا حلف على يمينٍ ثم رأى غيرها خيرًا منها فعليه أن يُكفر عن يمينه، يقول الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام:

---

٧٢٤ الترمذي، المناقب، ٦٣/ ٣٨٩٥؛ ابن ماجه، النكاح، ٥٠.

٧٢٥ مسلم، الرضاعة، ٦١/ ١٤٦٩.

«... لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرا منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها» [٧٢٦]

ومعنى الحديث أنه إذا حلف يمينًا تتعلق بأهله، ويتضررون إذا فعل ذلك اليمين لا يعتبر الحنث معصيةً، فينبغي له أن يحنث، ويكفر عن يمينه، فإن قال: لا أحنث، بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فيه، فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثما من الحنث.[٧٢٧]

ويجب على الزوجة أن تكون في وضع تُشَوِّق زوجها وأولادها وأقرباءها وحتى جيرانها بفعل الخيرات والحسنات وبتقواها واستقامتها، فالمرأة الصالحة التي تنشر السعادة حولها هي زهرةٌ عطرة من الجنة، يقول فخر الكائنات ﷺ:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[٧٢٨]

وقد قال عليه الصلاة والسلام في المرأة التي تراعي حقوق زوجها:

«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»[٧٢٩]

فالمرأة العاقلة هي التي تستوعب وتفهم ـ في وقتٍ قصير ـ مزاج زوجها وعاداته والسلوك الذي ينتظره منها، وتنتبه لنظافة جسمها ومنزلها، وتستقبل زوجها بوجه مبتسم دائمًا، وتودعه في الصباح بدعائها له، وتُذكِّره بقولها: يجب أن يكون الكسب من الحلال ولو كان قليلًا، وأنا راضية بما تكسبه إن كان حلالًا، وتجهز طعامه في وقته، وتجهد بصنع ما يُحبه من الطعام، وتكون قنوعة ومُدبرة.

٧٢٦ البخاري، الأيمان، ١ ، الكفارات، ١٠؛ مسلم، الأيمان، ٧-٩/ ١٦٤٩.

٧٢٧ انظر: البخاري، الأيمان، ١ ؛ مسلم، الأيمان، ٢٦.

٧٢٨ ابن ماجه، النكاح، ٥/ ١٨٥٧.

٧٢٩ الترمذي، الرضاع، ١٠/ ١١٦١؛ ابن ماجه، النكاح، ٤/ ١٨٥٤.

وكما للآباء على الأبناء حقوق فكذلك للأولاد على الآباء حقوق، فقد روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قوله:

«سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأمهات والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك»[٧٣٠]

ويأتي في مقدمة أولويات حقوق الأولاد على الأبوين، الأذان في أذن المولود اليمنى فور ولادته والإقامة في أذنه اليسرى، ومن ثم حسن تسميته.[٧٣١]

وعلى الميسور أن يضحي بعقيقة للمولود بعد ولادته بأسبوع، شكرًا لله تعالى، وأن يحلق للمولود ويتصدق على الفقراء بوزن الشعر فضةً إن أمكن..[٧٣٢]

يجب على الوالدين أن يربوا أبناءهم في جوٍ ديني، وأن يعلموهم القرآن الكريم، وأنه المرجع للإنسان، وأن يرووا لهم قصص الأنبياء، ويعلموهم ما فيها من رسائل ربانية وحكم إلهية، ويجب على الأبوين أيضًا تعليم الأبناء أمور دينهم الضرورية، وأن يساعدوا أبناءهم على تعليم الأحكام الإسلامية ذات الصلة بالمهنة التي سيختاروها، وأن يكون أفراد العائلة يقظين، يلتجؤون إلى الله سبحانه وتعالى من كيد النفس والشيطان ومن أشرار الإنس والجان، فالذين يفعلون ما بوسعهم لهدم العائلة المقدسة، يعرفون جيدًا أنهم عندما يهدمون العائلة يستطيعون هدم الأخلاق والدين أيضًا، وفيما يلي حديث شريف عن النبي عليه الصلاة والسلام يشد الانتباه إلى أهمية هذا الأمر:

«إن عرش إبليس على البحر، فيبعث سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة» [٧٣٣]

---

٧٣٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ١٤٦/ ١٣٤٢٢.

٧٣١ أبو داوود، الأدب، ٦١، ١٠٦، ١٠٧.

٧٣٢ البخاري، العقيقة، ١، ٢؛ الموطأ، العقيقة، ٢، ٣.

٧٣٣ مسلم، المنافقون، ٦٦/ ٢٨١٣ .

«إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت، فيلتزمه» [٧٣٤]

فيجب على المؤمنين المحافظة على العائلة، وأن لا يُتيحوا الفرصة للشيطان والنفس، وأن يزيدوا من أعداد أفراد العائلة، وأن يجتهدوا في وفاء حقوق الأولاد على نحوٍ جيدٍ، وفي حال عدم إيفاء هذه الحقوق سيقعون في عذابٍ أليم يوم القيامة، فمن شدة حساب ذالك اليوم يفر الابن من أبيه والأخ من أخيه، ولكن لا فائدة. قال الله تعالى منبهًا إيانا:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [٧٣٥]

يوم يطلب الناس الفرار من أقربائهم خوفًا من أن يطالبوهم بحقوقهم، فالذين عاشوا حياتهم موافقة لرضا الله سبحانه وتعالى ستكون وجوههم مشرقة، أما الذين أهملوا عباداتهم فستنقلب وجوههم كالحة حزينة.

جعلنا الله يوم القيامة من الذين ابيضت وجوههم ومن الفائزين بعبادته على أحسن حال... آمين

صور الفضائل

قام رسول الله ﷺ بتربية أفراد عائلته على المحبة والرحمة، وقد جهزهم للآخرة، فرباهم ورقى أرواحهم وحياتهم المعنوية، وإلى جانب هذا لم يهمل أمر دنياهم، فقد كان النبي ﷺ يبيع محصول التمر الذي كان له من غنائم بني النضير،

---

٧٣٤ مسلم، المنافقون، ٦٧/ ٢٨١٣ .

٧٣٥ عبس: ٣٤-٣٧.

ويبيعه ويُخرج منه نفقة عياله لسنة كاملة، ويضع الباقي في بيت المال، وقد استمر النبي عليه الصلاة والسلام على هذا المنوال طوال حياته.

كان لسيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام إبلًا لمعيشته، وكانت هذه الإبل ترعى طوال اليوم، وفي المساء تعود فيؤخذ حليبها ويقدم للضيوف، وأما الباقي وما يتم حلبه في صباح اليوم التالي فيقسم بين زوجاته.

وقد ذكرت أم سلمة ﵂ أن النبي ﷺ كان قد جعل لكل واحدة من زوجاته ناقة مخصوصة مسماة، وأنه كان للنبي ﷺ ناقة أغزرهم حليبًا، وذكرت أنهم كانوا يقضون قسمًا كبيرًا من شؤونهم الدنيوية من هذه الإبل. [٧٣٦]

وبنى الرسول ﷺ غرفةً متواضعة لكل زوجة من زوجاته في المسجد، وبذلك قضى لهن حاجتهن من المسكن.

وأما بعد وفاته فكان قد خصص من نصيبه الذي يأتيه من خيبر ٨٠ وسق تمر و٢٠ وسق حنطة لكل واحدة من أزواجه. [٧٣٧]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«... ما تركت بعد نفقة نسائي ومئونة عاملي [٧٣٨]، فهو صدقة» [٧٣٩]

يعني أنه ﷺ خصص لزوجاته مما له من الأراضي ما يكفيهن مؤنة سنة، وترك الباقي للدولة ولسد حاجات الناس. [٧٤٠]

❁

٧٣٦ ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٩٤ ـ ٤٩٦

٧٣٧ ابن سعد، الطبقات، ٨، ٥٦، ٦٩، ١٢٧.

٧٣٨ إن العامل المذكور في الحديث المقصود منه المسؤول عن الأراضي الخاصة بالنبي ﷺ والمهتم بشؤونها، وقد ورد في بعض الروايات ذكر هذا الشخص المهتم ببستان نخل النبي ﷺ. انظر: مسلم، المساقاة، ٩٩ ـ ١٠٠.

٧٣٩ البخاري، الوصايا، ٣٢؛ مسلم، الجهاد، ٥٥/ ١٧٦٠.

٧٤٠ النووي، شرح صحيح مسلم، مصر ١٩٨١، ١٢، ٨٢

وقد كان عليه الصلاة والسلام يساهم في تعلم أهله ما يلزمهم معرفته، فعن الشفاء بنت عبد الله ﵂، قالت: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي:

«**ألا تُعَلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة**» [741]

❁

عن عروة، قال دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهي باذة الهيئة فسألتها ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل، ويصوم النهار، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام فذكرت عائشة ذلك له فلقي رسول الله ﷺ عثمان فقال:

«**يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك في أسوة، فوالله إني أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده**» [742]

❁

نبهنا رسول الله ﷺ في حديثٍ بقوله:

«**كفى بالمرء إثما أن يحبس، عمن يملك قوته**» [743]

كان الصحابة ﭫ يأتيهم الحماس المعنوي في بعض الأحيان، فيأتون النبي عليه الصلاة والسلام لينفقوا كل ما يملكون، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يأخذ من أحدٍ كلَّ مايملك، إلا من أبي بكر، فإنه كان يقبل كل مايأتي به، وأما بقية الصحابة فكان يقبل من بعضهم النصف، ومن بعضهم الثلث، وكان يوصي أمته أن لا يدَعوا عائلاتهم فقيرة محتاجة.

❁

٧٤١ أبوداوود، الطب، ١٨/ ٣٨٨٧؛ النملة التي ذكرت في الحديث هو مرض من أمراض الجلد الذي يصيب الإنسان .

٧٤٢ أحمد، مسند، ٦، ٢٢٦/ ٢٥٨٩٣؛ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٢٩١.

٧٤٣ مسلم، الزكاة ،٤٠/ ٩٩٦؛ أبو داوود، الزكاة، ٤٥.

عن حذيفة ﷺ قال: كان في لساني ذرب على أهلي، وكان لا يعدوهم إلى غيرهم، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال:

«أين أنت من الاستغفار، تستغفر الله في اليوم سبعين مرة» [٧٤٤]

❀

عن أبي رافع مولى النبي ﷺ قال:

قلت: يا رسول الله أللولد علينا حق كحقنا عليهم؟ قال:

«نعم، حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي، وأن يؤدبه طيبا» [٧٤٥]

معنى ذلك أنه على الأب أن يقوم بإعداد ولده ماديًا من أجل المستقبل وفقًا للظروف، وأن يغذيه بالكسب الحلال كي لا يتضرر من الناحية الروحانية.

وثمة أحاديث في هذا الشأن وهي:

«حقّ الولد على والده أن يحسن اسمه، ويزوّجه إذا أدرك، ويعلّمه الكتاب» [٧٤٦]

«من حق الولد على والده أن يحسن أدبه وتعليمه..» [٧٤٧]

«علموا أولادكم السباحة والرماية، ونعم لهو المؤمنة في بيتها الغزل» [٧٤٨]

❀

ولما نزلت:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

---

٧٤٤ ابن ماجة، الأدب، ٥٧/ ٣٨١٧.

٧٤٥ البيهقي، شعب، ٦، ٤٠١/ ٨٢٩٨؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ٤٤٣.

٧٤٦ علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ٤١٧/ ٤٥١٩١.

٧٤٧ البيهقي، شعب، ١، ٤٠١-٤٠٢/ ٨٣٠٦.

٧٤٨ علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ٤٤٣/ ٤٥٣٤٣؛ السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٥٢.

الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [749]

بقي النبي ﷺ يمر في صلاة الفجر بباب فاطمة رضي الله عنها مدة ستة أشهر يوقظهم للصلاة، متذكرًا ما يلاقونه من التعب جراء الأعمال اليومية، ويقول لهم:

«**الصلاة يا أهل البيت،﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**» [750]

يروى عن علي بن ابي طالب: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ، ليلة، فقال:«**ألا تصليان؟**» [751]

❁

وروي أن عمر رضي الله عنه قال حين نزلت ﴿... **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً...**﴾[752]:

يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

«**تنهوهن عما نهاكم الله عنه وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار**» [753]

❁

عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال:

آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كل؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا

---

٧٤٩ الأحزاب: ٣٢ – ٣٣.

٧٥٠ الترمذي، التفسير، ٣٣/ ٣٢٠٦.

٧٥١ البخاري، توحيد، ٥/ ١١٢٧.

٧٥٢ الترمذي، التفسير، ٣٣/ ٣٢٠٦.

٧٥٣ الآلوسي، روح المعاني، ٢٨\١٥٦.

بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[٧٥٤]

❀

وختامًا...

فإن الإنسان قبل كل شيء مسؤول عن عائلته، ويجب عليه أن يعرف أن الله استودعهم عنده، وعليه أن يوفي حقهم قدر المستطاع، فإذا بذلنا الجهود في هذا المجال سنُرضِي الله سبحانه وتعالى ونحظى بحياةٍ سليمة، وإذا أهملنا هذه الأمور فنعيش حياة ضنك وبؤس.

ج ـ صلة الرحم «حق الرحم»

صلة الرحم هي إحدى القيم التي أولاها الدين أهمية كبيرة، فينبغي أن يكون المرء دائم الصلة بأقربائه، يحيطهم بالرعاية والحماية، وقد وثق الله تعالى الصلة بين الأقارب حتى جعلهم يرثون بعضهم البعض، وجعل لبعض على بعض حقوقًا وواجبات تعزز العلاقة بينهم. وإن أقارب المرء مثلما يحفظونه من الشرور المادية والمعنوية فإنهم كذلك يساعدونه على القيام بالأعمال الخيرية والصالحة أيضًا، ولقد بدأ الرسل بتبليغ رسالتهم للأقارب، وبدعمهم استمروا بوظيفة التبليغ، فمثلًا قال الله تعالى في قوم شعيب:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٧٥٥]

---

٧٥٤ البخاري، الصوم ،٥١، الأدب، ٨٦.

٧٥٥ هود: ٩١.

ولهذا السبب ينبغي على المسلمين أن يكونوا على مقربة من أقربائهم، ويجب أن تستمر وظيفة صلة الرحم، ولا يُهمل أبدًا من أجل تبادل المنافع الدينية والدنيوية، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [٧٥٦]

وقال الله تعالى:

﴿... وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ... ﴾ [٧٥٧]

والرحمن من أسماء الله الحسنى، واشتقت الرحم منه، وفي الحديث:

«**قال الله: أنا الرحمن وهي الرحم، شققت لها اسما من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته**» [٧٥٨]

إذًا ينبغي بناء العلاقات مع الأقارب على أُسس الرحمة والشفقة، وفيما يلي حديث يعد مقياسًا مهمًا في التعامل مع الأرحام:

«**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن هو الذي إذا قُطعت رحمه وصلها**» [٧٥٩]

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام عندما سُئل عن الفضائل أنَّ من أفضل الفضائل وصل من قطع الرحم من الأقرباء.[٧٦٠]

٧٥٦ النساء: ١.

٧٥٧ النساء: ٣٦.

٧٥٨ أبو داوود ٤٥/ ١٦٩٤.

٧٥٩ أبو داوود، الزكاة، ٤٥/ ١٦٩٧؛ البخاري، الأدب، ١٥؛ الترمذي، البر، ١٠.

٧٦٠ انظر: أحمد، مسند، ٤، ١٤٨، ١٥٨.

ومن ناحية أخرى فإنَّ صلة الرحم من الإيمان، فقد قال النبي ﷺ:

«... **مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه..**» [٧٦١]

وقد قال الله تعالى في بيان أوصاف عباده المبشرين بالعاقبة الحسنة بقوله:

﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ [٧٦٢]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في الثناء على عمه العباس:

«**هذا العباس عم نبيكم، أجود قريش كفا وأحناه عليها**» [٧٦٣]

كما أوضح رسول الله ﷺ طريق التسلسل في الإحسان إلى الأقرباء بقوله:

«**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا**» **يقول: فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك**» [٧٦٤]

ثم إن الصدقة على ذوي القربى لها أجران أجر الصدقة وأجر رعاية القريب وحمايته. [٧٦٥]

قد يكون لصلة الرحم صعوبات ومشاق كثيرة، ولكن المكافآت الموعودة لها أكثر وأكبر، فالنبي ﷺ وضح لنا بعض المكافآت فقال:

«**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**» [٧٦٦]

---

٧٦١ البخاري، الأدب، ٨٥/ ٦١٣٨؛ مسلم، الإيمان، ٧٤ ـ ٧٥.

٧٦٢ الرعد: ٢١.

٧٦٣ الحاكم، المستدرك، ٣، ٣٧١ / ٥٤١٩؛ أحمد، مسند،١، ١٨٥.

٧٦٤ مسلم، الزكاة، ٤١/ ٩٩٧؛ النسائي، الزكاة، ٦٠، البيوع ٨٤.

٧٦٥ انظر: الترمذي، الزكاة، ٢٦.

٧٦٦ البخاري،الأدب،١٢،البيوع،١٣؛مسلم، البر،٢٠-٢١/ ٢٥٥٧؛أبو داوود،الزكاة،٤٥/ ١٦٩٣.

وأحسن من هذا ما لصلة الرحم من تأثير في قرب العبد من ربه ﷻ، يقول الله تعالى في حديث قدسي:

«حقت محبتي للمتحابين فِيَّ وحقت محبتي للمتزاورين فِيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فِيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين فِيَّ» [767]

وعلى العكس تمامًا هناك تهديدات وتحذيرات من الله تعالى لمن يقطع رحمه ولا يهتم بهم. قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [768]

وعن النبي ﷺ قال:

«خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب، قال: فذاك -قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم-:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [769] » [770]

وقد قال رسول الله ﷺ في هذا الشأن أيضا:

«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم» [771]

---

٧٦٧ أحمد، مسند، ٥، ٢٢٩/ ٢٢٠٨٠/ ٢٢٧٨٢.

٧٦٨ الرعد: ٢٥.

٧٦٩ محمد: ٢٢.

٧٧٠ البخاري، تفسير، ٤٧، الأدب، ١٣، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، البر، ١٦.

٧٧١ أبو داوود،الأدب، ٤٣؛ الترمذي، القيامة، ٥٧/ ٢٥١١؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٣/ ٤٢١١.

«**إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم**» [٧٧٢]

«**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»، فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: «**الله أكثر**» [٧٧٣]

«**لا يدخل الجنة قاطعٌ**» يعني قاطع رحم. [٧٧٤]

تضع هذه الآيات والأحاديث أهمية صلة الرحم بين أيدينا، وهي مهمة جدًا، لدرجة أنه ينبغي الاهتمام بالأقرباء حتى لو لم يكونوا مؤمنين ولهم حقوق معلومة أيضًا، ومثلما تدل الآيات والأحاديث، فإن حقوق الأبوين الكافرين واجبة أيضًا على الإنسان، فالله أمر بالإحسان إليهما.

صور الفضائل

روي:

أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان لأبي طالب عيالٌ كثيرون، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس، وكان من أيسر بني هاشم:

«**يا أبا الفضل، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه نخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا، فنكفلهما عنه**».

فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي

٧٧٢ أحمد، مسند، ٢، ٤٨٤/ ١٠٢٧٢.

٧٧٣ الترمذي، الدعوات، ١٥٥/ ٣٥٧٣؛ أحمد، مسند، ٣/ ١٨.

٧٧٤ البخاري، الأدب، ١١/ ٥٩٨٤؛ مسلم، البر، ١٨-١٩/ ٢٥٥٦.

عقيلًا، فاصنعا ما شئتما.فأخذ النبي ﷺ عليًا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا، فضمه إليه، فلم يزل علي مع النبي ﷺ، حتى بعثه الله نبيًا، فاتَّبعه وصدَّقه. [٧٧٥]

❁

وعن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [٧٧٦]:

«**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا**» [٧٧٧]

❁

قال عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**»، فقلت: وما نبي؟ قال: «**أرسلني الله**»، فقلت: وبأي شيء أرسلك، قال:

«**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**» [٧٧٨]

فالنبي ﷺ مثلما كان على علاقة مع أقربائه وجيرانه قبل النبوة، بيَّن بعد النبوة أن من وظائفه الأساسية صلة الرحم، وعلم أُمته ذلك بحسن معاملته لأقربائه وجيرانه، فكان مثالًا رائعًا للأمة.

---

٧٧٥ ابن هشام، سيرة، ١، ٢٦٤؛ الحاكم، المستدرك، ٣، ٦٦٦/ ٦٤٦٣.

٧٧٦ الشعراء: ٢١٤.

٧٧٧ مسلم، الإيمان، ٣٤٨، ٣٥١/ ٢٠٦؛ البخاري، التفسير، ٢٦/ ٢؛ الترمذي، التفسير، ٢٧/ ٢.

٧٧٨ مسلم، صلاة المسافرين، ٢٩٤/ ٨٣٢.

وعندما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: بماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. [٧٧٩]

❁

عن أبي أيوب رضي الله عنه، قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: دلني على عمل أعمله يدنيني من الجنة، ويباعدني من النار، قال:

«تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك»

فلما أدبر، قال رسول الله ﷺ:

«إن تمسك بما أمر به دخل الجنة» [٧٨٠]

❁

قَوْله عليه الصلاة والسلام:

«إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما..» [٧٨١]

قال العلماء فيما قُصد بالرحم أي بالأقرباء في هذا الحديث، هو أن السيدة هاجر أم اسماعيل جدة رسول الله ﷺ مصرية الأصل، أما صلة قرابة رسول الله ﷺ بمصر، فهو أن السيدة مارية أم ابراهيم ابن رسول الله ﷺ مصرية أيضًا، فتمسكه وتفكره بأقربائه من خصائص أخلاقه النبوية عليه الصلاة والسلام، وهو مثال ينبغي علينا أن نتعلمه ونحافظ عليه.

❁

٧٧٩ البخاري، بدء الوحي، ٦، الصلاة، ١، الصدقات، ٢٣؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

٧٨٠ مسلم، الإيمان، ١٤/ ١٣؛ البخاري، الأدب، ١٠؛ النسائي، الصلاة، ١٠.

٧٨١ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٦، ٢٢٧/ ٢٥٤٣.

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ للعباس:

«إذا كان غداة الاثنين فأتني أنت وولدك حتى أدعو لهم بدعوة ينفعك الله بها وولدك»

فغدا وغدونا معه فألبسنا كساء ثم قال:

«اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا، اللهم احفظه في ولده» [٧٨٢]

وبفضل وبركة هذا الدعاء كان ابن عباس وذريته من علماء التفسير والحديث المميزين، وكانوا مثالًا للأمة الإسلامية بتقواهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

❁

كانت أم المؤمنين صفية ﷺ ابنة حُيي بن أخطب أحد سادات اليهود، وقد تشرفت حين غدت زوجة فخر الكائنات ﷺ بعدما اختارت الإسلام، فروي أن جارية للسيدة صفية أَتَتْ عمر ﷺ فقالت: إن صفية تحبُّ السبت وتَصِل اليهود، فبعث إليها، فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبْتُ فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي، فأنت حرة. [٧٨٣]

فكان جواب السيدة صفية ﷺ من الروعة والعظمة بحيث يظهر مدى تمسكها بالأخلاق الإسلامية، إذ أعتقت جاريتها التي افترت عليها دون وجه حق.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٧٨٤]

---

٧٨٢ الترمذي، المناقب، ٢٨/ ٣٧٦٢.

٧٨٣ ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٣٤٧ .

٧٨٤ فصلت: ٣٤ .

فسيدتنا صفية ﵂ لم تقطع صلة الرحم بأقربائها الذين مازالوا يهودًا، بل بحثت عن طريق هدايتهم.

❀

عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه ﵁، قال:

كنت جالسا عند عمر بن الخطاب ﵁، إذ سمع صائحة فقال: يا يرفأ، انظر ما هذا الصوت؟ فانطلق فنظر، ثم جاء فقال: جارية من قريش تباع أمها، قال: فقال عمر: ادع لي أو قال: علي بالمهاجرين والأنصار، قال: فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة، قال: فحمد الله عمر وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فهل تعلمونه كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة. قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحت فيكم فاشية، ثم قرأ:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[٧٨٥]

ثم قال: وأي قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم وقد أوسع الله لكم، قالوا: فاصنع ما بدا لك قال: فكتب في الآفاق أن لا تباع أم حر فإنها قطيعة وأنه لا يحل. [٧٨٦]

وأود أن أذكر لكم هنا بعضًا من فوائد هذه الحادثة في تحرير العبيد، فالظن بأن الإسلام حافظ على العبودية وعمل على استمرارها أمر خاطئ للغاية، فالإسلام لم يُبقِ العبودية ولكن على العكس تمامًا حاربها وفتح طرقًا كثيرة لإلغائها، لكنه عمل على ذلك بهدوء حتى لا يسبب مشاكل في المجتمع، إذ كان الرق في ذلك الوقت من قوانين الحرب والمجتمع ولا يمكن إلغاؤه، وعندما بدأ تطبيق هذه الطريقة الإسلامية الحسنة أصبح اقتناء العبد كلفةً على صاحبه، وبدأ إلغاء هذه المؤسسة الراسخة في المجتمع، فالإسلام حمل الناس خلال ٢٣ سنة

---

٧٨٥ محمد: ٢٢.

٧٨٦ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٩٧/ ٣٧٠٨.

إلى أُفق حضارة رائعة، فصارت أكبر حريةٍ في الإسلام هي عبودية الإنسان لربه، وأسوأ العبودية هي العبودية للعباد.

وخاصة سيدنا عمر ﷺ، فقد حارب وبشدة العبودية وبشكل يلفت الأنظار، وبذل الكثير من الجهد من أجل إزالة مؤسسة العبودية، واتخذ الكثير من التدابير من أجل ذلك.

فوفقه الله تعالى للعمل على إزالة العبودية من جزيرة العرب، فعندما تولى سيدنا عمر ﷺ الخلافة أطلق سراح كل الإماء والعبيد العرب الذين أُسروا في حروب الردة.

ولم يرض سيدنا عمر ﷺ أيضًا أن يتعامل من في العراق وإيران معاملة العبيد والأسرى، وأبقاهم يعملون في أراضيهم ويأخذ منهم الخراج، رغم كل المحاولات المتكررة وإلحاح الجند عليه لاسترقاقهم واقتسام أراضيهم.

كما وأطلق سيدنا عمر ﷺ أيضا سراح العبيد الذين أحضرهم الجنود المسلمون من مصر وأرسلهم إلى بلادهم، وكان ﷺ يقوم بعزل ولاته وعماله الذين لا يقومون بزيارة عبيدهم المرضى ويعتنون بهم.[٧٨٧]

وختامًا...

إن اهتمام الناس بأقربائهم، والعناية بهم، والسعي لمساعدتهم قضية أكد عليها الله ورسوله كثيرًا.

فالتزامهم بالأمر بالمعروف من أهم المساعدات التي يقدمونها لتطهير أرواحهم، وسعيهم بعد ذلك وراء احتياجاتهم المادية والمعنوية المختلفة وتواجدهم معهم في السراء والضراء، وزيارتهم بين الحين والآخر.

٧٨٧ رمضان أوغلو، محمود سامي، عمر الفاروق ﷺ، اسطنبول ص: ١٥٨ ـ ١٦٠.

إذًا فأوامر الله تعالى بصلة الرحم المتكررة فيه من الحكم الكثير، ومنها ما هو معروف لدى الناس ومنها ما يزال خفيًا، فالمفروض علينا أن نهتم بصلة الرحم، بالتزامنا بأوامر الله تعالى بصدق وانتظار المكافأة منه تعالى.

د. حقوق الجار

من الحقوق التي يجب أن نراعيها ونهتم بها حق الجار، فقد أمرنا الله تعالى أن نرعى حقوق الجار، لأن الإنسان يكون مع جيرانه أكثر مما يكون مع أقربائه.

قال الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [٧٨٨]

فالمقصود في الآية بقوله تعالى: «**وَالْجَارِ الْجُنُبِ**» الجار قريب البيت، أو الجار القريب أو القريب ذي الرحم أو الأخ في الدين، وعلى المسلم معاملتهم بالحسنى، ومساعدتهم، والتماس الأعذار لهم عند صدور الأخطاء منهم، وأن يصبر عليهم ويعفو عنهم.

أما الإحسان للجار البعيد، وهو من كان منزله بعيدًا عن المرء، فيجب في هذه الأحوال أن نمد يد العون إليه وأن نفتح قلوبنا له.

وقد قسَّم رسول الله ﷺ الجيران باعتبار الحقوق المترتبة علينا إلى ثلاثة أقسام:

١. من لهم حق الجوار فقط.
٢. من لهم حق الجوار وحق الأخوة في الدين.
٣. من لهم حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة.[٧٨٩]

---

٧٨٨ النساء: ٣٦.

٧٨٩ انظر: ابن حجر، فتح الباري، دار الفكر، فؤاد عبد الباقي، ١٠، ٤٥٦؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٤٦.

فالإسلام نظم معاملة المرء مع الناس الأقرب فالأقرب، وهذا ما تقتضيه الطبيعة البشرية. [٧٩٠]

فعلينا أن نسعى جاهدين كي نكون جيرانًا صالحين نحن أولًا، لأن كل الناس يودون ويحبون أن يعيشوا بسعادة مع جيرانهم، وبعد ذلك علينا السعي وراء الحصول على علاقة اجتماعية مع الجيران، لأن الجار الصالح من أحد الأمور التي يسعد بها المسلم في الحياة الدنيا. [٧٩١]

ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«استعيذوا بالله من شر جار المقام، فإن جار المسافر إذا شاء أن يزايل زايل» [٧٩٢]

والمثل المشهور «**الجار قبل الدار**» يبين لنا وبوضوح مدى أهمية العيش بين الجيران الصالحين من ناحية حياتنا المعنوية، وينبغي الاعتناء بمجاورة المساجد، وهكذا يكون الإنسان قريبًا من روحانية الأذان الداعي إلى الطاعة كل وقت.

ثم إن الجوار له أهمية كبيرة لدرجة أنه ليس مقصورًا على الدنيا فحسب، فكما أن مجاورة الصالحين في الدنيا تحمل أهمية كبيرة فإن لها أهمية كبيرة في القبر أيضًا، فقد بيَّن الرسول ﷺ هذا بقوله:

«ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين فإن الميت ينادي بجار السوء كما ينادي الحي بجار السوء» [٧٩٣]

---

٧٩٠ انظر: البخاري، الشفعة، ٣، الهبة، ١٦، الأدب ٣٢.

٧٩١ انظر: أحمد، مسند، ٣، ٤٠٧.

٧٩٢ النسائي، الاستعاذة، ٤٤؛ الحاكم، المستدرك، ١، ٧١٤/ ١٩٥٢؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ٩٤٢.

٧٩٣ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ١، ١٠٢/ ٣٣٧؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ١٢٧٦.

ومع ذلك ينبغي على المرء أن يتحمل بعض الأذى الذي يصدر عن جاره، فممن يحبهم الله تعالى مَن يصبر على أذى جاره فيكفيه الله إياه بطريقة ما. [٧٩٤]

وعن رسول الله ﷺ قال:

«**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**» [٧٩٥]

«... **وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا**..» [٧٩٦]

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: إن خليلي عليه الصلاة والسلام أوصاني:

«**إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**»[٧٩٧]

فعلى مقتضى الحديث ينبغي مراعاة حق الجار، والفقر ليس عذرًا، فيلزم مراعاة حقه قدر المستطاع، وقد حذر النبي ﷺ من التقصير في حق الجار وإهماله:

«**ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانا وجاره جائع إلى جنبه**» [٧٩٨]

ومن ناحية أخرى فإن أذية الجيران تأتي من ضعف الإيمان، فينبغي على الجيران أن يأمن بعضهم من شر بعض.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قالها ثلاث مرات، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**الجار لا يأمن جاره بوائقه**» ، قالوا: وما بوائقه؟ قال: «**شره**» [٧٩٩]

---

٧٩٤ انظر: أحمد، مسند، ٥، ١٧٦.

٧٩٥ البخاري، الأدب، ٢٨/ ٦٠١٥؛ مسلم، البر، ١٤١/ ٢٦٢٥.

٧٩٦ الترمذي، الزهد، ٢/ ٢٣٠٥؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٤

٧٩٧ مسلم، البر، ١٤٢-١٤٣/ ٢٦٢٥.

٧٩٨ الحاكم، المستدرك، ٢، ١٥/ ٢١٦٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨، ١٦٧.

٧٩٩ البخاري، الأدب، ٢٩/ ٦٠١٦؛ الترمذي، القيامة، ٦٠؛ أحمد، مسند، ١٤، ١٥٣/ ٨٤٣٢.

وقال رسول الله ﷺ:

«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[800]

وبين لنا رسول الله ﷺ حقوق الجيران بقوله:

«من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذاك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري ما حق الجار: إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده ما يبلغ حق الجار إلا قليلا ممن رحم الله» [801]

وينبغي أن لا نستصغر الهدايا التي تأتينا من الجيران أو التي نقدمها، وأن نحاول قدر المستطاع جبر خاطرهم، وأن نكرمهم ونحسن إليهم، وما أحسن ما يقوله النبي عليه الصلاة والسلام في هذ ا الصدد:

«تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر، ولا تحقرن جارة لجارتها ولو شق فرسن شاة» [802]

صور الفضائل

ومن أهم حقوق الجيران مساعدتهم من الناحية المعنوية، والسعي لاستكمال مستلزماتهم الدينية والمعنوية، ومحاولة إصلاح أخطائهم، وما يشد الانتباه في هذا الصدد حديث ابن أبزى الخزاعي، حيث قال:

---

٨٠٠ مسلم، الإيمان، ٧٣/ ٤٦.

٨٠١ البيهقي، الشعب، ١٢، ١٠٥/ ٩١١٣؛ القرطبي، تفسير، ٥، ١٢٠ ـ ١٢٣.

٨٠٢ الترمذي، ولاء، ٦/ ٢١٣٠

خطب رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرًا، ثم قال:

«ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون، والله ليعلمن أقوام جيرانهم، ويفطنونهم ويفقهونهم، ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون ويتفقهون أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا»

ثم نزل فدخل بيته، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من يعني بهذا الكلام؟! قالوا: ما نعلم يعني بهذا الكلام إلا الأشعريين، فقهاء علماء، ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة، فاجتمع جماعة من الأشعريين، فدخلوا على النبي ﷺ، فقال: ذكرتَ طوائف من المسلمين بخير وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لتعلِّمُن جيرانكم، ولتفقهنهم، ولتأمرنهم، ولتنهونهم، أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا»

فقالوا: يا رسول الله أبطير غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم أبطير غيرنا؟ فقال: ذلك أيضا، قالوا فأمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويفطنوهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ.

فقالوا: يا رسول الله، إذن فأمهلنا سنة، ففي سنة ما نعلمه ويتعلمون، فأمهلهم سنة، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٨٠٣]. [٨٠٤]

---

٨٠٣ المائدة: ٧٨- ٧٩.

٨٠٤ علي المتقي، كنز العمال، ٣، ٦٨٤/ ٨٤٥٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١، ١٦٤

والحديث الآتي مهم لأنه يدلنا على عناية الصحابة الكرام بجيرانهم ورعاية حقوق إخوانهم المسلمين.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال:

«كانوا سبع منازل، وكلهم فقراء، أهديت لرجل رأس شاة ليطبخها، ويأكل منها هو وأولاده، وكان الرجل وأهله جوعى، لكنه فضل جيرانه وآثرهم على نفسه، فأهدى إليهم رأس الشاة، فسارع الجيران وأعدوا رأس الشاة وطبخوها ليسدوا بها جوعهم، لكنهم تذكروا جيرانهم الآخرين، فأهدوها إليهم، وظلت رأس الشاة تنتقل من بيت إلى بيت آخر، حتى مرت بسبعة بيوت، كل منها يحتاج إليها، وكل منهم يؤثر جاره على نفسه، حتى رجعت إلى البيت الأول الذي خرجت منه» [٨٠٥]

❁

وعن عبد الله بن أخت مسلم بن سعد أنه قال:

«أردت الحج، فدفع إلي خالي مسلم عشرة آلاف درهم، وقال لي: إذا قدمت المدينة فانظر أفقر أهل بيت بالمدينة وأعطهم إياها، فلما دخلت سألت عن أفقر أهل بيت بالمدينة فدللت عليهم، فطرقت الباب، فأجابتني امرأة: من أنت؟، فقلت: أنا رجل من أهل بغداد أودعت عشرة آلاف، وأُمرت أن أسلمها إلى أفقر أهل بيت في المدينة، فخذوها، فقالت: يا عبد الله، هؤلاء الذين بجوارنا أفقر منا، فتركتهم، وأتيت أولئك فطرقت الباب، فأجابتني امرأة، فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة، فقالت: يا عبد الله، نحن وجيراننا في الفقر سواء، فاقسمها بيننا وبينهم» [٨٠٦]

❁

٨٠٥ الحاكم، المستدرك، ٢، ٥٢٦.

٨٠٦ ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ٢، ٢٠٦.

ذبح عبد الله بن عمرو شاة، فقال لغلامه له: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[٨٠٧]

❁

كنا جلوسًا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وغلامه يسلخ شاة، فقال لغلامه: يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، حتى قالها ثلاثًا فقال رجل من القوم: كم تذكر اليهودي أصلحك الله! قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يوصي بالجار حتى ظننا أو رأينا أنه سيورثه. [٨٠٨]

❁

جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال:

«**اذهب فاصبر**»

فأتاه مرتين أو ثلاثا، فقال:

«**اذهب فاطرح متاعك في الطريق**»

فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترى مني شيئا تكرهه. [٨٠٩]

❁

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:

لقد أتى علينا زمان وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، ثم الآن الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت النبي ﷺ يقول:

---

٨٠٧ أبو داوود، باب الأدب ١٢٢-١٢٣/ ٥١٥٣ ؛ الترمذي، البر، ٢٨/ ١٩٤٣.

٨٠٨ البخاري، الأدب المفرد، ص ٥٨؛ البيهقي، الشعب، ٨٤ ـ ٨٥.

٨٠٩ أبو داوود، الأدب ١٢٢-١٢٣/ ٥١٥٣؛ البخاري الأدب المفرد، ٥٧؛ الحاكم، ٤، ١٨٣؛ الهيثمي ٨، ١٧٠

«كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابه دوني، فمنع معروفه»[810]

❀

بينما كان عبد الله بن المبارك نائمًا في الكعبة رأى في نومه أن ملكان نزلا من السماء، فقال أحدهما للآخر: عدد الحجيج هذه السنة ستمائة ألف حاج، قبل الله حجهم من أجل عمل مصلح الأحذية بالشام اسمه علي بن الموفق، كان قد نوى الحج ولكن لم يحج، فلما استيقظ أصبح لديه فضول كي يعرف السبب فذهب مع قافلة إلى الشام.

فلما وجده قال له: ماهو العمل الذي عملته ولم تذهب إلى الحج، ولم يكن علي بن الموفق رجلًا مشهورًا مثل عبد الله بن المبارك، فلما رأى عليٌ عبدَ الله بن المبارك فوجئ به وأغمي عليه، فلما أفاق قال لعبد الله بن المبارك: منذ ثلاثين سنة وأنا أتمنى الحج، فجمعت من عملي ثلاثين درهمًا، ونويت الحج، فقالت زوجتي الحامل:

رائحة اللحم تأتي من عند الجيران هل تذهب وتطلب منهم قطعةً لي؟ فذهبت لعند الجيران، وشرحت لهم الوضع فبكى جارنا، وقال لي:

منذ سبعة أيام أولادي جياعٍ، وقد وجدت في الطريق جيفة حيوانٍ فقطعت منها قطعة، أطبخها لهم الآن لأُسكت جوعهم، فعندما لا يمكنني العثور على المواد الغذائية الحلال فالميتة حلال لنا، أما لكم فحرام.

فلما سمعتُ هذا الكلام، تقطع قلبي، فدفعت إليه الثلاثين درهمًا التي جمعتها بصعوبة وقلت مناجيًا ربي: ياربي اقبل نيتي للحج هذا العام.

فقال عبد الله بن المبارك معقبًا: «لقد أعلمني ربي بالحق».

❀

---

٨١٠ البخاري، الأدب المفرد، ١١١.

والحاصل... أن الإنسان مسؤول عن جاره، فينبغي عليه وبشدة أن يتجنب كل ما يُزعج جاره. فعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره..**» [٨١١]

ومن ثم أمر من يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحسن لجاره، وهذا يعني أن الإحسان إلى الجار علامة الإيمان بالله واليوم الآخر، [٨١٢] فالمرء الذي يسيء لجاره في هذه الحالة يكون قد اُبتلي بضعف الإيمان.

ففي بعض الأوقات يسعى الجار لقضاء حاجة جاره، ويتقاسم الأفراح والأحزان قبل الأقرباء، وما أجمل ما قيل:

«الجار يحتاج إلى رماد جاره».

وقد وصى أبو بكر ﵁ بقوله:

«لا تتخاصم مع جارك، فالضيف يذهب ويبقى الجار»

وما أجمل هذه البشارة النبوية:

«**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**» [٨١٣]

هـ. عدم احتقار عباد الله

إن الله ﷻ نفخ في الإنسان من روحه، وكرّمه عندما خلقه «**في أحسن تقويم**»، وأحسن إليه بمنحه المؤهلات والقدرات ليصير أهلًا للوصال الإلهي، ويعود إلى موطنه الأصلي، موطن أبيه آدام في الجنة، فهذا كله جعل استحقار عباد الله بعد كل ما وهبهم الله من قيمة منذ خلقهم سلوكًا قبيحًا وبغيضًا!.

---

٨١١ البخاري، النكاح، ٨٠، الأدب، ٣١، ٨٥، الرقاق، ٢٣؛ مسلم، الإيمان، ٧٤، ٧٥ .

٨١٢ انظر: مسلم، الإيمان، ٧٧ .

٨١٣ الترمذي، .البر، ٢٨، ١٩٨/ ١٩٤٤.

في واقع الأمر لا أحد يعلم ما قدَّر الله لعباده وما أخفاه من مكانة، حيث ربط الله تعالى كرامة ومرتبة الإنسان بالتقوى، وإن التقوى في القلوب، ونوافذ القلوب لا يطَّلع عليها إلا الله، وحيث إنه هو الخالق المطلع على القلوب، فليس لأحد أن يعرف مكانة أو كرامة البشر عند الله غيره هو. ولهذا نبهنا رسول الله ﷺ بقوله:

«كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره..» [٨١٤]

وقال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواظ مستكبر» [٨١٥]

إذًا، فيجدر بالمسلم أن يحسن الظن بعباد الله، وأن يحفظ حرمتهم، وأن يعاملهم المعاملة الحسنة، وقد أمرنا الله تعالى بهذا في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٨١٦]

يفهم من الآية الكريمة، **﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** أنَّ المسلم إذا لمز أو عابَ أخاه المسلم فكأنما يعيب نفسه، إذ إنَّ المؤمنين كالجسد الواحد باعتبارهم أخوة، لهذا فإن كل مؤمن أضرَّ بأحدٍ من المؤمنين بيدهِ أو بلسانه فكأن الضرر قد وقع عليه هو نفسه.

كما وقد منعت الآية الكريمة التنابز بالألقاب أي استحقار الناس بنسبة ألقاب سيئة تدني من مستواهم وتسيء إليهم، فليس من أخلاق المسلم أن يدعو الناس

---

٨١٤ الترمذي، المناقب، ٥٤/ ٣٨٥٤.

٨١٥ البخاري، الأيمان، ٩؛ التفسير ٦٨، ١، الأدب، ٦١؛ مسلم، الجنة، ٤٧/ ٢٨٥٣.

٨١٦ الحجرات: ١١.

بألقاب تزعجهم وتنفرهم، لأن الحق تعالى وصف الأفعال السيئة كالسخرية والتنابز بالألقاب بقوله:

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾،

كما بيَّن أن الفسوق لا يليق بالمسلم، وأن من لم يتب عن ذلك سيكون ممن حق عليهم الجزاء من الظالمين.

واستحقار الناس يكون باللسان ويكون كذلك بالإشارة واللمز، وهي إشارات بالعين والحاجبين، وقد منعه الحق تعالى متوعدًا بقوله:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [٨١٧]

ونفهم من تتمة هذه الآية الكريمة أن التكلم عن الناس في غيبتهم بما لا يرضيهم، ولمزهم بالحركات واستحقارهم إنما هو من صفات الكافرين، فمن المرفوض اتصاف المؤمنين بها، إذ إن المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولايحقره.[٨١٨]

قال رسول الله ﷺ:

«**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**» [٨١٩]

بهذا ينهانا الله تعالى نهيًا قاطعًا عن التفاخر، وأن يستعلي المؤمنون على بعضهم، وإن فعلوا ذلك ـ وهم إخوة ـ فقد احتملوا إثمًا وخسرانًا كبيرًا.

وقال رسول الله ﷺ:

«**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم..**» [٨٢٠]

---

٨١٧ الهمزة: ١.

٨١٨ انظر: مسلم، البر، ٢٨ ـ ٣٨.

٨١٩ مسلم، الجنة، ٦٤/ ٢٨٦٥؛ ابو داوود، الأدب، ٤٠/ ٤٨٩٥؛ ابن ماجه، الزهد، ١٦.

٨٢٠ مسلم، البر، ٣٢ .

وإن استحقار عباد الله واستصغارهم إنما يتأتى من خلو القلوب من التقوى، وامتلائها بالأمراض كالكبر، في حين أن الكبر بحسب ما عبر عنه الولي حاجي بيرم بقوله:

«الكِبَر أشبه بحجر مشدود على الظهر، يتعذر معه الطيران، وتتعذر معه السباحة».

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال:

«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» [٨٢١]

ويكفي الاطلاع والتمعن في الروايات التالية لمعرفة ما يترتب على استصغار الناس والتكبر عليهم:

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك» [٨٢٢]

وقال عليه الصلاة والسلام :

«إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم» [٨٢٣]

وبالنظر إلى بيان القرآن الكريم، فإنه ما من قوم أرسل إليهم نبي إلا وقد استصغر منكروهم المؤمنين منهم، ولم يقبلوا على أنفسهم التواجد مع الفقراء والجلوس معهم على مائدة واحدة. فعلى سبيل المثال:

---

٨٢١ مسلم، الايمان، ١٤٧/ ٩١؛ أبو داوود؛ اللباس، ٢٦ ؛ الترمذي، البر، ٦١/ ١٩٩٩.

٨٢٢ مسلم، البر، ١٣٧/ ٢٦٢١ .

٨٢٣ مسلم، البر، ١٣٩/ ٢٦٢٣؛ أبو داوود، الأدب، ٧٧/ ٤٩٨٣.

قال منكرو قوم سيدنا نوح عليه السلام له: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [٨٢٤]، لأن المتبعين مساكين لا نسب لهم ولا حسب، لأنهم اعتقدوا أن دينًا متبعوه من المساكين كهؤلاء ليس بالدين الحق، فأجابهم نوح عليه السلام بقوله:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٨٢٥]

إذًا، لم يتخل قوم نوح ومن هم على شاكلتهم عن موقفهم هذا، فكان سببًا من أسباب هلاكهم، فقد تكون مكانة أناس استهزأ بهم القوم الظالمون والمتمادون عند الله عالية، وإنه عز وجل ـ وقد سمى نفسه الحق ـ يحب عبده رغم ضعفه، وتبعًا للروايات فإن نبي الله موسى عليه السلام قال في تضرعه إلى الله:

«يا رب أين أجدك؟ فرد الله تعالى عليه: عند المنكسرة قلوبهم!» [٨٢٦]

ومن هنا نعلم أن الأنبياء كانوا على الدوام يفتحون أحضانهم للمؤمنين ويخفضون جناحهم لهم:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٢٧]

---

٨٢٤ الشعراء: ١١١.

٨٢٥ هود: ٢٩–٣٠.

٨٢٦ أبو نعيم، الحلية، ٢ ـ ٣٦٤.

٨٢٧ هود: ٣١.

وكذلك طلب مشركو مكة من النبي ﷺ إبعاد المسلمين الفقراء من حوله، أو على الأقل عندما يكونون عنده، حيث قال ﷻ في فعلهم هذا:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٨٢٨]

إن من احتقرهم المشركون من فقراء ومساكين وبسطاء المسلمين، الذين كانوا ينامون في المسجد لأنهم لا مأوى لهم، أصبحوا بعد فترة قصيرة من سادة عصرهم، وبلغوا من السمو والرفعة منازل جعلتهم أعظم علماء المسلمين وغدت أسماؤهم على كل لسان.

يخبر الحق ﷻ عن عاقبة حال الكافرين المستهزئين بالمسلمين في الآخرة فيقول:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [٨٢٩]

يطرح مولانا جلال الدين الرومي وجهة نظره في هذا الموضوع على نحو بديع، فيقول:

«ثمة أناس على هيئة الكلاب أي تستحقرهم وتستصغرهم، إلا أنهم في الحقيقة لا ينفكون يشربون من كأس المحبة المعطاة لكلب أهل الكهف».

«لا تحقرن كافرًا! فقد يموت على الإسلام، فهل أنت مطلع على ما سيموت عليه من قلت عنه كافر، فهل لديك علم الغيب بذلك؟ فلمَ تنأى بوجهك عنه؟».

---

٨٢٨ الأنعام: ٥٢-٥٣.

٨٢٩ ص: ٦٢-٦٣.

يوضح الشيخ خالد البغدادي في المكتوب السادس عشر من مكتوباته، رهبة النَفَس الأخير المدهشة بقوله:

«كم من الأشخاص الذين ننظر إليهم بعين الشفقة، تراهم فارقوا الدنيا بسلام، ومع الأسف ثمة الكثير من أصحاب العلم والعمل والحسب والنسب والكمال، يرشدون الناس إلا أنهم –ولوقوعهم في الغفلة– فارقوا الحياة بغير إيمان، فالأصل هو حال الإنسان عند خروج النفس الأخير، فكيف بعد هذا يعجب المرء بنفسه ويفخر بها، فيا لها من عاقبة وخيمة وسوء خاتمة».

ويضرب لنا الإمام البورسوي المثال التالي أثناء الحديث عن وجوب الامتناع عن التكبر فيقول:

«على المؤمن أن لا يستصغر أخاه، وأن لا يتعالى عليه، فإبليس تعالى على آدم عليه السلام واستحقره، واعتز بنفسه... إلا أنه تعرض للّعنة إلى الأبد، إذن فأي مسلم يحقر أخاه ويتعالى عليه فهو إبليس عصره، وأخوه آدم عصره، أي في مقامهما» [٨٣٠]

صور الفضائل

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة»

فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال:

«إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا، يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة» [٨٣١]

---

٨٣٠ البورصوي، ١١، ٧٩.

٨٣١ الترمذي، الزهد،٣٧/ ٢٣٥٢.

ذلك يعني أن الصبر على الحرمان، والطاعة في وقت الشدة من أكثر الأعمال أجرًا وثوابًا عند الله، ومما يقربُ العبدَ إلى ربه يوم القيامة.

يقول مصعب بن سعد أنه قال:

رأى سعد ـ رضي الله عنه ـ أن له فضلا على من دونه، فقال النبي النبيّ ﷺ:

«**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**» [٨٣٢]

لم يكن النبي ﷺ يحقر أحدًا، وكان يدني إليه الضعفاء والمساكين، حتى إنه كان يدعو الله تعالى بفقراء المهاجرين أن يعين المسلمين وينصرهم.

❀

وعن الصحابيّ خباب بن المنذر رضي الله عنه أنه قال:

«جاءَ الأقرعُ بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاريّ فوجدوا النبيّ ﷺ قاعدًا مع بلال وصُهيب وعمار وخباب في أناسٍ من الضُّعفاءِ من الـمُـؤمنينَ، فلمّا رَأوهُم حَولَهُ حَقَروهم، فأتوه فقالوا: إنّا نُحِبُّ أن تَجعَلَ لنَا منكَ مَجلسًا تَعرِفُ لنَا العربُ به فضلَنا، فإنّ وفودَ العربِ تأتيكَ فنَستحيي أن تَرَانا العَرَبُ مع هؤلاءِ الأعبُد، فإذا نحنُ جئناكَ فأقمهُم عنا، فإذا نَحنُ فُرغنا فاقعُدْ مَعَهُم إن شِئتَ! قال: نعم! قالوا: فاكتُبْ لَنَا عَلَيكَ بذلكَ كتابًا. قال: فَدَعَا بالصَّحيفَةَ ودَعَا عليًّا ليكتُبْ، قال: ونَحْنُ قعودٌ في ناحيةٍ، إذ نَـزلَ جبريلُ بهذه الآية:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٣٣]

ثم قال:

---

٨٣٢ البخاري، الجهاد، ٧٦ / ٢٨٩٦؛ النسائي ،الجهاد، ٤٣.

٨٣٣ الأنعام: ٥٢.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٨٣٤]

ثم قال:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٨٣٥]

فألقى رسول الله ﷺ الصحيفةَ من يده ثم دعانا فأتيناه، وهو يقول:

﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾!

فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنـزل الله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [٨٣٦]

قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم» [٨٣٧]

فبعد أن نزلت هذه الآية الشريفة، امتثل رسول الله ﷺ فورًا أمر الله ﷻ، عندما رأى عصبة من الفقراء يستمعون إلى ذكر الله خلف المسجد، فجالسهم وقال:

«**الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم**» [٨٣٨]

❀

٨٣٤ الأنعام: ٥٣.

٨٣٥ الأنعام: ٥٤.

٨٣٦ الكهف: ٢٨.

٨٣٧ ابن ماجة:، الزهد، ٧/ ٤١٢٧؛ الطبري، التفسير، ٧، ٢٦٢-٢٦٣.

٨٣٨ الواحدي، التفسير الوسيط، ص ٣٠٦؛ الترمذي، القصص، ٣/ ٣٦٦٦.

ويروي لنا الصحابي أبو برزة الأسلمي ﵁ حادثةً تسلط الضوء أكثر على هذه المسألة، وتشد الانتباه إليها، فيقول:

«أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء، يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جليبيب؛ فإنه إن دخل عليكم، لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي عليه الصلاة والسلام فيها حاجة؟ أم لا. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لرجل من الأنصار: «**زوجني ابنتك**» . فقال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعم عيني. قال: «**إني لست أريدها لنفسي**» . قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «**لجليبيب**» .: قال: فقال: يا رسول الله، أشاور أمها فأتى أمها فقال: رسول الله عليه الصلاة والسلام يخطب ابنتك. فقالت: نعم. ونعمة عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أجليبيب إنية؟ أجليبيب إنية؟ أجليبيب إنية؟ لا. لعمر الله لا نزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام فيخبره بما قالت أمها: قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها فقالت: أتردون على رسول الله عليه الصلاة والسلام أمره؟ ادفعوني؛ فإنه لم يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فأخبره فقال: شأنك بها فزوجها جليبيبا قال: فخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام في غزوة له. قال: فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: «**انظروا هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: لا. قال: «**لكني أفقد جليبيبا**» . قال: «**فاطلبوه في القتلى**» . قال: فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتاه النبي عليه الصلاة والسلام فقام عليه فقال: «**قتل سبعة وقتلوه هذا مني وأنا منه. هذا مني وأنا منه**» مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله عليه الصلاة والسلام على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعدا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله.

قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ قال:

«اللهم صب عليها الخير صبا، ولا تجعل عيشها كدا كدا» .

قال فما كان في الأنصار أيم أنفق منها.[839]

❀

جاء عن معرور بن سويد قال:

رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلا، فشكاني إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لي النبي عليه الصلاة والسلام: «**أعيرته بأمه**»، ثم قال:

«إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم» [840]

فعلى المسلمين التعامل مع بعضهم كالإخوة، وعليهم اجتناب الإضرار والاستصغار لبعضهم البعض كائنًا من كانوا.

❀

ثم إنه ربما يستحقر الناس أحدًا ولا يولونهُ حق قيمته، وهو عند الله تعالى ذو قيمةٍ ومكانةٍ عالية، ومن هؤلاء أوَيس القرني رضي الله عنه.

كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

---

٨٣٩ أحمدن مسند، ٤، ٤٢٢، ٤٢٥/ ١٩٧٨٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٣٦٧-٣٦٨/ ١٥٩٧٧.

٨٤٠ البخاريي، الإيمان، ٢٢، العتق:١٥/ ٢٥٤٥؛ مسلم، الأيمان، ٤٠.

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»

فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي. [٨٤١]

وفي روايةٍ أخرى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال عن أويس رضي الله عنه أنه «**خيرُ التابعين**» [٨٤٢]، ولكن الأحاديث الشريفة عن أويسٍ وأخباره ضاعت قبل أن تصل إلى أحد، فما كان الناس يعرفونه، وكانوا يرونه راعي إبل، بل وكانوا يحقرونه أحيانًا، حتى علموا مكانته فتغيرت نظرتهم له، وتجنبًا لداءِ الشهرةِ، خرجِ أويس القرني من الكوفة، ولم يستطع أحدٌ رؤيته بعد ذلك.

❀

وعن عمرو بن شرحبيل أنه قال في باب السخرية والاستهزاء:

«لو رأيت رجلًا يُرضِعُ شاة أو من شاةٍ فضحكت منه، لَخِفتُ أن أفعَلَ مثلَ ما فَعَل».

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:

«البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا» [٨٤٣]

❀

يروى أنه خرج عيسى عليه السلام خارج المدينة مع من يُظَنُّ أنه من الصالحين، فلحقهم رجل مذنبٌ، معروفٌ بفسقه بين الناس، وهو يشعر بالذل، ولما جلسوا للاستراحة مكث هذا العبد المذنب مكسور الخاطر في ناحيةٍ منهم وقد لفّه ندمٌ وحياء، ودعا ملتجئًا إلى عفو أرحم الراحمين فقال:

---

٨٤١ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٥/ ٢٥٤٢؛ أحمد، مسند، ١، ٣٨ – ٣، ١٨٠.

٨٤٢ مسلم، البر، ٢٢٤.

٨٤٣ الزمخشري، ٦، ١٩، تفسير الحجرات، ١١.

«يا رب، اعف عني بجاه هذا النبي العظيم».

فاستصغره الرجل الصالح، لما رأى حاله تلك، فرفع يديه إلى السماء، وقال:

«اللهم لا تحشرني يوم القيامة مع هذا الرجل».

فأوحى الحق تعالى إلى عيسى عليه السلام:

«يا عيسى قل لعبادي، أني قبلت دعاءهم، فأما عبدي العاصي مكسور الخاطر فقد عفوت عنه وجعلته من أهل الجنة، وأما بالحديث عن الرجل الذي يظن الناس أنه من الصالحين فقد قبلت دعاءه بأن حَرَمْتُه من أن يكون من أهل الجنة لأنه لم يرد أن أحشره معه».

إن استحقار عباد الله واستصغارهم لأي سبب كان، عدا المغضوب عليهم والملعونين من قبل الله تعالى، خطأ عظيم يستجلب غضب الحق تعالى، فلا يعلم أحد ما سيؤول إليه حاله وما في القلوب سوى الله تعالى، فيلزمنا الانشغال بأخطائنا والمسارعة إلى التوبة والاستغفار.

❀

ويروى أن محيي الدين بن عربي كان مارّاً بجانب البحر، فوجد شابًا جالسًا يشرب الخمر، ويتحرش بامرأةٍ كانت تجلس إلى جانبه، فنظر إليه محيي الدين وقال في سره:

«على الإنسان أن يعلم أسوأ ما في المخلوقات، ولايجاريها، لكني لستُ أسوأ من هذا الشاب، فأنا لا أشرب الخمر من إبريق ولا أفعلُ هذه الأفعال المنكرة»

فجأة، سُمِعَ صوتُ صراخٍ من البحر: «نحن نغرقْ! انقذونا!».

سمع الشاب الصوتَ، فرمى إبريق الخمرِ من يده، وفي لمح البصر كان قد قفز في البحرِ، وبعد دقائق معدودةٍ خرج وقد كاد أن يغرق، فأنقذَ أربعة أشخاصٍ من الغرق.

كان ابن عربي ينظر إلى عمل الخير العظيم الذي عمله هذا الشاب، وتردد في نفسه خاطرٌ جوابًا على ظنه السابق بهذا الشاب، وقال لنفسه:

«انظر! انظر الى استِحقَارِكَ لهذا الشّاب، واستصغارك إياه بسبب خطاياه، فماذا فعلتَ أنت؟ فأنتَ لم تُنقِذْ شخصًا واحدًا!».

وبعد عمل الخير الذي قام به الشاب، وإنقاذه الغرقى، ترك حياة العصيان الماضية ولازم الشيخ ابن عربي، وكانت هذه الرفقة سببًا في صداقةٍ قويةٍ حقيقيةٍ بين الاثنين، حيث قال ابن عربي:

«بسبب هذه الصداقة أصبح يفعل مثلما أفعل، وأفعل مثلما يفعل!».

من هذه القصة نستطيع أن نستخلص العبر التالية:

ـ أيها الإنسان، قلد من تحب، وافعل مثله.

ـ الصداقة لها خصوصية تنبع من العلاقة بين المـُحِب والمحبوب.

ويجب علينا أن لا ننسى أبدًا أن التعالي بالفضائل التي في أنفسنا على الخلق، استصغار لهم! وإن استصغار الآخرين أكثر من استصغار أنفسنا سلوكٌ بغيض ومكروه.

❁

ركبَ عالمُ نحوٍ سفينة للسفر... وكان مغرورًا جدًا بعلمه، فأخذ يحاور قبطان السفينة، وكلما سألهُ شيئًا في النحو رد عليه القبطان: لا أعلم، فيسأله العالم: ألا تعرف النحو؟، فيقول القبطان: لا، فيقول له العالم: كيف لا تعرف النحو!! لقد خسرت نصف عمرك. فما كان من القبطان إلا أن سكت ولم يرد عليه، واكتفى بالبقاءِ صامتًا وهو مكسور القلب أمام غرور هذا العالم النحويّ. فلما اضطربت السفينة واشتدت الريح وكادت السفينة تغرق، قال القبطان للنحوي: أيها العالِم! هل تعرف السباحة؟ فقال: لا. فقال له: كيف لا تعرف السباحة!!، لقد خسرت جميع عمرك! فعلمُكَ في النحو لن يُخرِجَ السفينة مَن

هذه الدوامة ولن ينقذ حياتك! لو زِدتَ السباحة على علمكَ! فعِلمُ الإنسان محدودٌ عند مخاطبته للآخرين، وعليهِ فيجب على الإنسان أن لا يحتقر أحدًا، وأن ينسب كل العلم إلى الله ﷻ.

❀

وختامًا...

فإنه على المؤمن أن لا يحقر غيره من خلال اغتراره بنعم الله التي أنعم بها عليه، فإن هذه النعَم امتحان من الله تعالى واختبار له، وهي كالأسئلة التي تُوَجَّهُ إلى الطلاب في الامتحان، والطالب لا يتفاخرُ بجوابه، وإنما عليه أن يفرح بأجوبتهِ حين تظهر نتيجُة امتحانه.

والمؤمنون يجب أن يستعملوا نِعَم الله تعالى فيما يرضيه بحقٍ وباستقامة، كي يروا أجورها يوم القيامة، فالتفاخر في هذه الدنيا لا معنى له، بل على العكس، إنما هو وهمٌ مبين.

قال أبو حازم، أحد علماء السلف: «كُلُّ نعمةٍ لا تُقرِّبُ من الله فهي بليّة»

وقد كان فخر الكائنات سيدنا رسول الله ﷺ يوصينا دائمًا بعدم التفاخر، بقوله: «**لا فَخْر**»، وأهمية هذه الوصية تكمن في تكرار النبي عليه الصلاة والسلام لها في مواضع كثيرة.

فبعد أن أوصانا عليه الصلاة والسلام بعدم التفاخر بالنعم التي أنعم الله بها علينا، وعدم استحقار عباد الله الآخرين، فمن يجرؤ على ذلك؟!

و. عدم إيذاء الناس ومنع الأذية عنهم

يجب على المسلم أن يكون رحيمًا، طيبًا، رقيقَ القلب، وأن لا يؤذي أحدًا، لأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وضع تعريفًا وتوصيفًا جميلًا للمؤمن، وهو: المؤمن يألف ويؤلف، أي أنه يألَفَ الجَميعَ ويألفهُ الجميع.

يقول جلال الدين الرومي:

«كُنْ مرهمًا لطيفًا، ولا تكُنْ مثل شكّة الشوكة!»

فالمؤمن الحقيقي، بعد كل النعم التي أنعم الله بها ونزلها عليه، يجب عليه أن يحذر من أن يؤذي أحدًا، وقد حذرنا ﷻ بشدة من أذيّة الآخرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [٨٤٤]

أي إن على المؤمن قبل كل شيء أن يحيى دينهِ على أحسن هيئة، ويبتعد عن المحرمات، وأن لا يُضَرَّ ولا يضُرُّ بالإسلام، بل يجب أن يكون عبدًا راضيًا، ثم بعد ذلك عليه أن يجتهدَ في منع الأذى عن الآخرين.

قال رسول الله ﷺ:

«**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» [٨٤٥]

وقوله رسول الله ﷺ:

«**... فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه...**» [٨٤٦]

ففؤاد الإنسان محط نظر الرب سبحانه وتعالى، أي إنه مقام مقدس مختص بنظر الرب، ولذلك كان إيذاؤه خطأً كبيرًا.

يبين مولانا –رحمه الله– قيمة الفؤاد على النحو التالي:

«إن كنت ذا بصيرة فطف حول كعبة فؤادك! فالأصل في الكعبة إنما هو القلب... واعلم أنك لو آذيت وجرحت قلبًا هو محط نظر الرب، فإنك لو قصدت الكعبة ماشيًا فإن الثواب الذي ستناله لن يمحو إثمك».

---

٨٤٤ الأحزاب: ٥٧.

٨٤٥ البخاري، الإيمان، ٤–٥/ ١٠؛ مسلم، الإيمان ٦٤–٦٥/ ٤١.

٨٤٦ مسلم، الإمارة ،٤٦/ ١٨٤٤؛ النسائي، البيعة، ٢٥.

«إن فؤادًا مجروحًا لا توليه اهتمامًا ولو بقدر قشة، لهو عند الله أكثر قيمة من العرش ومن الكرسي ومن اللوح ومن القلم!... لا تحقترن فؤادًا مهما كان ذليلًا، فهو بذُلّهِ أسمى من كل ما هو سام، إن القلب المجروح محط نظر الرب تعالى، وما أقدس الروح التي أوجدته، إنَّ جَبَر قلب محطَّم تناثرت أجزاؤه ألـمًا وحزنًا، لأفضل عند الله من كثير من الحسنات والخيرات... اصمت! فلو صار لك في كل شعرة مئتا لسان وَتَكَلَمْتَ لعجزت الألسنة عن التكلم عن الفؤاد».

وقال الشيخ سعدي رحمه الله:

«إن كنتَ تعلمُ خبرًا يؤذي أحدًا فاصمتْ ولا تتكلمْ، واتركْ غيركَ يتكلمْ».

ويقول فريد الدين العطار في مؤلفه الشهير «بندنامه» «رسالة النصيحة»:

«لا تجعلْ من أذيّة القلوبِ وَلَعًا لك! واعلم أنه إذا طلبتَ القيمة والمكانة بين الناسِ فلا تَقُلْ إلا خيرًا، وإن لم تكُنْ لك القدرة على فعل الخَيرِ، فعلى الأقل لا تفعلَ سوءًا، وكُفَّ لسانكَ عن غِيبة الناس».

وما أجمل كلمات أولياء الحق تعالى وأبلغها، حيث يقولون:

«ليس هناكَ أكثرُ بؤسًا من الظّالِمين الذينَ يُؤذونَ النَاسَ، فَعِندَ وقوعِ المصيبة، لن يُشارِك الـمَرءَ فيها أحد».

«لا تقطفْ الوردةَ في الخريفِ، كي لا تَحرِمَ نفسكَ مِنْ رَوعَةِ مَنْظَرِهَا في الربيع».

«لا تقلْ قولًا مؤذيًا غليظًا للناس، فإنه أشد حرارةً من عذاب الله».

وفي موضوع عدم إيذاء الآخرين، نجد أن أهمَّ نقطةٍ فيه، هو عدم إيذاء مهيضي الجناح، كاليتامى والضعفاءِ من الناس الذين يستحقون الشفقة والرحمة، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [٨٤٧]

---

٨٤٧ الضحى: ٩–١٠.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٨٤٨]

فلكي نكسبَ رضا الله سبحانه وتعالى، علينا مساعدة اليتامى والمساكين والضعفاء والمحتاجين والوقوف بجانبهم، وعلينا أن نراعي في هذا آدابَ وأصول المساعدة، فلا نؤذيهم بالعطاء والمنِّ، كي لا تذهب الأعمال هباءً، قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..﴾ [٨٤٩]

إن من استصغر عبدًا أو آذاه فقد أغضبَ خالقه جل وعلا، لذا فقد عامل أصحابُ الحق الناسَ بحساسيةٍ شديدةٍ كأنهم يعاملون لهيب شمعةٍ مرتجف! يضعون أمام أعينهم علاقته بالله سبحانه وتعالى، ويعاملونه على أساسها، خاصة إن كان عبدًا محبوبًا عنده ﷻ...

صور الفضائل

كان عبد الله بن أم مكتوم أحد مؤذني الرسول عليه الصلاة والسلام يأتي النبيَّ بين الحين والآخر ويقول:

«يَا رَسُولَ الله أَرْشِدْنِي، يا رسول علمني مما علمك الله».

فكان النبي ﷺ لا يرد هذا الصحابي، ويجيبه على أسئلته كلها.

فأتاه مرة وعنده رجال مِن عظماءِ قريش، فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخرين، لعلهم يسلموا فيسلم على يديهم من يتبعونهم.

---

٨٤٨ الماعون: ١ -٣.

٨٤٩ البقرة: ٢٦٤.

ولم يكن يعلم ابن أم مكتوم من عند رسول الله لكونه أعمى، فطلب منه ككل مرة، فتضايق النبي عليه الصلاة والسلام من سؤاله الموجَه في غير وقته، ولم يهتم به، فحزن عبد الله وانكسر قلبه، فأُنْزِلَتْ ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى**﴾[٨٥٠]. [٨٥١]

فكان النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذه الحادثة كلما رأى عبد الله قال:

«**أهلًا بمن عاتبني فيه ربي**» [٨٥٢]

❁

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يومًا:

«**إياكم والجلوس في الطرقات**»

قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها قال:

«**فأما إذ أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**»

قالوا: يا رسول الله فما حق الطريق؟ قال:

«**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**» [٨٥٣]

❁

قال جابر [٨٥٤] بن عبد الله رضي الله عنه:

كنت جالسا في داري، فمر بي رسول الله ﷺ، فأشار إلي، فقمت إليه، فأخذ بيدي، فانطلقنا حتى أتى بعض حجر نسائه، فدخل ثم أذن لي، فدخلت الحجاب

---

٨٥٠ عبس: ١-٢.

٨٥١ انظر: الترمذي، التفسير، ٨٠؛ الموطأ، القرآن، ٨، الرازي، ٣١، ٥٠.

٨٥٢ الواحدي، التفسير الوسيط، ص ٤٧١.

٨٥٣ البخاري، المظالم، ٢٢، الاستئذان، ٢؛ مسلم، اللباس، ١١٤/ ٢١٢١.

٨٥٤ كان فخر الكائنات ﷺ يحب جابر بن عبد الله الذي استشهد والده في غزوة أحد وقد ترك له سبعة أو تسعة من أخواته البنات، ولم يكن عبد الله يقصر في رعاية أخواته أو يتوانى عن التضحية في سبيل رعايتهن.

عليها، فقال: «**هل من غداء؟**» فقالوا: نعم، فأتي بثلاثة أقرصة، فوضعن على نبي، فأخذ رسول الله ﷺ قرصا، فوضعه بين يديه، وأخذ قرصا آخر، فوضعه بين يدي، ثم أخذ الثالث، فكسره باثنين، فجعل نصفه بين يديه، ونصفه بين يدي، ثم قال: «**هل من أدم؟**» قالوا: لا إلا شيء من خل، قال:

«**هاتوه، فنعم الأدم هو**» [٨٥٥]

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يعيب أبدًا أي طعام يُقدم إليه، أو يرفضه، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن من يعيب طعامًا فإنما يكسر قلب مقدمه، وأكثر ما كان يوليه النبي عليه الصلاة والسلام الاهتمام هو عدم كسر القلوب وجرحها.

❁

أتى أبو سفيان بعد صلح الحديبية على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أَتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي.

❁

ونرى من فضيلة الصحابة الكرام هذه مدى الاهتمام الذي كانوا يولونه لعدم إيذاء الآخرين، ولعدم التعرض للأذى.

يقول فريد الدين عطار في أثره الشهير بندنامه:

«اصفح عمن يعتذر إليك، فإن الله تعالى لا يحب من يؤذي الآخرين، وخلقًا كهذا لا يليق بصاحب الدين، إن من يجرح قلبًا في لحظة غضب فإنما يكون قد تسبب بجرح في بدنه هو».

❁

---

٨٥٥ مسلم، الأشربة، ١٦٩/ ٢٠٥٢.

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه عندما يريد تقديم العون للفقراء والعبيد يرجح الأسلوب التالي:

فكان يضع كيس النقود للفقراء الذين يقدم لهم المساعدة أثناء سجودهم في الصلاة قريبًا من أحذيتهم بحيث يشعرون به، وبعدها يبتعد كي لا يرونه، فقيل له: «لم لا تقدم مساعدتك بإرسالك أحدهم». فقال: «لا أريد إن صادفتُ أحدهم أن يحجب نظره عني حياء مني، إنما أقوم بذلك لهذا»[٨٥٦]

ينقل لنا مولانا الرومي في مثنويته قصة فيما يتعلق بعدم إيذاء الآخرين، فيقول:

«كان ثمة درويش في سفينة، ولم يكن له متاع ولا حمل، وكان قد استند إلى وسادة من حسن خلقه وإنسانيته، وبينما كانت السفينة تتقدم فوق أمواج البحر، إذ فقد كيس، وكان الدرويش حينها نائمًا، ففتشوا الجميع فلم يجدوا الكيس، فأشار أحدهم إلى ذلك الدرويش قائلًا:

لنوقظ هذا الدرويش ونفتشه، فأيقظ صاحب النقود الدرويش، فقالوا له وأعينهم توجه الاتهامات لذلك الدرويش المسكين:

ضاع كيس ذهب في هذه السفينة، وقد فتشنا الجميع، ولم نجده، والآن حان دورك، فاخلع ردائك، وأزل الشبهات.

وأما الدرويش، فالتجأ إلى الحق تعالى قائلًا: يارب! إنهم يتهمون عبدك المعصوم، وأنت أعلم بحالي».

تعامل أهل السفينة بغلظة مع الدرويش، فجرحوا قلبه، فبما أن الله تعالى هو صاحب هذا القلب المعصوم، فإنه تعالى لم يرض عن هذا فأمر كل الأسماك فأخرجت رؤوسها وقد أحاط بالسفينة الكثير منها من كل الجهات، وكانت في فم كل واحدة منها لؤلؤة قيمة كبيرة، ويالها من لآلئ! لم تكن ملكًا لأحد بل هي مما تفضل الله تعالى به، فأخذ الدرويش بعضًا من اللآلئ ووضعها وسط السفينة،

٨٥٦ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢، ٤١١.

وأما هو فقد قفز وجلس في الهواء، وكان قد تربع كما يتربع السلاطنة على عروشهم، لكنه في الهواء، والسفينة تتقدم بين يديه، فقال محدثًا من في السفينة:

«اذهبوا، فالسفينة لكم والحق معي، وأما هو فلا يتهمني بالسرقة ولا يخليني لمن لا يستر عيوبي».

فقال من في السفينة: «أيها العبد الكريم، بم استحققت هذه المنزلة».

فقال: «إنما استحققتها باحترامي لسلطان المعنى، ولأني لا أُسِيء الظنّ بالمساكين أبدًا، ألا إنه قد نزلت سورة عبس في أولئك المساكين والفقراء اللطفاء لرفع منزلتهم، وإن عوزهم ليس دنيويًا أو للتعلق بالدنيا، وإنما هم قد تقبلوا الفقر والعوز لأنهم لا يملكون شيئًا في هذه الدنيا وليس لهم إلا الحق».

إذًا يجب عدم استصغار أحد وكسر قلبه، فالله تعالى يكرم عباده كُلٌّ حسبه، فلا نعرف الإكرام الذي تفضّل به الله تعالى على عبده، فقد نقع في تصرفٍ خاطئٍ من غير قصدٍ، ونظلمه. ولذا فإن الطريق الأنسب للفوز أن نكون لطفاءرقيقي القلب، وأن نحذر من إيذاء عباد الله.

❀

عندما أنهى سامي أفندي دراسته في كلية الحقوق، قال له ولي من أولياء الله تعالى:

«يا ولدي، إن تحصيلك العلمي هذا جيد إلا أنه عليك أن تكمل تحصيلك الأصلي! ولنسجلك في مدرسة العرفان، تتعلم هناك العلوم القلبية والأسرار الأخروية!»

وأضاف قائلًا:

«يا ولدي إنه لا علم لي بالكيفية التي يعلمون فيها هناك، ولا بما يعلمون، ولكن ما أعرفه أن أول دروسهم عدم الإيذاء وآخرها عدم الغضب لأحد بسبب أذاه».

إن أولياء الله تعالى الذين يتميزون عن سائر الناس بما يتمتعون به من الصفات والخصال الحميدة، وهم يعيشون ضمن فضيلة «عدم الإيذاء، وعدم الغضب لإيذاء أحد».

سئل أبو عبد الله سلمة: ما الصفات التي تميز أولياء الله تعالى عن غيرهم؟ فكان جوابه:

«يختلف أولياء الله تعالى عن سائر الناس، بـ: حسن ألسنتهم وكلامهم، ولطف أخلاقهم، وبشاشة وجوههم، وظرافة أحوالهم وتصرفاتهم، وكرم أنفسهم، والإيثار الذي يقبلون به الأعذار، رحابة الصدر والشفقة التي يبدونها لمن يسيء إليهم».

❀

وختامًا،إن على من يريد الأمان والطمأنينة في الدنيا والآخرة، ألا يؤذي عباد الله تعالى وأن يجتهد في عدم إلحاق الأذى بالآخرين. وأن يتذكر أن القلوب محط نظر الرب، وعليه السعي لكسب القلوب، وما أحسن ما يوضحه مولانا جلال الدين الرومي:

«لو أتيت الله تعالى بالآلاف من أكياس الذهب، لقال الحق لك: إن رغبت بإحضار شيءٍ لنا فعليك بقلب قد كسبته».

٤ . المساعدة وتقديم العون

يبين الله ﷻ أنه خلق الإنسان ضعيفًا [٨٥٧] ففي طور طفولتهِ، يبرز ضعفهُ وحاجته للمساعدة، وكذلك في مرحلة تقدمه في السن.

ثم تأتي مرحلة الشباب التي يجب ألا يغفل الإنسان عنها، ولا ينخدع بها، فكما بها من قوةٍ بوصفها طور جمع الحسنات والأجر، فإنها تمر بسرعة، وهذا حال الكثيرين، الذين يتخيلون أن الشباب لا ينتهي، والقوة والحيوية اللتان فيه

---

٨٥٧ انظر: النساء، ٢٨ .

لا تزولا، وإذا به على غفلةٍ وصل إلى آخر العمر، وعليهِ فإن من كان يسارعُ في مساعدة الضعفاء في شبابهِ وقوّته، فسيلقى جزاءها عند الكِبَر، ويجد المساعدة مثلما كان يُساعِد.

فالمساعدة والعون، بكل الأحوال، ضرورةٌ من ضروريات حياتنا.

والبشر حين يتسابقون في فعل الخير للآخرين، فإنهم بذلك يستحقون رضا الله تعالى، وهي أساسُ الأخوّة الجميلة في الإسلام، فتسابق المؤمن في عمل الخير والمساعدة علامةٌ على نضج إيمانه وكماله.

قال تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [٨٥٨]

فإن أراد الإنسان أن يتقرّب إلى الله ويبتعد عن الرغبات والشهوات، فعليه بمساعدة الآخرين، وفتح الطرق أمام عمل الخير والدلالة إليه.

فالمؤمنون لا يظلمون، ولا يساعدون على الظلم، ولايكونون واسطةً إليه، فهذا غير وارد مطلقًا، وارتكابهم للإثم والعدوان والسيئات ليس من شأنهم أبدًا.

وبيّن لنا الله ﷻ، أنَّ من أعظم الأعمال التي تستثني الإنسان من الخسران تعاونَه على الحق والصبر، قال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [٨٥٩]

كان قد عرف عن النبي عليه الصلاة والسلام، قبل أن يؤتى النبوة، أنه يُسارع في عمل الخير لكل الناس، ويقدم المساعدة لكل المحتاجين لها، وعندما بعثه

---

٨٥٨ المائدة: ٢.

٨٥٩ العصر: ١-٣.

الله نبيًا ليؤدي الأمانة بالحق، واسته سيدتنا خديجة ﵂ عندما كان خائفًا –بعد نزول الوحي عليه في غار حراء– بقولها:

«كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[٨٦٠]

وعندما حان وقت نشر دعوة الإسلام إلى الناس أجمعين، كان عليه الصلاة والسلام قد أمر بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي وغيرها[٨٦١]، وقد بين لنا النبي عليه الصلاة والسلام هذه الفضيلة بقوله:

«... **والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...**»[٨٦٢]

«**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**»[٨٦٣]

وأي عبد يرفض عون الله تعالى له! وخاصة في أهوال يوم القيامة!!!

فمساعدة المؤمن المكروب أفضل وأعلى أجرًا ومرتبة عند الله، وعلى العكس، لو رأى الإنسان أخاهُ في كربٍ ولم يمد له يد المساعدة، فقد باء بغضب من الله وسخط. كما وأخبرنا عليه الصلاة والسلام أن من ساعد مسافرًا ليركب أو حمل له أشياءه، تقبل الله منه هذا العمل قبولًا حسنًا وكان له عند الله صدقة[٨٦٤]، وتغمده الله برحمته التي لا تنفد.

---

٨٦٠ البخاري، بدء الوحي، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢/ ١٦٠.

٨٦١ انظر البخاري، المظالم، ٥؛ مسلم، اللباس، ٣.

٨٦٢ مسلم، الذكر، ٣٧–٣٨/ ٢٦٩٩؛ أبو داوود، الأدب، ٦٠/ ٤٩٤٦؛ الترمذي، الحدود، ٣/ ١٩٣٠.

٨٦٣ البخاري، المظالم، ٣/ ٢٤٤٢؛ مسلم، البر، ٥٨/ ٢٥٨٠.

٨٦٤ انظر: البخاري، الصلح، ١١، الجهاد، ٧٢، ١٢٨؛ مسلم، الزكاة، ٥٦.

وعندما يرى الله سبحانه وتعالى رغبة المؤمن في تسهيل الطريق لأخيه المؤمن، فإنه تعالى يعطيه ثواب أخيه الطالب لسبيل الخير، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«**من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا**»[٨٦٥]

وأشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذه النقطة حين بين لنا أن المؤمنين في تراحمهم مع بعضهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضًا، وشبك بين أصابعه[٨٦٦]، وأنهم في تصحيح أخطاء بعضهم مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى.

قال سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«**... المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره...**»[٨٦٧][٨٦٨]

«**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه**»[٨٦٩]

وعن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال:

«**إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فليمطه عنه**»[٨٧٠]

يعني أن المؤمن عليه أن يقوِّمَ كل ما في أخيه المؤمن، إن رأى فيه خيرًا شجعه وعمل مثله، وإن رأى فيه سوءًا نصحه وعدّل سوءه.

---

٨٦٥ البخاري، الجهاد، ٣٨/ ٢٨٤٣؛ مسلم، الإمارة، ٣٥-١٣٦/ ١٨٩٥.

٨٦٦ انظر: البخاري، الصلاة، ٨٨، المظالم، ٥؛ مسلم، البر، ٦٥.

٨٦٧ مسلم، البر، ٣٢/ ٢٥٦٤.

٨٦٨ ـ مسلم، البر 32.

٨٦٩ أبو داوود، الأدب، ٤٩/ ٤٩١٨.

٨٧٠ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٢٣٨؛ الترمذي، البر، ١٨/ ١٩٢٩

وعلى عكس ذلك فإن المؤمنين إن لم يتراصّوا كالبنيان المرصوص ذهبت قوتهم، وحينئذ لا يستطيعون الثبات ولا النهوض، فإن عاش المؤمنون إخوَّةً صميمية حقيقية فقد ظفروا بالدين والدنيا معًا، وفي التاريخ أمثلةٌ كثيرةٌ يمكن أن نراها.

صور الفضائل

عن أبي هريرة ﵁ قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فحث عليه، فقال رجل، عندي كذا وكذا، قال، فما بقي في المجلس رجل إلا تصدق عليه بما قل أو كثر، فقال رسول الله ﷺ:

«**من استن خيرا فاستن به، كان له أجره كاملا، ومن أجور من استن به، ولا ينقص من أجورهم شيئا، ومن استن سنة سيئة فاستن به، فعليه وزره كاملا، ومن أوزار الذي استن به، ولا ينقص من أوزارهم شيئا**»[٨٧١]

❀

وعن جرير بن عبد الله ﵁ قال:

«كنا في صدر النهار عند النبي ﷺ، فجاءه قوم عُراة مجتابي النِّمار أو العَبَاءِ متقلدي السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه النبي ﷺ لِمَا رأى بهم من تلك الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذَّن وأقام ثم صلى ثم خطب، فقال:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...**﴾[٨٧٢]

والآية الأخرى التي في آخر الحشر:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾[٨٧٣]

---

٨٧١ ابن ماجة، المقدمة، ١٤/ ٢٠٤.

٨٧٢ النساء: ١.

٨٧٣ الحشر: ١٨.

تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره – حتى قال – ولو بشق تمرة».

قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ:

«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٨٧٤]

فهنا يُذكّرنا رسول الله ﷺ أن الناس جميعهم، غنيهم وفقيرهم قد خُلِقوا من أب واحد وأمٍّ واحدة، وأن علينا جميعا أن نتواسى ويُعين بعضُنا بعضًا، ويعلّمنا أن نتهيأ ونتزوّد لآخرتنا بالعمل الصالح ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف، وهذا ما كان عليه صحابته رضوان الله عليهم في معاملتهم للفقراء.

❁

هناك مثال آخر، استثنائي في روعته، وهو إيثار الأنصار للمهاجرين، فعن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال:

«يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة، فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عقبة كعقبة»

يعني أحدهم، قال: فضممت إلي اثنين أو ثلاثة، قال: ما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي.[٨٧٥]

❁

---

٨٧٤ مسلم، الزكاة، ٦٩/ ١٠١٧.

٨٧٥ أبو داوود، الجهاد، ٣٤/ ٢٥٣٤.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال:

بينما نحن في سفر إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ﷺ:

«**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له**»

قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.[٨٧٦]

❁

وعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال:

«كان رسول الله إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة، قال:

«**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء**»[٨٧٧]

❁

وكما روى لنا علي بن أبي طالب ﵁:

أن رسول الله ﷺ، كان في أحلك ساعات الحرب يركب متقدمًا وكلنا وراءه، وعندما نرجع يمشي في آخر الركب، ينظر في أمور المحتاجين والضعفاء.

وعن أبي جابر ﵁ قال:

«كان رسول الله يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم»[٨٧٨]

❁

وقال النبي ﷺ:

«**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**»

---

٨٧٦ مسلم، اللقطة ١٨/ ١٧٢٨؛ أبو داوود، الزكاة، ٣٢.

٨٧٧ البخاري: الزكاة ٢١/ ١٤٣٢، الأدب ٣٦، التوحيد ٣١ ؛ مسلم، البر ١٤٥ .

٨٧٨ أبو داوود، الجهاد ٩٤/ ٢٦٣٩.

فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال:

«**تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره**»[879]

❁

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيله**»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أعلاها ثمنا، وأنفسها عند أهلها**»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تعين ضايعا، أو تصنع لأخرق**»،: قال: فإن لم أفعل؟ قال:

«**تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك**»[880]

❁

وضرب لنا عليه الصلاة والسلام مثلًا في الإيثار، حين مدح قبيلة الأشعريين، وهي قبيلة من قبائل اليمن، فقال:

«**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم**»[881]

❁

كما وأشار عز وجل إلى الذين يمنعون رفدهم عمن نالهم الضعف، فقال تعالى:

﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[882]

---

879 البخاري، المظالم ٤، الإكراه ٦/ ٦٩٥٢؛ الترمذي، الفتن، ٦٨/ ٢٢٥٥.

880 البخاري، العتق، ٢/ ٢٥١٨؛ مسلم، الإيمان، ١٣٦/ ٨٤.

881 البخاري، الشركة، ١/ ٢٤٨٦؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٦٧/ ٢٥٠٠.

882 الماعون: ٤ –٧.

ثم إن الصحابة الكرام لم يتركوا عمل المعروف حتى ولو كان صغيرًا، فهم لا يستحقرونه. وعن ابن مسعود ﵁ قال:

«كنا نعد الماعون على عهد رسول الله عارية الدلو والقدر»[٨٨٣]

أي أن المسلمين يتعاونون فيما بينهم ويحثون غيرهم عليه، والجيران لا يقفون عند الأمور البسيطة، وإنما يسارعون إلى مد يد العون لبعضهم.

❁

جاء سائل فسأل ابن عباس، فقال ابن عباس للسائل:

أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال: وتصوم رمضان؟ قال: نعم. قال: سألت وللسائل حق، إنه لحق علينا أن نصلك، فأعطاه ثوبا ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من مسلم كسا مسلما ثوبا إلا كان في حفظ من الله ما دام منه عليه خرقة»[٨٨٤]

❁

عن علي ﵁ قال:

«ما أدري أي النعمتين أعظم علي منة من ربي رجل بذل مصاص وجهه إلي فرآني موضعًا لحاجته وأجرى الله قضاءها أو يسره على يدي، ولأن أقضي لامرئ مسلم حاجة أحب إلي من ملء الأرض ذهبًا وفضة»[٨٨٥]

❁

سُئل جعفر الصادق ﵁: لم حرم الله الربا؟ قال:

«لئلا يتمانع الناس المعروف» [٨٨٦]

---

٨٨٣ أبو داوود، الزكاة، ٣٢/ ١٦٥٧.

٨٨٤ الترمذي، القيامة، ٤١/ ٢٤٨٤.

٨٨٥ علي المتقي، كنز العمال، ٦، ٥٩٨/ ١٧٠٤٩.

٨٨٦ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٤.

فالناس إن لم يتراحموا ويقرض بعضهم بعضًا إلا لهدف المنفعةِ فقط، فلن يكون للفضيلة بينهم أثر أبدًا.

❁

كان الإمام الأعظم أبو حنيفة تاجرًا أمينًا محبًا للمساعدة، جاءته امرأة عجوز قالت له: إني ضعيفة، وإنها أمانة، فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك، قال: خذيه بأربعة دراهم، فلما تعجبت المرأة قال:

«لا تستغربي، إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما، برأس المال إلا أربعة دراهم فبقي هذا الثوب على أربعة دراهم»

وفي قصة أخرى جاءته امرأة طلبت ثوبًا بوصفٍ ولونٍ معين، فقال لها أن تأتي بعد أسبوع، فلما جاءت بعد أسبوع، أخرج لها الثوب فكان كما أرادت، فقالت له: بكم؟ قال: بدرهم، فاستغربت وقالت: ما ظننتك تهزأ بي! فقال: لا أهزأ بك، فقد اشتريت الثوبين بعشرين دينارًا ودرهمًا، فبعت أحدهما بعشرين دينار، وبقي لي على هذا الثوب درهم واحد فقط» [887]

❁

عن يعقوب بن شيبة، قال:

«أظل العيد رجلًا، وعنده مئة دينار لا يملك سواها، فكتب إليه صديق يسترعي منه نفقة، فأنفذ إليه بالمائة دينار، فلم ينشب أن ورد عليه رقعة من بعض إخوانه يذكر أنه أيضًا في هذا العيد في ضائقة، فوجه إليه بعينها، قال: فبقي الأول لا شيء عنده، فاتفق أنه كتب إلى الثالث وهو صديقه يذكر حاله، فبعث إليه الصرة بختمها، قال: فعرفها، وركب إليه، وقال: خبرني، ما شأن هذه الصرة؟ فأخبره الخبر، فركبا معًا إلى الذي أرسلها، وشرحوا القصة، ثم فتحوها واقتسموها» [888]

❁

---

٨٨٧ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣، ٣٦٢؛ أبو زهراء، ص ٣٤_٣٥.

٨٨٨ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٤، ٢٨٢.

ومن كتابات الكاتب إيلي قدوري، أنه قد ذُكِرَ في هوامش تقارير السياسة البريطانية في الشرق الأوسط في أواخر العصر العثماني، أنه في أواخر القرن التاسع عشر انتشر قحطٌ شديد في شرق الأناضول، وكان الإنجليز يأملون في استغلال هذا الوضع من أجل أن يخرج الشعب في عصيانٍ ضد الحكم العثماني.

فأرسلوا لهذه الغاية جاسوسًا، فبدأ الجاسوس يطلع ويبحث، ووصل إلى النتيجة، فكتب تقريره وكان حكيمًا جدًا فيما كتب حيث قال:

«يوجد قحط، ولكن لا توجد مجاعة! فالناس يعتني بعضهم ببعض، ويساعد بعضهم بعضًا، لهذا فإن القحط لم يتحول إلى مجاعة! وكنتيجةٍ نهائية فإن استحداث عصيانٍ ضد الجوع في هكذا نسيج اجتماعي مترابط غير وارد على الإطلاق!».

وكتب الكاتب دي لا موتريه «De La Motraye»:

«نسيج العائلة في البلاد العثمانية قوي جدًا ومتماسك، فمهما حصل من كوارث، ولو استحال أفراد العائلة رمادًا فلن تجد النساء منكسرات ومذلولات، ولن تسمع بكاء أطفالهم! ولن تجد الثروة في يد شخصٍ واحدٍ فقط، وترى لهم أمام قدر الله تسليمًا لأمره وتوكلًا عليه، وتجد المساعدة والعمل الخيري في كل مكان، وإن تهدّمت البيوت أعادوا بناءها لبعضهم البعض، وأمدوهم باللازم من كل نوع».

ويقول كورنيل لو بروين «Corneille le Bruyn»:

«الأتراك مغرمون جدًا بفعل الخيرات وعمل الإحسان، بل وحتى أكثر من المسيحيين، وبشكل لا يمكن إنكاره، هذا واحد من الأسباب الرئيسية التي أدّت إلى قلة عدد المتسولين هناك عمومًا، ومن لم يستطع أن يفتح كيسه ليعطي الفقراء تجده يساعدهم بدنيًا بكل استطاعته، وكلما تآكلت دوانب

الطرق وانهارت تجدهم يصلحونها، تجدهم يملؤون خزانات المياه بنقاط منتظمة على طول الطريق من أجل المارّة، وفي حال حصل فيضان للنهر تجدهم يتعاونون لإيجاد نقاطٍ للعبور، وغيرها من الأعمال الخيرية العديدة، وكل هذا دون مقابل، إذ إنهم ينشدون رضا الله عليهم من هذه الأعمال، ويريدون الأجر والثواب منه عليها».

يقول موراد غاداوسون «Mouradgea daohsson»، عن المجتمع الإسلامي:

«الشعب، بجميع طبقاته، آباء وأمهات، يشكلون قدوةً لأطفالهم في عمل الخير، ويعوّدونهم عليه منذ سن مبكرة، ويُعلون فيهم قيمة الفضائل من الإحسان وعمل الخير، وبهذا يكبر حب مساعدة الناس في قلوبهم، ويستقر في أنفسهم، ولا يكون شيئًا ثقيلًا عليهم بعد أن يتعودوه، ورفعهم هذا إلى مستوى أعلى من مستوى الشعوب الأخرى».

❀

وفي الحاصل، فإن هناك تنظيمًا بأمر من الله تعالى في هذا المجتمع بمساعدة الآخرين، لكل الأفراد ودون استثناء، يساندون بعضهم بكل الطرق المادية منها والمعنوية، ولذا ينبغي الحذر من جعل القوة والغنى وسيلة للتكبر والغرور والتمنع في أوقات الشدة، بل ينبغي استخدام هذه النعم التي أسبغها الله في مساعدة الناس لنيل المرتبة العالية في الآخرة وتحقيق مكانة مشرفة في الدنيا، ويجب علينا عند مساعدة المحتاجين أن نشكرهم، لأننا بواسطتهم نفوز برضا الله تعالى.

الإسلام، يفتح لنا كل الطرق التي تؤدي إلى مساعدة المحتاجين، لهذا نجد قيم المساعدة موجودة في قوام المجتمع الإسلامي، بين القوي والضعيف، الغني والفقير، وأهم من كل ذلك، الصدق والإخلاص في النية.

٥. الصُلحُ وإحلال السلام

هناك حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها، وهي أن المجتمع الإسلامي حين يتعرض نظامه ونسيجه إلى هزةٍ تؤدي إلى صراع أو حرب، نرى أهل التصوّف وخاصة أهل الله منهم، يغدون مصدرًا للسّلم والصلح والطمأنينة، فيمتصون غضب الناس والجماهير التي تغلي، ويضمّدون الجروح النازفة، وينشرون السكينة في القلوب المتعبة، حيث لا بد من أن يُخرجوا الناس من غفلتهم، ويعاملونهم كما يُعامَل المريض، بعنايةٍ وحنان، ويستندون في معاملتهم إلى التراحم والمسامحةِ والغفران.

وإنَّ من بين أهم العوامل التي تحقق الصلح والسلام الاجتماعي، الصدقة والزكاة والإنفاق والاهتمام بالمشاريع والمؤسسات الخيرية والأوقاف، وإن التضامن بين المسلمين، والكرم والإيثار، والوحدة والتكاتف فيما بينهم، كلها لها دورٌ في إطفاء مشاعر الناس السلبية من غضبٍ وإهانةٍ للآخر، وتجمّع المؤمنين وتوحّد قلبهم على قلبٍ واحد.

إن الإسلام ككلمة، تعني تسليم الأمر لله وحده، والعيش في سلامٍ وطمأنينة، ومن هنا يأتي واجب المسلمين، أفرادًا ومجتمعاتٍ، في أن ينشروا المحبّة والسلام والصلح بين كل المسلمين، فمن غير الوحدة والاجتماع وتوافق القلوب، لن يستطيعوا ـ وهم عباد الله ـ أن يوفوا العبودية لله ﷻ حق قدرها، ولن يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم تجاه الخالق ﷻ.

إن الله لا يحب الفساد قطعًا ولا المفسدين في الأرض، والمسلمون بدورهم عليهم أن يأمروا بكل ما هو ضد الفتنة والفساد والإفساد في الأرض، قال ﷻ:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٨٨٩]

٨٨٩ النساء: ١١٤.

﴿... وَالصُّلْحُ خَيْرٌ...﴾ [890]

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[891]

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ الله فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [892]

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [893]

فنرى أن الله ﷻ قد كافأ الـمُصلح بين الناس بلطفه وكرمه اللذَيْن لا ينتهيان، كما تقول الآية الكريمة:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [894]

كذلك وأنه تعالى لن يقبل الأعذار في تضمين إيمانكمْ نيّتكم في الإصلاح بين الناس، وبهذا الخصوص ينبهنا ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [895]

وقال نبي الله موسى عليه السلام لأخيه هارون عندما كان ذاهبًا إلى ميقاته مع الله سبحانه وتعالى كما ورد في الآية الكريمة:

---

٨٩٠ النساء: ١٢٨.

٨٩١ الأنفال: ١.

٨٩٢ الحجرات: ٩.

٨٩٣ الحجرات: ١٠.

٨٩٤ الشورى: ٤٠.

٨٩٥ البقرة: ٢٢٤.

﴿... اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [896]

ثمة الكثير من الأوامر والنواهي التي تشدد على أهمية نشر السلام والصلح في الإسلام، والوقوف في وجه الفساد والمفسدين، ومن أبرز الأمثلة على هذا، إفشاء السلام.

وقد شدد نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام على أهمية إفشاء السلام بقوله:

«إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» [897]

وكما جاء في الحديث الشريف: إن كل من أصلح بين اثنين فإن له بهذا صدقة. [898] فكل إنسان يسعى بالصلح بين اثنين، ويجتهد في إعادة حبال الودّ بينهما، فإن مثل هذا الإنسان لا يُعَدُّ كذابًا، ككلام المرء وهو يصلح بين زوج وزوجته، فهذا ضمن مباحات الكذب كما أخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلامً وورد في الحديث، وهي الحرب والإصلاح بين الناس، وكلام الرجل امرأته، وكلام المرأة زوجها. [899]

سأل سعيد بن المسيب من التابعين من حوله:

«ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟»

قالوا: بلى، قال:

«إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة» [900]

فكما أن الحالقة تزيل الشعر من جذوره كذلك نشر الفساد والفتنة بين الناس يقضي على دين المرء، لما في زرع الفتنة بين الناس من البشاعة والدناءة، ولهذا

---

٨٩٦ الأعراف: ١٤٢.

٨٩٧ أبو داوود، الأدب، ١٣٢–١٣٣/ ٥١٩٧؛ الترمذي،الاستئذان، ٦.

٨٩٨ انظر: البخاري، الصلح ،١١ الجهاد، ٧٢ ، ١٢٨؛ مسلم، الزكاة، ٥٦.

٨٩٩ انظر: البخاري، الصلح ٢؛ مسلم، البر، ١٠١.

٩٠٠ مالك، الموطّأ، حسن الخلق، ٧.

حرم الله على عباده أن يطول خصامهم مع بعض، وفي هذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام وهو يحثنا على عدم الخصام طويلًا:

«لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث، فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم» [٩٠١]

إن الله تعالى يؤخر قبول الأعمال وغفران الذنوب لكل عبدين تخاصما وطال خصامهما.

قال النبي عليه الصلاة السلام:

«تُعرض أعمال الناس في كل جمعة مرتين، يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد مؤمن، إلا عبدا بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا، أو اركوا، هذين حتى يفيئا» [٩٠٢]

إننا من أجل إحلال المحبة وحسن الظن والرحمة والمودة في القلوب مكان الكراهية والحسد والخصومة، نحتاج إلى أن نصفي قلوبنا، وأن نزكي أنفسنا، وأجمل طريقة لتربية القلب والنفس بهذا الشكل، هي تربيتها بالتصوف.

ومن طرف آخر فإن المسلمين كأفراد ينتمون إلى مجتمعات ويريدون التعايش في سلام ومحبة، لهذا فإن الحرب في الإسلام ليست هي الأساس، وإنما التصالح والسلام هو الأساس، والحرب كغاية لذاتها غير مقبولة أبدًا، ولا يصح الوصول إلى الحرب كنتيجة إلا حينما نستنفد كل وسائل الصلح والسلام والتعايش، وهذا ما لا يحصل في الإسلام لأن المسلمين لديهم الرغبة الكاملة في الصلح والسلام، لذا فالحرب ليست خيارًا مرجحًا لهم، حتى وإن كانت مع العدو، فإن جاءت فرصة للسلام علينا أن نغتنمها ولا نفوتها، حيث أخبرنا تعالى في محكم كتابه العزيز هذا الأمر:

---

٩٠١ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٢.

٩٠٢ مسلم، البر، ٣٦؛ أبو داوود، الأدب، ٤٧ .

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٩٠٣]

وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**أيها الناس، لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» [٩٠٤]

ومما لاشك فيه أن السلام ليس دائمًا هو الخيار المطروح، فأحيانًا تأتي النية السيئة وتلعب دورها في تخريب السلام والسكينة، فعلى الجميع أن يقفوا أمام هذا التخريب ويضعوا له حدًا، وعلينا جميعًا أن نكون مستعدين لمثل هذه الأوقات.

ونتيجة لذلك فعلى المسلمين أن يكونوا مستعدين بكل قوة في السلام والحرب معًا، لرد العدوان في الحرب وليرهبوا أصحاب النوايا السيئة التي تخرب السلام والأمان في السلم، وذلك ليعيش الناس في أمنٍ واطمئنان، وليرضى الله ﷻ عنهم ويتقبل أعمالهم.

صور الفضائل

رُويَ عن كعب بن مالك، أنه تقاضى بن أبي حدرد دينا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، فنادى: «**يا كعب**»، قال: لبيك يا رسول الله، قال: «**ضع من دينك هذا**»، وأومأ إليه أي الشطر، قال: لقد فعلت يا رسول الله، قال: «**قم فاقضه**» [٩٠٥]

---

٩٠٣ الأنفال: ٦١.

٩٠٤ البخاري، الجهاد، ١١٢/ ٣٠٢٤.

٩٠٥ البخاري، الصلاة، ٧١، ٨٣/ ٤٥٧/ ٢٤١٨؛ مسلم، المساقاة، ٢٠/ ١٥٥٨.

وعن عمرة بنت عبد الرحمن رضي الله عنها، قالت: سمعت عائشة رضي الله عنها، تقول:

«سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب، عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسول الله ﷺ عليهما ،فقال :«**أين المتألي على الله لا يفعل المعروف**»، فقال: أنا يا رسول الله، وله أي ذلك أحب. [٩٠٦]

❁

لما التقى النبي ﷺ بالقرشيين في بدر، أرسل إليهم رسلًا يعرض عليهم الصلح، لأنه لم يكن يرغب في الحرب أبدًا، وكان على الدوام يبين أن الصلح خير من الحرب، فأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليهم، فقال:

«ارجعوا، فإنه يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه مني، وأليه من غيركم أحب إلي من أن أليه منكم».

فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصفا، فاقبلوه. والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف. قال، قال أبو جهل: والله، لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم، ولا نطلب أثرا بعد عين، ولا يعترض لعيرنا بعد هذا أبدا.[٩٠٧]

❁

خرج الرسول ﷺ إلى مكة للعمرة، فخرج عليه نفر من المشركين، وحدثت بين رسول الله والمشركين مفاوضات انتهت بصلح الحديبية، حيث جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح النبي ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ:

---

٩٠٦ البخاري، الصلح ١٠/ ٢٧٠٥؛ مسلم، المساقاة، ١٩/ ١٥٥٧؛ الموطأ، البيوع، ١٥.

٩٠٧ الواقدي، المغازي، ١، ٦١ ـ ٦٥.

«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره»[٩٠٨]

وهكذا فقد حزن المسلمون لأنهم لم يطوفوا بالبيت الحرام ولم يضحّوا بأضحياتهم عنده، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام بشرهم بأنهم سيفعلون ذلك العام القادم، وبأن هذا الصلح هو فتح.

فقال أحد الصحابة: ما هذا بفتح، لقد صُدِدْنا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا، وردَّ النبي ﷺ رجلين من المسلمين كانا خرجا إليه، فبلغ النبي ﷺ قولُ أولئك، فقال:

«بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، لقد رضيَ المشركون أن يدفعوكم بالراحة عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وردَّكم الله سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح» [٩٠٩]

❀

ولم يمضِ عامان على صلح الحديبية حتى نُقِض، حين هاجمتْ قبيلة محالفةٌ لقريشَ قبيلةً محالفةً للمسلمين، فنادى الرسول ﷺ لنصرة حلفائه في الصلح، والسير إلى مكة، وخرج عليه الصلاة والسلام بجيش خفيّ من ناحية المدينة ومن ناحية الشام إلى مكة، جيشٌ هدفه الفتح وليس الحرب، فكان الفتح بعون الله تعالى، وكان في هذا التدبير خطط واستراتيجيات كبيرة:

وأولها حيث أمر رسول الله ﷺ أن يكون التجهيز والسير بالخفاء، فلم يعلم أحد أين يريد النبي عليه الصلاة والسلام، [٩١٠] حتى صديقه أبو بكر رضي الله عنه، حين دخل

---

٩٠٨ البخاري، الشروط، ١٥/ ٢٧٣١.

٩٠٩ انظر: الحلبي، إنسان العيون، طبعة مصر ١٩٦٤، ٢، ٧١٥؛ أبو داود، الجهاد، ١٤٣–١٤٤/ ٢٧٣٦.

٩١٠ انظر: ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٣٤.

على ابنته زوجة الرسول عائشة رضي الله عنها فسألها: أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فقال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري!.

ثم إن النبي ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال:

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» [٩١١]

والاستراتيجية الأخرى هي أن النبي عليه الصلاة والسلام مضى بعكس جهة الطريق إلى مكة، وعكس اتجاه القبائل المتحالفة معها خدعةً منه لقريش التي تتوقع هجومه من جهةٍ دون غيرها، كما وحمل المقاتلون المسلمون المشاعل قرب مكة ليوهموا الناس في مكة بعددهم الكبير كتأثير نفسي عليهم. [٩١٢]

ولنفس الغرض فقد اتخذ الرسول ﷺ طريقًا آخر إلى مكة، غير طريق ذو الحليفة بعد الإحرام منها لأنها ميقات للحج والعمرة. فقد كان عليه الصلاة والسلام يحب الصلح والسلم، وكان حريصًا ألا يدخل الحرب إن كان منها مهرب، وهو المحافظ على السِّلم في كل وقت، فما أعلى وأسمى شخصيته، وما أعمق ما يتركه فينا من الأثر الروحي والعملي حين نتخذه قدوةً لنا عليه الصلاة والسلام.

❀

كان بين سعد بن معاذ كبير الأوس وسعد بن عبادة كبير الخزرج سوء تفاهم وخصام، فأخذ النبي ﷺ بيد سعد بن معاذ ومعهم بعض الرجال من الأوس، وذهبوا إلى بيت سعد بن عبادة، حيث ضيفهم وأكرمهم وتحدثوا، وبعد فترةٍ أخذ بيد سعد بن عبادة مع بعض الرجال من الخزرج وذهبوا إلى بيت سعد بن معاذ حيث ضيفهم وأكرمهم وتحدثوا. [٩١٣]

---

٩١١ ابن هشام، سيرة، ٤، ١٤.

٩١٢ حميد الله، نبي الإسلام، اسطنبول ١٩٩٥، ١، ٢٦٤-٢٦٥.

٩١٣ الواقدي، المغازي، ٢، ٤٣٥.

فكثيرًا ما كان عليه الصلاة والسلام يُصلِحُ بين أصحابه بالحق، وكم كان يعلمهم أصول نشر السلام والإصلاح بين الناس، وما أجمل هذه الأصول، وما أروع وأنبل هذه النية في إشراك الجميع بإنصاف وألفة ومحبة.

❁

يقول أبو بكر رضي الله عنه:

سمعت النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة، ويقول:

«ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» [٩١٤]

فلم تقتصر رغبة النبي عليه الصلاة والسلام في توفير السلم والصلح في عصره بل أراد ذلك لما بعد أيضًا، إذ أنه قد بيم أنه ستكون تضحيات من أهله في سبيل الإصلاح بين الناس، وأشار إلى وجوب ذلك على المسلمين أيضًا بقوله:

«خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء» [٩١٥]

فكان حكم الخلفاء الراشدين بنهاية خلافة علي رضي الله عنه تسعة وعشرين عامًا وستة أشهر، ثم جاء بعده الحسن رضي الله عنه، فحكم ستة شهور، حاول فيها اتقاء الفتنة بين المسلمين، وآثر الصلح والسلام على الخلافة، فتنازل عنها لمعاوية، وهكذا تحققت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المذكور آنفًا.

❁

وعن مقاتل بن حيان:

كان امرئ القيس صحابيًا قد أتى النبي عليه الصلاة والسلام في الوفد اليمني، وقد ارتد فيما بعد أغلب هذه القبيلة، إلا أنه صح إسلامه، فاختلف مع صحابي آخر في أرضٍ، وقصدوا النبي عليه الصلاة والسلام يحتكمون إليه:

---

٩١٤ البخاري، المناقب ٢٥؛ فضائل الصحابة، ٢٢/ ٣٦٢٩.

٩١٥ أبو داوود، سنة، ٨/ ٤٦٤٦؛ أحمد، مسند، ٥، ٥٠، ٢٢٠، ٢٢١.

فقال الحضرمي: يا رسول الله، إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: «**ألك بينة؟**» قال: لا، قال: «**فلك يمينه**»، قال: يا رسول الله، إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: «**ليس لك منه إلا ذلك**»، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر:

«**أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما، ليلقين الله وهو عنه معرض**»

فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها وهو يعلم أنه محق؟. فقال: الجنة. قال: فإني أشهدك أنّي قد تركتُها. فنزلت الآية الكريمة:

﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون**﴾[٩١٦] .[٩١٧]

❁

وهكذا، فإن في اتباع أوامر الله ﷻ، والسير في طريق الرسول ﷺ سعادةٌ وسكونٌ وسلامٌ، ومجتمع متماسك سعيد مطمئن وآمن، وتاريخنا زاخر بالكثير من الأمثلة المنيرة، لا يسع ذكرها كلها هنا، ولكن نذكر منها ما وجد في مذكرات السير جيمس بورتر، الذي كان سفير انجلترا في الدولة العثمانية، ورغم كون الإنجليز في ذلك الوقت أعداء الإسلام والعثمانيين، إلا أن شهادته كانت كالتالي:

«تكاد حوادث قطع الطريق والسطو على المنازل، والنشل وغيرها أن تكون معدومة في المجتمع العثماني، سواء أكان ذلك في السلم أم في الحرب، وخاصة من يتّبع الطرق الرئيسية، فإنه بإمكانه السير فيها طوال الوقت ليلًا ونهارًا بلا خوف، وما ذلك إلا للأمن الذي كانت تتمتع به الدولة العثمانية، وإنه رغم كثرة

---

٩١٦ البقرة: ١٨٨.

٩١٧ مسلم الإيمان، ٢٢٣-٢٢٤/ ١٣٩؛ الواحدي، ص٥٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ١٣٧.

أعداد المسافرين في هذه الطرق فإننا نرى أن مثل هذه الحوادث نادرة الحصول، ولا بد من التعجب لندرة وقوعها! إذ أنه من النادر العثور على حوادث قد وقعت صدفة رغم كل تلك السنين».

إن الاسلام دينٌ يضمن للمسلم السلام والطمأنينة في الدنيا كما في الآخرة، وإن اتبع المسلمون أفرادًا أو مجتمعاتٍ أوامر الله سبحانه وتعالى، عاشوا في رخاءٍ وصلح وسكون وسلام، لأن الله ﷻ بين لنا هذا في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٩١٨]

٦. تحقيق الوحدة والتعاون الاجتماعي

لقد أثرى دين الإسلام ـ على مر العصور ـ شخصية المسلم بالعديد من الصفات التي أنضجت هذه الشخصية الإسلامية، وأتى بنماذج راقية تتمتع بأرفع القيم والمبادئ لضمان سلامة ووحدة المجتمع الإسلامي وأفراده، وإن الأفراد تحت مظلة الأخوّة في الدين سويًّا أُمِرُوا بمشاركة المحبة بينهم، حيث يهدف الدين بهذا إلى نشر روح الإيثار والتضحية واحترام المقابل للوصول بالمجتمع إلى وحدةٍ متماسكة، وبهذا الحال فإن الأمثلة على «حضارة الفضائل» تتشكل لتبيّن لنا مجتمعًا متطوّرًا قائمًا على الوحدة والتكاتف.

وإن أكبر خطر يتهدد المجتمعات، إنما هو الخلاف والصراع والانقسام، والذي يؤدي بمجموعه إلى الفوضى، وعلى المسلمين كي يقوا أنفسهم من السقوط في فخ الفتنة التي تفتح الباب أمام الرغبات المريضة أن يقوّوا أواصر الأخوة فيما بينهم ويتوحّدوا ويتماسكوا، وكان هذا منهج الرسول عليه الصلاة

٩١٨ البقرة: ٢٠٨.

والسلام وصحابته من بعده من الخلفاء الراشدين، بأن يجتمعوا حول حبل الله ولا يتفرقوا، يقول الله ﷻ في محكم كتابه العزيز:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٩١٩]

ويقول الله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٩٢٠]

فقد أمر الله تعالى المسلمين أن يجتمعوا على قلبٍ واحد، كما وقد أوحى لنبيه عليه الصلاة والسلام في سورة الشورى:

﴿... أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..﴾ [٩٢١]

وتأتي أهمية الوحدة وعدم الفُرقة بعد إقامة الدين، حيث إن الإنسان بطبعه ضعيف وقد يسقط في فخ التفرقة، وما أخطر التفرقة والانقسام على مجتمعنا، لهذا أكّد الله تعالى ورسوله الكريم على أهمية الوحدة.

فالنفس البشرية أمّارة بالسوء كما قال تعالى، وإن ما فيها من الصفات مثل الجشع والحسد والطمع لها دور كبير في كسر الأواصر بين الأفراد وتفريقهم، فالنفس والشيطان، سلاحان أزليان لهما أثر قوي من جهة، ومخرّب وضارٌّ من جهة أخرى.

---

٩١٩ آل عمران: ١٠٣.

٩٢٠ الأنفال: ٤٦.

٩٢١ الشورى: ١٣.

لهذا فمن المثير للإعجاب أن نرى أن وحدة المسلمين وأخوّتهم لم تتأثر، وألا نجد بينهم مكانًا للفرقة والخصام طالما التزموا بأمر الله تعالى ألا يتفرقوا، فإنهم إن تفرقوا فشلوا. قال رسول الله ﷺ:

«**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وشبك بين أصابعه. [٩٢٢]

«**أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن**»[٩٢٣]

«**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**» [٩٢٤]

وقد أسرّ رسول الله ﷺ بأسماء المنافقين للصحابي حذيفة بن اليمان وذلك من حكمته عليه الصلاة والسلام، وحرصه على متانة وتماسك المجتمع، وخوفه عليه من غدر المنافقين، وهم من أخطر الآفات على المجتمع، ولم يُعلم النبي عليه الصلاة والسلام بأسمائهم أحدًا سواه، حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان بمنزلة وزير الرسول الله ﷺ، فلم يكن يعرفها، فما كان من عمر إلا أنه كان يمشي مع حذيفة في الجنائز، فإن صلى بن اليمان على الجنازة علم أنها لم تكن لمنافق.

وعلاوةً على ذلك، فإن المسلمين يقيمون الصلاة جماعةً في اليوم خمس مراتٍ، وهذا له الأثر الأكبر في توحيدهم وتمتين العلاقة بينهم وإشعارهم بأنهم كالجسد الواحد.

---

٩٢٢ البخاري، الصلاة، ٨٨، المظالم، ٥/ ٢٤٤٦؛ مسلم، البر، ٦٥/ ٢٥٨٥.

٩٢٣ الترمذي، الفتن، ٧، ٢١٦٥؛ أحمد، مسند،١، ٢٦، ٥، ٣٧٠–٣٧١ .

٩٢٤ البخاري، الأدب، ٢٧/ ٦٠١١؛ مسلم، البر، /٢٥٨٦ .

والله ﷻ يأمر المسلمين بالوحدة في شعائرهم من صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وغيرها، كما في الآية الكريمة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٩٢٥]

ويضرب عليه الصلاة والسلام لنا أجمل الـمُثُل في الوحدة والتراصف حيث يقول:

«**استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم...**»[٩٢٦]

وفي حديثٍ شريفٍ آخر:

«**أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله**»[٩٢٧]

لذا فالصفوف عندما لا تتحد ولا تستقيم، يضيع التناغم والتوافق والوحدة والتكاتف، وإن القلوب والأفئدة مثل حبات المسبحة، يربطها خيط واحد، فإذا ما انقطع هذا الخيط ترى الحبات قد تناثرت وتفرقت، ومن أجل النظام والانتظام والانضباط يقف المسلمون صفوفًا مستقيمة كي يشعروا بالقوة المعنوية وبالتلاحم من جهة، وليوقعوا الرعب في قلوب الأعداء من جهةٍ أخرى.

يقول جلال الدين الرومي:

«كونوا رفقاء مع باقي البشر، فمهما كانت القافلة مزدحمة ومهما كان فيها من الناس، فإن كل ما يحتاجه قاطع الطريق هو خصرها الرفيع كي يكسرها».

لقد عجز مبعوث أوروبي إلا أن يتحدث عن الخشوع والوحدة التي كانت تلفّ جيش المسلمين وهم يقيمون صلاة الجمعة، إذ كان يراقب سير عمليات الجيش العثماني في سهول المجر، فقال مظهرًا تعجبه وحيرته من هذه الصورة:

---

٩٢٥ البقرة: ٤٣.

٩٢٦ مسلم، الصلاة، ١٢٢/ ٤٣٢.

٩٢٧ أبو داوود، الصلاة، ٩٣/ ٦٦٦.

«خمسون ألف شخص، اجتمعوا كلهم في صفوفٍ منتظمة بعد نداء من الإمام، يدًا بيد، وكأنهم أصبحوا جسدًا واحدًا، ثم يأتي نداء جديد، فيدخلون في حالةٍ من الخشوع والسجود الموحّد للخالق، كيف تستطيع جيوش المسيحية المحطّمة أن تصمد أمام هذا الكيان العظيم.؟!»[928]

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[929]

وكما بيّن لنا النبي ﷺ، فإن الله ﷻ قد رضي عن المؤمنين الذين تمسّكوا وتجمعوا حول حبل الله [930]، وإن التزام الجماعة تصفي قلب المسلم وتحفظه من الوقوع في السيئات. [931].

كما وقد بيّن لنا النبي عليه الصلاة والسلام أن الإنسان الذي يموت على غير ما عاش عليه المسلمون من الوحدة وطاعة الخليفة فكأنه مات ميتة الجاهلية. [932]

وهكذا فإن المسلمين إن لم يتجمعوا حول حكم الله وأمره، فقد حرَموا أنفسهم من رضا الله سبحانه وتعالى، وضاعت قوتهم، وتفرقوا، وزلّت أقدامهم، وانهدم صرحهم، ولو اطلعنا على التاريخ لرأينا الكثير من الأمثلة التي تبين لنا خطر التفرقة، قال عليه الصلاة والسلام:

«**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»[933]

---

٩٢٨ أحمد أرسوز، السنوات الحرجة في التعليم، اسطانبول ١٩٩٣، ص ٧٠.

٩٢٩ الصف: ٤.

٩٣٠ انظر: مسلم، الأقضية، ١٠.

٩٣١ انظر الترمذي، العلم، ٧/ ٢٦٥٨؛ ابن ماجه، المقدمة، ٨.

٩٣٢ انظر: مسلم، الإمارة ٥٣، ٥٤؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٠٦، ٤٨٨.

٩٣٣ أحمد، مسند، ٤، ٢٧٨، ٣٧٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥، ٢١٧.

صور الفضائل

يقول العرباض بن سارية رضي الله عنه:

صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا فقال:

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» [٩٣٤]

❁

بعد أن عُقدَ صلح الحديبية بين النبي عليه الصلاة والسلام والمشركين، مرت سنتان فغدرت قبيلة موالية للمشركين بقبيلةٍ مواليةٍ للمسلمين، وسرعان ما أحسّت قريش بخطئها وغدرها، فخافت من العواقب الوخيمة، فبعثت قائدها أبا سفيان ليجدد الصلح، وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعل قريش إزاء غدرتهم، فقال: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدّ العقد ويزيد في المدة»، ودخل أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج. [٩٣٥]

فرجع أبو سفيان خائبًا لم يكلمه أحد ولم ينجده أحد، فلم يعد بمقدوره أن يخفي الأمر الجلل عن المكيّين، فقال لهم:

---

٩٣٤ أبو داوود، السنة، ٥/ ٤٦٠٧؛ الترمذي، العلم، ١٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦.

٩٣٥ ابن هشام، سيرة، ٤، ١٢-١٣.

«جئتكم من عند قوم قلوبهم على قلب واحد، والله ما تركت فيهم صغيرًا ولا كبيرًا ولا أنثى ولا ذكرًا إلا كلمته فلم أنجح منهم شيئًا» [٩٣٦]

هكذا كان المسلمون الأوائل، وهكذا كانوا عندما يتجمعون على قلب رجلٍ واحد، وأي قلبٍ هو، هو قلب شفيعنا ونبينا ﷺ الذي اختاره الله تعالى لينزل عليه كتابه بالوحي.

❀

في زمن السلطان مراد الأول كانت هناك حملة جهاد عثمانية في «روملي»، وهي الأراضي المتاخمة لتركيا من الغرب، فتحيّن علاء الدين بيك ابن كارامان أحد أسياد المقاطعات الأناضولية الفرصة لغياب الجيش فتعرّض للأراضي العثمانية بالهجوم، فما كان من الشيخ هدى فنديكَار إلا أن قال وبكل حزن:

«انظروا إلى فعل هذا الظالم! نحن على مسيرة شهرٍ من الكفار، وقد نباغتهم بين يومٍ وليلةٍ، وها هو أحد الخونة يرتد علينا ويطعننا في ظهرنا وظهر أمتنا! أيها الغزاةُ! أخبروني كيف لي أن أسحب سيفي وأقاتل به أخًا لي في الاسلام؟». وبعدها تمت مسامحة هذا البيك وصبرت الدولة العثمانية على إقطاعيات الأناضول حرصًا على وحدة الأمة وتحمّلت ما بدر منهم.

❀

ومن أجمل وأروع الأمثلة في الوحدة والتكاتف، ما بدر من إدريس البدليسي وهو أحد أمراء عشائر الأكراد في جنوب شرق الأناضول، والدور الذي لعبه خلال حملات السلطان سليم الأول في توحيد الامبراطورية العثمانية تحت أرضٍ ورايةٍ إسلاميةٍ واحدة.

إن جهود إدريس البتليسي في هذا الشأن سَمَتْ فوق كل تقدير، وقد كان السلطان سليم الأول شديد الاحترام والحرمة لهذه الشخصية الفذة الكردية

٩٣٦ عبد الرزاق، المنصف، بيروت ١٩٧٠، ٥، ٣٧٥.

الأصل، حيث كان يُظهِر له محبته بكل الوسائل، حتى إنه إلى جانب مخاطبته إياه بعبارات تعظمه وتمدحه، فإنه منحه ثقته واعتماده التام بأن ارتأى إعطاءه «خط همايون» أي أذن له في ملء الوثائق الخاصة للسلطان والمختصة بتولية المستحقين للإمارات، وقد كان إدريس البتليسي أهلًا لهذه الثقة والمكانة.

وقد كان إدريس البتليسي الذي غدا مؤسسًا لوحدة الأمة من خلال الأمور العظيمة التي قام بها، حيث خيّب آمال الصفويين في الولايات الشرقية وفي ساكنيها، لا يملأ الأوراق الخاصة بالسلطان إلا بعد إذنه رغم السماح التام له من قبل السلطان، وقد جمع الشعب كله تحت راية الحكم العثماني، وكان موفّقًا في جمع الأهالي ضد جيش إسماعيل شاه الصفوي، الذي اندحر خائبًا ضائع الآمال في أن يستولي على جنوب شرق الأناضول.

ومن الشخصيّات التي كانت تؤمن فعلًا بوحدة الأمة «بارباروس خير الدين باشا»، القائد البحريّ الذي استطاع أن يفتح شمال أفريقيا ذات المذهب المالكي ليُلحِقها بالامبراطورية العثمانية، ومقابل هذا منحه السلطان سليمان القانوني درجة إمارة البحر في القوات البحرية العثمانية، وبعد هذا أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عثمانية، واستطاع بارباروس أن يتوسع إلى المحيط الهندي لمساعدة المسلمين هناك، ووصل إلى السودان والحبشة، ومن الحدود الجنوبية استطاع الوصول إلى أواسط إفريقيا، ومن الشمال وصل إلى إمارة القرم وموسكو، وفي ١٥٤٨ وصل إلى تبريز وفتحها للمرة الرابعة.

ورغم أن السلطان أراد منحه الحكم على الجزائر بعد فتحها، إلا أنه تنازل عنها وقرر أن يمضي العمر في فتح الأراضي وإلحاقها بأراضي المسلمين، فكان مثلًا عظيمًا لفكر وحدة الأمة، بما يملكه من كمالٍ روحيٍّ في توحيد بلاد الإسلام ووضعها في حكم المسلمين.

كان بارباروس قد رأى في منامه رؤيا، كانت واحدة من أفضال الله عليه وكانت دعمًا قويًا لمعنوياته، حيث رأى كأن شخصًا جاءهُ برُقعةٍ، وقال: سلّم هذا إلى السلطان سليمان.. واختفى. وفتح الرقعة، فإذا هي ورقةٌ بيضاء مكتوب عليها بخطٍ أخضر:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمؤْمِنِينَ﴾[937]

يقول: فمسحتُ بها عيني ووجهي، وقلت: اللهم يا إله العالمين لك الحمد ولك الثناء، وصحوت من نومي بعدها.

كان خير الدين باشا رجلًا موفّقًا منصورًا بإذن الله على الدوام، كآمرٍ وقائدٍ في البحرية، إنسانًا عطوفًا عفوًّا ورحيمًا بمن حوله حتى بمن هم ضده، كان يشفق على الجنود كشفقة الأب على أبنائه، وكان في ظاهره مقاتلاً فذًّا وفي باطنهِ مؤمنًا موحّدًا ساعيًا إلى أعلى الهمم، وهذا هو المطلوب من القادة وأمراء القوات العسكرية، أن يكونَ حازمًا كي لا تُفهَم طيبتهُ أنها ضعف، وفي نفس الوقت عليه أن يتغاضى عن بعض الأخطاء البسيطة، معلّمًا المخطئ خطأه، وعليه أن يعمل على إصلاح الجنود روحيًّا ومعنويًا، وهذا ما جعل له شعبيّةً كبيرة، وأكسبه الكثير من الجنود في صفه.

وكان إذا ما رأى فتنةً يمكن أن تؤدي إلى الانقسام والتفرقة نأى بنفسه عن الامتثال لها، وكان مصدرًا للخير في القلوب، حيث كان يقول:

«يا أيها القادة! اتركوا هذا الحديث وابحثوا عن مجلسٍ غير هذا المجلس»

وبهذا استطاع أن يتغلب على الخلافات الفارغة والداعية للأنانية، ويغلّب عليها الوحدة والأخوة والتكاتف، وذلك بتعميم الخير والسلام على القلوب.

❀

---

٩٣٧ الصف: ١٣.

وهكذا فإن مُعتَقَد المسلم إضافة إلى التوحيد هو الاتحاد والوحدة في أداء عبادات التوحيد، فالمسلم يقرأ في اليوم أربعين مرةً هذه الآية الكريمة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [938]، لتحرك في قلبه الإحساس بشعور الوحدة والتكاتف، وعرضها على الله كعبادة، كما قال تعالى أيضًا في كتابه الكريم:

﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [939]

وقد كرر الرسول ﷺ تنبيهه مرارًا وتكرارًا في خطبته الأخيرة، في حجة الوداع، بأن يظلوا مجتمعين متحدين وأن يبتعدوا عن كل سبب من أسباب الفرقة وألا يقعوا فيها [940] . فالوحدة والتجمع رحمة وبركة، ونصر الله ولطفه يتحقق في الجماعة، فمن آثر الانفصال عن الجماعة فقد اتخذ طريقًا إلى جهنم. [941]

وقد أمرنا الله تعالى بالوحدة والدعاء بحسّ الجماعة، فذلك فيه بركة وتأليف للقلوب، وهي نعمة ما زلنا عاجزين عن تقديرها لعظمتها، وبالتالي فكما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الآية الكريمة التالية قد نزلت في المؤمنين المتحابين المتوحدين في الله:

﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [942]. [943]

---

٩٣٨ الفاتحة: ٤.

٩٣٩ آل عمران: ١٠٥.

٩٤٠ انظر: البخاري، الحج، ١٣٢، العلم، ٤٣، المغازي، ٧٧، الديات، ٢، الأضاحي، ٥ ؛ مسلم، الإيمان، ١١٨-١٢٠، القسامة، ٢٩.

٩٤١ انظر: الترمذي، الفتن، ٧.

٩٤٢ الأنفال: ٦٣.

٩٤٣ الطبري، التفسير، ٥، ٤٨

٧. الاستشارة

الاستشارة تعني الاستفادة من خبرة المجربين وعلمهم وأخلاقهم وحكمتهم، ومناقشة الأمر معهم قبل الإقدام عليه، قال ﷻ في محكم كتابه العزيز:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمتَوَكِّلِينَ﴾ [٩٤٤]

﴿وَأَمْرُهُم شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [٩٤٥]

فالشورى أو الاستشارة من أهم صفات المؤمن، فلو ألقينا نظرة على حياة النبي عليه الصلاة والسلام فسنرى أنه كان دائم الاستشارة لما سيفعل، ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

«ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» [٩٤٦]

وعمومًا، فإن قرارًا يصدر عن عدّة عقول أقوى وأنفع من قرارٍ يصدر عن عقلٍ واحدٍ من غير شورى، حيث قال رسول الله ﷺ:

«**ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد**»[٩٤٧]

وقال الحسن البصري رحمه الله:

«ما تشاور قوم قط، إلا هُدوا لأرشد أمورهم»، ثم قرأ هذه الآية:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ »[٩٤٨]

---

٩٤٤ آل عمران: ١٥٩.

٩٤٥ الشورى: ٣٨

٩٤٦ الترمذي، الجهاد، ٨٥/ ١٧١٤.

٩٤٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٨٠/ ٣٦٧٠.

٩٤٨ البخاري، الأدب المفرد، رقم ٢٥٨ .

وهناك مثلٌ يقول:

«فوق كل عقلٍ عقلٌ أكبر منه»، يُضرَبُ في كل من اتخذ الاستشارة منهجًا له.

يقول جلال الدين الروميّ:

«مهما كان العقل مدركًا لكل شيء، فإنه إذا ابتعد عن مشورة الأصدقاء ظلَّ كمُطلِق السهم بقوسٍ مكسورة».

لذا فالمرء مهما كان عميق المعرفة كبير العقل فمن المستحيل أن يكون علمه مطلقًا بكل شيء، ومن الحكمة أن يناقش أصحاب القضية ومن لهم فيها علم قبل اتخاذ أي قرار. كما وأوصى رسول الله ﷺ باستشارة النساء، خصوصًا بما يتعلق بأمورهن واهتماماتهن حيث قال:

«...**وأمروا النساء فِي أنفسهن**» [٩٤٩]

وقال رسول الله ﷺ:

«**لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تستأذن**» [٩٥٠]

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى لزوم استشارة النساء في بعض الأحيان، ومنها قضية فطام الرضيع:

﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾ [٩٥١]

والشباب خاصة في حاجة ماسة ودائمةٍ إلى استشارة غيرهم ممن هم أكبر عمرًا وأكثر تجربة، كما قال جلال الدين الرومي:

«الشباب ينظرون إلى المرآة فيرون فيها الكثير، لكنهم حين اتخاذ القرار يتخذون ما يرونه في قطعة طوب!».

---

٩٤٩ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤، ١٥/ ٣٦٢٠.

٩٥٠ مسلم، النكاح، ٦٥/ ١٤١٩ .

٩٥١ البقرة: ٢٣٣ .

فكما تربّي الاستشارة الذات الإنسانية، فهي كذلك تقي من الوقوع في المصائب، وإن من يرى أن في استشارة الآخرين والأخذ برأيهم نوعًا من الذلّ، فإن فعله هذا علامة من علامات التكبر والغرور.

وأيضًا فإن الاستشارة تزيد من احترامنا لمن نستشيرهم وتزيد إعجابنا بهم، كما وأنها تقوي العلاقات فيما بيننا وتمتن الأواصر بين أبناء المجتمع.

والشورى تنقذ الإنسان، وتقوي استعداده لكل المواقف التي يمكن أن يتعرض لها، ونرى أن من لم يستشر في أموره كانت عاقبته سلبية وعكسية.

يقول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لا تخفِ حالك عمن يريد أن يرشدك إلى صلاح أمرك، وإلا فقد خنت نفسك».

وعلى الشخص الذي يستشار ألا يستقل برأيه ولا ينطلق من حكم مسبق، وعليه أن يستمع إلى من يستشيره دون تحيّزٍ لفكرةٍ أو طرفٍ ما، وأن يمحضه النصح، ولا يشير عليه بغير رشد، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ذمّ من خان أمانة من مستشيره فأشار عليه بالخطأ، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه. [٩٥٢]

فعلى المستشار أن لا يكون ملمًّا بالموضوع الذي يستشار به فحسب، بل عليه أن يكون على خلق حسن ومخافة من الله تعالى، فكما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«**المستشار مؤتمن**» [٩٥٣]

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«استشيروا في شؤونكم من يخاف الله!» [٩٥٤]

٩٥٢ البخاري، الأدب المفرد، ٢٥٩.

٩٥٣ الترمذي، الأدب، ٥٧/ ٢٨٢٢ .

٩٥٤ ابن أبو شيبة، المصنف، ٨، ١٤٧.

ومثل ذلك فرعون الذي استشار مجلسه وهم ممن يلهثون وراء الفساد والمنفعة، فلم يُبدوا له رأيًا سديدًا أمام موسى عليه السلام، فكانت النتيجة هلاكًا لفرعون وسخطًا أبديًا من الله تعالى. [955]

فالذي يريد أن ينأى بنفسه عن المشاكل والمصاعب، عليه أن يختار أناسًا صادقين مؤتمنين لاستشارتهم، بحيث لا يكونون من الظَلَمة الذين يندم الإنسان على استشارتهم، بل يجب أن يكونوا أناسًا صادقين متعاطفين يشجعون نحو الطموح ويدفعون إلى الخير، فليكنْ هذا هو «المجلس» الذي نستشيره.

وقيل في الأثر:

«يا أخي، لا تأخذ بمشورة أناني، فإنه يريد المنفعة لنفسه دائمًا!»

وقد سُئِلَ النبي ﷺ عما يفعل الناس إن أشكلتْ عليهم الأمور ولم يجدوا جوابًا لها في كتاب الله وسنة نبيه، فأخبرهم بأن يأخذوا المشورة من الفقيه والعابد الصالح من الناس، وأن لا يعملوا برأيهم الشخصي. [956]

إذًا، فإن المشورة مع أهلها في شؤون الدين والدنيا هي الطريق القويم لتجنب الزلل والفوز بالظفر.

صور الفضائل

استشار الرسول ﷺ قبل غزوة بدر المهاجرين والأنصار في قتال المشركين، فأشاروا عليه أن يفعل، فعندما خرجوا للقتال مشوا حتى وصلوا أقرب ماء إلى بدر، وأمر الرسول أن يعسكروا في هذا المكان، ولكن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله؟ ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال:

---

955 انظر: الشورى، ٣٥ – ٣٧.

956 انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٧٨.

«بل هو الرأي والحرب والمكيدة»

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ:

«لقد أشرت بالرأي» [٩٥٧]

❁

عندما انتهت غزوة بدر أسر المسلمون ٧٠ رجلًا من كبار قريش، فطلب النبي ﷺ مشورة أصحابه في مصيرهم، فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالفدية وإطلاقهم، بينما أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم، فكانت الفدية وإطلاقهم. [٩٥٨]

❁

وقُبَيل غزوة أحد استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه في البقاء في المدينة للدفاع عنها وعدم الخروج منها، ولكن الشباب ـ ممن كانوا يطلبون الفضل والأجر والثواب ـ والرجال ـ الشجعان مثل حمزة بن عبد المطلب ـ أشاروا عليه بالخروج لقتال قريش، فكان الخروج إلى قتالهم في أحد. [٩٥٩]

وكان هذا ما حصل أيضًا من مشورة في غزوق الخندق والطائف وتبوك، فكان عليه الصلاة والسلام دائم الاستشارة لأصحابه.

❁

لما كتب النبي ﷺ القضية بينه وبين مشركي قريش بالحديبية، قال لأصحابه:

«قوموا فانحروا واحلقوا»

---

٩٥٧ ابن هشام، سيرة، ٢، ٢٥٩-٢٦٠؛ ابن سعد، الطبقات،٢، ١٥.

٩٥٨ انظر: مسلم، الجهاد، ٥٨؛ الترمذي، السير، ١٨/ ١٥٦٧؛ أحمد، مسند، ١، ٣٠-٣١ ، ٣٨٣-٣٨٤؛ الواقدي، مغازي، ١، ١٠٧؛ ابن سعد، الطبقات،٢، ٢٢.

٩٥٩ ابن هشام، سيرة، ٣، ٦-٧.

فلم يقم أحد من الصحابة المحزونون لعدم تمكنهم من الطواف في الكعبة، ولم يتحرك أي أحد لتلبية الأمر، فقد كانوا شديدي الحزن تحت ستارة ضبابية تحول دون إدراكهم لسر الأمر، فكرر عليه الصلاة والسلام ذلك ثلاث مرات، فما قام منهم رجل.

لم يكن عدم امتثالهم للأمر اعتراضًا منهم مطلقًا، بل كان أملًا ولو ضئيلًا يرجون به نقض الصلح الحديث العهدِ، أو كان انتظارًا منهم لوحي ينزل فيغير الأمر، علمًا بأن كل واحد منهم كان قد عاهد النبي عليه الصلاة والسلام قبل يوم واحد على السمع والطاعة في كل ما يقول ويأمر.

فلما لم يقم منهم أحد، حزن النبي ﷺ، فقام فدخل على أم سلمة، فذكر ذلك لها، فقالت أم سلمة: يا نبي الله اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حلاقك فتحلق، يا رسول الله لا تكلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح.

فقام رسول الله بعد هذه الاستشارة، فخرج، فلم يكلم منهم أحدًا حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك علموا أن الأمر قائم على ما هو عليه، فقاموا فنحروا، وقد قالت أم سلمة رضي الله عنها وهي تصف حالهم:

«وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا» [960]

❀

وقد ضرب لنا ﷻ في كتابه الكريم مثالًا رائعًا في طلب المشورة، وهي قصة الملكة بلقيس ملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام، حيث تقول الآيات الكريمة:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي

960 البخاري، الشروط، 15/ 2731؛ أحمد، مسند، 4، 326؛ الواقدي، مغازي، 2، 613.

مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [٩٦١]

فنالت الملكة بلقيس بعدها نعمة الإسلام بسبب طلب المشورة من بطانتها.

❀

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دائم الاستشارة في المسائل المهمة، إذ أن القرَّاء أصحاب مجلس عمر كانوا أهل مشورته، كهولًا أو شبَّانًا. [٩٦٢]

وكان منهج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتلخّص في هذه العبارة،

«من عمل بغير استشارة خاب عمله»

كان رضي الله عنه عندما يناقش مسألة يناقشها برأي الأكثرية، فقبل الإسلام كان يناقشها مع القريشيين، وبعد الإسلام أصبح يناقشها مع بقية الصحابة، وبهذه المشورة كان قراره مصيبًا.

ويروى عنه رضي الله عنه أنه عندما كانت تستعصي عليه مسألة كان يسأل الشباب والصغار، بسبب حدة عقولهم. [٩٦٣]

❀

وعندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة أنشأ مجلسًا يستشيره في أمور الخير والحق، وكانوا يعملون على تنبيه الخليفة في حال غفل أو أخطأ. [٩٦٤]

والشيء نفسه كان عند السلاطين العثمانيين، الذين كانوا يستفتون كبار رجال العلم في الدين قبل الإقدام على أي عمل.

---

٩٦١ النمل: ٢٩–٣٥.

٩٦٢ البخاري، التفسير، ٧/ ٥، ١١٠/ ٤، الاعتصام، ٢.

٩٦٣ البيهقي، السنن الكبرى، ١٠، ١١٣.

٩٦٤ البيهقي، السنن الكبرى، ١٠، ١١٠.

مثال على ذلك، انتظار السلطان سليم الأول ثلاثة أيام قبل الخروج إلى معركة جالديران لقتال الصفويين، حيث كان ينتظر فتوى من الشيخ ابن كمال باشا وهو من أكبر رجال العلم والدين في وقته.

❀

وختامًا، فإن الاستشارةَ سُنّةٌ حسنة وأساس من أهم أسس الإسلام وأروعها، فمهما تعمق ابن آدم في المعرفة واتسع عقله فسيصل إلى أمرٍ ما يعجز عن حلّه بمفرده، فلا مفر له عندئذ من المشورة، إذًا المشورة تمنعه من الندم والأسف في نهاية الأعمال إن فشلت لأنه فعل كل ما بوسعه، ونرى كيف ينصح نبي الله سليمان عليه السلام ابنه فيقول:

«يا بُنَيّ! لا تقدم على عمل قبل أن تستشير، فإن استشرت فلن تندم!» [٩٦٥]

٨. الاعتدال والتأني

إن الإسلام يرشدنا دومًا في كل الشؤون، دينية كانت أم دنيوية، باتجاه الاعتدال والتأنّي وعدم الإسراف والإفراط، ويهدي إلى الطريق الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، لأن هدف الإسلام هو أن يعيش المؤمن حياةً سعيدة، وروحانيّةً سامية، قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ [٩٦٦]

والاعتدال من أهم الأمور التي تساعدنا للوقوف ثابتين متوازنين على أقدامنا، فإن الله عز وجل قد خلق كل شيء، وكل الكائنات، وكل الكون، في توازنٍ مثالي عظيم، وثمة في القرآن الكريم أوامر عديدة من الله عز وجل تأمرنا بالاعتدال والتأنّي، والعيش في استقامةٍ، أوامر إلهية هدفها إثراء حياتنا بالتوازن والوسطية

٩٦٥ البيهقي، السنن الكبرى، ١٠، ١١٠.

٩٦٦ البقرة: ١٤٣.

والهدوء، وهي من أهم الطرق في هذا الدين الكريم، وقد وضع لنا الله ﷻ خطوطًا لا نتجاوزها، وحدودًا لا نتعداها، كي لا يختل التوازن في حياتنا، قال تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [٩٦٧]

يقول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام:

«**خير الأمور أوساطها**»[٩٦٨]

فنرى من الحديث الشريف أنه تم تقديم الوسطية والاعتدال على باقي الصفات من أجل خير هذه الأمة. وقال رسول الله ﷺ:

«**... سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**» [٩٦٩]

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة**» [٩٧٠]

فنرى من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن الاعتدال أساسٌ مهم لإقامة التوازن في كل شؤون الدنيا، وسبيل لا غنى عنه لضمان السعادة في الآخرة، والراحة والسكون والتناغم والتوافق أفرادًا ومجتمعات في الدنيا.

وإن ما يضمن سلامة الأعمال هو الاعتدال، ففي اللحظة التي ينعدم فيها الاعتدال تتلاشى الأعمال تلقائيًا، كما هو الحال مع الأقطاب المتعاكسة عندما يُفقد بينها التوازن فتحيد الأمور عن مسارها الصحيح وتنتهي بسرعة، وبهذا الخصوص أخبرنا عليه الصلاة والسلام فقال:

---

٩٦٧ الرحمن: ٨ـ٧.

٩٦٨ البيهقي، شعب الإيمان، ٥، ٢٦١/ ٦١٧٦ .

٩٦٩ البخاري، الرقاق، ١٨/ ٦٤٦٣.

٩٧٠ أبو داوود، الأدب ٢/ ٤٧٧٦؛ الترمذي، البر، ٦٦/ ٢٠١٠؛ الموطأ، الشعر، ١٧ .

«**هلك المتنطعون**[٩٧١]» [٩٧٢]

فالمسلم عليه ألا يتطرف أو يتشدد حتى في عبادته، بل عليه أن يعتدل، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن خير العمل أدومه، وإن قل**» [٩٧٣]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«**إذا صلى أحدكم للناس، فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء**» [٩٧٤]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«**... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» [٩٧٥]

معنى هذا أنه لا رهبانية في الإسلام، فكما أنَّ للروح احتياجاتها وغذاءها، فإن للجسم احتياجاته وحقوقه أيضًا، وإن لم يستطع الإنسان تلبية هذه الاحتياجات، وأخطأ في تقديرها فإن مصير اتزان الجسم إلى زوال، وتصبح العبادة براحةٍ وسكون شيئًا مستحيلًا.

يقول تعالى في كتابه الكريم:

﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [٩٧٦]

---

٩٧١ المتنطعون: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

٩٧٢ مسلم، العلم ٧/ ٢٦٧٠.

٩٧٣ ابن ماجه، الزهد، ٢٨/ ٤٢٤٠ .

٩٧٤ البخاري، العلم، ٢٨ / ٧٠٣؛ مسلم، الصلاة، ١٨٤/ ٤٦٧

٩٧٥ البخاري، النكاح، ١/ ٥٠٦٣؛ مسلم، النكاح، ٥/ ١٤٠١.

٩٧٦ الإسراء: ٢٩.

ويقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [٩٧٧]

إن الوقوع في الإسراف في الصدقة والإنفاق، أو البخل كل ذلك مهلك للإنسان جالب للعذاب الإلهي، والإسراف ما كان فوق الحاجة، وأما البخل فجعل كل شيء لنفسه، وقد أمر الحق تعالى بالكرم بعد التخلص من هاتين الخصلتين البغيضتين، تقول الآية الكريمة:

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾ [٩٧٨]

ومن غير المستحسن المبالغة في الإنفاق، لما فيها من ترك العيال محتاجين يتكففون الناس، ثم إنَّ الإنسان الذي يقع في حاجة نتيجة الإسراف في الإنفاق، قد لا يتمكن من أداء عباداته المالية، فيصيبه الخسران والحرمان.

ونجد بعضًا من الصحابة كانوا يرغبون ويتطلعون لإنفاق جميع ما يملكون ويعرضون رغبتهم على النبي ﷺ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان يراعي حالتهم المادية والمعنوية فيقبل من بعضهم النصف ومن بعضهم الآخر الثلث ومن بعضهم الآخر جزءًا قليلًا من مالهم فقط، أما النبي ﷺ فكان ينفق كل ما لديه بل ويستدين لذلك، ولم يكن واردًا في حقه ماذكرناه آنفًا في قاعدة الإنفاق، ولم يشابهه في هذا إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ولو أن النبي ﷺ أخذ حصته من الغنائم لكان من الأغنياء، ولكنه كان يقتطع من حصته للمدينين والمحتاجين والفقراء واليتامى، فيجدها قد أُنفِقَتْ كلها.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يعطي كامل حصته للنبي ﷺ، ويضعها تحت تصرفه، وهكذا فعل الصحابه من بعده، فكان إذا مرّتْ سنين قحطٍ أو مرّ المجتمع الإسلامي

٩٧٧ الفرقان: ٦٧.

٩٧٨ البقرة: ٢١٩.

بمشكلةٍ اقتصادية وصل هذا المال إلى الجميع، فلا يقع في قلبهم ندمٌ لأنهم أنفقوها في سبيل الله صدقة.

وإن رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه كانا حالتين خاصتين في باب الإنفاق، أما عامة المسلمين فعليهم الالتزام بالاعتدال وعدم الإفراط والإسراف في الإنفاق، لأن المطلوب في الصدقة النية الخالصة وسلامة الصدر عن الأغراض.

قال رسول الله ﷺ:

«قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»

قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال:

«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» [٩٧٩]

فحين تكون شخصية المسلم متراخيةً وضعيفةً في عبادته فإنه سيكون يوم القيامة في موقف صعب، وكذلك من كان حريصًا أكثر من اللازم في العبادة، مما يسلك به في دروب التعب والضجر والتلكّؤ وبالتالي يقع في الخطأ حتمًا، ولهذا أمرنا الله بالاعتدال والطريق الوسط حتى في العبادة، حيث الوسطية في كل الأمور أساسٌ مهمٌّ في هذه الحياة.

وعندما يبالغ الإنسان في عبادته، نرى هذه المبالغة قد انعكست على الجوانب الأخرى، لذا فقد أمرنا الله بالاعتدال والوسطية في هذه المسائل من طعام وشراب وملبس وغيرها، قال الله ﷻ:

﴿...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٩٨٠]

فالابتعاد عن الوسطية في الشراب والطعام والملبس تؤدي إلى إهمال الجسم والصحة وهي أمانات من الله ﷻ لنا، وإهمالها خيانة لهذه الأمانات.

---

٩٧٩ مسلم، المنافقين، ٧٦/ ٢٨١٦، ٧٨/ ٢٨١٨؛ البخاري، الرقاق، ١٨/ ٦٤٦٣.

٩٨٠ الأعراف: ٣١.

والاعتدال حتى في المحبة والبغض بين الناس مطلوب، حيث قال رسول الله ﷺ:

«أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما» [٩٨١]

فالإنسان يجب أن يكون معتدلًا في مشاعره وعلاقاته وسلوكه مع الباقين، فالاعتدال هي النقطة الأساس في كل شيء.

ومن الصفات التي يحبها تعالى في الإنسان: التأني، والتأني هو عدم الاستعجال في عملٍ نقوم به، وهو التفكير في غاية وعاقبة هذا العمل، فالتحوّط من الوقوع في أخطاء يُعد تأنّيًا، وهو مهم كي لا يشعر الإنسان بالندم بعد قيامه بعملٍ لم يفكر به ولا بعواقبه.

فالإسلام يعطي التدبير والتأني أهمية كبيرة، إذ إن الأشياء الصغيرة المهمة التي نغفل عنها قد توصلنا إلى نتائج كارثيةً لم نكن نتوقعها، فيجب ألا نستصغر نتائج عملٍ مهما كانت.

يقول جلال الدين الرومي في كتابه ـ المجالس السبعة ـ :

«هل رأيت الطير كيف يتأكد من عدم وجود فخٍ على يمينه وشماله ووراءه وأمامه مئة مرة! فالأمن عنده أهم من حبة طعام!».

قال النبي عليه الصلاة والسلام لأشج عبد القيس:

«إن فيك خصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»[٩٨٢]

وقال رسول الله ﷺ:

«الأناة من الله، والعجلة من الشيطان» [٩٨٣]

٩٨١ الترمذي، البر، ٦٠/ ١٩٩٧.

٩٨٢ مسلم، الإيمان، ٢٥/ ١٧ ، ٢٦/ ١٨؛ أبو داوود، الأدب، ١٤٦؛ الترمذي، البر، ٦٦/ ٢٠١١.

٩٨٣ الترمذي، البر، ٦٦/ ٢٠١٢.

وهناك رأي لأبي بكر الصديق ﷺ في مسألة صلح الحديبية، وهي تؤكد ما جاء في الأحاديث الشريفة السابقة، حيث قال:

«ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه، والعباد يعجلون، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد» [984]

ولكننا نحتاج أحيانًا في أعمالنا إلى العجلة، ولكن ينبغي أن نقيس الضرورات بالمساوئ، فالعمل إن كان سليمًا مع العجلة فلا بأس، أما غير ذلك فلا خير في عمل يفشله الاستعجال. يقول تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [985]

ويقول عليه الصلاة والسلام في هذا الخصوص:

«**التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة**» [986]

ويقول القاضي عياض:

«إن التباطؤ في أعمال الآخرة ليس صحيحًا، بل على الإنسان أن يشحذ همته ويجتهد في السعي في أمور الآخرة ليزداد قربًا من الله تعالى فترفع درجته ومقامه عند الله تعالى»

فالله تعالى يحث عباده فيقول:

﴿...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ [987]

---

٩٨٤ الواقدي، مغازي، ٢، ٦١٠؛ الحلبي، ٢، ٧٢١ .

٩٨٥ الْمُنَافِقُونَ: ١٠.

٩٨٦ أبو داوود، الأدب، ١١/ ٤٨١٠.

٩٨٧ البقرة: ١٤٨.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [٩٨٨]

وقال أحد السلف:

«في العجلة مرارة، فحتى الأكل والشرب باستعجالٍ، يعد سببًا للأمراض، لذا توخَّ الاعتدال في كل شي، إلا العبادة، فعجل بها».

ثم إنه ثمة أمورٌ يستحب التعجيل فيها مثل دفن الميت، وإيفاء الدين، وتزويج الأبناء وغيرها من المبرات.

صور الفضائل

سئلت عَائِشَة رضي الله عنها: «هل كان رسول الله ﷺ يختص من الأيام شيئًا؟ قالت: لا، كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق»[٩٨٩]

كانت عبادة النبي عليه الصلاة والسلام قائمة على الاعتدال، لكنها كانت دائمة، فقد كان يؤكد على خيرية الأعمال الدائمة ولو قَلَّتْ.

❁

عندما دفع الناس مع النبي ﷺ يوم عرفة، سمع النبي ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال:

«أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع» [٩٩٠]

❁

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال لي رسول الله ﷺ:

«يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟»

---

٩٨٨ الأنبياء: ٩٠.

٩٨٩ البخاري، الصوم ٦٤، الرقاق، ١٨؛ مسلم، المسافرين، ٢١٧ .

٩٩٠ البخاري، الحج، ٩٤؛ مسلم، الحج، ٢٦٨/ ١٢٨٢.

فقلت: بلى يا رسول الله قال:

«**فلا تفعل صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله**»

فشددت، فشدد علي قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال:

«**فصم صيام نبي الله داود** عليه السلام**، ولا تزد عليه**»،

قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال:

«**كان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى**»

قلت: لئن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله عليه الصلاة والسلام أحب إلي من أهلي ومالي. وقال لي:

«**ألم أخبر أنك تقرأ القرآن كل ليلة**»

فقلت: بلى يا رسول الله، قال:

«**اختمه في شهر**»

قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال:

«**اختمه في عشرين**»

قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال:

«**اختمه في خمسة عشرة**»

قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال:

«**اختمه في عشر**»

قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال:

«**اختمه في خمس**»

قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال:

«**فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك**»

قلت: فشددت، فشدد علي، وقال لي النبي عليه الصلاة والسلام:

«إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر»

قلت: فصرت إلى الذي قال لي النبي عليه الصلاة والسلام، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله. [٩٩١]

فكان يقرأ سُبع القرآن نهارًا لأحد أهله، كي يرتاح ليلًا، وكان يفطر أيامًا كي يسترد قوته وطاقته ويحصي الأيام التي فطرها، ويقضيها مخافة أن يكون خالف ما وعد به الرسول عليه الصلاة والسلام.

إذًا نرى في هذا الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ أمرنا ألَّا نبالغ في العبادات، فلأجسامنا وصحتنا وأهلنا حق علينا، وإلا فالعبادة ستفتر ونخسر رضا الله ﷻ عنا.

والعبد إذا لم يبالغ في عبادته تستمر، ولكن إذا كان العبد يبالغ في عبادته فسيصعب عليه ذلك خاصة في السفر والمرض والكِبَر، وأما إن واظب على العبادة ـ وإن كانت بسيطة ـ واستمر عليها فإن الله برحمته يهبه أجر العبادة الطويلة الشاقة ما دامت النية خالصة، يقول تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [٩٩٢]

قال رسول الله ﷺ:

«إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا» [٩٩٣]

ويقول رسول الله ﷺ:

---

٩٩١ انظر: البخاري، الصوم، ٥٥، ٥٦، ٥٧، التهجد، ٧، الأنبياء، ٣٧ ، النكاح، ٨٩؛ مسلم، الصيام ١٨١-١٩٣.

٩٩٢ التين: ٦.

٩٩٣ البخاري، الجهاد، ١٣٤/ ٢٩٩٦؛ أحمد، مسند، ٤، ٤١٠ ، ٤١٨ .

«ما من امرئ تكون له صلاة بليل، يغلبه عليها نوم، إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة» [994]

❁

عن أنس بن مالك ﵁، قال:

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، يسألون عن عبادة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي عليه الصلاة والسلام؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال:

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [995]

❁

جلس رسول الله ﷺ يومًا، فذكّر الناس، ووصف القيامة، ولم يزدهم على التخويف، فرَقَّ الناسُ وبكَوْا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مَظْعُون الجُمَحِي، وهم: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وأبو ذَر الغِفَاري، وسالم مولى أبي حُذَيْفَةَ، والمِقْداد بن الأَسْوَد، وسَلْمان الفارِسي، ومَعْقِل بن مُقرِّن، واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض ويترهبوا، ويجبوا المذاكير؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجمعهم، فقال:

«أَلَمْ أُنبَّأْ أنكم اتفقتم على كذا وكذا؟»

---

994 أبو داود، قيام الليل، ٥/ ١٣١٤؛ مالك، الموطأ، صلاة الليل، ١، ١/ ١١٧ .

995 البخاري، النكاح، ١/ ٥٠٦٣؛ مسلم، النكاح، ٥/ ١٤٠١.

فقالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال لهم:

«إني لم أُوْمَرْ بذلك، إنّ لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدَّسَم، ومَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني»

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال:

«ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد،واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وحجوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع»

فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمعْتَدِينَ﴾ [٩٩٦] .[٩٩٧]

❁

عن عائشة ﵂، قالت:

أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «**من هذه؟**» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: «**مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا**» وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه. [٩٩٨]

❁

---

٩٩٦ المائدة: ٨٧.

٩٩٧ الواحدي، أسباب النزول، سورة المائدة، ٢٠٧-٢٠٨؛ علي القاري، المرقاة، ١، ١٨٢، ١٨٣.

٩٩٨ البخاري، الإيمان، ٣٢/ ٤٣.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

بينا النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ:

«**مره فليتكلم وليستظل وليقعد، وليتم صومه**»[999]

إن كان لمراعاة الاعتدال أهميته المذكورة في العبادة والمجادلة، فإنه لحريٌ مراعاتها في سائر الأمور.

❀

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

جاءت فأرة فأخذت تجر الفتيلة، فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله ﷺ على الخمرة التي كان قاعدًا عليها، فأحرقت منها مثل موضع الدرهم، فقال:

«**إذا نمتم فأطفئوا سرجكم، فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم**» [1000]

❀

وهنا أيضًا حديثٌ للنبي عليه الصلاة والسلام عن التأني مع أم المؤمنين صفيّة بنت حُيَيّ وفيه: كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرحن، فقال لصفية رضي الله عنها: «**لا تعجلي حتى أنصرف معك**»وكان بيتها في دار أسامة، فخرج النبي ﷺ معها، فلقيه رجلان من الأنصار فنظرا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أجازا، وقال لهما النبي ﷺ: «**تعاليا إنها صفية بنت حيي**» قالا: سبحان الله يا رسول الله، قال:

«**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئا**» [1001]

❀

٩٩٩ البخاري، الأيمان والنذور، ٣١ / ٦٧٠٤؛ أبو داود، الأيمان، ١٩/ ٣٣٠٠.

١٠٠٠ أبو داوود، الأدب، ١٦٠-١٦١/ ٥٢٤٧ .

١٠٠١ البخاري، الاعتكاف، ١١/ ٢٠٣٨؛ مسلم، السلام، ٢٣-٢٥ .

وقد قال النبي ﷺ الذي كان يحث على الاحتياط وعدم التهوّر دومًا:

«**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار**» [١٠٠٢]

«**من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة**» [١٠٠٣]

«**إذا مر أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نبل، فليمسك على نصالها،** – أو قال: فليقبض بكفه –، **أن يصيب أحدا من المسلمين منها شيء**» [١٠٠٤]

وعن جابر رضي الله عنه قال:

«نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولًا» [١٠٠٥]

فكم من الناس من يأخذ السلاح من أخيه بغير حذر، أو يمَزَحَ مع صديقه بالسلاح دون أن يعرف ضرر هذه الحركات والأفعال، لذا نهانا الرسول ﷺ بشدّة عنها، وحذّرنا منها، فحمل السلاح مكشوفًا في الأسواق والزحام والأعياد من غير وجود تهديدٍ من عدو ونحوه ممنوع منعًا باتًا في الإسلام، وإن كا لا بد من حمل السلاح فيُحمل بشكلٍ لا يؤذي أحدًا.

❀

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال:

«لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين –أي: منقبضين– ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم» [١٠٠٦]

١٠٠٢ البخاري، الفتن، ٧/ ٧٠٧٢؛ مسلم، البر، ١٢٦/ ٢٦١٧.

١٠٠٣ مسلم، البر، ١٢٥؛ الترمذي، الفتن، ٤/ ٢١٦٢ .

١٠٠٤ البخاري، الصلاة ٦٦؛ الفتن ٧/ ٧٠٧٥؛ مسلم، البر، ١٢٠–١٢٤ .

١٠٠٥ أبو داوود، الجهاد، ٦٦؛الترمذي، الفتن، ٥.

١٠٠٦ ابن ابي شيبة، المصنف، ٥، ٢٧٨.

وعن أبي بكرٍ الثقفي أنه قال:

«إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقرؤون القرآن تارةً، وينشدون الشعر تارةً أخرى»[١٠٠٧]

❀

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان في مجلسه مع طلبةٍ يتناقلون الحديث عن رسول الله ﷺ، فما لبث أن قال لهم: «اقرؤوا بعض الشّعْر، فوالله إنَّ الروح يصيبها التعب كالجسد»، ثم جلس يشرح لهم بعض الأمثال العربية، وفرغ منها فبدأ الدرس من جديد. [١٠٠٨]

❀

وكان سيدنا معاوية بن أبي سفيان يشرح سر نجاحه في الحكم فيقول:

«إنّي لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها»

❀

وختامًا...

فإن الإسلام إنما أوصى بالطريق القويم والوسط، وأمر بالاعتدال والتأني والحذر، لأنها صفاتٌ تبعث على التقدير، وعلى العكس، فإن صفات كالكسل والعجلة وعدم الحذر وإخلال التوازن في أي من مجالات الحياة، وفقدان الانسجام والتوافق ما بين البشر، هي صفاتٌ مذمومةٌ ذمّها الإسلام.

وعليه فإن على المسلم الالتزام بهذه الصفات من تأنٍ واعتدال، وألا يأخذ الأمور بعجلةٍ دون إتقان، وأن يعتدل في عبادته وفي أمور الخير كلها، وألا يبالغ فيها فيقع في مواقفٍ صعبة قد لا يستطيع معها الوفاء بعبادته ولا أعماله.

١٠٠٧ الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، بيروت ١٩٩٦، ٢، ٢٣٦ .

١٠٠٨ الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، بيروت ١٩٩٦، ٢، ٢٣٧ .

٩. التهادي

إنَّ تبادل الهدايا عملٌ صالحٌ مبرور، فهو من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويوصينا بها رسول الله ﷺ، لأن هذا الإكرام ـ النابع من القلب والذي يبتغي رضا الله تعالى ـ يسمو بالنفس الطيبة للمؤمن إلى أعلى الأحاسيس، ويطيّب الخواطر، ويقوي العلاقة بين الأشخاص بالمحبة والأخوّة.

يقول رسول الله ﷺ:

«...**تهادوا تحابوا**...» [١٠٠٩]

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«**تهادوا، فإن الهدية تُذهب وَحَر الصدر**...» [١٠١٠]

وإن إكرام الآخرين، والبخل، وتقديم الهدايا والإحسان، كلها من علامات الأخلاق الجميلة العالية، والغني يحس بلذّةٍ عندما يُهدي هديّة أو يُحسِن إلى أحد، وعندما يدعو له أحدٌ بالخير، فهو مصدر رضا وراحة له.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان يقول:

«يا بني، تباذلوا بينكم، فإنه أود لما بينكم»[١٠١١]

وكان رسول الله ﷺ إذا أُتي بطعام سأل عنه: أهدية أم صدقة؟ فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل، وإن قيل: هدية، ضرب بيده ﷺ فأكل معهم. [١٠١٢]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها» [١٠١٣]

١٠٠٩ الموطأ، حسن الخلق ١٦؛ البخاري، الأدب المفرد، رقم ٥٩٤؛ المناوي، ٣، ٢٧١ .

١٠١٠ الترمذي، الولاء، ٦/ ٢١٣٠.

١٠١١ البخاري، الأدب المفرد، رقم ٥٩٥ .

١٠١٢ البخاري، الهبة ٥؛ مسلم، الزكاة، ١٧٥ .

١٠١٣ البخاري، الهبة، ١١/ ٢٥٨٦ .

فتقديم الهدية وقبولها، دليل على المحبة ما بين الاثنين، وإظهار لمشاعر الأخوة بينهم، ولهذا كانت القيمة المعنوية للهدية أعلى بكثير من قيمتها المادّية، ويجب ألا ننظر إلى كِبر الهدية أو صِغَرِها، بل إلى نية وإخلاص مَن أهداها، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«يا نساء المسلمات، لا تحقرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فرسن شاة» [١٠١٤]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لو دُعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أُهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت» [١٠١٥]

وكان رسول الله ﷺ إذا دعاه عبدٌ إلى خبز شعيرٍ لأجاب. [١٠١٦]

وإذا أُهديت لنا هدية فيجب أن نقابلها بهديّةٍ أخرى، ولكن إن لم يكن باستطاعتنا أن نرد الهدية فيجب ألا نتحمل أذى ردّها، يقول رسول الله ﷺ:

«... من أتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه» [١٠١٧]

ويجب علينا أن نُهدي الأقرب لنا، ثم الأبعد فالأبعد، ولكن إن كنا على مقدرة وسعة فالأليق أن نعطي الهدية والإكرام للقريب و البعيد، فعن أم المؤمنين عائشة ﷺ، قالت:

يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال:

«إلى أقربهما منك بابا» [١٠١٨]

١٠١٤ البخاري، الهبة ١/ ٢٥٦٦؛ الأدب، ٣٠/ ٦٠١٧؛ مسلم، الزكاة، ٩٠/ ١٠٣٠.

١٠١٥ البخاري، الهبة، ٢/ ٢٥٦٨، النكاح، ٧٣/ ٥١٧٨؛ مسلم، النكاح، ١٠٤

١٠١٦ الهيثمي،مجمع الزوائد، ٩، ٢٠ .

١٠١٧ أحمد، مسند، ٢، ٩٦/ ٥٣٦٥.

١٠١٨ البخاري، الشفعة، ٣، الهبة، ١، الأدب، ٣٢.

ويجب عدم الإهداء بغية تحقيق حاجة أو شكرًا على قضائها، بل يجب ألا تكون الغاية منها إلا رضا الله ﷻ، فعن النبي ﷺ قال:

«من شفع لأخيه بشفاعة، فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا» [١٠١٩]

وقال رسول الله ﷺ:

«إذا أقرض أحدكم قرضا، فأهدى له، أو حمله على الدابة، فلا يركبها ولا يقبله، إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك»[١٠٢٠]

وعن عبد الرحمن بن سعد رضي الله عنه قال:

استعمل رسول الله ﷺ رجلا على صدقات بني سليم، يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ:

«فهلا جلست في بيت أبيك وأمك، حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا»

ثم خطبنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»

ثم رفع يده حتى رئي بياض إبطه، يقول:

«اللهم هل بلغت» بصر عيني وسمع أذني [١٠٢١]

١٠١٩ أبو داوود، البيوع، ٨٢/ ٥٣٤١.

١٠٢٠ ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣٢.

١٠٢١ البخاري، الحيل، ١٥/ ٦٩٧٩، الزكاة، ٣، الهبة، ١٧، الجهاد، ١٣٩، الأيمان، ٣، الأحكام، ٢٤؛ مسلم، الأمارة، ٢٦-٢٧/ ١٨٣٢ .

لذا فإن أي موظفٍ تسوّل له نفسه أن يخون أمانته ويأخذ هديةً لقضاء حاجة فإنه يقارف حرامًا، ومنهم موظفي الدولة للزكاة، وموظفي الضرائب، لأن الرشوة حرام، وأخذ الهدية بنفسٍ ملؤها الحيلة والغش حرام.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال:

«لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي» [١٠٢٢]

ومن أمور المهاداة الأخرى والمهمة عدم استرجاع الهدية بعد إعطائها، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«لا يحل لرجل أن يعطي عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يعطي العطية، ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل فإذا شبع قاء، ثم عاد في قيئه» [١٠٢٣]

فمثل هذا التصرف لا يمتّ إلى الإنسانية بصلةٍ أبدًا، فالمسلم المؤمن لا يأسف ولا يندم على عمل خيرٍ ثم يرجع عنه، فما من غاية من عمل الخير إلا رضا الله سبحانه وتعالى، ولذا يجب مراعاة النقاط التالية في قضية المهاداة:

١. امن الخطأ رد هدية علمًا بأن صاحبها قد حصل عليها عن طريق الحلال.
٢. عدم قبول الهدية إن كانت مكتسبة من طريق حرام، إذ أنه ما من زكاةٍ للمال الحرام، لكن إن كانت الهدية سببًا في الإرشاد من خلال التقرب للمُهدي، عندها يمكن قبولها ومن ثم تقديمها لأحد المحتاجين من غير عوض.
٣. ما من داع إلى التحري عن مصدر الهدية، فالمستحسن قبولها دفعًا لكسر الخواطر.

١٠٢٢ أبو داوود، الأقضية، ٤/ ٣٥٨٠.

١٠٢٣ أبو داوود، البيوع، ٨١/ ٣٥٣٩ .

صور الفضائل

عن ابن عمر، رضي الله عنه يقول: رأى عمر حلة سيراء تباع، فقال: يا رسول الله، ابتع هذه والبسها يوم الجمعة، وإذا جاءك الوفود. قال:

«**إنما يلبس هذه من لا خلاق له**»

فأتي النبي ﷺ منها بحلل، فأرسل إلى عمر بحلة، فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال:

«**إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن تبيعها أو تكسوها**»،

فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم. [١٠٢٤]

فلبسُ الحرير حرامٌ على الرجال، ولكنه جائز في حقّ النساء، ويفهم من الحديث، أن الرجل إن أهدي إليه ثوب حرير فإنه يمكنه قبوله، إن رأى ذلك مناسبًا، ويدفعه لزوجته، أو ابنته.

❁

وفيما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال:

إن ملك الروم أهدى للنبي ﷺ مستقة من سندس، فلبسها، كأني أنظر إلى يديها تذبذبان من طولها، فجعل القوم يقولون: يا رسول الله، أنزلت عليك هذه من السماء، فقال:

«**وما يعجبكم منها، فوالذي نفسي بيده، إن منديلا من مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها**».

ثم بعث بها إلى جعفر بن أبي طالب فلبسها، فقال النبي ﷺ: «**إني لم أعطكها لتلبسها**» قال: فما أصنع بها؟ قال: «**أرسل بها إلى أخيك النجاشي**» [١٠٢٥]

❁

١٠٢٤ البخاري، اللباس، ٣٠، الجمعة، ٧، العيدين، ١؛ مسلم، اللباس، ٦؛ الموطأ، اللباس، ١٨.

١٠٢٥ أحمد، مسند، ٣، ٢٢٩/ ١٣٤٠٠؛ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ٣٢٤؛ ابن سعد، ١، ٤٥٦-٤٥٧.

قال المغيرة بن شعبة:

«أهدى دحية الكلبي لرسول الله ﷺ خفين فلبسهما»[١٠٢٦]

❀

ناجى داوود عليه السلام ربه يومًا:

«إلهي أين أجدك؟ فناداه الحق تعالى: عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي» [١٠٢٧]

وكذلك كان النبي ﷺ، يبالغ في اهتمامه بالضعفاء، والمساكين، والبؤساء، والرقيق، والمنكسرة قلوبهم، وينشغل برعايتهم بشكلٍ خاص، ويجتهد في إيجاد وسيلةٍ لإدخال البهجة إلى نفوسهم، وهذه الحالة، بالنسبة للمؤمنين تعتبر قاعدة رائعة، لتربية النفس وتزكيتها من الغرور والكبر.

ويُروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن زاهرا باديتنا، ونحن حاضروه**». وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه، وكان رجلا دميما، فأتاه النبي عليه الصلاة والسلام يوما وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي عليه الصلاة والسلام، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي عليه الصلاة والسلام، حين عرفه، وجعل النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**من يشتري العبد؟**» فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسدا، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لكن عند الله لست بكاسد**» أو قال: «**لكن عند الله أنت غال**» [١٠٢٨]

❀

١٠٢٦ الترمذي، اللباس، ٣٠/ ١٧٦٩.

١٠٢٧ ابن كثير، البداية، ٩، ٢٨٧.

١٠٢٨ أحمد، مسند، ٣، ١٦١/ ١٢٦٤٨.

ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يهمل أبدًا إكرام الوفود التي تفد إليه، وكذلك من ينزل عنده ضيفًا من الناس، وكان رسول الله ﷺ قد كتب كتابًا إلى أهل البحرين، أن يقدم عليه بعشرين من أهل البحرين، وكان في الوفد الذين وفدوا على رسول الله عليه الصلاة والسلام، اثنا عشر رجلًا من عبد القيس، فالتقوا برسول الله عليه الصلاة والسلام، فأسلم كلهم، وأخذوا يسألونه عن أمور دينهم، وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يُمنَح كل رجل من بني عبد القيس هدية، وأعطى رسولُ الله عبدَ الله بن عوف ـ الذي كان على رأس الوفد ـ اثنتي عشرة ونصف أوقية [١٠٢٩] من الفضة. [١٠٣٠]

وكذلك لما قدم وفد بني مُرَّة على رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة عشر رجلًا، على رأسهم الحارث بن عوف، سألهم رسول الله ﷺ: وكيف البلاد؟ قالوا: والله إنا لمسنتون، فادع الله لنا، فقال رسول الله ﷺ:

«**اللهم اسقهم الغيث**».

وبعد أن أقام بنو مرّة في المدينة أيامًا، جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام واستأذنوه للرحيل، فأمَّر النبي عليه الصلاة والسلام عليهم الحارث بن عوف، وأمر بلالًا أن يجيزهم، فأجازهم بعشر أواقٍ من فضة، وفضّل الحارث بن عوف، فأعطاه اثنتي عشرة أوقية. [١٠٣١]

❀

وكان سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يقبل كل هداية تهدى إليه، ويولي اهتمامًا بالغًا بتقديم الهدايا للصديق والعدو، وكان يقابل الهدايا التي تأتيه

١٠٢٩ الأوقية، نوع من أنواع العملات المالية القديمة المسكوكة من الفضة، و١ أوقية تساوي تقريباً ١٢٨ غراماً من الفضة، في نفس الوقت الأوقية تستعمل كإحدى مقاييس الوزن.

١٠٣٠ ابن سعد، الطبقات، ١، ٣١٥.

١٠٣١ ابن سعد، الطبقات، ١، ٣١٥؛ ابن الأثير؛ أسد الغابة، ١، ٤١٠.

بهدايا بدلًا عنها، وحتى في مرضه الأخير، ومع شدة المرض عليه كان يأمر بأن يعوّض من أهدى إليه بمثلها من الهدايا [١٠٣٢]، وكانت من بين إحدى وصاياه قبيل وفاته بقليلٍ قولُه:

«... **أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**» [١٠٣٣]

ومن بين أهم آداب التهادي ألا نقوم بإهداء شيءٍ لا يعجبنا، أو لا نحبه.

فقد ورد عن عائشة ﵂ أنها قالت:

أُتي رسول الله ﷺ بضب، فلم يأكله، ولم ينه عنه، قلت: يا رسول الله، أفلا نطعمه المساكين؟ قال:

«**لا تطعموهم مما لا تأكلون**» [١٠٣٤]

كان النبي ﷺ يجلس مع أصحابه في سقيفة بني ساعدة، فتوجّه إلى سهل بن سعد وقال: «**اسقنا يا سهل**»، فأخرج لهم سهل ﵁ قدحًا فسقاهم فيه، وبقي سهل يحافظ على ذلك القدح طوال عمره.

يقول أبو حزم ﵁: فأخرج لنا سهل ذلك القدح، فشربنا منه، ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. [١٠٣٥]

وهذا فيه دليل على أن الصحابة الكرام كانوا قادرين على الإهداء، حتى بعض الأشياء التي تعظم قيمتها في نفوسهم، فقد أهدى سهل ﵁ القدح الذي لا تضاهي قيمته الدنيا وما فيها، لعمر بن عبد العزيز حين رجاه ذلك.

١٠٣٢ انظر: البخاري، الجزية، ٦.

١٠٣٣ مسلم، الوصية، ٢٠/ ١٦٣٧.

١٠٣٤ أحمد، مسند، ٦، ١٠٥، ١٢٣/ ٢٤٧٣٦/ ٢٤٩١٧/ ٢٥١١٠.

١٠٣٥ البخاري، الأشربة، ٣٠/ ٥٣٦٧.

كان فراسٌ أحد الصحابة الذين كانوا يرغبون باقتناء شيء من آثار النبي ﷺ، فرأى فراس النبي ﷺ، وأمامه قصعة يأكل فيها، فرجاه أن يهديه القصعة، فأعطى النبي ﷺ ـ الذي لم يردّ أحدًا في طلبه ـ فراسًا القصعة. قال فراس رضي الله عنه:

«وكان عمر إذا جاءنا قال أخرجوا إليّ قصعة رسول الله ﷺ، فنخرجها إليه فيملأها من ماء زمزم، فيشرب منها وينضحه على وجهه» [١٠٣٦]

❁

وعن عن عياض بن حمار، قال:

أهديت للنبي ﷺ ناقة، فقال: «أَسْلَمْتَ؟»، فقلت: لا، فقال النبي ﷺ: «**إني نهيت عن زبد المشركين**»[١٠٣٧]

وكان فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ بتصرفه هذا، يرغِّب عياض بن حمار للدخول في الإسلام ويشوّقه لذلك، لكن فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول فالأمر مختلف جدًا، فإن رسول الله ﷺ كان يقبل كل ما يُهدى إليه من ملوك البلاد وأمراء القبائل، حتى يقرّبهم من الإسلام، ويؤلّف قلوبهم للدخول فيه، حيث إن سيدنا علي رضي الله عنه قال:

«أن كسرى أهدى له، فقبل، وأن الملوك أهدوا إليه، فقبل منهم» [١٠٣٨]

❁

وختامًا...

فإن مِن أهمّ سنن النبي ﷺ التهادي، وحقٌّ على كل مسلم إحياء هذه السنة النبوية، لأن ذلك يعني المحافظة على شعور الأخوّة والتعاون غضًا طريًا.

١٠٣٦ ابن حجر، الإصابة، ٣، ٢٠٢.

١٠٣٧ أبو داود، الخراج، ٣٥/ ٣٠٥٧.

١٠٣٨ الترمذي، السير، ٢٣/ ١٥٧٦.

وفي يومنا الذي غدت فيه المصالح المادية وحبّ الدنيا طاغيًا، فإن الهدية التي تُهدى عن طيب نفسٍ وحبٍ وإخلاصٍ كفيلةٌ أن تفعل فعلها في التأثير على القلوب وكسبها.

فإن كانت الهدية مقدّمة للعدو، فإن ذلك يقلّل من حقده وعداوته، إلى أن يزيله بمرور الوقت.

وأما إن لم يكن المهدى إليه من جملة الأصدقاء، ولا من الأعداء فإن تقديم الهدية له يقرّبه إلى النفس ويدخله في جملة الأصدقاء.

وأما إن كان من الأصدقاء، فإن الهدية تزيد من صداقته ومودته، لذلك كان النبي ﷺ يعطي المزيد والمزيد من غنائم الحرب والهدايا للذين دخلوا الإسلام من قريب، حتى يؤلّف قلوبهم للإسلام.

١٠. إكرام الضيوف

المؤمن الذي يحبّ الله يحب عباده، والذي يحب رسول الله يتخلّق بأخلاقه النبوية، فيحمل شعور المحبّة تجاه عباد الله ويعمل على إكرامهم قدر المستطاع، وخاصة الغرباء والبؤساء منهم، الذين خرجوا من بلادهم مسافرين أو مغتربين، فيبحث عنهم، ويكون لهم عونًا ومعينًا، ويبذل جهده في سبيل إزالة هموم نفوسهم وكرباتهم، ويبعث السرور والبهجة في قلوبهم، لأن مداواة قلب مجروح سلوكٌ فضيلٌ يقرّب العبد من الله تعالى.

وكذلك ملاقاة كل من جاءه زائرًا برحابة الصدر، واستقباله بطلاقة الوجه، وحسن الكلام، والمواساة والمؤانسة، كل ذلك يعتبر من أهم آداب الأخوّة الإسلامية.

ولذا يعتبر إكرام الضيوف شعار المسلمين، حيث قال رسول الله ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ...» [١٠٣٩]

١٠٣٩ البخاري، النحل، ٨٠، الأدب، ٣١، ٨٥، الرقاق، ٢٣ ؛ مسلم، الإيمان، ٧٤-٧٥..

والبيت الذي يغشاه الضيوف، تتنزل عليه الخيرات والبركات، وشبّه النبي ﷺ ذلك بهذا المثل الجميل، فقال:

«الخير أسرع إلى البيت الذي يغشى، من الشفرة إلى سنام البعير» [١٠٤٠]

وكان العرب الذين يشتهرون بالجود وإكرام الضيف، إذا نزل بهم ضيفٌ يسارعون في إكرامه، حتى كان منهم من ينحر له من الإبل، وبما أن ألذَّ ما في الجمل سنامه، لذا كان صاحب البيت أول ما يتناول بالشفرة من الجمل سنامه.

وسيدنا فخر الكائنات ـ وهو يمثّل بهذا المثل الجميل ـ يشوّق أمته ويحثّها على إكرام الضيوف.

ويذمّ النبي ﷺ الرجل الذي لا يضيف، ويصفه بأنه لا خير فيه [١٠٤١]، لأن عدم الرغبة في استضافة صاحب الحاجة تصرفٌ قبيحٌ لدرجةٍ تُزعج النبي محمد عليه الصلاة والسلام وهو من أُولي العزم من الرسل.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام عندما نزل مع الخضر في سفرهما على قرية، فاستطعما أهلها، فأبوْا أن يضيّفوهما كان ذلك جارحًا لشعورهما. [١٠٤٢]

ومن جانب آخر، بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن ثلاث دعوات مستجابات حيث قال:

«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم» [١٠٤٣]

سواء كان هذا الدعاء منهم في خيرِ وصالحِ المدعو له، أو كان عليه وضده.

١٠٤٠ ابن ماجه، الأطعمة، ٥٥/ ٣٣٥٦.

١٠٤١ انظر: أحمد، مسند، ٤، ١٥٥.

١٠٤٢ انظر:ا لكهف، ٧٧.

١٠٤٣ أبو داود، الوتر، ٢٩/ ١٥٣٦؛ الترمذي، البر، ٧، الدعوات، ٤٧.

وقد أوصى النبي ﷺ أن يكون في البيت فراشٌ للرَّجل، وفراشٌ للمَرْأة، وفراشٌ لِلضَّيف، ونهى عن الإسراف في أكثر من ذلك بغير حاجة. [١٠٤٤]

وحسبما بيّنه العلماء، فإن مما جعل النبي ﷺ يكره تربية الكلب في المنزل، أن وجوده قد يتسبب في مخافة الضيف النزولَ في داره، وهذا الفهم يُظهر لنا مدى الاهتمام والقيمة التي كان يبديها النبي ﷺ في إكرام الضيف والحرص على مشاعره، وقد قال:

«ليلة الضيف حق على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دين، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك» [١٠٤٥]

ويقول أيضًا:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته»،

قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال:

«يومه وليلته. والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» [١٠٤٦]

والأَلْيَق بصاحب الدار إذا نزل به الضيف إتحافه في اليوم الأول، وتكلّفه له بالمستطاع، فإذا كان اليوم الثاني والثالث قدّم إليه ما بحضرته، وبما يكرَم به أهل بيته من الطعام والشراب، ودون تكلّف في ذلك كما فعل في اليوم الأول.

وما يبقى من شيءٍ بعد إكرام الضيف فإن ذلك يعود لصاحب البيت بالخير والبركة.

وقد أمرَنا النبي ﷺ أن نقري ونضيف، حتى الذي نمرّ عليه فلا يقرينا ولا يضيفنا، أمرنا أن نقريه ونضيفه في بيوتنا. [١٠٤٧]

١٠٤٤ انظر: مسلم، اللباس، ٤١.

١٠٤٥ أبو داود، الأطعمة، ٥/ ٣٧٥٠.

١٠٤٦ البخاري، الأدب، ٣١، ٨٥؛ مسلم، اللقطة، ١٤/ ٤٨.

١٠٤٧ انظر: الترمذي، البر، ٦٣ / ٢٠٠٦.

ذا، ولا يحلّ للمرأة أن تسمح بدخول مسكنها إلا لمن يأذن الزوج له، امرأةً كان النازل أم رجلًا. [١٠٤٨]

والضيف عندما ينزل على أحد، قد يكون في حالة جوع شديدة، أو على عجلة من أمره يريد الرحيل، ولذا فعلى صاحب الدار أن يتنبّه لذلك، فيكرمه على الفور، بشيءٍ يُسكت جوعته، ويقضي حاجته، ويجود أولًا من الموجود الحاضر، ثم بعد ذلك يمكن أن يقوم بتحضير الطعام الذي يريد أن يكرمه به، لأن من مقتضيات المروءة عند أهل البيت، التنبّؤ بحال وشأن الضيف الذي حلّ بهم.

وإن من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار. [١٠٤٩]

وعلى الضيف ألا يطيل زمن الضيافة إلى درجة يُحرج بها صاحب الدار، وقد قال في ذلك النبي ﷺ:

«**الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال: «**يقيم عنده ولا شيء له يقريه به**» [١٠٥٠]

وعندما يدخل الضيف البيت يحفظ نظره مِن أن يرى ما في داخل البيت حتى لا يقع بنظره على حرمات البيت، فقد جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ [١٠٥١] أي لا تكشفوا عيوب غيركم أو أسرارهم.

وعليه أن يكون حكيمًا أثناء دخوله وخروجه، يدقّق في حركاته، ويخفض من حدّة صوته أثناء الحديث، وأن يخلع نعليه في المكان المخصّص، ويضعها مرتّبة في المكان المعدّ لذلك، وكذلك عليه تفحّص نعليه قبل الدخول، حتى يزيل عنهما كل ما علق بهما في الطريق.

١٠٤٨ انظر: البخاري، النكاح، ٨٤، ٨٥؛ مسلم، الزكاة، ٨٥.

١٠٤٩ انظر: ابن ماجه، الأطعمة، ٥٥.

١٠٥٠ مسلم، اللقطة، ١٥– ١٦/ ٤٨.

١٠٥١ الحجرات: ١١.

وعليه أيضًا أن يجلس في المكان الذي أشار به صاحب الدار، ولا يغادره إلى مكان آخر.

وعلى الضيف عندما يدخل بيتًا من البيوت أن لا يكون فضوليًا كثير السؤال، يتتبع أطراف البيت بنظره، بل عليه أن لا يحوّل نظره إلا ضمن حدود الحاجة، ولا يعبث بشيءٍ من أغراض المنزل، فلا يفتح مثلًا خزانة النقود، أو صندوق الحوائج، أوثلاجة الطعام، وكذا خزانة الألبسة والجُعب المغلقة أو أيّ أمرٍ يعدّ من الأسرار، والعبث من الضيف بشيء من هذه الأشياء يعتبر مخالفةً لآداب الإسلام، وخيانة منه للأمانة.

ومن غير المناسب، تقدّم الضيف للإمامة في الصلاة دون إذنٍ من صاحب الدار، وكذا الجلوس في المكان المخصص لصاحب البيت.

بمعنىً آخر، على الضيف أن يراعي ويتقيّد بتوجيهات صاحب البيت، حتى إن نزل على قومٍ فلا يصومنّ تطوعًا إلا بإذنهم. [١٠٥٢]

وباختصارٍ، يجب على كلٍّ من الضيف وصاحب الدار أن يعامل الآخر بحسن المعاشرة، ويراعي كلٌّ منهما آداب الضيافة.

صور الفضائل

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحبّ الضيف كثيرًا، ومن حسن أخلاقه أنه كان يتولّى بنفسه خدمتهم وإكرامهم، وكان إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمّر عليه أصحابه الذين يشاركونه في مراسم الاستقبال بذلك، فمثلًا يوم قدم وفد كندة، رُؤي رسول الله ﷺ وعليه حلّة يمانية، وعلى أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم مثل ذلك. [١٠٥٣]

١٠٥٢ انظر: الترمذي، الصوم، ٧٠/ ٧٨٩.

١٠٥٣ انظر: ابن سعد، الطبقات، ٤، ٣٤٦.

وقد تولى سيدنا أبو بكر ﷺ مسؤولية استقبال الوفود، فكان يستقبل الوفود والضيوف التي تأتي المدينة المنورة، ويعقد معهم جلسة مسبَقة، قبل أن يدخلوا إلى رسول الله ﷺ، ويقوم بتوجيهم وتذكيرهم ببعض الآداب المرجوة، وتعليمهم كيفية التصرف عند دخولهم على رسول الله ﷺ.

بينما تولّى سيدنا ثوبان ﷺ مسؤولية القيام بخدمة الضيوف، وسيدنا بلال مسؤولية الإشراف على طعامهم، فكانوا يأتون بالغداء والعشاء، مرّة خبزًا ولحمًا، ومرّة خبزًا ولبنًا.

وكان الذين ينزلون ضيوفًا على رسول الله ﷺ، ويعرفونه عن كثب، ويُسحَرون بجمال أخلاقه وسجاياه، ثم ينقلبون إلى أوطانهم، كأن لسان حالهم ـ حسب تعبير مولانا ـ يقول:

«فوالله أينما حللت أو رحلت، فأنا ضيفك الأبدي بعد اليوم، كنتُ ميتًا، وبك عادت إليّ الحياة.

وإني بعد اليوم عُبيد إحسانك، وحارس عتبة بابك، أنت يا من الدنيا والآخرة ضيوف مائدة شفاعته».

❁

كان أبو هريرة ﷺ عندما يُسأل عما كان يلقاه النبي ﷺ من شدة الجوع، يقول:

«كان رسول الله ﷺ لكثرة من يغشاه وأضيافه وقوم يلزمونه لذلك فلا يأكل طعاما أبدا إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع وفي الأمر بعد ضيق والمعاش شديد هي بلاد ظلف لا زرع فيها إنما طعام أهلها التمر وعلى ذلك أقاموا» [١٠٥٤]

❁

١٠٥٤ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٠٩.

ورُوي أن رسول الله ﷺ، ضافه ضيفٌ وهو كافر، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى، فشربه، ثم أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح، فأسلم. فأمر له رسول الله ﷺ، بشاةٍ فشرب حلابها، ثم أمر بأخرى، فلم يستتمّها، فقال رسول الله ﷺ:

«المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» [1055]

ولقد كان إكرام الضيوف من الصفات الفارقة التي يتّصف بها إبراهيم عليه السلام، فقد كان عليه السلام النبيُّ الذي يتصف بمحبته الكبيرة للضيوف، وسموّ كرمه وعلوّ درجة جوده، وطهر شرفه، حتى إنه ما كان يأكل وحده، فإذا حضر طعامه أرسل يطلب مَن يأكل معه، فإن لم يجد، يخرج إلى السّكك، ويبحث عن الضيوف، ويأتي بمن يلتقيه إلى بيته ويكرمه، ويطعم ويسقي كلَّ من يمرّ من تلك السكك، ولهذا السبب كان إبراهيم عليه السلام يكنى:«أبا الأضياف»، حيث كان أبًا لكل الضيوف. [1056]

ولكي نتخذ إكرامه للضيوف قدوةً لنا، يخبرنا الله عز وجل قصة إكرام إبراهيم عليه السلام، فيقول:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ. فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾ [1057]

ويقول ابن عباس رضي الله: الضيوف الذين جاؤوا إبراهيم عليه السلام هم: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل عليهم السلام. [1058]

١٠٥٥ البخاري، الأطعمة، ١٢/ ٥٣٩٣؛ مسلم، الأشربة، ١٨٦/ ٢٠٦٣.

١٠٥٦ ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٧.

١٠٥٧ الذاريات: ٢٤-٢٧ .

١٠٥٨ القرطبي، ١٧، ٤٤.

فقابل إبراهيم عليه السلام سلامَ ضيوفه بأحسن منه، ثم دعاهم إلى بيته، وليعدّ لهم الطعام انسلّ من بينهم في خفية وسرعة دون أن يشعروا به، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عِجْل فتيّ سمين مشوي، فقرّبه إليهم بلطفِ العبارة وحسن العرض.

❀

وسيدنا رسول الله ﷺ يوصينا أن نكون كرماء مع الذين يتهرّبون من الإحسان إلينا، بل حتى الذين يُسيئون إلينا، ونرى مثال ذلك في سيدنا يوسف وأخلاقه العالية، حيث يقول الحقّ جل جلاله:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[١٠٥٩]

فاستقبل سيدنا يوسف عليه السلام إخوته ـ الذين عاملوه بأسوأ أنواع المعاملة ـ أحسن استقبالٍ، وأظهر لهم حسن الضيافة، وأكرمهم وأحسن إليهم غاية الإحسان.

وهذا يعني أن حسن الضيافة صفةٌ من صفات النبي عليه السلام.

ومع أن الأصل هو الاعتدال في المأكل والمشرب، إلا أن التكلّف في إكرام الضيوف، وتناول الطعام والشراب في الضيافة لا يُعدّ من الإسراف، ولكن الشرط في ذلك أن يكون الإكرام والضيافة بعيدًا عن المصالح الدنيوية والنفسية، ويكون بنيةٍ خالصة لله ومن أجل الله تعالى.

❀

ينقل لنا أبو ذر رضي الله عنه ـ أثناء حديثه عن هدايته للإسلام ـ مثلًا جميلًا لحسن الضيافة، فيقول:

كنت رجلا من غفار، فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتني بخبره، فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت

١٠٥٩ يوسف: ٥٨ ـ ٥٩.

ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد، قال: فمر بي علي فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، قال: فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، قال: فمر بي علي، فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا، قال: انطلق معي، قال: فقال ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت علي أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه، فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك، قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامض أنت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل ودخلت معه على النبي عليه الصلاة والسلام، فقلت له: اعرض علي الإسلام، فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي:

«يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»

فقلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم. [١٠٦٠]

❀

لما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، تمنّت كل بيوت الأنصار أن تنال شرف ضيافة رسول الله ﷺ، إلا أن فخر الكائنات حلّ المسألة بفراسةٍ ولطفٍ دون أن يُدخِل الحزن إلى قلب أحد، فنزل النبي عليه الصلاة والسلام على أبي أيوب الأنصاري.

١٠٦٠ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٣٣، المناقب، ١٠؛ أحمد، مسند، ٥، ١٧٤؛ الحاكم، المستدرك، ٣، ٣٨٢، ٣٨٥/ ٥٤٥٦؛ ابن سعد، الطبقات، ٤، ٢٢٠-٢٢٥.

يقول أبو أيوب الأنصاري ﵁:

لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي، نزل في السّفل، وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلتُ للنبي ﷺ: إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال النبي ﷺ:

«**يا أبا أيوب، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت**»

وقد كان أبو أيوب يتفانى وزوجته في خدمة الضيف العزيز باحترام ومحبة لا مثيل لها، وحتى لا يمشوا فوق رأس رسول الله ﷺ، تنحّوا فباتوا في جانبٍ من البيت.

يقول أبو أيوب: انكسر حبٌّ لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحافٌ غيرها، نكشف بها الماء، تخوّفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وفي الصباح طلب إلى النبي ﷺ أن يصعد إلى العلو، فقال له النبي ﷺ: «**السفل أرفق**»، فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفةً أنت تحتها، فتحوّل النبي ﷺ في العلوّ، وأبو أيوب في السفل. [١٠٦١]

وكان أبو أيوب يتصرّف بحساسيةٍ عالية في إكرام النبي ﷺ أيام ضيافته عنده، ويبذل قصارى جهده لإرضاء ذلك الضيف الكريم، فكان يصنع للنبي ﷺ طعامًا، فإذا جيء به إليه، سأل عن موضع أصابعه، فيتتبّع ﵁ موضع أصابع النبي ﷺ. [١٠٦٢]

وأما الآخرون الذين هاجروا من مكة المكرمة، فقد استُقبلوا بالترحيب وحسن الضيافة الذي استُقبل به النبي عليه الصلاة والسلام، ومع اللحظة الأولى

١٠٦١ مسلم، الأشربة، ١٧١؛ ابن هشام، سيرة، ٢، ١١٦.

١٠٦٢ انظر: مسلم، الأشربة، ١٧٠– ١٧١.

التي دخلوا فيها المدينة المنورة فتح لهم الأنصار بيوتهم، وتسابقوا فيما بينهم في إكرامهم وتقاسم ضيافتهم، حتى اقتسمهم الأنصار في نزولهم عليهم وسكناهم في منازلهم بالقرعة. [١٠٦٣]

❀

عن أبي هريرة ﵁، قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال: «**من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟**»، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا، يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

«**قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**»

ويروى أن الله ﷻ أنزل هذه الآية الكريمة في مدح هذا المثل العالي:

﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [١٠٦٤]. [١٠٦٥]

❀

١٠٦٣ انظر: البخاري، الجنائز، ٣، مناقب الأنصار، ٤٦.

١٠٦٤ الحشر: ٩.

١٠٦٥ البخاري، مناقب الأنصار، ١٠، التفسير، ٥٩/ ٦ ؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢- ١٧٣/ ٢٠٥٤.

ويروى عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﵄، أنه قال:

«أن أصحاب الصفة، كانوا أناسا فقراء وأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس»

وأن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي ﷺ بعشرة، وكان أبي يتحدث إلى النبي ﷺ من الليل، قال: فانطلق، وقال: يا عبد الرحمن، افرغ من أضيافك، قال: فلما أمسيت جئنا بقراهم، قال: فأبوا، فقالوا: حتى يجيء أبو منزلنا فيطعم معنا، قال: فقلت لهم: إنه رجل حديد، وإنكم إن لم تفعلوا خفت أن يصيبني منه أذى، قال: فأبوا، فلما جاء لم يبدأ بشيء أول منهم، فقال: أفرغتم من أضيافكم، قال: قالوا: لا والله ما فرغنا، قال: ألم آمر عبد الرحمن؟ قال: وتنحيت عنه، فقال: يا عبد الرحمن، قال: فتنحيت، قال: فقال: يا غنثر، أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي إلا جئت، قال: فجئت، فقلت: والله، ما لي ذنب، هؤلاء أضيافك فسلهم قد أتيتهم بقراهم فأبوا أن يطعموا حتى تجيء، قال: فقال: ما لكم، أن لا تقبلوا عنا قراكم، قال: فقال أبو بكر: فوالله، لا أطعمه الليلة، قال: فقالوا: فوالله، لا نطعمه حتى تطعمه، قال: فما رأيت كالشر كالليلة قط، ويلكم، ما لكم أن لا تقبلوا عنا قراكم، قال: ثم قال: أما الأولى فمن الشيطان هلموا قراكم، قال: فجيء بالطعام فسمى، فأكل وأكلوا، قال: فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، بروا وحنثت، قال: فأخبره، فقال ﷺ: «**بل أنت أبرهم وأخيرهم**»، قال: ولم تبلغني كفارة» [١٠٦٦]

❀

ورُوي أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى يوم بدر فرّقهم بين أصحابه، قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**»، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموهم البُر، لوصية رسول الله ﷺ.[١٠٦٧]

١٠٦٦ انظر: البخاري، المواقيت، ٤١، المناقب، ٢٥، الأدب، ٨٧-٨٨؛ مسلم، الأشربة، ١٧٦-١٧٧/ ٢٠٥٧.

١٠٦٧ ابن هشام، سيرة، ٢، ٢٨٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ٨٦/ ١٠٠٠٧.

وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام يستقبلون الوفودَ التي تأتي المدينة المنورة لتعلّم أحكام الإسلام أحسن استقبالٍ، وأحيانًا تطول مدة ضيافة هذه الوفود، لأنهم كانوا يأخذون القرآن الكريم وأحكام الدين، ويتعلمون تطبيقها العملي أمام النبي ﷺ، مما يضّطرهم ذلك لإطالة أمد البقاء في المدينة المنورة.

وكان من بين هذه الوفود وفد عبد القيس، عندما قدم هذا الوفد المدينة، أقبل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: يا معشر الأنصار، أكرموا إخوانكم، فلما أصبحوا قال رسول الله ﷺ: وكيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم؟ قالوا: خير إخوان، ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلّمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنّة نبينا عليه الصلاة والسلام، فأعجبت النبي ﷺ، وفرح بها، ثم أقبل علينا رجلًا رجلًا، يعرضنا على من يعلمنا وعلّمنا، فمنّا من علم التحيات، وأم الكتاب والسورة والسورتين والسنن... [١٠٦٨]

ولهذا السبب خُصّصت دورٌ للضيافة، وخاصة للوفود التي يمكن أن يمتدّ بقاؤها في المدينة إلى عشرة أيام أو أكثر من ذلك، ومنها دار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، كانت تستعمل لهذا الغرض، وكذا وردَ أن رملة بنت الحارث خصّصت دارها الواسعة الجميلة بين بساتين النخيل، للغاية نفسها. [١٠٦٩]

❀

وأمهات المؤمنين زوجات النبي الكريم ﷺ، ما كانت دورهم تخلو من ضيف، وقد كنَّ استأذنَّ النبي ﷺ في قِرى النساء الصحابيات في بيوتهن، حيث كانت الصحابيات يأتين إلى بيت أزواج النبي ﷺ، بين الحين والآخر، لتعلّم أمور دينهن، وتستقبلهنّ أمهات المؤمنين بطلاقة الوجه، وتهتمّ بهن. [١٠٧٠]

١٠٦٨ أحمد، مسند، ٣، ٤٣٢.

١٠٦٩ الكتاني، ١، ٣٤٧.

١٠٧٠ انظر: البخاري، الإيمان، ٣٢، التهجد، ١٨؛ مسلم، المسافرين، ٢٢١.

وما أجمل هذه الحادثة التي تبين لنا فضل إكرام الضيوف:

خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجًا، ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوزٍ في خباءٍ لها. فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم. فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهةٌ في كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك. ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم، حتى أهيّئ لكم ما تأكلون.

فقام إليها أحدهم، وذبحها وكشطها، ثم هيّأت لهم طعامًا فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألـمِّي بنا، فإنا صانعون بك خيرًا.

ثم ارتحلوا، وأقبل زوجها، فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويلك، تذبحين شاتي لقومٍ لا تعرفيهم، ثم تقولين: نفرٌ من قريش!

ثم بعد مدةٍ، ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها، ويبيعانه ويتعيّشان بثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالسٌ على باب داره، فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا العجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك، يوم كذا ويوم كذا، فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو!. قال: نعم. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة، وأمر لها معها بألف دينارٍ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين، فأمر لها الحسين أيضًا بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فأمر لها عبد الله بمثلَي ما أعطى الحسن والحسين، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما. [١٠٧١]

❀

١٠٧١ انظر: الغزالي، كيمياء السعادة، ص. ٤٦٣– ٤٦٤.

مفهومُ «ضيف الله» في ثقافتنا وديننا يُظهر مدى القَدْر والقيمة التي تحملها أمتنا للضيف والأهمية التي تبديها للضيافة.

ولقد كانت مشاعر الجود والكرم عند أجدادنا متجذّرة في الأعماق، إلى درجة أنهم كانوا يتسابقون فيما بينهم من أجل إقراء الضيف وإكرامه.

وخيرُ شاهد على ذلك الحادثة التي يرويها الرحّالة التونسي المشهور ابن بطوطة، الذي طاف أجاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر.

وأثناء سياحة ابن بطوطة وأصحابه في بلاد الأناضول مرّ على مدينة «دنزلي»، والتي كانت تسمى في الماضي بمدينة «لاذق»، ولنترك ابن بطوطة يحدثنا بما جرى معه:

«...وعند دخولنا لهذه المدينة، تقدّم إلينا رجال من حوانيتهم، حتى سلّ بعضهم السكاكين، وأخذوا بأعنّة الخيل، ونازعهم آخرون على بعض، ونحن لا نعلم ما يقولون، فخفنا منهم، وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق، وأن تلك مدينتهم، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا. ثم بعث الله لنا رجلًا حاجًا يعرف اللسان العربي، فسألته عن مرادهم منّا؟ فقال: إنهم من الفتيان، وإن الذين سبقوا إلينا أولًا هم أصحاب الفتى أخي سنان، والآخرون أصحاب الفتى أخي طومان، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم، فعجبنا من كرم نفوسهم.

ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولًا، فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك، فأتى إلينا في جماعةٍ من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له، وأتي بأنواع الطعام، ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا، وتولى خدمتي بنفسه، وتولى أصحابه خدمة أصحابي، يخدم الثلاثةُ والأربعةُ الواحدَ منهم، ثم خرجنا من الحمام، فأتوا بطعام عظيم وحلوى وفاكهة كثيرة، وبعد الفراغ من الأكل، قرأ القرّاء آيات من القرآن العزيز، ثم أخذوا في السماع والرقص، وأعلموا السلطان

بخبرنا، فلما كان من الغد، ألفينا أخي طومان وأصحابه في انتظارنا، فذهبوا بنا إلى زاويتهم، ففعلوا في الطعام والحمّام مثل أصحابهم، أو أحسن» [١٠٧٢]

❁

وما أحسن ما يذكره السيد أَوْلِيَا شلبي عن بيت الضيافة الكائن في وقف الباشا محمد سقّللو:

«... يستقبلون الضيف الذي يأتيهم من الخارج، ويفتحون له الباب، فيحلّ بهم ضيفًا ولو تجاوز الوقت منتصف الليل، ويقومون بإكرامه بالموجود من الطعام.

ولكنهم لو تهدّمت أركان الكون لا يسمحون لضيفٍ أن يغادر بيت الضيافة ليلًا، وفي الصباح عندما يحين وقت المغادرة يقف القائمون على أمر بيت الضيافة وينادون كالطلّاع: يا أمة محمد: تفقّدوا أموالكم وأرواحكم وخيولكم وألبستكم، هل أمتعكم كاملة؟ هل ينقصكم شيء؟ ألكم حاجة إلى شيء؟ فيجيب الضيوف وبصوتٍ واحد: تام .. تام.. رحمة الله تعالى على فاعل الخير هذا!

وعند بزوغ الشّفق، يفتح البوّاب الباب على مصراعيه ويودّعهم بالدعاء والنصيحة قائلًا: لا تغفلوا! انتبهوا... لا تفقدوا بساطكم! لا تصاحبوا من لا تعرفون، امضوا.. سهّل الله عليكم سبيلكم».

❁

يروي السيد. «L. H. Delamarre» مشاهداته المتعلقة بالحياة الاجتماعية للعثمانيين، فيقول:

«أثناء زياراتي لأطراف اسطنبول كنت ألامس عشق هذه الأمة للطف التعامل، وكرم الضيافة، ما من تركي أصادفه وأسأله عن الطريق إلا ويبادر كدليلٍ ليهديني إليه، ولا يمنع عني ما في يده من طعام أو شراب إلا ويكرمني به، في كل تصرفاتهم ترى الإنسانية واللباقة ظاهرة للعيان».

❁

١٠٧٢ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، ص، ٣٠٥-٣٠٦.

أما مشاهدات د.أ. براير، فهي كالآتي:

«عجيبة هي حيوية نفوس العثمانيين، ينظرون لضيف الحقّ، الذي حلَّ بهم على أنه نعمة مقدسة، صاحب الدار يخصص لضيفه من غرف البيت أحسنها وأجملها، ويبذل قصارى جهده لخدمته وإكرامه، وحتى إن مرض ضيفه يطَبِّبه، ويتحمل أجرة تطبيبه، لأنه يعتبر تكليف الضيف نفقاته الخاصة، نقيصة في حقّ صاحب الدار.

ويهدي الضيفَ عندما يريد المغادرة بعض الهدايا، مظهرًا امتنانه وشكره للضيف الذي أظهر لطف البقاء في بيته».

❀

باختصار إنّ ما يظهر من حسن الضيافة ابتغاء رضا الله ﷻ، ما هو إلا ثمرة الإيمان بالله واليوم الآخر، وإكرام الضيف كما هو وسيلة للخير والبركة والسّعة في الدنيا، فإنه كذلك رأسمالٍ هام للآخرة.

أكَّد أجدادنا وبالبرهان العملي أن ما يُنفق في إكرام الضيف لا يُنقِص من المال شيئًا، وقالوا:

«الضيف يأتي برزقه».

ولكي لا يتكلف المرء في إكرام الضيف فيدخل في الحرج، قالوا:

«الضيف يأكل ما يلقاه، لا ما يتمنّاه».

والمسلمون الذين كانوا على درايةٍ بعدم التكلّف للضيف، ما كانوا يتهرّبون من قِرى الضيف، بل كانوا في حالةٍ مستمرة من الكرم والإحسان لعباد الله تعالى.

١١. الأدب «حسن الخلق»

الأدب في نظر الإسلام له أهمية بالغة، إلى درجة يمكن أن نقول في تعريفه: «الإسلام: هو الأدب»، لأن كل الأعمال الصالحة التي تُعمل لطاعة الله ورسوله إنما هي من نتاج وموجبات الأدب، وأما المحرمات فما هي إلا في عداد الأعمال المخالفة للأدب.

وعندما نتدبَّر القرآن الكريم بتأنٍ وحكمة، نجد أن موضوع الأدب والأخلاق من أكثر المواضيع التي يعالجها ويقف عندها، حتى القصص التاريخية التي فيه ذُكرت بقصد الأدب والأخلاق، فالله تعالى أراد بعرضها تعليمنا جمال السلوك وكمال الخلق.

ويبين حضرة مولانا هذا الأمر ببيانٍ جميل فيقول:

«افتح عينيك وتأمّل كلام الله تعالى من أوله إلى آخره! آيةً، آية، تجد القرآن كله عبارة عن وصايا الأدب».

يوصي الحقّ ﷻ عباده بالأدب والرفق، وينهاهم عن ضدهما وهو القبح والفحش، فيقول في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٠٧٣]

وفي الآية الكريمة الأخرى يبشّر الحق تعالى أنه سيغفر لعباده المؤدَّبين، فيقول:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ...﴾ [١٠٧٤]

وكذلك ربَّى رسول الله ﷺ الصحابة الكرام على كل أنواع الآداب والأخلاق الحسنة، وسيَّج دينُنا جوانب حياة الإنسان كلها بقواعد الأدب وأصوله، وهذه

١٠٧٣ النحل: ٩٠.

١٠٧٤ النجم : ٣٢.

القواعد منها ما هو فرضٌ على الإنسان، ومنها ما هو سنة أو مباح، وكلها وُضِعَت للحفاظ على كرامة الإنسان، ومن ثم تحقيق وتأمين سعادته في الدنيا والآخرة.

فمن يتواجد في حضرة سلطان أو أمام ذي مكانة عليّة، فلا يمكن أن يتصرف بنفس تصرفاته خارج ذلك المكان، بل يحاول جاهدًا أن يضبط تصرفاته بما يناسب ذلك الموقع والمقام، وكذلك أهل الله ـ انطلاقًا من إدراكهم أنهم في حضرة الله دائماً ـ يعتنون بالأدب كل الاعتناء، وهكذا، حالة الأدب تتجلّى في جوانب حياتهم كلها، لأنهم القلوب العارفة التي ترى مقامها في حضرة الحق تعالى، في كل زمانٍ ومكان، وتشاهد ذلك دون حجاب يمنعها، وتحسّ بها بغير آلة تتوسّلها.

وبمعنىً آخر، كأنهم المطّلعون على سرّ قوله:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١٠٧٥]

فيعيشون كل لحظاتهم في شعور المعيَّة مع الله ﷻ.

يقول الحق ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[١٠٧٦]

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[١٠٧٧]

يشرح حضرة مولانا هذه الآيات بإشارة المعنى، فيقول:

«العبد... تنتابه حالة الخشوع في الصلاة، فيحافظ عليها خارج الصلاة أيضًا، وهكذا يُمضي عمره كله في أدبٍ وخشوع، محافظًا على لسانه ونفسه، وهذه هي حالة العشاق الحقيقين وأهل الله العارفين».

والأدب، في أصله ما هو إلا عبارة عن كمال الإيمان ونضجه.

١٠٧٥ الحديد: ٤.

١٠٧٦ المعارج: ٣٤.

١٠٧٧ المعارج: ٢٣.

والأدب، هو الخلاص من الصفات الحيوانية، والتجمّل بالميزات الإنسانية، والمسلم في الحقيقة هو المتمثل بالآداب الإسلامية، والقادر على تجلّي المحاسن العلوية على أحواله وتصرفاته، وجعل ذلك من جبلّته وطبيعته الدائمة.

وهذا لا يتحقق إلا من خلال شعور الإحسان، أي إنه مرتبط بإحساسه وشعوره أنه يعيش وبصورة دائمة تحت أنظار المراقبة الإلهية.

والأدب، في الوقت نفسه، يعني إظهار الصبر والتحمّل للمسيء في سوء أخلاقه.

الأدب، زينة للروح وجمال للنفس.

الأدب، هو الأصل لكل عمل، وكما أنه لا يمكن الوصول دون الأصول، فكذلك لا يمكن البلوغ مع نقص الأدب إلى مستوى الإنسانية الحقّة.

الأدب، هو تجلّيات العقل والفضيلة على الجوارح والأطراف، لذا فإن الدين والأدب والمروءة كلها من نتاج العقل والفضيلة.

فحسن أدب وأخلاق المؤمن دليل وبرهان على علوّ مقامه وقوة إيمانه،[١٠٧٨] أي إن الأدب في ذات الوقت مرآة لكمال الإيمان.

الأدب، حصنٌ يحفظ من المصائب المادية والمعنوية.

يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«الأدب، هو الحصن الذي يحافظ على أعراضكم».

الأدب، رسوم المحبة بين الناس الكاملين،

الأدب، وسيلةٌ نزيهة تحبّب للإنسان الحياة والمجتمع الذي يعيش فيه، وبناء على ذلك قال السلف الأقدمون: «حسن أدب المرء، أفضل من أموال الدنيا كلها».

الأدب، الصفة التي يعاديها الشيطان، ولهذا السبب، الوالدان اللذان لا يؤدّبان أولادهما يكونان وسيلة لإدخال الفرح في قلب الشيطان وأعوانه.

١٠٧٨ انظر: أبو داوود، السنة، ١٥/ ٤٦٨٢.

وأفضل الأدب أن يعرف المرء قدر نفسه، فلا يتجاوز حدوده، ولهذا قيل:

«إذا جالست العلماء فاحفظ لسانك، وإذا جالست الأولياء فاحفظ فؤادك، وإذا جلست على الطعام فاحفظ يدك، وإن جلست عند أحد ضيفًا فاحفظ عينك».

الأدب، يحفظ الإنسان من كل أنواع البلايا المادية والمعنوية، وما أروع ما قاله الشاعر:

الأدب تاج من نور الهدى ‌ ‌ ‌ ‌ اِلبسه تأمن بذاك التاج من البلا.

ولهذه الاعتبارات كانت في السابق، لوحة شهيرة تزين جدران الزوايا والتّكايا، هي: «أدب يا هو!» أي انتبه للأدب.

الأدب، تاج كل الأمور، وقد جاءت هذه الحقيقة على لسان شاعر عارف، فقال:

بحثت بين أهل الألسن والصنعة وزدت في الطلب

قيل كل صنعة مقبولة لكن الزم الأدب، الأدب.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه:

«العمل مع حسن الخلق دليلٌ على قبوله».

وقال العارفون بالله:

«العبادة وحدها، تقرّب العبد من الجنة، والعبادة مع الأدب والتعظيم، توصل إلى الله تعالى، وتقرّب العبد من الحق».

إضافة إلى ذلك، فإن أكمل الأخلاق وأحسن الأدب، هو الأدب في الدين، بمعنىً آخر، الأدب مع الله تعالى، لذا هو الغاية الأسمى للتصوّف، وهذه الغاية تسمو بالإنسان للوصول إلى حالة الشعور بالإحسان، ودرجة الإنسان الكامل، وتجعله صاحب أدب مع الله تعالى.

يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«رأس الورع كله: أداء فرائض الله واجتناب محارمه في السرّاء والضرّاء».

وقال حضرة مولانا:

«سألت عقلي: ما الإيمان؟ فاقترب عقلي من أذن قلبي وأسَّر فيه: «الإيمان هو الأدب»، لذا من حُرِم الأدب حرم ألطاف الربّ سبحانه».

وبعد الأدب مع الله تعالى، يأتي الأدب مع رسوله ﷺ، فالحقّ تعالى وفي كثير من الآيات وخاصة في سورة الحجرات يأمر عباده المؤمنين أن يحافظوا على الأدب مع رسوله ﷺ، ويمتدّ التأدّب من هذا المعلم المؤدَّب إلى الأدب مع الأبوين، ثم الأدب مع المؤمنين، وهكذا تمتدّ السلسلة إلى الأدب مع جميع المخلوقات.

يقول سفيان الثوري رحمه الله:

«حسن الخلق يطفئ غضب الرب».

«ثلاث خصال من كانت فيه لم يُحرم الخير: أن يكون صاحب خلق حسن، وأن يصاحب ذا الخلق الحسن، وأن يتجنّب إيذاء غيره من الناس».

وكما أخبر رسول الله ﷺ:

«... **وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»[١٠٧٩]

وحيث جاء في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٠٨٠]

ونقص الحياء والأدب في المرء ينشأ من ضعف العقل والإيمان والدّين، لذلك كلما بَعُدَ عن الله ورسوله كان بعيدًا عن رعاية الأدب واعتباره، ويتقلّب في حرمانٍ دائم من الخير.

١٠٧٩ الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢.

١٠٨٠ النور: ١،

وقال الشاعر:

ليس اليتيم الذي قد مات والده   إِنَّ اليَتيمَ يَتيمُ العِلْمِ والأَدَب.

أي، ليس اليتيم هو من يُحرم عطف الأب والأم، بل اليتيم الحقيقي هو الذي يُحرم من حسن الأدب.

والأدب، هو ذروة سنام الخلق الحسن، وخير ما أعطي العبد من الله تعالى، الخلق الحسن. [١٠٨١] وكذلك أثقل شيء في الميزان يوم القيامة هو حسن الخلق. [١٠٨٢] ومن أحب الناس إلى الله ورسوله، وأقربهم من النبي ﷺ في الآخرة أحاسنهم أخلاقًا وأدبًا. [١٠٨٣] وفي هذه الحالة يكون حسن الخلق أكثر ما يدخل الناسَ الجنة. [١٠٨٤] أي بطاقة دخول الجنة إن جاز التعبير بذلك.

صور الفضائل

كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشْر، سهل الخلق، لين الجانب [١٠٨٥] أشد براءة وحياءً من الزهرة الندية، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ويعفو ويغفر الهفوة، ويتغافل عن عيوب الناس، [١٠٨٦] ويحثّ عليه الصلاة والسلام أمته بقوله:

«... **أصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس...**» [١٠٨٧]

١٠٨١ انظر: ابن ماجه، الطب، ١.

١٠٨٢ انظر: أبو داود، الأدب، ٧/ ٤٧٩٩.

١٠٨٣ انظر: الترمذي، البر،٧١/ ٢٠١٨.

١٠٨٤ انظر: الترمذي، البر،٧١/ ٢٠٠٤.

١٠٨٥ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١/ ٣٦٥.

١٠٨٦ انظر: الترمذي، البر، ٦٩.

١٠٨٧ أبو داود، اللباس، ٢٥/ ٤٠٨٩.

مَرَّ النبي عليه الصلاة والسلام على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أضر بك، فقال رسول الله ﷺ:

«**دعه، فإن الحياء من الإيمان**» [١٠٨٨]

ووصف الصحابة النبي ﷺ بأنه كان «أشدّ حياء من العذراء في خدرها» [١٠٨٩]

❀

عن عائشة رضي الله عنها:

أن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، قال: «**وعليكم**»

فقالت عائشة رضي الله عنها: السام عليكم، ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال النبي ﷺ:

«**مهلا يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف، أو الفحش**»

قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال:

«**أولم تسمعي ما قلت، رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في**» [١٠٩٠]

❀

يروي لنا أنس بن مالك رضي الله عنه أدب وأخلاق النبي ﷺ، فيقول:

«لم يكن النبي ﷺ سبابا، ولا فحاشا، ولا لعانا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «**ما له ترب جبينه**»[١٠٩١]

❀

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: كنت جالسا مع النبي عليه الصلاة والسلام ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ:

١٠٨٨ البخاري، الأدب، ٧٧، الإيمان، ١٦؛ مسلم، ٥٧– ٥٩.

١٠٨٩ البخاري، الأدب، ٧٧.

١٠٩٠ البخاري، الأدب، ٣٨/ ٦٤٠١/ ٦٠٣٠.

١٠٩١ البخاري، الأدب، ٣٨–٤٤/ ٦٠٣١.

«**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد**».

فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بي جنون.[١٠٩٢]

❀

جاءت رؤساء يهود إلى لبيد بن الأعصم اليهودي ـ وكان ساحرًا قد علمتْ يهود أنه أعلمهم بالسحر وبالسموم ـ فقالوا له:

يا أبا الأعصم، نجعل لك جُعلًا على أن تسحر لنا محمدًا سحرًا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ.

فعمد إلى مشط وما يمشط من الرأس من الشعر، فعقد فيه عقدًا، وتفل فيه تفلًا، وَجعله في جَبِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، ثم انتهى به حتى جعله تحت أرعوفة البئر.

فوجد رسول الله ﷺ أمرًا أنكره، وأنكر بصره، ومرض، وأخذ عن النساء وعن الطعام والشراب، حتى دلّه الله على مَن سحره، وكيف سحره، وأين وضعه، فعُوفي رسول الله ﷺ.

وقيل نزلت سورتا: «الفلق والناس» في ذلك، فجعل النبي ﷺ يقرأ، حتى انحلّ السحر.

فما حدَّث به رسول الله ﷺ، ولا رُئي في وجهه ولا عيّر لبيد بن الأعصم على صنيعه، ولم يقتله أو يقتل أحدًا من قبيلة زريق التي ينتسب إليها لبيد.[١٠٩٣]

قالت عائشة ﵂: فقلت: يا رسول الله فَهَلَّا، تعني تَنَشَّرْتَ؟ فقال النبي ﷺ:

«**أما الله فقد شفاني، وأما أنا فأكره أن أُثير على الناس شرّا**»[١٠٩٤]

١٠٩٢ البخاري، الأدب الخلق، ١١، الأدب، ٤٤-٧٦؛ مسلم: البر، ١٠٩؛ أبو داود، ٣.

١٠٩٣ انظر: ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٩٧؛ البخاري، الطب، ٤٧ ـ ٤٩؛ مسلم، السلام، ٤٣؛ النسائي، التحريم، ٢٠؛ أحمد، مسند، ٤، ٣٧٦، ٦، ٥٧؛ العيني، ٢١، ٢٨٢.

١٠٩٤ البخاري، الأدب، ٥٦/ ٦٠٦٣/ ٥٧٥٦.

ومع قدرته وتمكّنه من العقاب إلا أن رسول الله ﷺ، عفى عن الذي أساء إليه أكبر إساءة، بل لم يوجه إليه كلمةً ـ ولو تعريضًا ـ يعيّره بسوء صنيعه، لأن النبي ﷺ ما كان يرضى السوء لأحد من الناس، مسلمًا كان أو كافرًا، وكان يعامل كل الناس بأدب وحسن خلق.

ومن جانب آخر، فإن النبي ﷺ الذي أُرسل قدوة حسنة للناس كان مضرب الأمثال للإنسانية كلها، من خلال ابتلائه بما يبتلى به سائر الناس من المصائب، وجُعل بحفظ الله تعالى له في مأمنٍ وسلامةٍ من السحر وأمثاله.

❀

وعندما كان يقوم النبيُّ ﷺ بتصويب أخطاء الناس لا يواجه الناسَ بالعتاب، بل كان عتابه للعموم، وينتظر حتى يفهم المخطئ خطأه.

قالت عائشة رضي الله عنها:

صنع النبي ﷺ شيئا، فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمد الله ثم قال:

«ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية» [١٠٩٥]

❀

وفي الحادثة التي ينقلها مقاتل رضي الله عنه، أدبٌ جميل من آداب المجلس، فيقول:

«كان رسول الله ﷺ يوم جُمُعة في الصفة، وفي المكان ضِيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال النبي ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم

١٠٩٥ البخاري، الأدب، ٧٢/ ٦١٠١/ ٧٣٠١.

ينتظرون أن يوسَع لهم، فعرف النبي عليه الصلاة والسلام ما يحملهم على القيام، فلم يُفْسَح لهم، فشقّ ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال رسول الله ﷺ:

«رحم الله رجلًا فَسَح لأخيه»

فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعًا، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١٠٩٦] » [١٠٩٧]

وما أروع هذه الحادثة التي تعبّر عن جوهر الأدب والرّفق الذي يتخلّق به الصحابة الكرام:

«لما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبات طريح الفراش، قال لابنه عبد الله:

يا عبد الله، اذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقل: يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام. وإياك أن تقول أمير المؤمنين، فلست أميرًا للمؤمنين بعد اليوم. ثم سلْها أن أُدفن مع صاحبي.

يقول ابن عمر رضي الله عنه:

جئت باب عائشة رضي الله عنها، واستأذنت بالدخول، فلما أذنت لي دخلت حجرتها فوجدتها تبكي. فقلت: يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام. ويقول: ائذني لي أن أدفن مع صاحبي. فقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:كنت أريده لنفسي فلأوثرنّه اليوم على نفسي.

١٠٩٦ المجادلة: ١١.

١٠٩٧ الواحدي، ٤٣١-٤٣٢؛ ابن كثير، ٤، ٣٤٧.

وكان رسول الله ﷺ قد دُفن مع أبي بكر رضي الله عنه في حِجر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت عائشة رضي الله عنها ترغب أن تدفن إلى جانب زوجها رسول الله ﷺ وأبيها رضي الله عنه، ولكنها وبتضحيةٍ وإيثار لا مثيل لهما آثرت عمر رضي الله عنه بمكانها وقدمته له.

فلما أقبل عبد الله بن عمر قيل له: ما لديك؟

قال: أذنتْ لك يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه:

الحمد لله، ما كان شيء أهمّ إلي من ذلك المضجع. فإذا قُبضت فاحملوني، ثم سلّمْ على عائشة رضي الله عنها، ثم قلْ: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فادفنوني، وإلا فردّوني إلى مقابر المسلمين.

قال ابن عمر رضي الله عنه: فلما مات أبي حملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فاستأذنتها في الدخول.

فقالت: ادخل بسلامٍ، فدخلنا حِجر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ودفناه إلى جانب صاحبيه» [١٠٩٨]

❀

روى داوود الطائي رحمه الله تعالى:

«صحبت أبا حنيفة مدة عشرين سنة، فلم أره كل هذه المدة حاسر الرأس، أو مادًّا رجله، ولا في راحته، سواء كان وحده أو مع الناس،فلما قلت له: وما الضرر في مدّ الرجل إن كنت وحدك؟قال: أن تقف بأدبٍ أمام الحق تعالى أفضل»

❀

لما جَعل السلطان أحمد الأول ستّ منارات لمسجده الذي أمر ببنائه، أمر بإضافة منارةٍ أخرى لمنارات المسجد النبوي تأدبًا مع سيدنا رسول الله ﷺ. [١٠٩٩]

❀

١٠٩٨ البخاري: أصحاب النبي، ٨، الجنائز، ٩٦، الجهاد، ١٧٤ ، التفسير، ٥٩/ ٥، الأحكام، ٤٣.

١٠٩٩ إلبَر أورطايلي، كشف العثمانية من جديد، ص ١٥٠.

إن أجدادنا الذين بهروا الدنيا في موضوع الأدب والعفة وحفظ العرض، أظهروا حساسيةً رائعة في الأخلاق، حيث قال القسّ البروتستانتي ـ شديد التعصب ـ سالومون سجويكر، وهو يصف المسلمين في كتابه «سياحت نامه»:

«الرجال حتى في دخول الحمّام يسترون أنفسهم بسترة، ما أعظم أدب هؤلاء الناس! لا بدّ لنا أن نتعلم هذا الأدب والستر من هؤلاء البربر » [1100]

❀

وباختصار إن الأدب هو ميزةٌ علّمها الإسلام للناس، وأولاها أهمية بالغة للغاية، وبيّن أن غنى الدرهم والدينار يزول، ولكن غنى الأدب يبقى للأبد، لذلك على المسلمين أن يتعلموا قواعد الأدب جيدًا، ويحافظوا على حيويتها، ويولوها الاعتناء، ومن خلال ممارستها يكونوا قدوة لغيرهم.

ترْك الأدب غفلةٌ تَنزِل بالإنسان دون مستوى الأنعام وتجرّه في النهاية إلى الهلاك، لأن سوء الأدب كجبّ بعيد قعرُه لا يمكن الوصول إلى قاعه، والإنسان كلما أراد الخروج منها غاص فيها أكثر، لأنه كلما أشبع رغبةً للنفس ظهرت رغبة أكبر وأشدّ سوءًا، وكذا على هذا المنوال يركض خلف شهوات نفسه، حتى يهلك في النهاية ماديًا ومعنويًا.

والذين يريدون نشر سوء الأخلاق، يفسدون المجتمع كما يفسدون أنفسهم، ويرتكبون وزرًا لا طاقة لهم في حمله، وسيَلقون في مقابله عذابًا إلهيًا شديدًا.

يقول حضرة مولانا جلال الدين-رحمه الله-:

«نسأل الحق تعالى دائمًا أن يوفّقنا لحسن الأدب، لأن مَن لا أدب له يُحرم ألطاف الله تعالى، ولا يحصر ضرر سيء الأدب فيه وحده، بل يصل أُوار نارِه إلى كل الآفاق... من يتصرف بلا قيودٍ في سبيل الوصول للمولى يقطع الطريق على

١١٠٠ إلبَر أورطايلي، كشف العثمانية من جديد، ص ٨٨.

غيره كما يقطعه على نفسه، وشقيٌّ أمثال هؤلاء...وكل من يسيء في هذا الطريق تكون عاقبته الغرق في وادي الحزن والندامة، الفَلَك لأدبه تلفح بالنور، والمَلَك بأدبه نال العصمة والطهور، وما طُرد إبليس من باب الرحمة الإلهية إلا لجرأته في سوء أدب حديثه أمام الحق تعالى».

«إن أردت أن تقهر الشيطان فأمعن النظر، واعلم أن ما يقهر الشيطان هو الأدب، والمرء الذي يفقد الأدب لا يكون في حقيقته من البشر لأن الفارق بين الإنسان والأنعام هو الأدب».

وعلى هذا يتوجّب على المؤمنين أن يراعوا قواعد الأدب في كل حركاتهم وسكناتهم ويُظهروا الظرافة وحسن الخلق الذي منحه الإيمان لهم، ولا يتجاوزوا حدود الأدب في كل معاملاتهم سواء كانت مع الناس أو أمام الخالق سبحانه، ويعيشوا وهم مستشعرون وجودهم في الحضرة الإلهية، من خلال تحكيم أحاسيس الأدب على أيديهم وألسنتهم وأبصارهم وأسماعهم وقلوبهم، بل على كل جوارحهم وأعضائهم.

ومِن أنواع الأدب التي يجب على المؤمنين أن يقفوا عليها بإصرارٍ وتأكيد في هذا المجال، أدبٌ حاز على أهمية حياتية، وهو أن يحافظ الإنسان على لسانه، بمعنى أن يعرف متى وكيف وكم يتكلم؟ أو لا يتكلم.

والآن نتناول باختصارٍ كل هذه الموضوعات:

أ ـ أدب الحديث

إن التفكير والبيان من الصفات الفارقة بين الإنسان وسائر المخلوقات الحية الأخرى، وحديث المرء كالمرآة التي تعكس وتُظهر بجلاءٍ مستوى العقل والفكر الذي يتمتع به، وبمعنىً آخر اللسان هو الذي يُفصح عن إنسانية الإنسان، ولهذا السبب تتوقف سعادته وهلاكه في المقام الأول على لسانه، وإضافة لذلك على المرء أن يتحرز أثناء حديثه وكلامه ويبدي كل العناية لئلا يقع في الخطأ.

وأعلى رتب الأدب في الحديث، هي الاحترام والتعظيم للحقّ تعالى ولرسوله ﷺ، لأنّ من أكبر المهالك للمؤمن أن يقع أثناء حديثه في حالةٍ لا ترضي الله ورسوله. ويحذّر الحق تعالى من ذلك بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١١٠١]

فعلى كل مؤمنٍ أن يعرف حدوده في كل الأمور، فكما لا يتقدم بين يدي الله ورسوله، يتوجّب عليه كذلك أن لا يتسرّع في قطع حكم من الأحكام مع وجود حكم لله أو رسوله، وكذلك ليس من التوقير والاحترام الجهر بالقول ورفع الصوت بالحديث ـ لغير ضروة ـ أمام من هو أكبر منه ممن يستحق التوقير والاحترام.

المؤمن في كل وقتٍ عندما يبدأ حديثه يبدأ بالبسملة والحمد والثناء على الله تعالى، لأن النبي ﷺ أخبر بأن من لا يبدأ بذلك يكون حديثه مقطوع البركة، عديم الفائدة. [١١٠٢] حتى إن رسول الله ﷺ كان يحثّ الأطفال أن يكون أول كلامهم عندما يباشر أحدهم حديثه كلامًا ربانيًا، ولهذا السبب أمر طفلاً من بني عبد المطلب عندما أراد الحديث أن يقرأ في أوّله سبع مرات قوله تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [١١٠٣]. [١١٠٤]

١١٠١ الحجرات: ١-٢.

١١٠٢ انظر: أبو داود، الأدب، ١٨/ ٤٨٤٠؛ ابن ماجه، النحل، ١٩.

١١٠٣ الإسراء: ١١١.

١١٠٤ عبد الرزاق، ٤، ٣٣٤؛ ابن أبو شيبة، المصنف، ١، ٣٤٨.

وعليه أن يتجنّب الكلام بغير ذكر الله تعالى، من الأمور الدنيوية ولغو الحديث، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي.[١١٠٥]

ومن جانبٍ آخر، فإن كثرة الحديث تسوق الإنسان للوقوع في كثرة الخطأ، وما أجمل ما عبّر الشاعر عن ذلك بقوله:

مِن أهل اللسان خذ العبرة فكثير للكلام كثيرُ العثرة

وينبغي أولاً على كل من يرغب في الحديث أن يفكّر جيدا بما سيقوله، وينظر هل الحديث الذي سُيدلي به فيه نفع له وللآخرين أم لا فائدة فيه، فإنْ كان في حديثه ما ينفع تحدث وإلا التزم الصمت، وليعلم أن الحديث الذي لا فائدة منه في كثير من الأحيان يجلب الضرر عليه وعلى الناس الآخرين من حوله، وقد جاء في الحديث الشريف قوله:

«**ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان**»[١١٠٦]

وعندما تتساوى درجة الحديث مع درجة السكوت، فالسكوت عندها من السّنة، لأنه حتى الكلام المباح قد ينتهي بعض الأحيان بنتيجةٍ محرمة أو مكروهة، حيث قال رسول الله ﷺ:

«**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله**»[١١٠٧]

«**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**»[١١٠٨]

وحذّر أهلُ الحق في هذا الصدد فقالوا:

«إياك والحديث بلسانٍ مسموم كالثعابين..»، لأن جرح السيف يلتئم أما جرح اللسان فلا يلتئم، ومِن أعظم النعم أن تكون طيب اللسان والحديث، لأن

١١٠٥ انظر: الترمذي، الزهد، ٦٢/ ٢٤١١.

١١٠٦ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٣٠٢/ ١٨١٧٥.

١١٠٧ الترمذي، الزهد ٦٢/ ٢٤١٢

١١٠٨ الترمذي، البر، ٤٨/ ١٩٧٧؛ أحمد، مسند، ١، ٤٠٥– ٤٠٦.

طيّب الحديث يحبّب الناس به ويسهّل عليه أموره، حيث قيل: «طِيب الكلام يخرج الأفعى من جحرها».

إضافة لذلك، علينا أن ندقّق في الألفاظ التي تخرج من أفواهنا، لأن المقصود مما يتناثر من حناجرنا ليس غرز الأشواك في القلوب، بل كسبُ النفوس بطيب كلامنا، وبعد هذا لا بدّ أن توافق أفعالنا أقوالنا، وأن ننشر في كل أحوالنا على من حولنا الإحسان والجمال. وعلينا أن لا ننسى أبدًا أن المرء مسؤولٌ عن كل كلمة يتحدث بها، وجاء في الآية الكريمة:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١١٠٩]

إضافة لذلك عليه أن يدقّق أثناء حديثه في كلماته وطريقة حديثه، ولا يتحدّث إلا بعد أن يقيس ويزن كلامَه الذي سيقوله.

يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق**»[١١١٠]

وهذا الأمر مهمّ جدًا لدرجة أن السلف قالوا: «البلاء موكَّل بالمنطق»

ولا شك أن ثبوت الإيمان والكفر عند سائر الناس لا يتحقق إلا بتصديقٍ من القلب وبعده إقرار اللسان، وهذا الأمر يكفي ليظهر لنا مدى الأهمية التي يحملها اللسان حيث يقف في درجةٍ يمكن به الحكم على قبول إيمان الإنسان أو كفره.

وعلى المسلم أن لا يقول ما لا يقدر على فعله، وعليه أن يستعين بالحق تعالى دائمًا، لأن ابن آدم الضعيف الموصوف بالعجز من الممكن أن لا يستطيع تحقيقَ ما يقوله، لذلك عليه أن لا يهمل قول«إن شاء الله» في كل ما يستقبله من أمور.[١١١١]

١١٠٩ ق: ١٨.

١١١٠ البخاري: الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٧.

١١١١ انظر: الكهف، ٢٣-٢٤.

ومن جانب آخر، إن القول بشكلٍ قطعي على «أنه لن يقع في هذا الخطأ أبدًا» يفتح بابًا للشيطان يلجُ منه ويتسلط على من يقول ذلك، ولا يتركه حتى يفعل الخطأ الذي قال إنه لن يقع فيه أبدًا. [١١١٢]

وبناء على ذلك، يتوجّب على الإنسان أن يفكر جيدًا في عاقبة كل حديث يريد أن يدلي به، وإذا اقتضى الأمر لجأ إلى السّكوت واستعان به، محترزًا به من قولٍ لا قِبَل له بفعله.

والحقّ تعالى الذي يأمر عباده بالتواضع، كره منهم رفع الصوت والجهر بالحديث حيث قال في الآية الكريمة:

﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [١١١٣]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام ينهى أن يتضمن الحديث في ثناياه كلمات بذيئة وفاحشة، وكان ينصح إذا وُجد من الكلمات ما يفيد المعنى ذاته، أن يستخدم أقربها للأدب في ذلك.

وعلى المرء أن يلتزم الصدق في الحديث، ويتجنّب بشدةٍ الكذب في القول، حيث يأمر الحق ﷻ بذلك فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [١١١٤]

فالابتعاد عن الآثام التي تُرتكب باللسان كالكذب، والغيبة، والكفر، والسخرية، وترك المراء والجدل ووخز النفوس بسيء القول، ضرورة لازمة من أجل سلامة الآخرة، وعلى المرء أن لا يَقْفُ ما ليس له به علم، وينتظر

١١١٢ انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١١٠.

١١١٣ لقمان: ١٩.

١١١٤ الأحزاب: ٧٠-٧١.

إخبار من لديه الخبر، فيأخذ المعلومة المتعلّقة بالموضوع منه، لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا. [١١١٥] وهل يكبّ الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم. [١١١٦]

وعليه أن لا يقاطع أحدًا في حديثه، أو يتسبب بكسر خاطره، لأن النبي ﷺ عندما سئل: أي الإسلام أفضل؟ قال:

«**من سلم المسلمون من لسانه، ويده**» [١١١٧]

وعلى المسلم أن لا يتكلم بكلام يضطر للاعتذار منه بعد ذلك، [١١١٨] وعليه أن يلتزم دائمًا بصدق الحديث، حيث يقول الحق جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...**﴾ [١١١٩] ، لأن الكلمة الطيبة صدقة في حق صاحبها يقي بها نفسه من النار. [١١٢٠]

وينبغي أن يختار للحديث الزمان والمكان المناسب، ولا يُدلى بالحديث إن لم يكن في أهله ومحله، وكم من عبرٍ في تحذير سيدنا أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفكر بجد فيما تقول، ولمن تقول، ومتى تقول!»

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يبغض المتعالم من الرجال الذي يتخلل بلسانه ويتشدق في كلامه ويتفاصح في حديثه، بقصد إظهار علمه وعلو مرتبته عن الآخرين، وإنما يجب على المسلم أن يخاطب الناس بمستوى فهمهم. [١١٢١]

١١١٥ انظر: الإسراء، ٣٦.

١١١٦ انظر: الترمذي، ٨/ ٢٦١٦.

١١١٧ البخاري، الإيمان، ٤-٥.

١١١٨ انظر: ابن ماجه، الزهد، ١٥.

١١١٩ الإسراء: ٥٣

١١٢٠ انظر: مسلم، الزكاة، ٦٨.

١١٢١ انظر: أبو داود، الأدب، ٨٦/ ٥٠٠٥.

وقال عليه الصلاة والسلام مرة:

«من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال، أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» [١١٢٢]

وكره رسول الله ﷺ إن كانوا ثلاثة أن يتناجى اثنان دون ثالث، لأن ذلك التناجي يحزن المرء الثالث الذي بينهما. [١١٢٣]

وقد حُرِّم ونهي عن تشبه الرجال بالنساء في ملبسهم، وحركاتهم وسكناتهم، ومحادثاتهم وأسلوب تخاطبهم، وإضافة لذلك يتوجب على المسلمين أن يتصرفوا بحساسية بالغة في هذا الخصوص، وهذه المسألة ـ وخاصة في زماننا ـ تلقى حيزًا أكبر من الاهتمام، لأن هذا النهج الباطل يساعد وبسرعة عجيبة على ضعف الشعور الديني في المجتمع.

فعلى النساء عند مخاطبتهن الرجال أن لا يرققن الكلام، ولا ينطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال، وتجعل مريض القلب يطمع فى محادثتهن بالسوء. [١١٢٤]

ويختار الحديث بالكناية عندما يتعلق حديثه بموضوع محارم العورات، وعندما يوجَّه إليه سؤالٌ ما في هذا الخصوص عليه أن يجيب على السؤال بطريقة العموم دون أن يقحم السائل في ذات الموضوع، فيقول: «لو أن أحدكم ... على الناس أن يفعلوا بكذا.» وهذه الطريقة هي الأفضل في كل الأحوال.

وعلى الشخص الذي يعظ الناس أن لا يستهدف بخطابه شخصًا بعينه، بل يوجه خطابه للعموم كما كان النبي ﷺ يصنع في ذلك.

١١٢٢ أبو داود، الأدب، ٨٦/ ٥٠٠٦.

١١٢٣ انظر: البخاري، الاستئذان، ٤٧.

١١٢٤ انظر: الأحزاب، ٣٢.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هلاك المتنطّعين والمتعمقين والمغالين والمجاوزين الحدود في أقوالهم وأفعالهم. [1125]

وكذلك ورد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره النوم قبل العشاء، والحديث بعدها. [1126] لأن البدن بحاجة إلى الراحة، وعندما يؤخر وقت الراحة، تقلّ فرص الاستفادة من فيوضات وروحانيات وقت السحر، والله تعالى يصف عباده الصادقين بقوله:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [1127]

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [1128]

وبناءً على ذلك فإن السّمر إلى وقت متأخر من الليل والاشتغال باللهو ولغو الحديث والتسبب في ضياع قيام الليل بل حتى صلاة الصبح، يعتبر ذلك بالنسبة للمؤمن ضياعًا كبيرًا ومؤلمـًا، ولكن إن كان السهر بعد العشاء بقصد حديث نافع أو اجتماع مفيد ومحاضرة قيمة، فلا بأس عند ذلك بالسمر.

وكما أن الحديث الفارغ الشهواني يبعد الإنسان عن الروحانيات الرحمانية، كذلك الحديث المحكم يدخل الطمأنينة في النفوس ويمنحها الفرحة والسرور.

وهذه جملة من أقوال وحكم أهل الحق فيما يتعلق بأدب الحديث:

يقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

«كثرة الكلام يعرض المرء للنسيان».

١١٢٥ انظر: مسلم، العلم، ٧؛ أبو داوود، السنة، ٥.

١١٢٦ انظر: البخاري، المواقيت، ٢٣؛ مسلم، المساجد، ٢٣٦.

١١٢٧ الذاريات: ١٨.

١١٢٨ السجدة: ١٦.

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«إياك أن تجاري السفهاء أو تماريهم، فإنك لا تجاري سفيهًا إلا غلبك بسوء منطقه وفحش حديثه».

«لا تمازح الجاهل فربما لسعك بلسانه المسموم».

ويقول حضرة مولانا:

«حسن الحديث يلزمه حسن السماع، لذا لا تلج الحديث إلا من باب السماع».

«لا يلجأ إلى طول الحديث إلا من يخفي مقصده».

«مهما كنت عالمًا فلن يتجاوز علمك فوق فهم المستمعين لحديثك».

ويقول يوسف خاص حاجب:

«كُلْ يسيرًا، واعبد كثيرًا، وأوجز في الكلام وإن حزت على كل الفضائل».

«اسمع كثيرًا وتحدث قليلًا، وليصدر كلامك عن العقل، ويُزَيَّن بالعلم».

«لا تخاطب الناس بالقول البذيء، لأن بذاءة القول لهب من النار».

وباختصار كما قال رسول الله ﷺ:

«**... من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت**» [١١٢٩]

وقال رسول الله ﷺ:

«**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**» [١١٣٠]

صور الفضائل

كان سيدنا محمد ﷺ وهو قدوتنا الحسنة وهادينا إلى السعادة الأبدية– كثير الصمت لا يتكلم إلا من حاجة أو ما يرجو ثوابه، أو ما فيه نفع للمسلمين، يؤلّف

١١٢٩ مسلم، الإيمان، ٧٧/ ٤٨.

١١٣٠ البخاري، الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٤.

قلوبهم، أو يزيل فرقتهم، أو يرفع الهجر بينهم، وكان عليه الصلاة والسلام إذا تحدث يتحرى ذكر الله تعالى في حديثه، ولم يُر رافعًا صوته في حديثه قط، يُجمِل الحديث ويقتصر على جوامع الكلم، ولايطيل لغير حاجة.

يقدر لخطبة الجمعة والعيدين من الحديث قدرًا يناسب المقام، فلا يطيل فيُمِل ولا يوجز فيُخل، لذلك كان يشد أفهام السامعين، يستمعون له وكأن على رؤوسهم الطير، ينتابهم الأنس والسرور، يتلقفون كل ما يخرج من ثنايا النبي عليه الصلاة والسلام بوعي وتفكر، ويحفظون كل حديثه ويتداولونه فيما بينهم.

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحرص على الكلام القليل الذي يجمع المعنى الكثير، وهو يفعل ذلك يأخذ بالحسبان قدرة أفهام الناس على الإدراك والفهم، ولا يحدث بحديث لا يفهمه السامع، بل كان كل واحد يستخرج من حديثه العبرة والعظة على قدر فهمه.

كان عليه الصلاة والسلام حلو الحديث، يؤنس نفوس المستمعين، واضح البيان لا يزيد ولا ينقص، وكان كلامه فصلًا يفهم حديثه كل من يسمعه دون عناء.

وكما جاء عن أنس ﷺ:

«أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا، حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثا» [١١٣١]

وعن عائشة ﷺ قالت:

«كان كلام رسول الله ﷺ كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه» [١١٣٢]

«إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث مثل سردكم» [١١٣٣]

١١٣١ البخاري، العلم، ٣٠، الاستئذان، ١٣.

١١٣٢ أبو داوود، الأدب، ١٨/ ٤٨٣٩.

١١٣٣ البخاري، المناقب، ٢٣/ ٣٦٥٥.

كان أسلوبه الموعظة الحسنة، والحكمة وضرب الأمثال عندما يدعو الناس للخير، ويبلغهم الإسلام، وبرحمته الواسعة التي وسعت جميع الناس، وباسم الخير والهداية والفلاح والفضيلة والإنسانية، وبحلاوة وطيب وسكون وسكينة يهمي كالغيث الهادئ يفتح القلوب والنفوس.

كان سيدنا فخر الكائنات يسند القواعد التي يؤسسها على الأدلة الناصعة والواضحة، ويشرحها بأبلغ الحكم، ويجيب على سؤال السائل بأفصح الأجوبة، وإذا جادله أحدهم كانت حجته أقوم حجة وأمكن برهانًا.

وكان النبي ﷺ يمازح الناس ولكنه لا يقول إلا حقًا وليس في مزاحه تجاوز للحد ولا سخرية بأحد، وإذا تحدّث إلى أحدهم التفت إليه بكليته لا برأسه فقط.

باختصار... كان ﷺ أفصح الناس لسانًا، وأوجزهم كلامًا، وأعمقهم حكمة، وأبلغهم بيانًا وحديثًا، وأكثرهم تفصيلًا لقوله وإفادة لمراميه.

❀

خرج رسول الله ﷺ، ذات يومٍ فسار على راحلته، وأصحابه معه، لم يتقدم منهم أحد بين يديه، فقال معاذ بن جَبل:

«يا نبي الله، أتأذن لي أن أتقدم إليك؟

فأذن رسول الله ﷺ له، فاقترب معاذ إليه فسارا جميعًا.

فقال معاذ: بأبي أنت يا رسول الله، أسأل الله أن يجعل يومنا قبل يومك، أرأيت إن كان شيء ـ ولا نرى شيئًا إن شاء الله تعالى ـ ، فأيّ الأعمال نعملها بعدك؟ فصمت رسول الله ﷺ،

فقال معاذ: الجهاد في سبيل الله؟ ثم قال رسول الله ﷺ:

«نعم الشيء الجهاد، والذي بالناس أملك من ذلك. فالصيام والصدقة»

قال رسول الله ﷺ:

«نِعْمَ الشيءُ الصيام والصدقة».

فذكر معاذ كل خير يعمله ابن آدم، فقال رسول الله ﷺ:

«وعاد الناس خير من ذلك»

قال: فماذا بأبي أنت وأمي عاد بالناس خير من ذلك؟ فأشار رسول الله ﷺ إلى فيه، وقال:

«الصمت إلا من خير»

قال: وهل نؤاخذ بما تكلمت به ألسنتنا؟ فضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام فخذ معاذ ثم قال:

«يا معاذ ثكلتك أمك، وهل يكبّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم؟ فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا، أو ليسكت عن شرّ، قولوا خيرًا تغنموا واسكتوا عن شرٍ تسلموا» [١١٣٤]

❀

وكذلك الحديث الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه، يشتمل على العديد من آداب الحديث التي طبقت من قبل رسول الله ﷺ من جهة ومن طرف معاذ رضي الله عنه من جهة أخرى، وخلاصة ما في الحديث:

أن رسول الله ﷺ خرج بالناس قبل غزوة تبوك، فلما أن أصبح صلى بالناس صلاة الصبح، ثم إن الناس ركبوا، فلما أن طلعت الشمس نعس الناس على أثر الدلجة، ولزم معاذ رسول الله ﷺ يتلو أثره، والناس تفرقت بهم ركابهم على جواد الطريق تأكل وتسير، فبينما معاذ على أثر رسول الله ﷺ، وناقته تأكل مرة وتسير أخرى عثرت ناقة معاذ، فكبحها بالزمام، فهبت حتى نفرت منها ناقة رسول الله ﷺ، ثم إن رسول الله ﷺ كشف عنه قناعه، فالتفت فإذا ليس من الجيش رجل أدنى إليه من معاذ، فناداه رسول الله ﷺ فقال: «**يا معاذ**». قال:

١١٣٤ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣١٩/ ٧٧٧٤.

لبيك يا نبي الله. قال: «**ادن دونك**». فدنا منه حتى لصقت راحلتاهما إحداهما بالأخرى، فقال رسول الله ﷺ:

«**ما كنت أحسب الناس منا كمكانهم من البعد**».

فقال معاذ: يا نبي الله نعس الناس، فتفرقت بهم ركابهم ترتع وتسير. فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا كنت ناعسا**». فلما رأى معاذ بشرى رسول الله ﷺ إليه وخلوته له قال: يا رسول الله، ائذن لي أسألك عن كلمة قد أمرضتني وأسقمتني وأحزنتني. فقال نبي الله عليه الصلاة والسلام: «**سلني عم شئت**» . قال: يا نبي الله، حدثني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك عن شيء غيرها. قال نبي الله ﷺ:

«**بخ بخ لقد سألت بعظيم، لقد سألت بعظيم، ثلاثا، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير**»

فلم يحدثه بشيء إلا قاله له ثلاث مرات يعني أعاده عليه ثلاث مرات؛ حرصا لكي ما يتقنه عنه، فقال نبي الله عليه الصلاة والسلام:

«**تؤمن بالله واليوم الآخر، وتقيم الصلاة، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا حتى تموت، وأنت على ذلك**»

فقال: يا نبي الله، أعد لي فأعادها له ثلاث مرات. [١١٣٥]

❀

لقي عيسى بن مريم عليه السلام خنزيرًا بالطريق، فقال له: انفذ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال عيسى عليه السلام: «إني أخاف أن أعوّد لساني النطقَ بالسوءٍ» [١١٣٦]

❀

١١٣٥ أحمد، مسند، ٥، ٢٤٥-٢٤٦/ ٢٢١٢٢.

١١٣٦ مالك، الموطأ، الكلام، ٤.

وعن سيدنا عمر ﵁ قال:

اطّلعت يومًا على أبي بكر ﵁، وهو يمدّ لسانه، فقلت: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ فقال سيدنا أبو بكر ﵁: إنّ هذا أوردني الموارد، إن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:

«**ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان**» [١١٣٧]

وقد كان سيدنا أبو بكر ﵁ في خشيةٍ من الله تعالى إلى درجة أنه كان يقلقه الكلمة الصغيرة أن تخرج من فيه بلا فائدة.

❀

وعن قباثة بن أشيم ﵁ قال:

«ولدتُ أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، وسأل عثمان بن عفان قباثة بن أشيم: أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فأجاب قباثة ﵁ بجواب يحلّيه الأدب واللطف: رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا ولدتُّ قبله» [١١٣٨]

❀

وحَدَّثَ رسول الله ﷺ:

«**أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**» [١١٣٩]

فيتوجّب في الأمور المتعلقة بالدين ـ وخاصة الحديث المتعلق بالحق تعالى ـ التصرّف بحذرٍ شديد جدًا، وأن يتجنّب بشدة الكلام المتجاوز للحدود.

❀

١١٣٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، / ١٨١٧٥.

١١٣٨ الترمذي، المناقب، ٢/ ٣٦١٩.

١١٣٩ مسلم، البر، ١٣٧/ ٢٦٢١.

قال أبو هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوما على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالما، أو كنت على ما في يدي قادرا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. [١١٤٠]

ولهذا السبب عليه أنْ يفي حتى بأصغر التصرفات التي تكون سببًا في جلب رضى الله تعالى، ومن جانب آخر عليه أن يتجنب أيَّ فعلٍ يتسبب في جلب سخط الله جل جلاله، مهما صغر ذلك الفعل، وعلينا أن نكون في هذه الدنيا الفانية وكأننا نمشي في أرضٍ مزروعة بالألغام، ندقّق بعناية في كل خطواتنا وتصرفاتنا، لأن القرآن الكريم والنبي العظيم يخبرنا بحال من يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا شبرًا، فيعمل ما يسخط الله فلا يدخلها، وكذلك الذي يعمل بعمل أهل النار فلا يكون بينه وبينها إلا شبرًا فيعمل ما يرضي الله فيفلح ولا يدخل النار.

والحقّ جل جلاله يوصينا أن نقوم بواجب العبودية بيقين حتى يتوفانا الموت، فيقول:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [١١٤١]

١١٤٠ أبو داوود، الأدب، ٤٣/ ٤٩٠١.

١١٤١ الْحِجْرِ: ٩٩.

عن قيس بن بشر التغلبي، قال:

أخبرني أبي، وكان جليسا لأبي الدرداء، قال: كان بدمشق رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: ابن الحنظلية، وكان رجلا متوحدا، قلما يجالس الناس، إنما هو صلاة، فإذا فرغ، فإنما هو تسبيح وتكبير حتى يأتي أهله، فمر بنا ونحن عند أبي الدرداء، فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، ... فروى الحديث.

قال: فمر بنا يوما آخر، فقال له أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة تنفعنا ولا تضرك، قال: قال لنا رسول الله ﷺ... وروى الحديث. وتكررت هذه الحادثة عدة مرات. [١١٤٢]

ما أجمله من أدبٍ للحديث في هذه الحادثة... سيدنا أبو الدرداء كلما رأى هذا الصحابي الجليل يرجوه أن يحدّث الجلساء بشيءٍ ينفع السامع ولا يضر المتحدث، والصحابي في كل مرة يكون كلامه عن النبي ﷺ، وعن سيرته العطرة، وينقل أحاديثه المليئة بالحكم البليغة، ويتجنّب بشدة كل كلمة فارغة تجلب الأذى للمرء في دنياه وآخرته.

نعم، هذه حالة رائعة من الأدب الذي يمكن أن يكون مثلًا أعلى لنا جميعًا.

❁

وعن أبي المليح، عن رجلٍ قال:

«كنت رديف النبي ﷺ، فعثرت دابة، فقلت: تعس الشيطان، فقال:

«لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب» [١١٤٣]

❁

١١٤٢ أبوداوود، اللباس، ٢٥/ ٤٠٨٩؛ أحمد، مسند، ٤، ١٧٩-١٨٠/ ١٧٦٢٢.

١١٤٣ أبو داوود، الأدب، ٧٧/ ٤٩٨٢.

يروي «Viguier» أحدُ المؤلفين الأوربيين مشاهداته عن المجتمع العثماني فيقول:

«... من يتحدث منهم فحديثه موجز، وألفاظه من كل عيبٍ مطهرة، في تبسّمهم رقة، وفي حركات أيديهم ظرافة وبساطة مختلفة. وأكثر ماً يحيّر الغريب الأجنبي من أمرهم! يتكلم أحدهم وحده، ولا يتكلم كلهم جملةً في آنٍ واحد. المتحدث منهم يتكلم بالعموم ويوجز، والسامع في حالة إصغاء جميل حتى يُنهي المتحدث كلامه، يدفع كل واحد منهم عن رأيه مقابل أفكارهم بكل احترام، ليس في الحديث الجاري أي غيبة أو نميمة. يوقّرون الكبير والمسنّ ويرعون حقوقهم، هم في حسن خلقٍ لا يمكن تصوره حتى في الخيال.أكاد أن أقول: ميزات العثمانيين الأخلاقيةً تسحر الإنسان».

❀

وختامًا...

إنّ الإنسان مخبوء تحت لسانه، فالمرء الذي يتحدث بأدب يكون هو نفسه مؤدبًا، ومن أراد أن يحوز حسن أدب الحديث يتوجب عليه أن يحوز الأخلاق الحسنة التي يأمرنا الإسلام بحيازتها، ومن جانب آخر يلزم المسلمين المخاطبين بخطاب «القرآن» المعجزة الكلامية، أن يتخلّقوا بأخلاقه، ويحاولوا الاستئناس بجمال كلامه البلاغي.

وتعلمُ حسن الاستماع أولًا شرط لحسن الحديث، وحتى يسمع كثيرًا ويتكلم قليلًا وهب الحق تعالى للإنسان أذنين ولسانًا واحدًا، وكثرة الكلام تزيل هيبة الإنسان من القلوب، لذلك عليه أن يتحدث قليلًا وبما يناسب المقام، وأن يكون حديثه محددًا، غير منفر، وأن يتكلم بكل طمأنينة وتأنٍ، لأن الكلام كالسَّهم إن خرج من فمه، يستحيل أنٍ يعود مرة أخرى.

فالحديث أسيرك قبل أن تتكلم به، فإن تكلمت كنت أسير كلامك، أي تقع تحت مسؤولية نتائجه.

الكلمة التي لم تتكلم بها بعد تستطيع أن تتكلم بها في أي وقت تشاء، ولكن الكلمة التي تكلمت بها تجبرك على الدفاع عنها والمحاسبة عليها، ورب كلمة تذهب البأس، ورب كلمة تزيل الرأس، وعبّر عن هذا «يونس إمره» أجمل تعبير عندما قال:

ربّ كلمة تمنع البأس   وربّ كلمة تقطع الرأس

كلمة سممت الطعم وكلمة   تساوي السمن والعسل.

ب – الصمت والتفكر

السكوت والتفكّر خصلتان مهمتان تقوّي وتكمل إحداهما الأخرى، ولعلوّ مقامهما كان تحصيلهما صعبًا للغاية، حيث يقول لقمان الحكيم:

«فضل الصبر والصمت كبير، لذا تجد القليل من يطلبهما»

السكوت زينة العلماء، وكسوة السفهاء، والناس الذين يرسون في ميناء الصمت العميق الساكن، يأمنون على أنفسهم من مهالك كثيرة، وخاصة أنهم ينجون من التعرض لسهام الحاسدين المسمومة المحرقة، وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [١١٤٤]

وقال رسول الله ﷺ:

«استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» [١١٤٥]

فعلى الناس أن تكون أفعالهم أبلغ من أقوالهم، وإلا فثمة حساد كثر يمنعون كثير الكلام عن عمله.

١١٤٤ الفرقان: ٦٣.

١١٤٥ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ٣٤.

والصمت والتفكر يهبان صاحبه الهيبةَ والوقار، وأيضًا بالصمت والتفكر تفتح أبواب الحكمة، ويكشف عن صفحة أسرار كتاب الكائنات، وتستفتح المعاني العميقة لآيات القرآن الكريم، ويدرك أكثر الغاية من الحياة عندما ينفذ في أعماقها، كثرة الصمت والتفكر جناحان يعلقان في الروح تعرج بهما نحو سموات المعرفة، وما أجمل ما أنشده لهذا الحالة ضياء باشا:

آلاف دروس المعارف تدرس في كل صفحة منها

ما أجمل مدرسة الكون ما أعظمها من مدرسة

يعني: يدرس الآلاف من علم المعارف في كل صفحة من صفحات كتاب الكائنات، إلهي مدرسة الكائنات هذه ما أجملها من مدرسة، يغوص في بحرها كل من يريد أخذ العبر منها.

وقال النبي ﷺ:

«**أمرني ربي أن يكون صمتي فكراً**» [١١٤٦]

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يصف أهل القرآن فيقول:

«ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بصمته إذا الناس يخلطون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا، حكيمًا حليمًا عليمًا سكينًا»[١١٤٧]

فتجاوزُ حرم الصمت المقدس، يُغرق القلب في ضوضاء الجفاء، ويُعرّض الشخصية للضعف، ويبعد الباحث عن الحق عن هدفه، حيث قال النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**» [١١٤٨]

١١٤٦ للوقوف على تمام الحديث انظر: إبراهيم جنان، الموسوعة الحديثية، ١٦، ٢٥٢، رقم الحديث، ٥٨٣٨.

١١٤٧ أبو نعيم، الحلية، ١، ١٣٤.

١١٤٨ البخاري، الأدب، ٣١، ٨٥، الرقاق، ٢٣؛ مسلم، الإيمان، ٧٤/ ٤٧، اللقطة، ١٤/ ٤٨.

أن تقول خيرًا أو أن تصمت، من موجبات الأهداف السلوكية للحديث لدى المسلمين ومظهر من مظاهر كمال الإيمان، فالمؤمن ـ حسب الموقع الذي فيه ـ لكي يعرف أيهما خير له، الحديث أم السكوت، يعرض ذلك على قواعد الإسلام ويقيِّمها ويتَثبَّت من أحدهما ويتصرف بناءً على ذلك التثبت، وإذا تساوت عنده درجة التحدث مع درجة السكوت، عندها عليه أن يرجح جانب السكوت.

وعلى المرء المؤمن أن يتخلص من الكلام اللغو ويكون من أهل السكوت أولًا، وبعدها عليه أن يعوِّد نفسه على التفكر، فلقد وهب الحق تعالى المخلوقات كلها قابلية التفكر بقدر حاجتها، وقابلية التفكر عند المخلوقات سوى الإنس والجن قابلية بسيطة تظهر على شكل «الانقياد الطبيعي»، كالشعور بالشفقة تجاه وليدها والمحافظة عليها من الهلاك.

أما التفكر عند الإنسان، فمنحه الله للإنسان من أجل التفكر في تجليات العظمة والقدرة الإلهية في الكائنات، والوصول به إلى معرفة الله تعالى، والتوجه تحت مظلة هذا العرفان لعمل الأعمال الصالحة.

والإنسان بمقدار ما يقطع من مسافات في الصمت والتفكر وعمق الشعور، ويحوز على الدراية، يحصل على نصيبه من بحر المحبة الإلهية.

إن الغوص في أعماق السكوت والتفكر بالحقيقة، من أكبر الوسائل التي تسمو بالإنسان نحو المعالي، لأن أكبر وسائل الوصول إلى الحقيقة بل حبل وريدها ـ إن جاز التعبير ـ هو التفكر.

ودليل الهداية والسعادة الذي لا مثيل له، القرآن الكريم، من أول آياته حتى آخرها، يدعو الإنسان وباستمرار إلى التفكر ليدرك الحكم الموجودة في خلقه، ويبصر النظم الخارقة للعادة المبثوثة في الكائنات، ويفهم البيان المعجز للقرآن الكريم، وكذلك القرآن الكريم يحذر الناس ببيان قوله:

«أفلا تعقلون... أفلا تتفكرون ... أفلا تعتبرون...».

وإضافة لذلك، لكل من يريد أن يعيش في توافق مع الخلقة الإنسانية، ويحصل على التعمق الروحي، يلزم عليه أن يلج عالم هذا التفكر وحسب الاستقامة التي يرسمها القرآن الكريم.

وكما أن البذرة التي بقدر الذرة في الصغر، تتحول بفضل تربة منبتة إلى شجرة عظيمة تبعث منظرًا في غاية الروعة، كذلك التفكر والأحاسيس عند ابن آدم، تكون في العظمة والروعة نفسها، بل حتى أكثر من ذلك بالبصيرة القلبية والحقيقة التي يصل إليها نتيجة الفيوضات التي يتلقاها من القرآن الكريم.

يقول الحق تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [١١٤٩]

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١١٥٠]

﴿هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً﴾ [١١٥١]

ويمكن ذكر المزيد من أمثلة التفكر هذا، في القرآن، والحق تعالى يطلب من عباده أن يكونوا من المؤمنين المتفكرين، وأصحاب البحث والفهم الدقيق، والظرافة.

١١٤٩ الروم: ٨.

١١٥٠ الجاثية: ٣ـ ٥.

١١٥١ الكهف: ١٥ ـ ١٦.

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يحث على التفكر:

«تفكروا في خلق الله... »[1152]

«أفضل العبادة التفكُّر» [1153]

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«عبادة من غير علم، وتلاوة القرآن من غير تدبر، ينقص فضلها وفائدتها».

ويقول أبو الدرداء رضي الله عنه:

«تفكُّرُ ساعة خير من قيام أربعين ليلة تطوعًا» [1154]

ويقول حضرة يوسف الهمداني:

«عندما يتولّد في المرء تفكر إيماني، تتكامل تصرفاته الإسلامية -أي تتحقق حالة التعظيم لله، فتؤدى العبادة لله داخل المشاعر العلوية.- ويتوجب جمع هذين الأمرين ـ يعني التفكر والعمل ـ ما أمكن من أشكال الجمع في ذلك» [1155]

في كل العلوم يعتبر «السؤال» مقبولًا لأنه مفتاح مهم للتعلم ، إلا في «العلم اللّدني» فإنه لا يقبل السؤال والاعتراض، والمناقشة والمناظرة، وفي المقابل، السكوت والتفكر، والصبر والتسليم هو المقبول، ينظر في نهاية ونتائج الأعمال.

وأهل الله أصحاب العلم اللدني، يذكرون ويتفكرون في سكون وقت السحر بمشاعر المحبة لله والخشية منه، ويطلبون رضى الله تعالى، حيث إن الأسحار التي تمضي بلا تفكر وذكر، تحسب من ساعات الهجران عند عشاق الحق تعالى.

١١٥٢ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ٢، ٥٦/ ٢٣١٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٨١.

١١٥٣ علي المتقي، كنز العمال، ١٦، ١٢١.

١١٥٤ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ٢، ٧٠-٧١/ ٢٣١٨ .

١١٥٥ يوسف الهمداني، رتب الحياة، (ترجمة: نجدت توسون) اسطنبول ٢٠٠٢، ص ٦٠.

يقول الإمام الغزالي –رحمه الله–:

«إن أردت أن تكون من العارفين، فليكن صمتك تفكرًا، وتبصرك اعتبارًا، ومقصودك طاعةً، لأن هذه الخصال الثلاث، من أمارات العارفين».

وقال إبراهيم الدّسوقي –رحمه الله–:

«يا بني: لتترك التشاغل بالأشياء غير النافعة كالجدل، والنقل، والكلمات المنمقة ولتكن من أهل الإنصات! اطلب الإخلاص! واعمل في سبيل ذلك صالح الأعمال، ولا تطع نفسك!».

وكذلك حضرة مولانا، في العديد من أبياته يعبر عن فضيلة السكوت، بقوله:

«نعم: الصمت بحر، والتحدث كالنهر، أنت يطلبك البحر «يعني عالم المعاني» ومازلت منشغلًا بطلب الوادي» يعني: تركض وراء القال والقيل من أمور الدنيا؟».

«ثرثرة الدنيا كالغبار يغطي مرآة النفوس، تعقَّل أنت وتحلى برهةً بالإنصات، واجعله خُلقك».

«عندما تكون روحك حزينة آسفة، يكون مرآة لها الصاحب، يا روح لا تستر وجه المرآة ببخار نفَسك، حتى لا تحجب وجهها عنك ببخار نفَسك، لا تجعلها في حالة لا تري نفْسك لك، لذلك يتطلب منك وفي كل وقت قبض نفَسك، والصمت، وتجنب الخوض في كل ما لا يعني ولا يناسب من الحديث».

«الصبر والإنصات يجلب الرحمة الإلهية، وطلبك الدليل والشاهد من آثار مرضك، أطع أمر آية «وأنصتوا» [١١٥٦] واقبلها، لكي يأتي روحَك من المحبوب أجرٌ يقابل الإنصات».

«دع فضول الحديث لغيرك، واعمل بدلًا عنها على كسب القلوب! ولا تلهث وراء المقام، وتصدق على الفقراء بسعة وبسطة ما تشري بها رضى الحق،

١١٥٦ انظر: الأعراف، ٢٠٤؛ الأحقاف، ٢٩.

كن كذلك لكي تمدحك لطائف الرب، ويصنعها فيك، وحتى السماء تغبط علو رتبة إنسانيتك».

«بالصمت يكون لكلامنا تأثير أكثر، وبلا لسان وشفاه ومن غير كلام نستطيع أن نفصح عن مشاعرنا أكثر وبشكل أوضح، وإذا استطعنا منعه من الظهور، ازدادت رغبته للظهور».

«احمل كل ما تملك وضعه في سبيل الصمت، إن أردت أن تكون إنسانًا كاملًا فالزم الصمت، ولا تتكلم، وتجنب الرياء».

إذا أراد الإنسان الحديث فليتكلم بحكم أكثر قيمة من سكوته، ولكن إن لم يجد صاحبًا صدوقًا يتحمل ويقبل الحكم والأسرار، فسكوته عند ذلك أفضل، لأنه يتوجب عليه أن يكلم كل واحد بكلام على مدارك عقله، وإلا كان التحدث إلى من لا يقدِّرون الحال عن الحكمة والمعرفة، ظلمًا في حق الحقيقة، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«حدّثوا الناس بما يعرفون...»[1157]

وأحيانًا يكون الصمت أبلغ في الجواب، حيث قال علماء الإسلام:

«السكوت أبلغ للسفيه في الجواب».

وما أجمل وصايا حضرة مولانا هذه:

«كن أمام السفهاء كالكتاب ساكتًا».

«تتخلى البلابل عن التغريد عندما ينْعَب الغراب ويشْحَج».

وكم من صاحب علم وعرفان لا يجد المخاطَب المدرك للحقائق التي يقف عليها فيمتنع عن الحديث، أولئك باتوا في مقام الحيرة يغطون أنفسهم بدثار السكوت، ولكن أنصاف العلماء إذا تحدثوا لا يسهُل إسكاتهم.

١١٥٧ البخاري، العلم، ٤٩.

ومن جانب آخر، هناك أدب آخر في مسألة التحدث، وهو حسن السماع، لأن من لا يحسن السماع، لا يحسن الكلام حسب آدابه، ولهذا السبب يلزم تعليم الصغار أولًا على ضبط اللسان، لأنه سيتعلم التكلم على كل الأحوال.

❀

يقول سعد الشيرازي -رحمه الله-:

«مَن تكلم من غير تدبر غلط في حديثه كثيرًا».

وفي كتابه المسمى«Kutadgu Bilig» نجد هذه الوصية:

«فكر جيدًا فيما تريد أن تتكلم به، ثم عبر عنه بأحسن تعبير، ولكن لا تتكلم إلا بعد السؤال، وأوجز حديثك».

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«صمتك حتى تُسأل خير لك من حديثك حتى تُسكَت».

ولكن، كما أن الحديث بغير علم تصرف قبيح، كذلك الصمت مع العلم وعند وجوب الحديث، قبيح بالدرجة ذاته.

لأنه وكما يكون الحديث أحيانًا مضرًا، كذلك الصمت الذي يضيع به الحق يكون موجبًا للإثم أيضًا، وإضافة لذلك عندما يفرض على المرء قول الحق، يجب عليه عند ذلك أن لا يسكت.

حيث قال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى:

«تجنبِ الدفاع عن الحق أمام الظالمين حرصًا على منافع شخصية، أو خوفًا على هلاك المهجة، فهذا نوع من الضعف، بل إن مساندة الظالم بلسانه في ظلمه، جرم كبير يساوي جرم مرتكب الظلم».

اشتهر الحجّاج في التاريخ بسفك الدماء، ولكن الحسن البصري رحمه الله حتى في زمانه لم يتهرب من قول الحق والخير.

وفي النهاية، كما يعتبر عدم معرفة الوقت المناسب للحديث عبث، كذلك عدم معرفة الوقت المناسب للصمت تصرف عبثي أيضًا، وفي هذا يقول الشيخ سعدي الشيرازي -رحمه الله-:

«أمران يُنبآن عن خفة العقل، التكلم في وقتٍ يناسبه الصمت، والصمت في وقت يتطلب الكلام».

وإذا كان الأمر على هذا، فالتحرّك باعتدالٍ وتأنٍ لتعين المحل المناسب للحديث والكلام المناسب، ويستر نفسه خارج ذلك الوقت بغطاء السكوت، ويشتغل بالتفكر.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

السكوت ذهب إن كان فضةً منك الكلام

الكاملون بالإنصات والصمت زانهم الكمال.

«إن كان لك حديث يساوي الفضة فليكن لك سكوت كالذهب، لأن الناس ما وصلوا إلى الكمال إلا بسكوتهم».

صور الفضائل

كان النبي ﷺ يحب السكوت والتفكر ويفضله، وقبيل نبوته بقليل حُببت إليه الخلوة والعزلة، وكان يذهب إلى غار حراء الذي يبعد عن مكة المكرمة مسافة ما يقارب «٥كم»، ويقضي هناك الليالي ذوات العدد، وكانت عبادته في خلواته هذه: عبارة عن التفكر، والاعتبار من ملكوت السموات والأرض، مثل جده إبراهيم عليه السلام، ومشاهدة الكعبة المشرفة. [١١٥٨] حيث كان غار حراء صفحة الإعداد لتهيئة انتقال القرآن الكريم «الذي سيكون الشعلة الأبدية للإنسانية» من المنزلة الإلهية بواسطة القلب المحمدي إلى الإدراك البشري.

١١٥٨ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، إدارة الطباعة المنيرية، بلا تاريخ، ١، ٦١، ٢٤، ١٢٨.

ورسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان في تلك الأيام في حالة تفكر بالكائنات وخالقها، بقي فيما بعد في حالة حزنٍ وتفكرٍ دائم، يطول سكوته ولا يتكلم إن لم تدعه الضرورة، وإذا بدأ بحديث لم يسكت حتى ينهيه، يجمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، ولا يتكلم إلا بلب الحديث. [١١٥٩]

❀

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها قصة تتعلق برقة قلب النبي ﷺ، وتفكره فتقول:

لما كان ليلة من الليالي قال النبي ﷺ لي:

«يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي».

قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرّك.فقام النبي ﷺ، فتطهّر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة.فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال النبي ﷺ:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»

ثم قرأ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١١٦٠] . [١١٦١]

❀

١١٥٩ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٢٢.

١١٦٠ آل عمران: ١٩٠ـ١٩١ .

١١٦١ ابن حبان، الصحيح، ٢، ٣٨٦/ ٦٢٠؛ الألوسي، روح المعاني، ٤، ١٥٧.

ويروي أبو ذر ﵁ حالة من أحوال تفكر النبي ﷺ وتعبده حتى طلوع الفجر فيقول:

«قام النبي ﷺ حتى إذا أصبح بآية، والآية :

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1162] »[1163]

يكرر فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام الآية الكريمة، وهو يتأمّلها ويفكر فيها، ويتذكّر الآخرة وحال أمته فيها، وبعيون باكية يعبد الله تعالى ويسأله.

❁

سيدنا لقمان ﵇ كان يحب أن يجلس وحيدًا للتفكر في نجوة عن الناس، وكان يكرر ذلك مرارًا، وعندما يُسأل ما لك تجلس وحدك؟ أليس من الأفضل أن تجالس الناس وتعظهم؟ كان يجيبهم بقوله:

«البقاء وحيدًا ولمدة أدعى للتفكر، والتفكر لمدة طويلة يسلك بالمرء سبيل الحق». [1164]

❁

شتم رجل ابن عباس، فقال ابن عباس ﵄:

«إنك لتشتمني وأنا في ثلاث خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح، ولعلي لا أقاضى إليه أبدا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين، فأفرح وما لي به سائمة»[1165]

١١٦٢ المائدة: ١١٨ .

١١٦٣ النسائي، الافتتاح، ٧٩/ ١٠١٠؛ أحمد، مسند، ٥/ ١٥٦.

١١٦٤ والمكان الذي اتخذه لقمان ﵇ لخلواته في زاوية مسجد تاريخي بمدينة طرسوس، ما يزال إلى يومنا هذا مقاماً تزوره الناس.

١١٦٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٢٨٤/ ١٥٥٢٨.

وكان ابن عباس ﵁ يعمل بموجب الآية الكريمة

﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [١١٦٦]

ويقول بلسان الحال لمخاطَبه:

«كيف لي وأنا في هذه الحالة أن أكسر خاطر مسلم!.» وهو في موقفه هذا يضرب مثلًا للسكوت كالكتاب أمام الجاهلين السفهاء.

❁

وفيما يرويه ثابت البناني، أن أنس بن مالك ﵁ أخبره، فقال:

«أتى علي رسول الله ﷺ، وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا قال أنس: والله لو حدثت به أحدا لحدثتك يا ثابت» [١١٦٧]

❁

وهذه الحادثة مثالٌ جميل تكشف عن أفق التفكر الذي كان عمر بن عبد العزيز يتمتع به، فعن محمد بن كعب القرظي قال:

«عهدت عمر بن عبد العزيز وهو عاملٌ علينا بالمدينة، وهو شاب غليظ البضعَة عظيم الجسم، ثم دخلت عليه في خلافته، وقد تغيّرت حاله، فجعلت أنظر إليه نظرًا، ما أكاد أصرف بصري عنه، فقال عمر بن عبد العزيز:

يا ابن كعب، إنك لتنظر إليّ نظرًا منكرًا، ما كنت تنظره إليّ من قبل، فما أعجبك؟

قلت: يا أمير المؤمنين ما حال لونَك، ونفى من شعرك.

١١٦٦ الفرقان: ٦٣.

١١٦٧ مسلم، فضائل الصحابة، ١٤٥/ ٢٤٨٢، ١٤٦/ ٢٤٨٢.

قال عمر بن عبد العزيز:

فكيف لو رأيتني بعد ثالثة في قبري؟ وقد سقطت حدقتاي على وجنتي، وسال منخراي، وفمي صديدًا ودودًا، كنت لي أشدّ نكرة!. دعك من ذلك، وأعد عليّ حديثًا كنت حدثتنيه عن ابن عباس» [١١٦٨]

❁

رأى سلطان أولياء الله الجنيد البغدادي رحمه الله يومًا جماعة من الناس في عجلة من أمرهم يتراكضون تجاه مكان معين، فقال لهم:

«أين تذهبون بعجلة ودهشة؟ فقالوا: قدِم عالم من المكان الفلاني، لديه ألف ألف دليل يبين وجود الله ووحدانيته! نذهب إليه للاستفادة من أدلته وبيانه، الحَقْ بنا أيضًا إن أردت! فقال لهم الجنيد رحمه الله:

إن في الكائنات ما لا يُعد من الشواهد الإلهية والأدلة لذوي الأفئدة والأبصار، إن للحق تعالى العديد من الشواهد فيه هو بالذات.

يا أيها الناس، ورغم كل ذلك من كانت عنده الشبهة والشك فليذهب إليه! وأما في نفوسنا نحن، فلا مكان حتى للمعات الريب والشك.».

وما أجمل ما يقوله سعد الشيرازي:

« إن كل ورقة من أوراق الشجر الخضراء ديوان لمعرفة الله تعالى لذوي الألباب، وأما الغافلون فلا تشكّل كل الأشجار عندهم ولا صفحة واحدة».

«إنِ استطاع الإنسان من خلال تفكره أن يتعلم قراءة كتاب الكائنات، فإن كل ذرة يراها من حوله تذكره بالحق، وتوصله إلى معرفة الله تعالى».

❁

١١٦٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٤، ٣٠٠.

ويبيِّن بروعةٍ حضرةُ مولانا جلال الدين الرومي، من خلال هذه القصة، جمال السكوت والتفكر فيقول:

«يَدخل صوفي بستانًا جميلًا، ليغرق في نشوة التفكر، ويذوب أمام روعة جمال ألوان البستان، ويغمض عينه ليغوص في بحر المراقبة والتفكر، فيراه رجل غافل يتجول هناك، فيحسب أن الصوفي غارق في نوم عميق، فيدهش لحاله هذه، ويغضب منه، ويقول للصوفي:

مالك تنام؟ افتح عينيك وشاهد أفنان الأعناب، والأشجار المزهرة، والأعشاب النابتة، وتأمل آثار رحمة الله.

فقال له الصوفي:

فلتعلم جيدًا أيها الغافل! أن النفوس من أكبر آثار الرحمة الإلهية، وما سواها ما هي إلا بمثابة الظل لهذا الأثر الكبير.

إن نهراً يجري بين الأشجار، وإنك ترى على وجه صفاء مائه شخوص تلك الأشجار... هذه الشخوص المعكوسة التي تُرى على وجه الماء ما هي إلا بستان من الخيال، أما البساتين والجنان الحقيقية، فهي في القلوب، لأن القلب محط نظر الرب، وإن شخوص تلك الأشجار الظريفة واللطيفة ما هي إلا من مياه وطينة العالم الدنيوي.

ولو لم يكن هذا العالم شخوصًا لشعاعت تلك النشوة في عالم النفوس، لما وصف الحق تعالى عالم الخيال هذه بأنها دار الغرور، حيث قال في القرآن الكريم:

﴿...**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [١١٦٩]

الغافلون والذين يحسبون الدنيا هي الجنة ويقولون «هذه هي الجنة» هؤلاء هم الذين يغترّون بمباهج المتاع هذه، الذين يبقون في بعدٍ عن البساتين والجنان

١١٦٩ آل عمران: ١٨٥ .

الحقيقية «يعني عن أولياء الله»، الذين يخادعون أنفسهم ويميلون نحو ذلك السراب. سيأتي يوم وتنتهي هذه الغفلة، وتتفتَّح الأبصار، وتظهر الحقيقة للعيان، ولكن هل ينفع ذلك المنظر عند لحظات الفراق؟ ما أسعد ذلك الذي يموت قبل وصول الموت، ذلك هو الذي شمّت روحُه عبير حقيقة تلك الجنان..».

❀

يروي الكاتب الغربي ته. تهورنتون «Th. Thornton» مشاهدات حقيقة السكوت والتفكر فيقول:

«يُعرف الأتراك بالسكينة والوقار، وحتى أفراحهم تجري في جو من السكون، وكانوا يعتبرون الأفراح والاحتفالات الصاخبة ضربًا من الجنون، وكانوا يتنسّمون عبيرًا مختلفًا من الصمت والسكينة، في وقار حركاتهم هيبة بينة، أوقات فراغهم من أعمالهم الجادة في حياتهم لا يضيعونها هنا وهناك، بل ينصرفون للراحة ويحافظون على حيويتهم، يبكرون في نومهم، ويستيقظون قبل طلوع الشمس».

وختامًا...إن السكوت والتفكر من أكثر الخصال التي نحتاجها، واكتساب القوة لإيماننا، وتحصيل الاستقامة لأعمالنا، ووصول الطمأنينة لحياتنا، كل ذلك مرتبط بمعايشتنا لهذه الصفات الجميلة، لأن التفكر الذي يوصل المرء إلى الإيمان الحقيقي يوجّهه نحو الغاية من الخلق.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

الكائنات في جمعها كتابُ لله من أعظم المباني
أيُّ حرف تفحصه يدلّك معناه على الله الباري.

«الكائنات من أولها إلى آخرها من أكبر كتب الله تعالى، وأيّ حرف تقرؤه من هذا الكتاب الكبير تجد معناه يدلك على الله دائمًا، وأي ذرة من ذرات الكون تأملت فيها توصلك إلى الله تعالى».

❀

الصمت الذي يكون في مكانه المناسب يكسب الإنسان الطمأنينة، ويمنحه الوقار، ويكسب قلبه التعمق الفكري، ويوصله إلى الفلاح، حيث قال النبي ﷺ:

«مَن صَمت نجا» ١١٧٠

ففوائد الصمت والتفكر لا تعد ولا تحصى، وعليه فلا مجال آخر في استيعاب الحقيقة، غير العودة إلى الصمت الذي يمتلك أوسع الإمكانات في هذا الخصوص، ونضع نقطة السطر عند حدوده اللامتناهية.

جـ ـ الغِيبة

الغيبة، وهي ذِكر العبد أخاه بما يكره في الغيب ومن وراء ظهره، سواءً كانت هذه الغيبة في بَدن الشّخص أو دينه أو خُلقه أو مَاله أو زوجه أو أولاده أو أيّ شيءٍ يتعلّق به، وتكون الغيبة باللسان، أو كتابةً باليد، أو الإشارة بالعُيون أو الرأس، سواءً كانت تلميحاً أو تصريحاً.

إن الله تعالى قد أحاط ابن آدم بشرف عظيم، لدرجة أنه عَدَّ ذكر عيوبه في غَيْبَته من كبائر الذنوب في الدين، وهذا الأمر يبين أن ربنا ـ الذي سبقت رحمتُه غضبَه ـ يُدْخِل حتى عبده المذنب والعاصي في حصن حمايته.

وإلى جانب هذا، فليس السبب الوحيد لمنع الغيبة هو محافظة الحق تعالى وتكفُّله لحقوق عبده حتى ولو كان عاصيًا، بل السبب الآخر لهذا المنع، هو ما تلعبه الغيبة من دور في تلاشي التصالح والسكون والأخوة التي يحتاجها المجتمع.

وفي الحقيقة فالغيبة إحدى الكبائر التي تفسد الأخوة الإسلامية، وتقلب نظام المجتمع رأسًا على عقب، وتقتل روح الوحدة والتكافل، وتنشر في القلوب الحقد والخصومة، ومع هذا، فكثير من الناس ـ وبجهالة منهم ـ يسوقون لأنفسهم مبررًا بأنهم لا يفتأتون على الرجل وإنما يقولون الحق، ولكنهم يتناسون أن الغيبة

١١٧٠ الترمذي، القيامة، ٥٠/ ٢٥٠١؛ الدارمي، الرقاق، ٥.

في حقيقتها هي ذكر عيب موجود في أخيك المسلم، أما ذكر ما لا أصل له ولا حقيقة، فهو بهتان وافتراء.

ويا لها من غفلة كبيرة أن يتعامى المسلم عن مثل هذه الحقيقة، وأن يستمرئ الخطأ والغي ويستمر في طريق هوى النفس وما تزينه له.

فعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال يومًا:

«أتدرون ما الغيبة؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

«ذكرك أخاك بما يكره»

قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:

«إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» [١١٧١]

الغيبة، موضوع حساسٌ وواسعٌ، فأن نتحدث على أخ لنا في خَلْقِه أو خُلُقِه أو ماله أو أولاده أو أقاربه أو ممتلكاته أو جلوسه أو قيامه أو طريقة كلامه أو بعض عاداته... إلخ، فنذكره بطريقة لا تعجبه، مشافهة أو كتابة، بالهمز أو باللمز، أو تقليده بحركات الأيدي والأعضاء، وحتى التعرض بالإيماء كل ذلك يعتبر من التصرفات الداخلة ضمن دائرة الغيبة.

وبمعنىً آخر فكل كلمة أو حركة ينقل بها مسلم لآخر نقيصة تعتبر من الغيبة.

وليس من شروط الغيبة وجود نية الإفساد فيها، بل حتى الحركات والمحادثات الفارغة غير المقصودة كافية لأن تغرق صاحبها في أوحال الغيبة.

الغيبة، عبارة عن خنجر مسموم في اللسان، وهذا الخنجر يقتل أحاسيس المحبة والشفقة والمرحمة والأخوة التي في القلوب، ويولد العداوة بين الناس، حيث قال الفضيل بن عياض:

«ما دخلت الغيبة مكانًا إلا خرجت منه الأخوة».

١١٧١ مسلم، البر، ٧٠/ ٢٥٨٩؛ أبو داوود: الأدب، ٤٠/ ٤٨٧٤.

والغيبة مظهرٌ من مظاهر غلبة النفس، والمشاعر الخاطئة في القلوب، والأخلاق السيئة، ومن الذنوب التي تعزز شهوات الإنسان، لأن المرء الذي يغتاب غيره، يفكر ويظن أنه بريء من الذنب الذي يعيب به ويصغره، ولكن يجب أن لا ينسى أنه:

«**بحسب امرئ من الشّرِّ أن يحقر أخاه المسلم...**» [١١٧٢]

وإضافة لذلك، فإن من الحقائق الثابتة بالتجربة، أن كل من أظهر الشماتة بالآخرين لعيب أو نقص فيهم، فإنه لا يمر وقت طويل حتى يرتكبوا ويقعوا في الأخطاء نفسها.

ولقد قال النبي ﷺ:

«**مَن عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله**» [١١٧٣]

وهذا يعني أن الغيبة إنما تقوم على أساس من الغرور والكبر، والعجب وتحقير عباد الله، والحسد، والحقد وغيرها من الصفات المذمومة. ويكفي ذلك ليظهر الوضع المؤلم والمزري الذي وصل إليه قلب المغتاب.

الغيبة ظاهرة تفسد العلاقة بين المؤمنين، وتفتح الباب أمام سوء الظن في بعضهم، حيث قال رسول الله ﷺ:

«**لا يُبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**» [١١٧٤]

والغيبة، معصية منكرة تنجِّس فم الإنسان وقلبه وروحه، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«يتوضأ أحدكم من الطعام الطيب، ولا يتوضأ من الكلمة الخبيثة يقولها لأخيه!» [١١٧٥]

١١٧٢ مسلم، البر، ٣٢/ ٢٥٦٤.

١١٧٣ الترمذي، القيامة، ٥٣/ ٢٥٠٥.

١١٧٤ أبو داوود: الأدب، ٢٨/ ٤٨٦٠.

١١٧٥ أحمد بن حنبل، الزهد، بيروت. ١٣٩٨، ١، ٥٩.

ويقول الحق تعالى محذراً وبشدة من الغيبة التي تعتبر من حقوق العبد المهمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [١١٧٦]

والحقّ تعالى -لينفر الناس من الغيبة وخطورتها- عبَّر بجملة قصيرة وبأسلوب حسي عن معاني كثيرة، وبيَّن ذم السعي في غيبة الناس بالمفهوم الإنساني، والعقلي، والوجداني والفطري والديني، وأنها إحدى الصفات المضرة، وصورّها بصورة تقشعر لها القلوب الأبدان.

وتصوير الغيبة في الآية الكريمة وكأنه «يأكل لحم أخيه ميتًا» يضع أمامنا بشكل جلي واضح، مدى عظم وفظاعة هذه الجريمة، فلحم الإنسان _حتى وهو حي _ قبيح ومحرم!. فكيف أن يأكل لحم أخيه الميت والمتعفن!، بل وبرغبة ومحبة، تصورٌ يكشف بجلاء الفساد العقلي والقلبي والأخلاقي.

ثم إن أعراض المسلمين وسمعتهم محترمة كحرمة النفس والمال، لا يحل التعرض والاعتداء عليها. [١١٧٧]

والتسبب في تلاشي سمعة المرء الذي يغتابه، يُعتبر جناية عظيمة تساوي الاعتداء على نفسه وماله والنيل من عرضه، ولهذا السبب لا تحل الغيبة في حق أحد ولا التحدث عليه في غيبته.

والحق تعالى يهدد الذين اعتادوا على بلاء الغيبة، فيقول:

١١٧٦ الحجرات: ١٢.

١١٧٧ انظر: البخاري، العلم، ٩، ٣٧، الحج، ١٣٢؛ مسلم، الحج، ١٤٥، القسامة، ٢٩-٣٠.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾ [١١٧٨]

فلا يهمه من أين اكتسب ماله وفيم أنفقه، بل ينشغل بعدِّه والاعتماد عليه.

وكما أن الله تعالى حرم الغيبة فقد حرّم كذلك الاستماع إلى الغيبة، لأن الإنصات للغيبة يعتبر اشتراكًا ضمنيًا في الغيبة، ويبين في الآية الكريمة اجتناب المؤمنين لهذه الصفات المذمومة، فيقول:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [١١٧٩]

لأن المؤمنين أناس يمتلكون الشعور بالمسؤولية، ويدركون أنهم سوف يُسألون عن كل نعمة وإمكانية أكرموا بها، وأنهم سوف يحاسبون على كل حركة يتحركونها، والحق ﷻ يحذر عباده فيقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [١١٨٠]

ففي أي مكان تسمع فيه الغيبة، أو الاعتداء على سمعة المغتَاب، يجب عندها أن تتدخل للدفاع عن سمعة المغتَاب ومنع الغيبة في حقّه، وقد وعد رسول الله ﷺ المؤمنين الذين يتصرفون على هذا النحو بجزاء عظيم، حيث قال:

«مَن حمى مؤمنا من منافق، أراه قال: بعث الله ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلما بشيء يريد شينه به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» [١١٨١]

١١٧٨ الهمزة: ١ ـ ٩

١١٧٩ المؤمنون: ٣

١١٨٠ الإسراء: ٣٦.

١١٨١ أبو داوود: الأدب، ٣٦/ ٤٨٨٣.

ومِن أجل أن يحذرنا سيدنا فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام من الغيبة يقول:

«يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» [١١٨٢]

ويبين رسول الله ﷺ العذاب الذي سيناله المغتاب من جراء الغيبة والقيل والقال، بقوله:

«من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم...» [١١٨٣]

المرء الذي يشتغل بالغيبة، فكما أنه يدخل في الإثم والمعصية، كذلك يُحرَم من رؤية عيوب نفسه، والاشتغال بإصلاحها، وهكذا يغرق في الأذى من كل جانب.

ومن جانب آخر، الناس في دهشة يوم القيامة، وبالرغم من حاجتهم الشديدة للحسنات، إلا أنهم سيدفعونها لأولئك الذين كانوا يغتابونهم في الدنيا ويشتغلون في أعراضهم بالقيل والقال، وعندما تفنى حسناتهم ولا تكفي لتلافي معاصيهم، فإنهم يتحملون أوزار الذين اغتابوهم ووقعوا في أعراضهم. [١١٨٤]

ومن أجل هذا يقول سيدنا الحسن البصري:

«إن كنت ولا بد مغتابًا فلتكن غيبتك لوالديك، حتى تذهب حسناتك في الآخرة لهم دون سواهم، وحتى تتحمل من آثامهم بسبب ذلك».

١١٨٢ أبو داوود، الأدب، ٣٥/ ٤٨٨٠؛ الترمذي، البر، ٨٥؛ ابن كثير، التفسير، ٤/ ٢٢٩.

١١٨٣ أبو داوود، الأدب، ٣٥/ ٤٨٨١.

١١٨٤ انظر: البخاري، المظالم، ١٠، الرقاق، ٤٨؛ مسلم، البر، ٥٩؛ الترمذي، القيامة، ٢؛ أحمد، ٢، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٧٢.

ومن جانبٍ آخر، يُظهر المؤمن فضيلة مثالية كبيرة، عندما لا يقع في غيبة أحد، كذلك عندما يتحمّل ويعفو كل ما يقال في حقه من كلام، [١١٨٥] لأن أبرز مظاهر الكمال، تكمن في تحمل الغيبة وقالة السوء والافتراء.

وفي هذا الخصوص يأتي في:

المرتبة الأولى، الردّ على الغيبة والافتراء بجواب الصمت.

المرتبة الثانية، عدم الرد على الغيبة والافتراء بأي جواب، بل الفرح على تحوّل آثامه من كاهله إلى كاهل الذي يغتابه، إلا أن هذه الخطوة فيها شيء من النقائص والعيوب.

المرتبة الثالثة، فبمقدار فرحه بالمغفرة والحسنات التي يحصل عليها، تذكّر الذي يغتابه ويفتري عليه فحزن على حاله التي سيكون عليها في الآخرة، وأما إذا لم يغلب حزنه هذا فرحَه، فهذا يعني أنه ما زال في كماله نقصان.

وهناك مواضع، التكلم فيها عن الناس لايعتبر من الغيبة وهي:

١ ـ الذي تعرض للظلم من قبل الحاكم أو السلطان، كقوله عند صاحب القدرة والمقام أو من يستطيع أن يساعده: أن فلانًا ظلمني كذا وكذا.

٢ ـ ذهاب المرء إلى دار الإفتاء أو القضاء وقوله: إن فلانًا ظلمني، فكيف الطريق لاسترداد حقي، ومنع ظلمه، وهذا جائز للحاجة، على أن يعرض المسألة في نطاق محدود لأنه أنسب وأليق للفضيلة.

٣ ـ لحماية المسلمين من الشرّ بنصحهم، وفعل الخير لأجلهم، وله أشكال مختلفة:

أ. جرح غير العدول من رواة الحديث، وهذا جائز بالإجماع، وحتى في بعض المواضع يكون واجبًا.

١١٨٥ انظر: أبو داود، الأدب، ٣٦/ ٤٨٨٧.

ب. تعريف الشخص الذي يريد أن يكون خاطبًا، أو شريكًا، أو جارًا، أو بائعًا، أو مشتريًا، أو الذي يريد ترك أمانة عند أحد، فعلينا أن نبين له الحقائق بوضوح.

ج. وهكذا بخصوص طالب العلم، خشية أن يتلقى العلم عن عالمٍ فاسقٍ مبتدعٍ، لذا يجب موعظة الطالب وتعريفه بحال شيخه.

د. الإخبار عن الموظف الذي لا يؤدي واجبه على النحو المطلوب إلى الجهات العليا.

٤ - التكلم بحق من اشتهر بالفسق والبدع، ولكن ضمن نطاق الأمر الذي اشتهر به، لأن التكلم خارج هذا النطاق إن لم يكن ثمة حاجة فحرامٌ.

٥ - إذا عرف الإنسان بصفات كالأحول، والأعرج، والأصم، والأعمى... وغيرها من الألقاب التي عُرِف بها، فهذه فقط للتعريف بالشخص إن لم يعرف بلقبٍ غيره، فإن عُرف بغيره يكون الابتعاد عن مثل هذه الألقاب واجب.

ولكن علينا -في مثل هذه الأمور التي يجوز لنا التصريح فيها بعيوب الناس- أن نكون محتاطين وحذرين حتى لا نعطي فرصة للنفس، ونفرق جيدًا بين النقد المحق وغير المحق لأنه يكون واجبًا، لأن النفس وبأعذار مختلفة قد توسوس للإنسان بجواز الغيبة لأنه على حق، وهذه من أخطر النقاط.

صور الفضائل

أخبرنا رسول الله ﷺ عن عاقبة المغتابين الحزينة في الآخرة فقال:

«لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم» [١١٨٦]

❀

١١٨٦ أبو داود، الأدب، ٣٦/ ٤٨٧٨.

وعن جابر بن عبد الله، قال:

كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين» [١١٨٧]

❀

ويروى أن سلمان الفارسي ﵁، كان مع رجلين من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي نائمًا، ولم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يجداه، فضربا الخِباء، فقالا: ما يريد سلمان ـ أو هذا العبد ـ شيئًا غير هذا؟! أن يجيء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يطلب لهما إدامًا. فانطلق فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لِتؤدِمَهم، إن كان عندك؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«ما يصنع أصحابك بالأُدْمِ؟ قد ائتدموا».

فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام، فانطلقا حتى أتيا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالا: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبنا طعامًا منذ نزلنا، قال:

«إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما»

قال: وبعد هذه الحادثة نزلت الآية الكريمة:

﴿...أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا....﴾ [١١٨٨]

١١٨٧ أحمد، مسند، ٣، ٣٥١/ ١٤٧٨٤.

١١٨٨ الحجرات: ١٢.

وفي رواية أخرى يقول النبي عليه الصلاة والسلام في تمام حديثه:

«إني لأرى لحمه بين ثناياكما»،

فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: **«مُرَاه فليستغفر لكما»** [1189]

❀

عَنْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال:

«لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»

قالت: وحكيت له إنسانا، فقال:

«ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا» [1190]

❀

اجتمعت أمهات المؤمنين حول الرسول ﷺ في مرضه الأخير، قالت صفية بنت حيّي رضي الله عنها: إني والله يا نبيّ الله لوددت أن الّذي بك بي، فغمزن أزواجه ببصرهن. فقال: **«مضمضن»**. فقلن: من أي شيء؟ فقال:

«من تغامزكنّ بها، والله إنها لصادقة» [1191]

❀

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه أنه قال:

عندما أتى النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيتِنا، قام فصلَّى بِنا، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشم؟ فقال بَعضهم: ذلك منَافق لا يحب الله ورسوله، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله»

١١٨٩ ابن كثير، تفسير، ٥-٢٣١

١١٩٠ أبو داوود، الأدب، ٣٥/ ٤٨٧٥ ؛ الترمذي، القيامة،٥١.

١١٩١ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٣٤٨؛ ابن سعد، الطبقات، ٨، ١٢٨.

فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحن، فو الله لا نرى وده ولا حديثه إلا إلى المنافقين، قال النبي ﷺ:

«**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**» [١١٩٢]

ويلفت النبي عليه الصلاة والسلام انتباه المؤمن إلى وجوب تجنب سوء الظن حتى لا يقع بسببه في الغيبة.

❀

عندما كان رسولنا الأكرم ﷺ جالسًا بين أصحابه في تبوك سألهم:

«**ما فعل كعب؟**»

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله عليه الصلاة والسلام. [١١٩٣]

وهكذا صوَّب النبي عليه الصلاة والسلام بسكوته تصرف معاذ ﷺ، ومنع بتقريره غيبة المؤمن.

روى عُبيد مولى رسولِ الله ﷺ:

«إن امرأتين صامتا وأن رجلا قال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين قد صامتا، وإنهما قد كادتا أن تموتا من العطش. فأعرض عنه أو سكت. ثم عاد – وأراه قال: بالهاجرة – قال: يا نبي الله، إنهما والله قد ماتتا، أو كادتا أن تموتا؟ قال: «**ادعهما**». قال: فجاءتا. قال: فجيء بقدح أو عس. فقال لإحداهما: «**قيئي**». فقاءت قيحا ودما وصديدا أو لحما، حتى ملأت نصف القدح. ثم قال للأخرى: «**قيئي**». فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط وغيره، حتى ملأت القدح. ثم قال:

١١٩٢ البخاري، الصلاة، ٤٥، ٤٦، الآذان، ٥،٤، ١٥٣، ١٥٤؛ مسلم، الإيمان، ٥٤، ٥٥.

١١٩٣ البخاري، المغازي، ٧٩ / ٤٤١٨؛ مسلم، التوبة، ٥٣/ ٢٧٦٩.

«إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا تأكلان لحوم الناس» [١١٩٤]

❀

وما أجمل الحكاية التي يحكيها حضرة مولانا عن غرابة الناس الذين لا يرون عيوب أنفسهم ونقصانها، ويتحدثون بعيوب غيرهم.

«دخل أربعة هنود مسلمون مسجدًا، وبدؤوا يركعون ويسجدون للعبادة، كل واحد منهم نوى وكبَّر وبدؤوا الصلاة مدركين نقصانهم وأخطاءهم متوسلين بقلبٍ مخلص، أثناء ذلك أتى مؤذِّن المسجد. فقال أحد المصلين الهنود ـ ونسي أنَّه في الصلاة ـ:

أيُّها المؤذِّن! هل أذَّنت للصلاة؟ أم ما زال هناك وقت؟.

الهندي الآخر الذي مازال في الصلاة قال:

اصمت يا أخي، تكلَّمت وبطُلَت صلاتك.

قال الهندي الثالث للثاني:

يا عم! لماذا تُعِيبه؟ أنت أيضًا تكلَّمت، انظر لنفسك، أعطي النصيحة لنفسك!.

الهندي الرابع: أحمَدُ الله أنَّني لم أقع في البئر مثلكم، أي أنَّني لم أُبطِل صلاتي مُتَحدِّثًا.

وهكذا بطلت صلاة الهنود الأربعة»

فاللَّذين يرون عيوب هذا وذاك ويتحدثون بها يَضِلُّون في سيرهم أكثر من أصحاب العيوب، يُجَرّون في الأخطاءِ والأغلاط، وما أسعد الروح التي تشغلها عيوبها عن عيوب غيرها.

عندما يرى أحدهم عيب الآخر يُصبح وكأنَّه اشتراه، لأنَّ نصف الإنسان، أي الجانب النفسي المادِّي منه ـ عالم العيوب والنقصان ـ في عالم الشهادة، وأما نصفه الآخر، أي الجانب الروحي والمعنوي، ففي عالم الغيب.

١١٩٤ أحمد، مسند، ٥، ٤٣١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ١٧١/ ٥٠٠٨.

وما دام نفسك مجبولة على الطباع النفسية والأخلاق الحيوانية فإنَّه فيك أمراض معنوية كثيرة، لذلك يجب عليك أن تعالج نفسك أولًا.

إن رؤية نواقصك ومعاتبة نفسك، هي الدواء، ولذا ليس هناك معرفة للإنسان أهم من معرفة نواقصه وعيوبه، وإذا لم يكُن فيك العيب الذي رأيتَهُ في أحد المؤمنين، فلا تطمئن إلى ذلك، ولا تثِق في نفسِك!.

فلربما تفعل العيب نفسه، وثم ينتشر منك إلى الخلق.

❁

يروي سفيان بن حسين:

في إحدى المرات اغتبتُ شخصًا وأنا جالس بجانب إياس، فسألني: هل ذهبتَ هذه السنة غازيًا إلى ديار الروم. فقلت: لا، قال: فإذًا تخلَّص الروم والكفَرَة من شرِّك، ولكن لم ينج هذا الأخ المسلم من شرِّك.

❁

يحدثنا سعد الشيرازي فيقول:

«في طفولتي كنت مولعًا جدًا بالزهد وعبادة الليل، وفي أحد الأيام كنت جالسًا بجانب والدي، لم تنم عيني طوال الليل، ولم أترك القرآن الكريم من يدي، ولكن كان بعض الأشخاص من حولنا نائمين. فقلت لوالدي: لا يرفع واحد من هؤلاء رأسه، ويصلِّي ركعتي التهجُّد، نائِمون وكأنَّهم أموات!. فقطَّب والدي حاجبيه، وردَّ على كلامي قائلًا: ولدي سعدي! ليتك نائمٌ مثلهم، خيرٌ لك من أن تتحدَّث بحق الغير. فهؤلاء الَّذين تستصغرهم، حتَّى ولو كانوا الآن في حرمانٍ من الرحمة الإلهية فإن الملائكة الكرام الكاتبين لم تكتب لهم شيئًا سيئًا، ولكن كُتِبَتٍ في صحيفة أعمالك إهانة وغيبة إخوتك في الدين»

❁

كان رجل مبتلىً ببلاء الغيبة، ولم يكن يسلم من شر غيبته حتى أحد الصالحين الذي كان في جواره، ولهذا السبب لم يكن أحد من الناس يحب صاحب الغيبة هذا.

إلا أن هذا الرجل الصالح ذا القلب الكبير، كان كلما قابل ذلك المغتاب قابله بوجه مشرق مبتسم، وقال ملاطفًا له:

«تعالَ يا أخي الحبيب!» حتى ساق هذا التصرف الجميل صاحب الغيبة إلى الإنصاف، وجعله يتخذ قراره وهو يقول:

«أنا كنت أغتاب هذا الشخص هنا وهناك، ولكنَّهُ كان دائِمًا يقابل ذلك بلطف ومعاملة حسنة، فوالله لن أغتابه بعد اليوم أبدًا»

ولم يعد يغتاب هذا الرجل الصالح.

ولكن لم يعد يلقى تلك اللفتة الجميلة التي كان يتلقاها من هذا الرجل الصالح.

فسأل ـ مُستغرِبًا ـ عن سبب ذلك:

يا سيدي، لم تعد تُظهر لي لطفك كالسَّابق، ولم تبقَ محبَّتُك كما كانت، ما السبب في ذلك؟

قال الرجل الصالح مبتسمًا وقد اغتنم فرصةً جميلةً لتحذير المبتلين بمرض الغيبة أمثاله:

«قديمًا كانت لدينا شراكة تجارية، ولكن الآن انتهت تلك الشراكة وذهبت اللَّطافة».

عندها قال: عن أيِّ شراكة تتحدث؟ لم تكن بيننا أية شراكة؟.

فقال الوليُّ الكبير موضحًا:

«كنتَ تتكلم عليَّ هنا وهناك، وأنا ما كنت أقابل غيبتَك بالغيبة نفسها، بل أفضِّل الصبر على ذلك، ومقابل صبري كانت ذنوبي تكتب في صحيفة أعمالك، وحسناتك تكتب في صحيفة أعمالي، هذه هي الشراكة التي كانت بيننا، ولكنَّك الآن لم تعُد تغتابني، وهكذا انتهت شراكتنا».

فأطرق الرجل المغتاب قليلًا وهو يفكر ثم سأل:

«أحقًّا هذا هو حال المغتاب؟».

تابع الرجل المبارك حديثه بهذا المثال: يقول حضرة الإمام الشعراني:

«إن كنت ولا بد مغتابًا أحدًا، لاغتبتُ والدي، لأنَّ المغتاب أولًا يهبُ حسناته للشخص الذي اغتابه، ويتحمل لنفسهِ ثانيًا».

وهذه الكلمات جعلت الرجل المغتاب يغرق في تفكرٍ عميق، وأخذ يصحو من غفلته، وعاهد ألا يغتاب بعد ذلك اليوم أحدًا.

❀

وختامًا...

الغيبة هي حق مهم من حقوق العبد، وكبيرة تجرُ صاحبها للإفلاس في الآخرة، فالإنسان أثناء حديثه، ودون أن يدري يقع في هاوية الغيبة، وفي كثير من الأحيان يُذنِب دون أن يشعر، ويسلي نفسه بأنَّه ما يقول إلا الحقيقة.

وهذا هو الجانب الأخطر للغيبة.

فالغيبة التي يراها الناس الغافلون متعة وتسلية محببة، هي في الحقيقة، العلَّة المعنوية التي تلوِّثُ حياته الدنيويَّة والأُخرويَّة، وتقضي أيضًا على شعور المحبة والاحترام والأخوة بين الناس في الدنيا إلى جانب معاني الوحدة والتكامل والتعاون، وأما في الآخرة، فتتسبب الغيبة في جعل الكثير من الحسنات والخيرات هباءً منثورًا، وتحمّل صاحب الغيبة أوزارًا ثقيلة إلى أوزاره.

وعلى الرغم من ذلك، فكثير من الناس للأسف يقع في هذا الإثم بسهولة، حتَّى إنهم يعتادون عليه، ولهذا السبب يتوجب علينا أن نكون متيقِّظين حساسين لدرجةٍ كبيرة بخصوص الغيبة.

حفظنا الحق ﷻ من شر هذا اللّسان المسموم... آمين

١٢ ـ النظافة واللباقة

الإسلام هو دين النظافة واللباقة واللطف والجمال، فالنظافة جمال البدن، واللباقة واللطف جمال الخلق والعمل.

ولما يقول الحق تعالى:

﴿...إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ [١١٩٥]

فإنه سبحانه وتعالى يحث المؤمنين على الطهارة الماديّة والمعنوية، ويقول النبي ﷺ:

«**إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة...**» [١١٩٦]

وجاء الإسلام بنظامٍ مبنيٍّ على أساس الطهارة والنظافة واللباقة، ومن المعلوم، أنَّ النظافة من الإيمان.

وجلُّ كُتُبِنا في الحديث والفقه تكاد تبدأ أبوابها كلها بأبحاث الطهارة.

وتُعتَبر نظافة البدن والأماكن من أساسيات أركان ديننا، ولذا بعض العبادات لا تجوز ولا تُقبَل من دونهما.

ففي هذا المجال مثلًا، أُعطِيَت أهمية كبيرة لآداب دخول الخلاء وقضاء الحاجة، فقد أُمِر المسلمون بالحذر من وصول رشاش النجاسة لملابسهم، وبالعمل على الاستبراء من النجاسة جيدًا، حيث قال رسول الله ﷺ وهو يحث أمته على التصرف بدقة وحذر شديد في هذا الخصوص:

«**أكثَرُ عذاب القبرِ من البَولِ**» [١١٩٧]

أمر الإسلام المسلمين أيضًا أن يعتنوا بنظافة البدن واللباس والمسكن، والمحيط الذي يعيشون فيه، ولم يكتف الإسلام بطهارة المظهر فحسب بل أكد على الاعتناء

١١٩٥ البقرة: ٢٢٢.

١١٩٦ الترمذي، الأدب، ٤١/ ٢٧٩٩.

١١٩٧ ابن ماجة، الطهارة، ٢٦/ ٣٤٨.

بطهارة القلوب والنفوس، ورعاية اللباقة في تصرفاتها على أبلغ نحو، ولهذا السبب تعتبر الطهارة الشرط الأساسي في قبول العبادات كلها.

وبمعى آخر كسى الإسلامُ الطهارةَ –التي تُعتبر واجبة على كل إنسان– بهوية العبادة، فضمن بذلك أن يقوم المرء بالطهارة وهو في نشوة من العبادة.

وثمة الكثير من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة التي تحثُّ المسلمين على الوضوء والغسل، لأن الوضوء والغسل وسيلة نظافة تامة سواء كان من الناحية المعنوية أو من الناحية الطبِّية، حتى خارج أوقات العبادة، فقد حثت الأحاديث النبوية المسلم أن يبقى طاهرًا، ولتعويد الناس على النظافة من الجانب الماديَّ والمعنوي وفي كل وقت، قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

«... **لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» [١١٩٨]

وإحدى الخصائص الهامَّة التي وقف عندها رسول الله ﷺ طهارة الفم، ولأجل هذا أوصى رسول الله ﷺ المسلم في جميع الأوقات وخاصة قبيل الوضوء باستعمال السِواك، تقول السيدة عائشة ﵂:

«كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ويتوضأ، ويصلي...» [١١٩٩]

وكذلك عندما كانت أم المؤمنين عائشة ﵂ تسأل: بأي شيء كان يبدأ النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك» [١٢٠٠]

فالمسلم يغسل يديه قبل جلوسه على مائدة الطعام وبعده، ويطرح بالطهارة البركة على طعامه. [١٢٠١]

١١٩٨ الموطأ، الطهارة، ٦.

١١٩٩ مسلم، المسافرين، ١٣٩.

١٢٠٠ مسلم، الطهارة، ٤٣-٤٤/ ٢٥٣.

١٢٠١ انظر: الترمذي، الأطعمة، ٣٩/ ١٨٤٦.

ومن جانب آخر، فإن من عادات الفطرة، تقليم الأظافر، وقصُّ الشارب، والأخذ من اللحية، وتنظيف الأسنان، كل ذلك جزء من قواعد الطهارة والأدب التي علمها رسول الله ﷺ. حيث قال رسول الله ﷺ:

«**خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب**» [١٢٠٢]

ويجب على المسلم أن يحافظ على نظافة منزله والمكان الَّذي يعيشُ فيه، لأنَّ المكان الذي يعيش فيه المسلم، مكان تؤدى فيه العبادة لله تعالى، ويجب ألَّا تُلوَّث تلك الأماكن بالروائح الكريهة، والأوساخ، والفواحش التي تنفر الملائكة، لأنَّ الملائكة تفضل القدوم على الأماكن الطاهرة والطيِّبة، وتتأذَّى من الأوساخ والروائح القذرة.

أمَّا الدنس والرائحة المؤذية فتدعو الشيطان ومردة الجن.

وكما ينبغي أن يكون بيت المسلم نظيفًا، كذلك محيطُه لابد أن يتمتع بالنظافة والطهارة، فلا تجد هناك مناظر سيئة تُزعج الناس، فلا تجد عند المسلم عادة البصاق على الأرض، بل على العكس من ذلك فإنَّه يعُدُّ إماطة الأذى عن الطريق من موجبات الإيمان.

والخلاصة...

المسلم إنسان نظيف ونزيهٌ بكل أحواله، ويدرك أنَّ النظافة المادِّية تؤثِر على النظافة المعنوية، فقد أخبرنا علماؤنا، أنَّ النظافة المادِّية لها تأثير كبير على النَّظافة الروحية، وسمو القلب إلى مرتبة الإحسان، وتوجيه الإنسان للأعمال الصالحة والخير والحسنات، أما بالنسبة للَّباقة، فهي أيضًا شعار من شعائر المسلمين، ومن أي جهة نظرت تجد الأسوة الحسنة سيدنا رسول الله ﷺ، أكمل مثال لنا في اللَّباقة والجمال.

١٢٠٢ البخاري، اللباس، ٦٣- ٦٤؛ مسلم، الفطرة، ٤٩/ ٢٥٧.

فيجب على المسلمين في أي مكان أو زمان أن لا يُهمِلوا قواعد اللّباقة التي لقيت حسن القبول ووجوب الاتباع من قبل الناس، هذه القواعد ـ والتي تبدوا أنَّها عبارة عن قواعد شكلية ـ غايتها أن تُضيف نظامًا جميلًا على حياة المسلم، فتسري قواعد اللباقة أولًا على شخصية الفرد نفسه، ومنه تنعكس على المجتمع، وبذلك يتم إخراج حياة منتظمة مُرفَّهة. ويمكن أن نرتب بعض هذه القواعد كالآتي:

يجب على المسلم الاستئذان قبل دخوله على غيره، حيث يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١٢٠٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١٢٠٤]

وإذا قابل المسلم أخاه حياه بتحية حسنة وسلّم عليه، ورد التحية بأحسن منها، أو على أقل تقدير رد عليها بمثلها، وإضافة لذلك فمن الآداب الراقية عند الدخول إلى مكان ما ليس فيه أحد غيره، أن يسلم المرء على نفسه.[١٢٠٥]

١٢٠٣ النور: ٢٧ ـ ٢٨.

١٢٠٤ النور: ٥٨ ـ ٥٩.

١٢٠٥ انظر: النور، ٦١؛ النساء، ٨٦.

يطلب الحق سبحانه وتعالى من عباده رعاية اللباقة، في تحركاتهم ومحادثاتهم، ومنع المسلمين التَّحدّث بصوتٍ مرتفع، والصياح والصخب، مشبهًا إياه بشيءٍ قبيح منفر، حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [١٢٠٦]

فلا تسرع كثيرًا ولا تبطئ كثيرًا، بل حافظ على السكونة والوقار.

وعلى المسلم أن يتحدَّث بصوتٍ خفيض، وخاصةً حين ينادي الكبار فليس من اللباقة أن يناديهم بصوتٍ مُرتفع من بعيد، حيث تقول الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [١٢٠٧]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٢٠٨]

وعليه أن يتحدث بحديث لطيف وجميل، ويتكلم دائمًا بما فيه الخير، [١٢٠٩] وأن يكون حديثه مبنيًا على الصلاح، والاستقامة والصدق، والتقوى. [١٢١٠]

وعندما يكون في جماعة عليه أن يكون منتظمًا، فإذا قيل له: «تفسحْ» تفسحَ في المجلس، وعندما يطلب منه القيام ويقال له: «قمْ» يقومُ، [١٢١١]، وعندما يفارق أي جماعة عليه أن يستأذن قبل مغادرته. [١٢١٢]

١٢٠٦ لقمان: ١٩

١٢٠٧ الحجرات: ٢.

١٢٠٨ الحجرات: ٤.

١٢٠٩ انظر: الإسراء، ٥٣.

١٢١٠ انظر: المجادلة، ٩.

١٢١١ انظر: المجادلة، ١١.

١٢١٢ انظر: النور، ٦٢.

كما يجب على المسلم أن يراعي اللباقة حتى عندما يمازح أحبابه، لأن القسوة وعدم التقيد الذي يظَنُّ أنَّه مظهر من مظاهر المحبة والإخلاص، والمزاح الثقيل، يمكن أن يجرح ـ ودون أن نشعر ـ ويكسر مشاعر الأحباب.

وإضافة لكل ذلك، يجب أن تُبنى حياة المسلم على أساس من الإخلاص واللباقة البعيدة كل البعد عن الرياء.

صور الفضائل

كان سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، ذا قلب رقيق، بخصوص النظافة واللباقة، فقد رأى يومًا رجلًا يبصق على الأرض، فاحمرَّت ملامح وجهه، وقام من مجلسه الذي كان فيه، وأسرع الصحابة وغطُّوا البصاق بالرمل، حتى استطاع رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يتابع طريقه.

وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ، الذي يأمر بترتيب الملابس، والاهتمام بالمظهر، لا يحبذ الأشعث الأغبر.

وكما كان رسول الله ﷺ يولي أهمية بالغة جدًا لنظافة اللباس، كان أيضًا يبدي الاهتمام ذاته إلى نظام وترتيب الملابس، حيث كان يرجِّل شعره ولحيته، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، حتَّى أنَّه كان يصبغ شعره المبارك الذي وصل حذاء شحمة أذنيه بالحنَّاء بين الحين والآخر، ويدهنه بالزَّيت.[١٢١٣]

ورُوِي أنَّ سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام كان يكتحل قبل النوم.[١٢١٤]

وأما الرائحة الطيبة التي كانت واحدة من الأشياء الثلاثة التي حببت للنبي ﷺ، فقد كانت لها أهمية مغايرة في حياته ﷺ، حيث كان له عليه الصلاة والسلام رائحة

١٢١٣ انظر: الترمذي، الشمائل، ص. ١٨– ٢٧.

١٢١٤ وورد أن النبي ﷺ كان يوصي الصحابة بالكحل المصنوع من صخر الإثمد. وبين أنه يجلوا البصر ويقوي شعر الأهداب. (الترمذي، اللباس، ٢٣/ ١٧٥٧).

تؤنس الملائكة والناس به. وقد ذكر أنس ﷺ، أنَّه كانت لرسول الله ﷺ سكة طيب، يتطيب منها على الدوام.[1215]

وإلى جانب ذلك، لم يحبذ ﷺ قضاء الأوقات الطويلة في الترفه والاعتناء بالمظهر والملبس، وترجيل الشعر، بل نوَّه إلى أنَّ البساطة في اللباس والمظهر والنَّظافة، ما هي إلا من موجبات ودواعي الإيمان.[1216]

حيث كانت الأدوات التي كان يستخدمها في هذا الأمر توصف بالبساطة وعدم التكلف فيها.

وكل ما كان من أدوات النظافة والعناية التي تعود للنبي ﷺ ما هي إلا عبارة عن: مرآة، ومشط، ومقص، وسواك، ومكحلة، وسكة طيب، كان سيد العالمين ﷺ يحمل معه أثناء أسفاره جملة من هذه الأشياء.[1217]

❀

هذه الحادثة مثالٌ رائع للنظافة واللباقة والمحبة، والتي مما يجب أن تكون سجية في كل مؤمن. عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال:

«دعاني رسول الله ﷺ بماء، فأتيت خباء، فإذا فيه امرأة أعرابية، قال: فقلت: إن هذا رسول الله ﷺ، وهو يريد ماء يتوضأ، فهل عندك من ماء؟ قالت: بأبي وأمي رسول الله ﷺ، فوالله ما تظل السماء، ولا تقل الأرض روحا أحب إلي من روحه، ولا أعز، ولكن هذه القربة مسك ميتة، ولا أحب أنجس به رسول الله ﷺ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال:

«ارجع إليها، فإن كانت دبغتها، فهي طهورها»

١٢١٥ انظر: أبو داوود، الترجل، ٢/ ٤١٦٢.

١٢١٦ انظر: أبو داوود، الترجل، ١.

١٢١٧ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٨٤.

قال: فرجعت إليها، فذكرت ذلك لها، فقالت: أي والله، لقد دبغتها، فأتيته بماء منها وعليه يومئذ جبة شامية، وعليه خفان، وخمار، قال: فأدخل يديه من تحت الجبة، قال: من ضيق كميها، قال: فتوضأ، فمسح على الخمار، والخفين. [١٢١٨]

❀

عن عطاء بن يسار رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد. فدخل رجل ثائر الرأس واللحية. فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن اخرج. كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته. ففعل الرجل، ثم رجع. فقال رسول الله ﷺ:

«أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟» [١٢١٩]

وعن جابر رضي الله عنه، قال:

أتانا رسول الله ﷺ زائرا في منزلنا، فرأى رجلا شعثا، فقال:

«أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه» ،

ورأى رجلا عليه ثياب وسخة، فقال:

«أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه» [١٢٢٠]

ومرة أخرى عندما أتى النبي ﷺ رجل في ثوب دون، قال له النبي ﷺ:

«ألك مال؟»

قال: نعم، قال:

«من أي المال؟»

قال: قد آتاني الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرقيق، قال:

«فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك، وكرامته» [١٢٢١]

١٢١٨ أحمد، مسند، ٤، ٢٥٤/ ١٨٢٢٥.

١٢١٩ الموطأ، الشعر، ٧؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٥، ٢٢٥.

١٢٢٠ أبو داوود، اللباس، ١٤/ ٤٠٦٢؛ النسائي، الزينة، ٦٠.

١٢٢١ أبو داوود، اللباس، ١٤/ ٤٠٦٣؛ النسائي، الزينة، ٥٤؛ أحمد، مسند، ٤، ١٣٧.

لأن الله ﷻ يحب أن يرى آثار النعمة التي أنعمها على عبده، حيث يقول النبي ﷺ:

«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [١٢٢٢]

❁

وكان النبي ﷺ أرحم النَّاس في تاريخ البشرية، وألطفَهُم روحًا، وأرقَّهم قلبًا.

حتى في صباه لم يدخل مع أحد في مناقشة أو مجادلة تخل بآداب اللباقة.

فقد روي أنه صاح رجُلٌ فظٌ مخاطبًا النبي ﷺ يومًا بغلظةٍ عدة مرَّات، وكان ينادي: «يا محمد...، يا محمد.»، لكنَّ النبي ﷺ كان يردُّ في كل مرة بأسلوب لطيف قائلًا: «ما شأنك! ما حاجتك!»

ولم يترك لطافته رغم غلاظة الرجل. [١٢٢٣]

❁

كان النبي ﷺ لتواضعه ولباقته، يخدم ويُكرِم ضيوفه بنفسه. فعن أبي قتادة ﵁، قال:

قدم وفد النجاشي على النبي ﷺ، فقام يخدمهم، فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، قال:

«إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، فإني أحب أن أكافئهم» [١٢٢٤]

❁

وعن عائشة ﵂، قالت:

«كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه، وما كان من أذى» [١٢٢٥]

❁

١٢٢٢ انظر: الترمذي، الأدب ٥٤/ ٢٨١٩؛ أحمد، مسند، ٢، ٣١١.

١٢٢٣ انظر: مسلم،النذر،٨؛أبوداوود،الإيمان،٢١/ ٣٣١٦؛الترمذي،الزهد،٥٠؛أحمد،مسند،٤/ ٢٣٥.

١٢٢٤ البيهقي، شعب الإيمان ٦، ٥١٨، ٧، ٤٣٦/ ٨٧٠٤.

١٢٢٥ أبو داوود، الطهارة، ١٨/ ٣٣.

وكان سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يحافظ قدر المستطاع على ارتداء البياض من الثياب ويوصي بذلك، فيقول:

«**البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم**» [١٢٢٦]

وبهذا يؤكِّد رسول الله ﷺ وينوه على أن الشرط الأول الذي يبحث في الثياب، هو النظافة.

❀

وكان النبي عليه الصلاة والسلام، لا يرغب بوجود الروائح الكريهة على ملابسه، حيث إنه خلع مرةً بردته لما عرق فيها وأحسَّ برائحةِ الصوف.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي تروي لنا الحادثة تبين بأن سيدنا محمد ﷺ كان تعجبه الريح الطيبة، خيث قالت:

«صنعت لرسول الله ﷺ بردة سوداء، فلبسها، فلما عرق فيها وجد ريح الصوف، فقذفها، وكان تعجبه الريح الطيبة» [١٢٢٧]

❀

والصحابة الكرام كانوا يقومون بأعمالهم بأنفسهم، وكانوا يشتغلون بأعمالهم يوم الجمعة إلى حين صلاة الجمعة، وعندما يقترب وقت الصلاة يَذَرون العمل ويتَّجِهون إلى المسجد، لذلك كانت تفوح من أجسادهم رائحة غير مرغوب بها، وبناء على ذلك قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**اغتسلوا يوم الجمعة...**» [١٢٢٨]

وبعد ذلك حث على هذا في أحاديثه الشريفة المختلفة.

❀

١٢٢٦ الترمذي، الأدب، ٤٦/ ٢٨١٠.

١٢٢٧ أبو داوود، اللباس، ١٩/ ٤٠٧٤.

١٢٢٨ البخاري، الجمعة، ١٦، البيوع، ١٥؛ مسلم، الجمعة، ٦ / ٨٤٧.

وما أجمل هذا المثال الدال على لطافة النبي عليه الصلاة والسلام مع النساء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

كان النبي عليه الصلاة والسلام في سفر، وكان معه غلام له أسود يقال له أنجشة، وكان جيد الحداء، وكان أنجشة يحدو بأزواج النبي ﷺ، فلما حدا أعنقت الإبل [١٢٢٩]، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**ويحك يا أنجشة رويدك بالقوارير**» [١٢٣٠]

❁

ولشدة لطف ولباقة سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام، فقد ذكرت في الكتب السماوية السابقة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه سأل كعب الأحبار رضي الله عنه [١٢٣١]:

كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟

فقال كعب رضي الله عنه:

«نجده محمد بن عبد الله يولد بمكة، ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام وليس بفحاش، ولا صخاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل سراء، ويكبرون الله على كل نجد، يوضئون أطرافهم، ويأتزرون في أوساطهم، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، دويهم في مساجدهم كدوي النحل، يستمع مناديهم في جو السماء» [١٢٣٢]

❁

١٢٢٩ الإبل مفتونة بالصوت الجميل والتغني، وكان رعاة الإبل يحدون لإبلهم حتى يسرعن في المسير. ويقال لهذا الأمر «الحداء».

١٢٣٠ البخاري، الأدب، ٩٥؛ أحمد، مسند، ٣، ١١٧.

١٢٣١ كعب الأحبار رضي الله عنه: أحد التابعين يشتهر بروايته عن بني إسرائيل، أسلم في خلافة أبو بكر رضي الله عنه، وتوفي في سنة ٣٢ هجرية.

١٢٣٢ الدارمي، المقدمة، ٢/ ٨.

ومن إحدى موجبات لطافة الإسلام التعامل بحساسية عالية حتى لا يصدر منه أذيّة للناس. يقول معاذ بن أنس رضي الله عنه:

غزوت مع نبي الله ﷺ غزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق، فبعث نبي الله ﷺ مناديا ينادي في الناس:

«أن من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له»[١٢٣٣]

والقصد من تضييق المجاهدين للمنازل، هو محاولة بعض الجنود النزول في مواضع مختلفة دون انتظام، وإشغال بعض الأماكن من غير حاجة، مما يُلحق الأذى بالناس الآخرين، وأما المقصود من تضييق الطرقات، فهو وضع حاجياتهم في الطرق التي يمر منها المارة، مما يتسبب في ضيق الطريق وتعثر المرور.

فقد بين الرسول الأكرم ﷺ وأعلن أنَّ أذيّة عباد الله معصية كبيرة، ولكي يبتعد المجاهدون عن هذا التصرف حذرهم بأسلوب بليغ بقوله:

«أنَّهم إن فعلوا ذلك لن ينالوا ثواب الجهاد»

وكذلك قال رسول الله ﷺ:

«من تخطى المسلمين يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم» [١٢٣٤]

وهذه في الحقيقة، حركة غير لطيفة، إلاَّ إذا كان الناس يتركون الصفوف الأمامية فارغة ويملؤن الصفوف الخلفية، فلا يرد مثل هذا التهديد عندئذ.

وكذا أوصى رسولُ الله ﷺ عمرَ رضي الله عنه يومًا أن يتصرف بلطف أثناء طوافه وقال:

«يا عمر إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر، فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله فهلل وكبر» [١٢٣٥]

❀

١٢٣٣ أبو داوود، الجهاد، ٨٨/ ٢٦٢٩؛ أحمد، مسند، ٣، ٤٤١.

١٢٣٤ أحمد، مسند، ٣، ٤٣٧.

١٢٣٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣/ ٢٤١ ؛ أحمد، مسند، ١، ٢٨/ ١٩٠.

يروي أبو واصل فيقول:

«لقيت أبا أيوب الأنصاري، فصافحني، فرأى في أظفاري طولًا، فقال: قال رسول الله ﷺ:

«يسأل أحدكم عن خبر السماء، وهو يدع أظفاره كأظافر الطير يجتمع فيها الجنابة والخبث والتفث» [١٢٣٦]

فيجب على المسلم الانتباه على النظافة التي تتطلبها الفطرة، مثل تقليم الأظفار، والختان، والحلق. وإنَّ تطويل الأظفار ـ التي يعتبرونها موضة العصر في هذه الأيام ـ ما هي إلاَّ قباحة وضلالة، لا تتلائم مع طبيعة الإنسان المتحضر.

❁

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم. جمع رجل عليه ثيابه» [١٢٣٧] أي البسوا الجميل، ولكن شريطة عدم الإسراف.

❁

ويجب على المسلم مراعاة نظافة المساجد، فكم تحمل من عبر هذه الحادثة التي تظهر نظافة ولطافة الإمام البخاري، حيث يروي محمد بن منصور فيقول:

«كنا في مجلس أبي عبد الله البخاري، فرفع إنسان من لحيته قذاة، وطرحها إلى الأرض. قال: فرأيت محمد بن إسماعيل، ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس، رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض، فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد، رأيته أخرجها وطرحها على الأرض» [١٢٣٨]

❁

١٢٣٦ أحمد، مسند، ٥، ٤٢٧/ ٢٣٥٤٢.

١٢٣٧ الموطأ، اللباس، ٣/ ٣٣٧٥.

١٢٣٨ ابن حجر، هدي الساري، ٢، ١٩٦.

وكما أن للطافة واللباقة أهمية في كل المجالات، فكذلك لها أهمية أشد في باب الإنفاق والصدقة.

سيدي الوالد رحمه الله تعالى وأعمامي كانوا يُظهرون حساسيَّة عالية عندما يُنفقون، فكانوا يكتبون بلباقة على الظرف الذي تُوَضع فيه الزكاة والصدقة: «نشكركُم على القبول»

وأيضًا، عندما يُقَدِّمون الهديَّة للفقراء، كانوا يُغلِّفونها بأجمل شكل، ويُقدِّمونها، بلطف وبتطييب خاطر، ودون تجريح أو منٍّ، حتى يفرح الفقير الذي يأخذ، ويرتاح المتصدِّق الذي يتصدق.

وكذلك الفقير عندما يأخُذُها فهو يعلم أنها من الله تعالى، والمتصدِّق حسن يتصدَّق فهو يفكر بأنَّه قام بإيداع الأمانة لأهلها.

❀

والعثمانيون الذين كانوا يكتبون الحديث الشريف: «**الطُهور شطر الإيمان**»[١٢٣٩] بخطٍ حسن فائق الجمال على جدران بيوتهم ومساجدهم، كانوا قبل ذلك قد أقاموها في قلوبهم، واتَّخذوها شعارًا لأنفسهم ودستورًا لحياتهم.

وقد قضَّى رئيس المعماريين الكبير سنان حتى آخر لحظات حياته في خدمة ورفاه وسعادة المؤمنين والاهتمام بنظافتهم وتيسير أمورهم، وذلك من خلال القيام بأعمال الإعمار المختلفة في كل جنبات الوطن، من سُبُل المياه، وأماكن الوضوء والحمَّامات وغيرها.

هم تحققوا من النظافة في الجانب الماديِّ والمعنوي، لأنَّ النظافة وأمور الدِّين متداخلة مع بعضها البعض.

ومن أجل نظافة متكاملة على أكمل وجه تم إعمار الكثير من الحمَّامات على أطراف الطرق حتى تتصل بالقرى.

١٢٣٩ مسلم، الطهارة، ١.

وينبغي لبيوت المسلمين أيضًا أن تكون نظيفة ومرتبة، فلا يجوز الدخول إليها بالحذاء مطلقًا، فكل مكان ينطق بالنظافة لدرجة تصلح الصلاة في أي زاوية منها، ليس هناك شيء اسمه تربية الحيوانات في البيوت، حتى لا يسمح بإدخال الطيور إلى البيوت.

والنتيجة الطبيعية لهذه الخصال، هي ظهور العثمانيين عامة كبنية متراصة وأناس أقوياء، وبحسب اعتراف الغرب أنفسهم، فقد كنت تجد في مدينة غربيّة واحدة محرومة من النظافة، من المرضى المعذّرين والأشخاص القذرين ما فاق عدده أضعاف أمثالهم في كل أنحاء الدولة العثمانيَّة.

ويكفي نسيان إعمار بيوت الخلاء ـ أماكن قضاء الحاجة ـ في قصر لوفر «Louvre» الشهير دليلًا كافيًا على بيان حال أوروبا في مسألة النظافة في تلك الفترة من الزمن، ومن بين الروايات العديدة التي تروى عن تلك الفترة تشير استخدام الشمسيات في فرنسا للاحتماء من البول والقمامات التي تُرمَى من الشرفات على الشوارع.

ونسوق فيما يلي بعض مشاهدات المؤلفين الغربيين بخصوص النظافة واللَّطافة في المجتمع العثماني:

يقول م.دي ثيفينوت «M. de Thevenot»:

«الأتراك يعيشون بصحة جيِّدة وقليلًا ما يمرضون، فليس عندهم أمراض الكلية، والكثير من الأمراض الخطيرة التي تنتشر في بلادنا، حتى إنهم لا يعرفون أسماء تلك الأمراض.

وأظنُّ أنَّ في مقدمة أسباب هذه الصحة المتكاملة لدى الأتراك، اغتسالهم بشكل مستمر وبين الحين والآخر، واعتدالهم في الطعام والشراب، فهم يأكلون قليلًا، حتى طعامهم الذي يتناولونه ليس بالتنوع الذي هو عند النصارى».

ويقول ريجاوت «Ricaut»:

«غسل الأيدي قبل وبعد الطعام عادة منتشرة في وسط الأتراك، إلى درجة وصلت حكم العموم الغالب الذي لا يمكن التخلي عنه».

ويقول ج.ب.تافيرنير «J. B. Tavernier»:

«لابد أن تغسل اليدين والفم عند العثمانيين بمجرد القيام عن مائدة الطعام، وفورًا، ويضعون أمامكم، الماء الساخن والصابون، وفي قصور أصحاب الرتب العالية، يُضيفون ماء الورد أو ماء آخر ذا رائحة طيبة. وتبللون طرف مناديلكم بهذا الماء ذي الرائحة الطيبة».

ويقول ج.ر دوردينت «J. R. Durdent»:

«الأتراك مُكلَّفون بواجب ديني، في اليوم الواحد من أداء الصلاة في خمسة أوقات، والوضوء لمرات متعددة، وهم بهذا الشكل يؤمنون بأنَّهم يتطهَّرون من الناحية الروحية أيضًا».

ويقول د.أ. براير «Dr. A. Brayer de»:

«العثماني، وفي أي وقت كان، لا يهمل النظافة والاغتسال أبدًا، حتى لو انهارت قوَّته، يقوم فيغسل ويُنظِّف بمساعدة أطفاله وأولاده أو بواسطة زوجته، وحتى لما يتوفى لا توضَع جنازته في التابوت إلاَّ بعد أن تُغسل حسب ما تقتضيه أحكام الشريعة.أما الأوربيون، فعندما يمرضون أو يفقدون قوَّتهم فإنهم ينسون عمومًا هموم النظافة، وبعد وفاتهم يُكفَّنون بأسوأ قماشٍ يوجد في المنزل ويُوضَعون في التابوت، ولا يخطر في خاطر أهله أن يمروا على جسده ولو بأبسط أشكال التنظيف.

لقد وصل العثمانيون في الأدب واللطف والتربية لدرجة من العلو لا يمكن أن يضاهيها شعب من الشعوب. فآدابهم في المعاشرة تتضمن من التكامل والرقة ما لا مثيل له، هؤلاء الناس كأنهم بمثابة قانون روحي ووجداني، يقابل كل الناس بنفس الرعاية، بغض النظر عن الفروق المذهبية والقومية.

وإضافة إلى ذلك، فعندما نقول «العثماني»، نقصد به الشخص الذي هو رمز اللَّطافة والأدب لدرجة تغبطه الناس عليها، وإن لهذه الصفات انعكاسات ومظاهر لا تُعد ولا تُحصى.

والعثمانيون الذين يربطهم بالإسلام رباط الروح والدم يتخذون مِن مناسبة أيام الجُمَع والأعياد وسيلة للتصالح والتقارب والصفح ومغفرة ما يجري بينهم من الأخطَاء والهفوات، ولم يغذّوا الحقد في مسائلهم الشخصية، بل سلكوا مسلك وسبيل العفو الذي يعتبر مظهرًا من التراحم فيما بينهم».

وكذلك يقول فيللاموت «Villamont» من المؤلفين الغربيين:

«أيُّ واحد لديه عدو يجب عليه أن يذهب ويطلب العفو منه، والآخر، وقبل المصافحة وتقبيل اليد، يجبر أولًا على بيان وإعلان مسامحته باللفظ المؤكد، وإلاَّ من المستحيل أن تكون أعيادهم مباركة.والأشخاص الذين لا يراعون هذا الأساس يعاملون معاملة أشبه بمعاملة الفاسقين».

إنَّ الأدب واللطافة التي كان يمتلكها أجدادنا لها من المظاهر والمشاهد ما لا يحصَى.

فتجد في الممالك العثمانية المعجونة بالإسلام قلبًا وقالبًا:

أ- الاستحقار ومجاوزة الحد ومشاجرات الشوارع غير موجودة كما كانت موجودة في الشعوب الأوربية، بل كانت الشوارع في غاية الهدوء والأمان، بل حتى لم يكن هناك أحد يبصق في أرض الشارع.

ب- كان المتكلم لا يُقاطَع، والمتكلم يكون في قمة الوقار والسكينة، كلامه يكون ظريفًا ومتوازنًا.

ولم يتمالك كارلوس ماك فارلانا «Charles MacFarlane» نفسه فقال بعدما رأى كل هذا:

«ما أروع وأجمل كلام هذا الشعب! لدرجة أنَّهم يمكن أن يكونوا قُدوةً للشعوب المتمدنة».

ج- يعرضون في الجلوس والقيام والسير مظهرًا استثنائيًا للّطافة والوقار.

د ـ احترام المسنين، في غاية السمو والطهر من النواقص.

هـ ـ احترام النساء من عموم تقاليدهم، حتى النساء اللاتي لسن من العائلة يُعتَبرنَ في مقام الأم والخالة والعمة والأخت في المعاملة.

ومن جملة اعترافات المؤلفين الأوربيين، وإثباتاتهم المتعلقة بهذه وأمثالها من الخصائص التي تعرضت للنقد والتمحيص من قبلهم، منها كالآتي:

يقول جوير «Guer»:

«توجد عند الأتراك أصول معاشرة متكاملة، وهم يتقيدون بقواعد كل تلك الأصول، فعندما يقابلون بعضهم يخفضون رؤوسهم ويرفعون اليد اليمنى تجاه صدورهم، وعلى هذا النحو يكون سلامهم.

يتوجهون بالنداء إلى مخاطبيهم بصورة فيها تبجيلهم، وبمعنى آخر، كُلًا حسب رتبته ومقامه، ينادونهم بأوصاف مثل الأخ والباشا والسلطان».

تقول ليدي كرافين «Lady Craven»:

«يجب أن تكون معاملة الأتراك للنساء أسوة لكل الشعوب، فمثلاً إذا صدر حكم الموت في حق رجل يصادرون كل ما يملك بعد تدقيق الأوراق، إلا أن زوجته تلقى المعاملة اللطيفة، ويتركون لها حُليِّها».

يقول أ.براير «A. Brayer»:

«تفحصوا بدقة عالية التجمعات القليلة، كم هي نظيفة مظاهرهم وملابسهم؟ ترى الأصالة العظيمة في أطوارهم وأحوالهم، وترى اللطف والسكينة الحسنة في ملامح وجوههم، وتجد التناسق والحلاوة في لسانهم الذي يتحدثون به».

ويقول أدموندو آميجيس «Edmondo .Amicis»:

«حسب فحصي وتمحيصي الدقيق، تبيَّن لي أن شعب اسطنبول التركي، هو ألطف وأظرف شعوب المجتمع الأوربي. لا خطورة، أو إهانة للغريب الأجنبي

في شوارع هذه المدينة الكبيرة. حتى في أوقات الصلاة تستطيع التنزّه في المساجد، والغريب السائح سيجد الرعاية والاحترام الكبير أكثر من المواطن التركي عند زيارته الكنائس، لن تجد بين الخلق ـ وفي أي وقت ـ من ينظر إليك نظرة المتجسس الزائدة، فكيف بالنظرة المحتقِرة!. أصوات القهقهة نادرة جدًا، وأندر من ذلك أن تجد السفهاء المتشاجرين في الشوارع، ولا تسمع صوت امرأة تأتيك من بين الأبواب والنوافذ أو المحلات».

❁

ثم إن تقديم الطعام لذوي الشهداء عند العثمانيين، في أطباقٍ مغطاة، وفي ظلمة الليل، مثال للوفاء واللباقة التي تحفظ لهم شرفهم وعزَّتهم، وهو من تعاليم الأدب الاستثنائي، للجيل القادم.

وبالشكل ذاته «أحجار الصدقة» التي أنشأت لتلافي احتياجات المحتاجين بلا كلل أو ملل، تمثل أثرًا لا مثيل له من آثار اللباقة واللطافة.

❁

ونختم بهذه القصة التي تعد إحدى الأمثلة الرائعة، المتعلقة باللباقة والظرافة واللطافة:

شكّل العلماء والشعراء في إيران يومًا منظمة تحت اسم «مجلس الصامتين»، يتألف من ثلاثين عضوًا، ولا يزيدون عليه أبدًا.

وكان الشرط الأول للانضمام لهذا المجلس: التفكير الكثير، وكتابة القليل، والكلام الأقل.

وأراد أحد العلماء والشعراء المشهورين في ذاك الزمان الانضمام لهذا المجلس، وعندما سمع يومًا بوفاة أحد أعضاء مجلس الصامتين، ذهب إلى مكان إقامة العلماء حتى يحل مكان العضو المتوفى، لم يتكلم مع البواب الذي قام باستقباله، وإنما كتب اسمه على ورقة، وبعث بها إلى المجلس الذي كان في حال اجتماع.

حزن الأعضاء نوعًا ما عندما رأوا الطلب المقدم من هذا العالِم، فقد كان مناسبًا لذلك المقام، ولكنَّهم قد أتوا قبيل طلبه بعالِم غيره مكان ذلك الذَي توفي، ولم يكن هناك مكان لعضوٍ جديد، فرئيس المجلس وبعد أن ملأ الكأس تمامًا بالماء بعثه للعالِمِ الذي ينتظر عند الباب.

العالِم الذكي، فهِم المراد من الأمر، وقال في نفسه: لو أضيفت قطرة أخرى لسال الماء من الكأس.

وبناء عليه، قطع العالِم ورقة من إحدى الورود الموجودة بجانبه، ووضعها بشكل لطيف فوق الماء، فلم يسل الماء من الكأس، ثم أرسل الكأس إلى الداخل، أعجب من كان في المجلس من هذا الرد اللطيف والرائع.

وكم هو مختلف حال الناس الظرفاء واللطفاء!.

فما كان من الأعضاء إلا أن اتَّخذوا قرارًا بضم هذا العالِم القيِّم بين صفوفهم، فأضاف الرئيس اسم العضو الجديد إلى اللائحة، ووضع صِفرًا في نهاية الرقم ثلاثين، فأصبح «٣٠٠»، وبه وبفضل هذا العالِم ذي الحال اللطيف، تبين أنَّ قيمة المجلس ازدادت عشرة أضعاف.

وعندما وُضِعَت اللائحة الجديدة أمام العضو الجديد، أدرك الموضوع، لكنه لم يعجبه إظهار الرقم أكبر، ممّا كان عليه، ثم مسح الصفر عن اليمين، ووضعه إلى يسار الرقم، أي كتبَ ٠٣٠، وبهذا اعتبر العالِم المتواضع نفسه صفرًا على اليسار، فقد كان يريد أن يؤكِّد بذلك، أنَّه لا يريد تخريب بُنية المجلس، وبعد أن رأى أعضاء المجلس ذلك ازداد إعجابهم واحترامهم له مرة أخرى ورحَّبوا به في المجلس الصامت بتعظيمٍ كبير.[١٢٤٠]

❁

١٢٤٠ انظر: رضا آقدمر «Rıza Akdemir»، باقة ورد «Bir Demet Çiçek»، ص: ٧٦– ٧٨.

وختامًا...

فالنظافة واللباقة، هما شعاران من شعائر الإسلام.

فالنظافة، ضرورية من الناحية الماديَّة والمعنوية والصحية والدينية، ولا يمكن أداء العبادات كلها على النحو الأكمل من دون الطهارة، والمسلم كما هو طاهر في حال حياته، كذلك هو طاهر بعد وفاته، وعندما يتوفَّى تُغسل جنازته، ويكفَّن بكفن أبيض طاهر، ويودع كأمانة في تربة نظيفة طاهرة، ويدعون له من أجل بعثه يوم القيامة من ذلك المكان بالطهارة ذاتها.

فاللطافة واللباقة زينة المسلم وجماله، تحفظه عن كثير من الأخطاء والمهالك، وتكون وسيلة لنيل الاحترام المحبب من الناس، وفي النهاية، يتوّج حياته المعنوية من خلال نيل رضى الله تعالى، حيث لا يعاش الإسلام إلا من خلال أجمل اللطافة واللباقة...

تم بحمد الله

فهرس

القسم الثاني/ ٢٩١